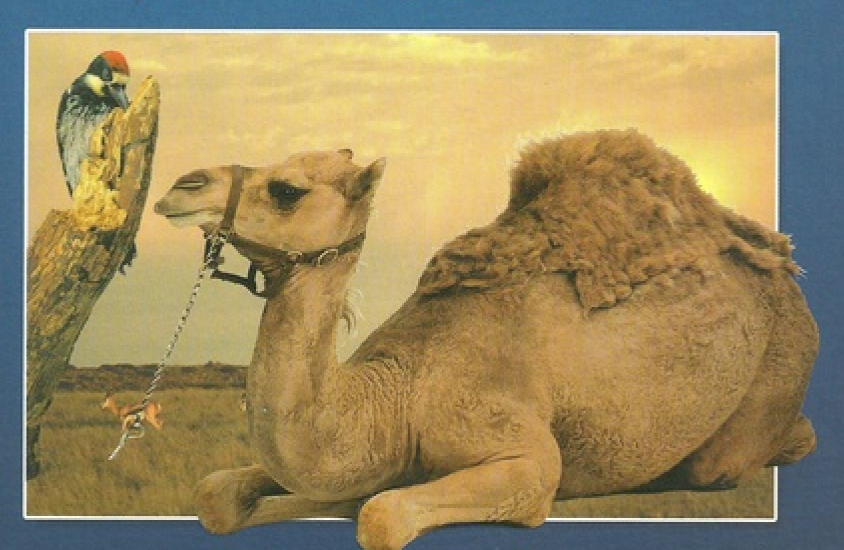
الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي



في القرآن الكريم



دار المعرفة
بيروت – لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار
الحيوان في القرآن الكريم
دار المعرفة
بيروت – لبنان

الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي



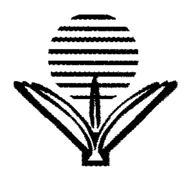


دار المعرفة
بيروت - لبنان

ISBN 9953-85-016-X

الطبعة الأولى

1427 هـ 2006 م

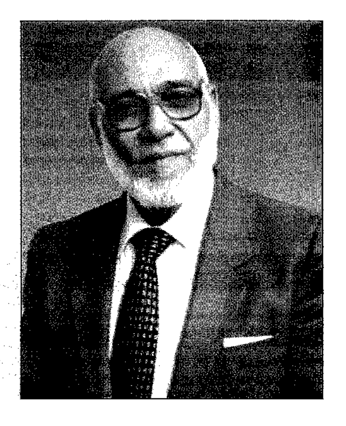


DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

جسر المطار - شارع البرجاوي - ص.ب: ٧٨٧٦ - هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٥٨٨٣٠ - فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت - لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858830, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
http//:www. marefah.com
E.mail: info@marefah.com

بسم الله الرحمن الرحيم



الأستاذ الدكتور زغلول راغب محمد النجار



- ❖ أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية.
- ❖ رئيس لجنة الإعجاز العلمي بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ج.م.ع.
- ❖ زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.

ولد الدكتور زغلول النجار في قرية مشال، مركز بسيون بمحافظة الغربيّة في 17 نوفمبر عام 1933م.

- ❖ تعلم القرآن الكريم منذ الصغر على يد والده.
- ❖ تخرج من جامعة القاهرة عام 1955 حاصلاً على درجة بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف، فمنحته الجامعة جائزة بركة للجيولوجيا وكان أول الحاصلين عليها.
- ❖ حصل على درجة الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز/ بريطانيا عام 1963م ومنحته الجامعة درجة زمالتها فيما بعد الدكتوراه، كما حصل على منحة روبرتسون للأبحاث.
- ❖ عمل بشركة صحاري للبترول، المركز القومي للبحوث بالقاهرة، ومناجم الفوسفات بوادي النيل، ومناجم الذهب بالبرامية ـ صحراء مصر الشرقية، وبمشروع الفحم بشبه جزيرة سيناء، وبكل من جامعات عين الشمس، الملك سعود، ويلز، الكويت، قطر، والملك فهد للبترول والمعادن وعمل أستاذاً بجامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجيليس بالولايات المتحدة الأميركية، كما عمل مديراً لمعهد ماركفيلد للدراسات العليا ببريطانيا.

- ❖ حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر البترول العربي 1970م، وعلى درجة الأستاذية عام 1972م.
- ❖ له أكثر من 150 بحثاً منشوراً وأكثر من خمسة وعشرين كتاباً.
- ❖ أشرف على أكثر من خمس وأربعين رسالة علمية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات العربية والأجنبية.
- ❖ عضو في العديد من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية، وعضو هيئة تحرير عدد من الدوريات العلمية.
- ❖ زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.
- ❖ شارك في العديد من المؤتمرات العربية والإسلامية الدولية.
- ❖ عضو هيئة تحكيم جائزة اليابان الدولية للعلوم.
- ❖ مستشار في شؤون التعليم العالي في المعهد العربي للتنمية.
- ❖ عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية وعضو مجلس إدارتها.
- ❖ عضو مؤسس للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة برابطة العالم الإسلامية- مكة المكرمة وعضو مجلس إدارتها.
- ❖ عضو مجلس أمناء الهيئة الإسلامية للإعلام - لندن - بريطانيا.
- ❖ له مقال أسبوعي بجريدة الأهرام المصرية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في صفحة كاملة صدر منه حتى الآن أكثر من مائتي مقال.

الفهرس

مقدمة 9

آيات الحيوان في القرآن الكريم: 35

1 ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ... ﴾ «الأنعام: 38» 39

2 ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ «النحل: 18» 53

3 ـ ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾ «النحل: 68» 75

4 ـ ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ... ﴾ «النحل: 69» 93

5 ـ ﴿... يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ... ﴾ «النحل: 69» 103

6 ـ ﴿... فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ «النحل: 69» 113

7 ـ ﴿... وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ «العنكبوت: 41» 129

8 ـ ﴿... وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ «الحج: 73» 145

9 ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ... ﴾ «البقرة: 26» 163

10 ـ ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴾ «القمر: 7» 181

11 ـ ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾ «القارعة: 4» 197

12 ـ ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ... ﴾ «سبإ: 14» 211

13 ـ ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ ... ﴾ «البقرة: 57» 227

14 ـ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ... ﴾ «الأعراف: 133» 243

15 ـ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ «الغاشية: 17» 261

16 ـ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ *﴾ «ص: 31 ـ 33» 279

17 ـ ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ *﴾ «لقمان: 19» 297

18 ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ *﴾ «النحل: 66» 313

19 ـ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ «النور: 45» 223

20 ـ ﴿... فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث... *﴾ «الأعراف: 176» 343

21 ـ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *﴾ «النحل: 115» 355

22 ـ ﴿... وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ... *﴾ «المائدة: 3» 367

23 ـ ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ *﴾ «الصافات: 142» 385

24 ـ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ... *﴾ «المائدة: 31» 401

25 ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ *﴾ «الملك: 19» 413

26 ـ ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ *﴾ «النمل: 20» 429

27 ـ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ... *﴾ «الإسراء: 44» 435

28 ـ ﴿... وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ... *﴾ «الإسراء: 44» 451

29 ـ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ *﴾ «المائدة: 60» 465

خاتمة 477

ثبت بالمراجع 493

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين سيدنا محمد النبي والرسول الأمين الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فأسأل الله ـ تعالى ـ أن يجزيه خير ما جازى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن أداء رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة من الجنة، وأن يجزي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين خير ما جازى به عباده الصالحين إن ربي لا يخلف الميعاد.

وبعد: ففي أي حديث عن القرآن الكريم لا بد لنا من التأكيد على أنه الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظ بين أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ محفوظاً حفظاً كاملاً بحفظ الله وتحقيقاً لوعده الذي قطعه على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ «سورة الحجر، الآية: 9». وكان المصطفى ﷺ يجهد نفسه الشريفة في متابعة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى لا يتفلّت منه حرف واحد فنزل الوحي الكريم مؤكداً له أن الله ـ تعالى ـ قد تعهد بجمع القران الكريم كما أنزل، وبنفس ترتيب المصحف الشريف، وحفظه في صدر رسول الله ﷺ وعلى لسانه، وفي صدور الحفاظ من بعده وعلى ألسنتهم إلى يوم الدين، وأنه ـ تبارك وتعالى ـ قد تعهّد ببيان معانيه لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ ولمن يشاء من صالحي عباده إلى قيام الساعة فقال ربنا ـ تبارك اسمه ـ موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝﴾ «سورة القيامة، الآيات: 16 ـ 19».

وهذه العهود من رب العالمين لم تقطع لرسالة سابقة أبداً، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد أوكل حِفْظ تلك الرسالات السابقة لأتباعها فضيَّعوها. وقد أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد بعث لهداية البشرية مائة وعشرين ألف نبي، وأنه ـ تعالى ـ تخير من بين هذا العدد الكبير من الأنبياء ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، ولا يوجد بين أيدي الناس اليوم من وحي السماء سوى القرآن الكريم وأحاديث الرسول الخاتم ﷺ.

فقد روى الإمام أحمد عن أبي ذرٍ الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال ﷺ: «**آدم**»، قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: «**نعم نبي مُكلَّم**»؛ قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «**ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً**». وفي رواية لأبي أمامة قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدد الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً**» (رواه الإمام أحمد في مسنده).

وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى:

- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞﴾ «سورة النحل، الآية: 39».

وقال ـ عز من قائل ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۞﴾

«سورة فاطر، الآية: 24».

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ

- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ... ۞﴾ «سورة آل عمران، الآية: 144».

وقال ـ تعالى ـ:

- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞﴾

«سورة المائدة، الآية: 75».

وقال ـ عز من قائل:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۞﴾ «سورة البقرة، الآية: 87».

وقد أنزلت آيات القرآن الكريم منجَّمة على مدى ثلاث وعشرين سنة، وكتبت كلها عقب الوحي بكل منها مباشرة، ثم رتبت تلك الآيات في مائة وأربع عشرة سورة، وسميت السور ورتبت بتوقيف من الله ـ تعالى ـ الذي تعهد بحفظ آخر كتبه المنزّلة فحفظه حفظاً كاملاً، بنفس اللغة التي أنزل بها ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ﷻ بهذا الحفظ إلى ما شاء الله.

وعندما التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى كان القرآن الكريم كله مكتوباً على رقائق الجلد، وصحاف النخل، وقطع الفخار، وصالح الأحجار في عشرات النسخ التي كتبها كتّاب الوحي، ونقلها القادرون على الكتابة من صحابة رسول الله ﷺ وكان محفوظاً في صدور الألوف منهم كما أنزل: سورة سورة، وآية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً وحرفاً، وحركة حركة.

ثم تمّ جمع القرآن الكريم من مصادره الأصلية في عهد الخليفة الأولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه بأيدي كتّاب الوحي أنفسهم وتأكيد حفاظه المعاصرين.

وفي زمن الخليفة الثالث ذي النورين عثمان بن عفان ـ رضي الله تعالى عنه ـ عرف العرب الورق فجمع كتاب الوحي ليكتبوا سبعة نسخ من القرآن المجموع على عهد رسول الله ﷺ ثم على عهد أبي بكر الصديق، وأرسلت نسخة من هذه النسخ مع عدد من الحفاظ إلى كل مصر من أمصار بلاد المسلمين، فنسخ عنها كتاب المصحف الشريف الذي حوته صدور مئات الآلاف من الحفاظ المؤمنين المتقنين حتى وصلنا متواتراً كما أنزل، بلا أدنى شبهة، وكما قرأه المصطفى ﷺ. ولا تزال بعض النسخ من مصحف عثمان محفوظة في كل من طشقند، وإستنبول، والمدينة المنورة، والقاهرة، ولا تختلف في حرف واحد عن بلايين المصاحف التي خطت أو طبعت على مرّ العصور، أو سجلت على مختلف صور التسجيل.

والسبب في هذا الحفظ الدقيق للقرآن الكريم بعهد من الله ـ تعالى ـ هو قضاؤه العادل الذي قرّر فيه أنه لا يعذّب قوماً دون إنذار مسبق فقال ـ عزّ من قائل ـ:

- ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 15».

وقال ـ وهو أحكم القائلين ـ:

- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ «سورة الإسراء، الآية: 15».

وقال ـ وقوله الحق ـ:

- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
«سورة المائدة، الآية: 19».

ولما كان سيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين لقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

- ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ «سورة الأحزاب، الآية: 40».

أي: أنه ليس من بعده ﷺ من نبي ولا من رسول، فلو لم يحفظ القرآن الكريم هذا الحفظ الإلهي المحكم الدقيق ما بقيت لله حجة على عباده، ولو حاسبهم على أعمالهم ما تحقق الوعد الإلهي الذي قال فيه ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فحفظ القرآن الكريم على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية بنفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ، والتعهد الإلٰهي بحفظه إلى ما شاء الله ـ تعالى ـ يمثل قيام البشير والنذير بين أهل الأرض أجمعين إلى قيام الساعة، ويحقق العدل الإلٰهي الذي فرضه الحق ـ تبارك وتعالى ـ على ذاته العلية بألا يعذّب عبداً من عباده دون إنذار كامل، ولذلك قال ـ تبارك وتعالى ـ بعد اكتمال تنزل القرآن الكريم:

- ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ...﴾
«سورة المائدة، الآية: 3»

وقال ـ عز من قائل ـ في وصف القرآن الكريم:

- ﴿... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ *﴾

«سورة فصلت، الآيتان: 41 ـ 42».

وقال ـ تعالى ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *﴾

«سورة النحل، الآيتان: 43 ـ 44».

وقال له أيضاً:

- ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

«سورة النحل، الآية 89».

ومن أسباب أخذ الله سبحانه وتعالى العهد على ذاته العلية بحفظ القرآن الكريم أيضاً هو ضياع جميع الرسالات السابقة التي ترك حفظها لأصحابها فضيعوها، وتعرض ما بقي من ذكريات عند بعضها للتحريف والتبديل والتغيير إلى يومنا الراهن. فبعد ضياع الألواح التي أنزلت عليها كل رسالة من تلك الرسالات السابقة، وبعد ذهاب الصالحين الذين اتبعوا هديها، بدأ الانحراف عن تعاليمها شيئاً فشيئاً وانتقل كل دين من هذه الأديان إلى سلسلة من القصص الذي ظل ينقل شفاهاً من الأجداد للأحفاد، ومن الآباء للأبناء، لعدة قرون كقصص لا علاقة له بوحي السماء، يضاف إليه وينتقص منه، ويبتدع فيه، ويزور ويحرف، ويبدل ويغير حتى حان وقت تدوينه فدونته أيدٍ غير أيدي الرسل الذين تلقوه، في لغات غير لغات الوحي الذي نزلت به، فزادته هذه الأيدي تشويهاً فوق تشويه، وتحريفاً بعد تحريف. وحينما قررت المجامع المعنية لملمة هذا التراث تم ذلك بعد الرسل الذين تلقوا الوحي بقرون طويلة، وتمّت لملمة هذا التراث الذي كتب بأقلام متعددة، في أزمنة متباعدة، وفي أماكن متفرقة فأتى خليطاً عجيباً يمثل التراث الشعبي لعشرات بل مئات الشعوب التي عاشت منذ بعثة أبينا آدم إلى ما بعد عيسى ـ على نبينا وعليهما من الله السلام ـ. وجاء القرآن الكريم مؤكداً تحريف أهل الكتاب لكتبهم، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ *

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ *﴾ «سورة آل عمران، الآيات: 65 ـ 71».

ويقول عز من قائل :

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ * يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ *﴾

«سورة المائدة، الآيات: 15 ـ 19».

وانطلاقاً من الفارق الكبير بين كلام الله المحفوظ بحفظه، وبين كلام البشر المزور على الله ـ تعالى ـ امتدح ربنا ـ تبارك وتعالى ـ القرآن الكريم في العديد من آياته وذلك بقوله ـ تعالى ـ:

- ﴿* الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ *﴾ «سورة البقرة، الآيتان: 1 ـ 2».

وقال مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

- ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا *﴾ «سورة النساء، الآية 166».

وقال مخاطباً إياه ﷺ أيضاً:

- ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞﴾ «سورة الأنعام، الآية:93».

وقال ـ سبحانه ـ مقرراً هذه الحقيقة:

- ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞﴾ «سورة يونس، الآية: 37».

وقال ـ وقوله الحق ـ:

- ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۞﴾ «سورة الرعد، الآية: 1».

وقال ـ عز من قائل ـ:

- ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۞﴾ «سورة إبراهيم، الآية: 1».

وقال ـ تعالى ـ:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۞﴾ «سورة الكهف، الآية: 1».

وقال ـ سبحانه ـ:

- ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۞ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۞﴾ «سورة طه، الآيات: 1 ـ 4».

وقال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

- ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۞﴾ «سورة الفرقان، الآية: 1».

وقال ـ تبارك اسمه ـ:

- ﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞﴾ «سورة السجدة، الآيتان: 1 ـ 2».

وقال ـ تعالى ـ:

- ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ *﴾ «سورة الزمر، الآيتان: 1 ـ 2».

وقال ـ عز من قائل ـ:

- ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *﴾ «سورة فصلت، الآيات: 1 ـ 3».

وأقسم به ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وهو الغني عن القسم فقال:

- ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ *﴾ «سورة ق، الآية: 1».

وقال ـ وقوله الحق ـ:

- ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ *﴾ «سورة البروج، الآيتان: 21 ـ 22».

ولما كان القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ـ في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية ـ فلا بد وأن يكون مغايراً لكلام البشر: في نظمه، ومحتواه، وإشاراته العلمية والتاريخية، والتربوية والنفسية وفي ضوابطه الإدارية والاقتصادية، وفي إنبائاته المستقبلية، وفي صموده أمام كل محاولات التحريف، وفي تحدّيه للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بقرآن مثله، أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائماً دون أن يتقدم عاقل فيقول: لقد استطعت أن أكتب سورة من مثل سور القرآن الكريم. وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا *﴾ «سورة الإسراء، الآية: 88».

وقال ـ سبحانه ـ:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ *﴾ «سورة هود، الآيتان: 13 ـ 14».

وقال ـ تعالى ـ:

- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ «سورة البقرة، الآية: 23».

وقال ـ وقوله الحق ـ:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ «سورة يونس، الآية: 38».

وقال ـ تعالى ـ:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ «سورة الطور، الآيتان: 33 ـ 43».

وقد عجزت القدرات البشرية ـ ولا تزال عاجزة ـ عن أن تداني كتاب الله في روعة بيانه، وجمال نظمه، أو في كمال مضمونه، ودقة دلالاته، أو في صدق إنبائه، وسمو معانيه، أو في نبل مقاصده وعدالة تشريعه، أو في إتمام إحاطته بطبائع النفس البشرية، وقدرته على التعامل معها، وعلى هدايتها والارتقاء بها في معراج الله، أو في دقة استعراضه لمسيرة البشرية من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ أو في تحديه للجن والإنس مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثله، أو في صموده أمام كل محاولات التحريف والتغيير، ومن هنا كان القول بإعجاز القرآن.

ولما كان كل نبي وكل رسول قد أوتي من المعجزات ما شهد له بصدق دعواه، ولما كانت كل هذه المعجزات مما تميز فيه أهل العصر، ولما كان القرآن الكريم هو معجزة النبي والرسول الخاتم ﷺ وكانت الميزة الرئيسية للعرب في زمانه هي الفصاحة والبلاغة وحسن البيان، فقد تصور كثير من علماء المسلمين أن إعجاز القرآن الكريم ـ بمعنى عجز البشر فرادى ومجتمعين عن الإتيان بشيء من مثله ـ متجسّد في نظمه وبلاغته وفصاحته، خاصة وأن القرآن الكريم قد أدهش فصحاء الكفار والمشركين من العرب حين سمعوه، وأذهل عقولهم، ولما لم يجدوا سبيلاً إلى الطعن فيه لجأوا إلى وصفه بالشعر أو بالسحر، إقراراً بعجزهم عن الإتيان بشيء من مثله. لذلك ركزت الكثرة الكاثرة من القدامى والمعاصرين من علماء المسلمين على الإعجاز البياني، النظمي، البلاغي للقرآن الكريم،

وظنوه هو مجال التحدي الوحيد لهذا الكتاب العزيز. ومع تسليمنا بأن القرآن المجيد معجز في نظمه لأنه ليس بالشعر ولا بالنثر، ولكنه نمط فريد من الصياغة العربية لم تعرفه العرب من قبل، إلا أن النظم هو مجرد إطار لمحتوى، والمحتوى أهم من الإطار. ومحتوى القرآن الكريم هو الدين بركائزه الأربع الأساسية: **العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات.** واستعراض كل قضية من هذه القضايا بشيء من الموضوعية والحيدة يؤكد إعجاز القرآن الكريم، ويشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهّد بذلك الحفظ ما شاء الله ﷻ ليبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى قيام الساعة بأنه كلام رب العالمين.

والقرآن الكريم الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هداية للخلق أجمعين إلى يوم الدين لا يمكن أن ينحصر إعجازه في لغته فقط، والتي لا يدرك إعجازها إلا العرب، وحتى عرب اليوم ـ في جملتهم ـ فقد فقدوا الحس اللغوي الذي تميز به أسلافهم فما عادوا يتذوقون ذلك، إلا القليل من علماء اللغة منهم.

ولما كان التحدي بالقرآن الكريم للإنس والجن متظاهرين هو تحد مستمر قائم إلى يوم الدين، فلا بد وأن يكون في القرآن الكريم من صور الإعجاز ما يتجاوز حدود اللغة. وقد دفع ذلك عدداً من علماء القرآن الكريم إلى البحث في **الإعجاز العقدي، الإعجاز التعبدي، الإعجاز الأخلاقي والإعجاز التشريعي** للقرآن الكريم.

ويعلم ربنا بعلمه المحيط أن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى قدر من المعرفة بالكون ومكوناته وبسنن الله الحاكمة له لم يصل إليه جيل من البشر من قبل. فيغير بما حقق منذ إنجازات علمية وتقنية، وينسى حقيقة رسالته في هذه الحياة: عبداً لله يعبده ـ تعالى ـ بما أمر، ويحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها، وينسى الدين، والموت، والبعث، والحساب، والخلود في الحياة القادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً. خاصة وأن هذه الأصول قد اهترأت اهتراءً شديداً في معتقدات غير المسلمين، مما دفع الغالبية الساحقة من علمائهم إلى إنكارها، والسخرية منها. ويصف القرآن الكريم هذا الموقف بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ

حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ «سورة الأنعام، الآية 44». وفي ظل الركض وراء الكشوف العلمية، خاصة وأن العلم في الغرب قد انطلق من منطلقات مادية بحتة، منكرة أو متجاهلة كل ما هو فوق المادة، وفي ظل سيادة معتقدات من صناعة البشر بعد أن فقدت أغلب أمم الأرض صلتها بوحي السماء، أصبح الحوار الديني يدور بالناس في حلقات مفرغة خاصة مع رجال الدين الذي يحرص كل واحد منهم على منصبه وما يوفوه له من منافع مادية ومعنوية. ولكي يقيم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الحجة على أهل عصرنا باللغة التي يفهمونها أبقى لنا في محكم كتابه أكثر من ألف آية قرآنية كريمة تتحدث عن الكون وبعض مكوناته وظواهره بدقة علمية بالغة لم تصل العلوم المكتسبة، إلى فهم شيء منها إلا في القرنين الماضيين. وهذا السبق بالإشارة إلى كمٍ هائلٍ من حقائق الكون قبل أن يصل إليه علم الإنسان بأكثر من عشرة قرون كاملة هو ما نسميه **بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم** وهي اللغة الميسرة لجميع أهل عصرنا لفهم فضل الإسلام العظيم على غيره من المعتقدات، وفَضْل القرآن الكريم على غيره من الكتب ـ أياً كانت لغة المخاطب.

والحقيقة الواقعة هي أن هذه الآيات لم ترد في كتاب الله ـ تعالى ـ من قبيل الإخبار العلمي المباشر، لأن الكسب المعرفي في مجال الكون ومكوناته وظواهره قد ترك لاجتهاد الناس جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، أولاً لمحدودية القدرات البشرية، وثانياً للطبيعة التراكمية للمعرفة في هذه المجالات.

والسياق القرآني للآيات الكونية في كتاب الله يؤكد مجيئها في مقام الشهادة لله الخالق ﷻ بطلاقة القدرة على الخلق، ومن ثم الشهادة للخالق بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وقد خلق كل شيء فيه ـ من اللبنات الأولية للمادة، إلى الإنسان ـ من في زوجية واضحة حتى يبقى الخالق ـ في علاه ـ متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبالمغايرة الكاملة للمخلوقين.

وتأتي الآيات الكونية في كتاب الله للشهادة كذلك على إمكانية البعث، لأن الخالق ﷻ كما أبدع الخلق بعلمه وحكمته وقدرته فهو قادر على إفناء خلقه وعلى بعثه ـ أي على إعادة خلقه ـ من جديد.

والإشارات الكونية في القرآن الكريم صاغها الخالق ﷻ صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني يتناسب مع ما توافر لهم من علم بالكون ومكوناته وظواهره،

وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، حتى يبقى القرآن الكريم مهيمناً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وليس هذا لغير كلام الله.

ولا يمكن لعاقل أن يتخيَّل مصدراً لهذا الكم من الحقائق العلمية في القرآن الكريم غير الله الخالق ﷻ وذلك لأنه كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمّي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي فترة زمنية لم يكن لأحد من الخلق إلمام بشيء من هذه الحقائق العلمية التي لم يبدأ الإنسان في الوصول إلى معرفة شيء عنها إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين.

والآيات الكونية في كتاب الله لا يمكن فهمها فهماً دقيقاً في إطار اللغة العربية وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ، بل لا بد من توظيف الحقائق العلمية المتاحة لحسن فهم دلالة الآية الكونية فيما يعرف باسم «التفسير العلمي للقرآن الكريم»، ولإثبات سبق تلك الآيات بالإشارة إلى هذه الحقيقة العلمية، وهو ما يعرف باسم «الإعجاز العلمي للقرآن الكريم»، وهو مجال تخصصي على أعلى مستويات التخصص لا يقف على دلالته، إلَّا الراسخون في العلم ـ كل في حقل تخصصه ـ وهذه الحقيقة يشير إليها القرآن الكريم في العديد من آياته التي تتحدث عن مستقبل الاستكشاف في دلالات القرآن الكريم ومنها قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

- ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ «سورة الأنعام، الآية: 67».
- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾ «سورة النمل، الآية: 93».
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝﴾ «سورة ص، الآيتان: 87 ـ 88».
- ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ «سورة الحج، الآية: 54».
- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ «سورة سبإ، الآية: 6».

- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ «سورة فصلت، الآية: 53».

لذلك فإننا نجد العديد من آيات القرآن الكريم يحضنا فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حضًّا على تدبر آيات هذا الكتاب العزيز ومنها قوله ـ تعالى ـ:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ «سورة النساء، الآية: 82».

- ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 104».

- ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ «سورة ص، الآية: 29».

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ «سورة محمد، الآية: 24».

وفي ذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه**»[1].

والمقصود بإعراب القرآن معرفة دلالة آياته، والمقصود بالتماس غرائبه هو معرفة ما غمض من معانيه على قارئيه. ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في الآيات الكونية التي تتسع دلالة معانيها باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تلك المجالات جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وذلك لندرة تلك المعارف في زمن الوحي، ولطبيعتها التراكمية مع الزمن بمعنى ازدياد المعرفة فيها بزيادة استقراء الإنسان للكون وزيادة تعرفه على سنن الله الحاكمة له.

أما الآيات القرآنية المتعلقة بركائز الدين من العقيدة إلى العبادة والأخلاق والمعاملات فقد صيغت صياغة محكمة، يفهمها البدوي في قلب الصحراء كما يفهمها أكثر الناس علماً، وهذا جانب آخر من جوانب الإعجاز في كتاب الله، وهي جوانب لا تحصى ولا تعد.

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (الحديث: 2/ 439) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (الحديث: 7/ 163).

وعلى الرغم من هذا الوضوح الذي لا لبس فيه فقد اختلف الأصوليون، وعلماء التفسير، والمتخصصون في علوم القرآن الكريم في القديم والحديث حول توظيف المعارف المكتسبة في مجال العلوم الكونية في تفسير الآيات الكونية في كتاب الله تحت مسمى «التفسير العلمي للقرآن الكريم» وفي إثبات سبق هذا الكتاب العزيز لكل المعارف المكتسبة وذلك بأكثر من عشرة قرون كاملة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون وهو ما يعرف «بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم».

وكان السبب الرئيسي في هذا الاختلاف هو مرض الازدواجية في التعليم ـ الذي انتقل إلينا من الغرب ـ والذي بسببه تمت المفاصلة الكاملة بين تعليم ديني/ إنساني/ نظري لم يعد له أدنى اهتمام بالمعطيات الكلية للعلوم المكتسبة، وتعليم مدني/ علمي/ تقني أو نظري/ إنساني/ أو فني لا يعطي للدارس القدر الأدنى من الثقافة الدينية التي تمكنه من فهم أصول دينه، وتعينه على القيام بعبادته قياماً صحيحاً، وعلى فهم رسالته في هذه الحياة: عبداً لله ـ تعالى ـ يعبده بما أمر ويجتهد في القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها، وإقامة عدل الله فيها، وبالتبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ بالحكمة والموعظة الحسنة.

ونتيجة لهذه المفاصلة تخوف كل من الأصوليين وعلماء التفسير والمتخصصون في مختلف علوم القرآن ـ من جهة ـ، والمتخصصون في العلوم البحتة والتطبيقية وغيرها من التخصصات المدنية ـ من جهة أخرى ـ من الخوض في هذا الأمر الذي بدا غريباً على كل منهم، على الرغم من أن أعداداً من علماء المسلمين قد خاضوا هذه الدراسة من قبل القرن الهجري الثالث وإلى اليوم وأثبتوا جدواها إذا تقيد القائمون بالدراسة بالضوابط الشرعية والعلمية الصحيحة للتعامل مع هذه القضية الحساسة.

وكان من قدامى المؤيدين لقضية التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم كل من الجاحظ (ت 255 هـ)، وابن حزم الأندلسي (ت 450 هـ)، وأبو حامد الغزالي (ت 505 هـ)، والفخر الرازي (ت 606 هـ)، وغيرهم.

وازداد عدد المؤيدين للقضية في العصور المتأخرة زيادة مطردة وكان منهم: طنطاوي جوهري (ت 1359هـ)، عبد الرحمٰن الكواكبي، مصطفى صادق الرافعي، محمد بن أحمد الإسكندراني الطبيب، عبد الله فكري، عبد العزيز سيد الأهل، أحمد مختار الغازي، حنفي

أحمد، محمد أحمد الغمراوي، محمد محمود ابراهيم، ابراهيم محمد فرج، محمد جمال الدين الفندي، عبد الرزاق نوفل، يوسف مروة، عبد الغني الخطيب، أحمد محمود سليمان، عبد الله شحاته، مصطفى محمود، يوسف السويدي، محمد رشاد الطوبي، أحمد مجاهد، أحمد عبد الوهاب ومنصور حسب النبي، وجيش من المعاصرين الذين يقصر المقام عن الإحاطة بأسمائهم.

وكان من المعارضين للقضية في القديم الإمام الشاطبي، وفي الحديث بشيء من التحفظ كل من الإمامين محمد مصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، والشيخ أمين الخولي وزوجته عائشة عبد الرحمٰن (بنت الشاطئ)، وجيش من المعاصرين أيضاً يقصر المقام عن حصرهم.

وفي كتابين سابقين بعنوان «**السماء في القرآن الكريم**»، «**الأرض في القرآن الكريم**»، قمت باستعراض آراء كل من المتوسعين في هذا الأمر والمضيقين والمعتدلين، كما قمت بالرد على المعارضين للقضية، ولا أرى حاجة إلى تكرار ذلك هنا، ولكن أرى من الضروري إيجاز ضوابط التعامل مع القضية، ومبررات الاهتمام بها.

قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

أولاً: تعريف لفظة «الإعجاز»

(الإعجاز) لفظة مشتقة من إثبات (العجز) وهو الضعف وعدم القدرة. يقال: (عجز) عن كذا: أي لم يقدر عليه، فهو (عاجز) عن الإتيان به، وجمعه (عواجز). يقال: (عجز) (عجزاً) و(عجوزاً)، و(عجزانا) و(معجزاً) بفتح الجيم وكسرها، و(معجزة) أيضاً بفتح الجيم وكسرها، ولذا يقال: رجل (عجز) بضم الجيم وكسرها أي (عاجز)، وامرأة (عاجزة) و(عاجز)، كما يقال: (عجزه) الشيء أو الأمر بمعنى فاته ولم يقدر عليه.

ويقال: (عجزه) و(أعجزه) و(استعجزه) أي صيَّره (عاجزاً) نسبة إلى (العجز)، وتستعار لمعنى التثبيط أي بمعنى ثبطه.

كما يقال: (عاجزه) (معاجزة) أي سابقه مسابقة، و(تعجز) أي ادعى (العجز)؛ و(الأعجز) هو العظيم العجز، ومؤنثه (العجزاء)؛ و(المعجاز) هو الدائم العجز، و(المعجوز) الذي (أعجز).

ويقال: (عجز) (عجوزاً) أي صار (عجوزاً)، و(العجوز) وجمعه (عجز) و(عجائز) المرأة المُسنّة.

و(العجز) وجمعه (أعجاز) مؤخر الشيء أو الجسم (وتكتب بفتح الجيم وكسرها وضمها وبفتح العين وضم الجيم أو كسرها)، و(عجز) بيت الشعر هو الشطر الثاني منه، و(أعجاز) النخل هي أصولها.

ويقال: (أعجز) في الكلام أي أدى لمعانيه بأبلغ الأساليب. و(الإعجاز) بمعنى السبق والفوت مصدر من (أعجز).

وعلى ذلك تعرف (المعجزة) وجمعها (المعجزات) بأنها الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدي لعجز البشر عن الإتيان بمثله.

«و(إعجاز) القرآن الكريم» معناه (عجز) الخلق أجمعين ـ إنسهم وجنهم، فرادى ومجتمعين ـ عن أن يأتوا بشيء من مثله، وذلك لأن القرآن الكريم كتاب معجز في بيانه ونظمه، معجز في فصاحته وبلاغة أسلوبه، معجز في كمال رسالته ودقة مضمونه، وقد أنزل للناس كافة بدين الإسلام الذي علّمه ربنا ﷻ لأبينا آدم ـ عليه السلام ـ لحظة خلقه وكرّر إنزاله على عدد من أنبيائه ورسله وأكمله وأتمّه وحفظه في هذه الرسالة الخاتمة المنزّلة على خاتم الأنبياء والمُرسلين ـ صلى الله وسلّم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ. وعلى ذلك فالقرآن الكريم معجز في مجموع العقائد التي يدعو إلى الإيمان بها، وفي مجموع العبادات التي يأمر بأدائها، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، وفي كل تشريع من تشريعاته الناطقة بدقتها، وعدلها، وشموليتها وتفاصيلها!!

والقرآن الكريم معجز كذلك في استعراضه التاريخي لعدد من الأمم السابقة، ولكيفية تعاملها مع رسل ربها، ولأسلوب مكافأتها أو عقابها، معجز في أسلوبه التربوي الفريد، وخطابه النفسي السوي، وفي إنبائه الدقيق بالغيب القريب والبعيد، وفي إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره، وإلى الإنسان وخلقه ومراحله الجنينية.

وهذا الجانب الأخير من جوانب الإعجاز في كتاب الله هو المقصود بتعبير «الإعجاز العلمي للقرآن الكريم» ويقصد به سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم تتمكن العلوم المكتسبة من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم؛ يزيد طولها على عشرة قرون كاملة في أقل تقدير لها. ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذه الحقائق العلمية مصدراً غير الله الخالق ﷻ حيث لم يكن ممكناً لأي من البشر إدراكها في زمن الوحي ولا لقرون عديدة من بعده، وفي إثبات ذلك

تأكيد لأهل العلم في عصرنا أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتصديق للنبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ في نبوته ورسالته، وفي التبليغ عن ربه، والإعجاز العلمي للقرآن الكريم أسلوب فريد في الدعوة إلى دين الله بلغة مناسبة لعصر تفجر المعرفة العلمية الذي نعيشه.

ثانياً: تأصيل التعامل مع قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

من الاستعراض السابق يتَّضح لنا بجلاء أن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه هو من مواقف التحدي للناس كافة ـ مسلمين وغير مسلمين ـ بأن كتاباً أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أُمّي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأُمّيين، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب يحوي من حقائق الكون ما لم تتوصل إليه العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين بعد مجاهدات طويلة قام بها عشرات الآلاف من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل وتركز في القرنين الماضيين بصفة خاصة، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا العلم الحق في ذلك الزمن البعيد غير الله الخالق سبحانه وتعالى الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ فحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ ليبقى حجة على الناس كافة إلى يوم الدين. والمتحدى لا بد وأن يكون واقفاً على أرضية صلبة، وعلى ذلك فلا يجوز توظيف شيء في هذا المجال غير الحقائق القطعية الثابتة حتى يبلغ التحدي مداه في مجال إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

وهذا الالتزام واجب حتمي في التعرّض للآيات الكونية في كتاب الله باستثناء آيات الخلق بأبعاده الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان. وذلك لأن عملية الخلق عملية غيبية غيبة مطلقة لم يشهدها أحد من الإنس ولذلك فلا تخضع للإدراك المباشر من الإنسان، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ۝﴾ «سورة الكهف، الآية: 51».

ولكن القرآن الكريم الذي جاء بهذه الآية الكريمة يأمرنا ربنا سبحانه وتعالى فيه بضرورة التأمل في قضية الخلق ـ وهي قضية غير مشاهدة من قبل الإنسان ـ وذلك في عدد غير قليل من

الآيات التي منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *﴾ «سورة العنكبوت، الآيتان: 19 ـ 20».

وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *﴾

«سورة آل عمران، الآيتان: 190 ـ 191».

والجمع بين هذه الآيات الكريمة ـ وأمثالها كثير في كتاب الله ـ يؤكد على أن خلق كل من السمٰوات والأرض وخلق الحياة وخلق الإنسان قد تمّ في غيبة كاملة من الوعي الإنساني، ولكن الله من رحمته بنا قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان ـ بإمكانياته المحدودة ـ على الوصول إلى تصور ما لعملية الخلق، إلا أن هذا التصور يبقى في مجال الفروض والنظريات، ولا يمكن أن يرقى إلى مقام الحقيقة أبداً؛ لأن الحقيقة العلمية لا بد أن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه ـ على الرغم من محدودية ذلك الحس وهذا الإدراك ـ ومن هنا فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية الخلق ـ بأبعادها الثلاثة ـ مرحلة التنظير أبداً، وتتعدّد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها: هل هم من المؤمنين أو من الكفار أو المشركين أو المتشككين؟ وهل هم من السعداء في حياتهم أم من التعساء والأشقياء والمهمومين؟ وهل هم من الأسوياء أم من المنحرفين؟.. وفي هذا الخضم العميق يبقى للمسلم نور من الله سبحانه وتعالى في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة؛ لا لأن العلوم المكتسبة قد أثبتت ذلك، ولكن لمجرد وجود إشارة إلى تلك الحقيقة في كتاب الله الخالق أو في سنّة رسوله ﷺ. ونحن في هذه الحالة نكون قد انتصرنا للعلم بالقرآن الكريم أو بسنّة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ولم ننتصر بالعلم لأي منهما.

أما باقي الآيات الكونية الكريمة التي تعرض لها القرآن الكريم ـ وأغلبها من الآيات الوصفية ـ فلا يجوز أن يوظف في الاستشهاد على سبقها العلمي إلا الحقائق القطعية الثابتة التي لا رجعة فيها، وبالضوابط المنهجية التالية:

1 ـ حسن فهم النص القرآني الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعد تلك اللغة وأساليب التعبير فيها؛ وذلك لأن القرآن الكريم قد أنزل بلسان عربي مبين. على ألا يخرج باللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية، وعند الضرورة القصوى؛ ومن هنا فلا يمكن إثبات الإعجاز العلمي بتأويل النص القرآني أبداً.

2 ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ ـ إن وجدا ـ وفهم الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل من آيات هذا الكتاب الحكيم.

3 ـ فهم المأثور من تفسير المصطفى ﷺ والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين وتابعهيهم إلى الزمن الحاضر.

4 ـ جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآية القرآنية الكريمة إن وجدت.

5 ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، ورد بعضها إلى بعض بمعنى فهم دلالة كل منها في ضوء الآخر؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما يفسره الصحيح من أقوال رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان من الواجب توظيف الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بموضوع الآية المتعامل معها كلما توفر ذلك.

6 ـ مراعاة السياق القرآني للآية المتعلقة بإحدى القضايا الكونية دون اجتزاء للنص عما قبله وعما بعده مع التسليم الكامل بأن من طبيعة القرآن الكريم إيراد العديد من الحقائق المتتابعة كما هو الحال في آيات القسم والتي قد لا تكون بالضرورة مرتبطة ببعضها البعض.

7 ـ مراعاة قاعدة: أن العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

8 ـ عدم التكلف أو محاولة ليّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ وذلك لأن القرآن الكريم أعز علينا وأكرم من ذلك؛ لأنه كلام الله الخالق وعلم الخالق بخلقه هو الحق المطلق الكامل الشامل المحيط بكل علم آخر، وهو العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

9 ـ عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة كالذات الإلٰهية، والروح، والملائكة، والجن، وحياة البرزخ، وحساب القبر، وقيام الساعة، والبعث، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار وغيرها، والتسليم بالنصوص الواردة فيها تسليماً إيمانياً كاملاً انطلاقاً من الإيمان بكتاب الله تعالى وبسنّة رسوله ﷺ، ويقيناً راسخاً بعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيبيات المطلقة.

10 ـ التأكيد على أن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا مغايرة كاملة، وأنها لا تحتاج هذه السنن الدنيوية الرتيبة، فهي كما وصفها ربنا سبحانه وتعالى أمر فجائي منه بـ «كنْ فَيكونُ»، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞﴾ «سورة الأعراف، الآية: 187».

وعلى الرغم من ذلك فإن الله سبحانه وتعالى من رحمته بنا قد أبقى لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء أعداداً كثيرة من الشواهد الحية التي تقطع بفناء الكون وبحتمية الآخرة، وأن الإشارة إلى تلك الشواهد الكونية لا يمكن أن تفسر بمحاولة التعرف على موعد الآخرة؛ لأن الآخرة من الغيبيات المطلقة التي لا يعملها إلا الله؛ ولأنها لن تتم بالسنن الكونية المشاهدة في هذه الحياة.

11 ـ توظيف الحقائق العلمية القاطعة في الاستشهاد على الإعجاز العلمي للآية أو الآيات القرآنية في الموضوع الواحد أو في عدد من الموضوعات المتكاملة؛ وذلك في جميع الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، فيما عدا قضايا الخلق، والإفناء، والبعث، التي يمكن فيها توظيف الآية أو الآيات القرآنية الكريمة أو الحديث النبوي الصحيح للارتقاء بإحدى النظريات المطروحة إلى مقام الحقيقة مع التأكيد على أن الحقيقة العلمية لا تبطل مع الزمن ولكنها قد تزداد تفصيلاً وتوضيحاً باجتهاد العلماء جيلاً بعد جيل وأن المعرفة العلمية إذا وصلت إلى مستوى الحقيقة أو القانون فهي لا تتغير ولكن تزداد إيضاحاً، وذلك لأن حقائق العلوم المكتسبة جزئية، وقوانينه كذلك جزئية لأنها تعبّر عن حقيقة محدّدة. ومن طبيعة العلوم المكتسبة النمو المطرد مع استمرار مجاهدة العلماء في توضيح ما سبقت معرفته دون إلغاؤه.

12 ـ ضرورة التمييز بين المحقق لدلالة النص القرآني والناقل له مع مراعاة التخصص الدقيق في مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي في الآية القرآنية الكريمة (التحقيق العلمي)؛ لأن هذا مجال تخصصي على أعلى مراحل التخصص لا يجوز أن يخوض فيه كل خائض كما لا يمكن لفرد واحد أن يغطي كل جوانب الإعجاز العلمي في أكثر من ألف آية قرآنية صريحة بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالاتها من الصراحة؛ خاصة وأن هذه الآيات تغطي مساحة هائلة من العلوم المكتسبة تمتد من علم الأجنة إلى علم الفلك وما بينهما من مختلف مجالات العلوم والمعارف الإنسانية، إلا إذا ردَّ كل قضية إلى محققيها من المتخصصين بوضوح وإثبات كاملين.

13 ـ التأكيد على أن ما توصل إليه المحقق العلمي في فهم دلالة الآية الكريمة ليس منتهى الفهم لها؛ لأن القرآن الكريم لا تنتهي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

14 ـ أن النص القرآني الكريم قد ينطبق على حقيقة علمية ثابتة، ولكن ذلك لا ينفي مجازاً مقصوداً؛ كما أن الآية القرآنية الكريمة قد تأتي في مقام التشبيه أو المجاز وتبقى صياغة الآية دقيقة دقة فائقة من الناحية العلمية وإن لم تكن تلك الناحية مقصودة لذاتها.

15 ـ الأخذ في الاعتبار إمكانية الانطلاق من الآية القرآنية الكريمة للوصول إلى حقيقة كونية لم يتوصل العلم المكتسب إلى شيء منها بعد انطلاقاً من الإيمان الكامل بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق في صفائه الربّاني وإشراقاته النورانية، وأنه كلّه حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

16 ـ عدم التقليل من جهود العلماء السابقين في محاولاتهم المخلصة لفهم دلالة تلك الآيات الكونية في حدود المعلومات التي كانت متاحة لهم في زمانهم؛ وذلك لأن الآية الكونية الواردة في كتاب الله تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد حتى يظل القرآن الكريم مهيمناً على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها. وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

17 ـ التفريق بين قضيتي الإعجاز العلمي و«التفسير العلمي» للقرآن الكريم، فالإعجاز العلمي يقصد به «إثبات سبق القرآن الكريم» بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الكون

أو تفسير ظاهرة من ظواهره قبل وصول العلم المكتسب إليها بعدد متطاول من القرون. وفي زمن لم يكن لأي من البشر إمكانية الوصول إلى تلك الحقيقة عن طريق العلوم المكتسبة أبداً. وأما التفسير فهو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيها المفسر فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، والمعول عليه في ذلك هو نيته. وهنا يجب التأكيد على أن الخطأ في التفسير ينسحب على المفسر، ولا يمسّ جلال القرآن الكريم.

18 ـ اليقين في صحة كل ما جاء بالقرآن المجيد؛ لأنه كلام الله الخالق، المحفوظ بحفظ الله على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى أن يشاء الله، والمحفوظ في نفس لغة وحيه فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وعلى ذلك فلا يمكن لحقيقة كونية أن تصطدم بحق قرآني أبداً، فإذا حدث وبدا شيء من ذلك فلا بد من وجود خلل ما؛ إما في صياغة الحقيقة العلمية أو في فهم الدارس للنص القرآني الكريم.

19 ـ يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع كتاب الله، وإخلاص النية في ذلك والتجرّد له من كل غاية، وتذكر قول المصطفى ﷺ: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

من مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يلي:

أولاً: إن القران الكريم أنزل إلينا لنفهمه، والآيات الكونية فيه لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً في إطار اللغة وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ انطلاقاً من شمول الدلالة القرآنية، ومن كلية المعرفة التي لا تتجزأ.

ثانياً: إن الدعوة بالإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة هي الوسيلة المناسبة لأهل عصرنا ـ عصر العلم والتقنية ـ الذي فتن الناس فيه بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، ونبذ أغلب أهل الأرض الدين وراء ظهورهم ونسوه وأنكروا الخلق والخالق،

(1) أخرجه الترمذي الحديث: (2950 ـ 2951)، والإمام أحمد الحديث: (1/ 233).

كما أنكروا البعث والحساب والجنّة والنار وغير ذلك من الغيبيات؛ لأن هذه الأصول قد شوّهت في معتقداتهم تشويهاً كبيراً ولم تعد مقنعة لهم، أو دفعت بالبعض منهم إلى التعصب الأعمى دون أدنى بصيرة، والانطلاق بهذه العصبية العمياء لمحاربة الحق وأهله متمثلاً في الإسلام العظيم كما تكامل وحفظ في بعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ، وعلى ذلك فلم يبق أمام أهل عصرنا من وسيلة مقنعة بالدين الإسلامي الحنيف قدر إقناع الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنّة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

ثالثاً: الأصل في الحضارات أنها تتكامل فيما بينها ولا تتصارع، ولكن في زمن العولمة الذي نعيشه تحاول الحضارة المادية الغالبة ـ بما فيها من كفر بواح أو شرك صراح ـ أن تفرض من قيمها الهابطة، وأخلاقياتها الساقطة، ومادياتها الجارفة على غيرها من الحضارات، وتوظف في ذلك كل ما توفر لها من وسائل الغلبة المادية وأسبابها ـ وليس احتلال شراذم الصهاينة المجرمين لأرض فلسطين، وتجبرهم في تعذيب وإذلال أهل الأرض الأصليين، ومحاولات القضاء عليهم، وليس الغزو الغربي الأنجلو أمريكي الجائر لكل من أفغانستان والعراق، ولا جرائم كل من الصرب والكروات على أرض البلقان، ولا الدعوات الباطلة بحتمية الصراع بين الحضارات، أو تبرير العديد من الجرائم والاعتداءات على حقوق الإنسان وعلى أراضي دول أعضاء في هيئة الأمم تحت مظلة الدعوة الباطلة المسماة بالحرب ضد الإرهاب، أو الدعاوى الكاذبة تحت مسمى الخوف من الإسلام إلا حلقات في هذا المخطط الشيطاني اللعين. وقد أسقط الأعداء من أيدي المسلمين في هذه الأيام كل الوسائل المادية التي يمكن لهم الدفاع بها عن دمائهم وأعراضهم وأراضيهم وممتلكاتهم ودينهم ومقدساتهم، وذلك في سلسلة طويلة من المؤامرات التي بدأت باحتلال أراضي غالبية الدول المسلمة، والعمل على تغريبها، ثم السعي الدؤوب من أجل إلغاء دولة الخلافة الإسلامية بعد إنهاكها وإضعافها حتى تم إسقاطها في الربع الأول من القرن العشرين (سنة 1924م)، ثم العمل على تمزيق الأمة إلى أكثر من خمس وخمسين دولة ودويلة، ونهب كل خيراتها وثرواتها، وتنصيب أنماط من الحكومات المتعارضة عليها للحيلولة دون إمكانية توحدها، بل العمل الدؤوب من أجل المزيد من تفتيتها في زمن التكتلات البشرية الكبيرة الذي نعيشه، ثم غرس كيان صهيوني غريب من حثالات الأمم

ونفايات الشعوب في قلب الأمة لإفسادها، وإثارة الحروب والقلاقل والفتن بين أبنائها، ولترسيخ العداوات بين الأشقاء للحيلولة دون توحدهم وإشاعة الأفكار الهدامة والسلوكيات المنحطة والأخلاقيات المنهارة لإخراج الأمة عن دينها وأخلاقها وقيمها وأعرافها والعمل على المزيد من تغريبها لتيسير الهيمنة عليها.

ولم يبق بأيدي أمة الإسلام من طوق للنجاة في زمن الغربة الذي نعيشه إلا المحافظة على دينها؛ هذا الدين الخاتم الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه وهو وسيلة الدفاع الوحيدة التي بقيت بين أيدي مسلمي اليوم لحماية أنفسهم ولإنقاذ غيرهم من الأمم الضائعة من حولهم، والتي تهدد العالم كله بالدمار.

رابعاً: إن كلا من الإسلام والمسلمين يتعرض اليوم لهجوم شرس في كافة وسائل الإعلام بغير حق. والقائمون على تلك الوسائل من غلاة الصهاينة وغلاة الصليبيين، وأعداء الدين، ومن الشواذ جنسياً وسلوكياً والداعين إلى ذلك علناً بلا أدنى حياء أو خجل، هؤلاء جميعاً ينكرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن الكريم، ونبوة خاتم المرسلين ﷺ أو ينكرون الدين كلية في وقاحة سافرة. وأهم الوسائل وأنجعها للرد على هذا الهجوم هو إثبات الإعجاز العلمي لكتاب الله ولسنّة رسوله ﷺ بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة البالغة والمنطق السوي.

خامساً: إن العالم اليوم يتحرك في اتجاه كارثة كبرى، وقودها تطور علمي وتقني مذهل، يطغي أصحابه ويغريهم بإفناء وإبادة غيرهم في غيبة الوعي الديني الصحيح والالتزام الأخلاقي والسلوكي اللذين يرعيان حق الله وحقوق الأخوة الإنسانية حق رعايتها. والمخرج من ذلك هو الدعوة للدين الحق، ومن أوضح وسائل الدعوة إليه هو ما في كتاب الله تعالى وفي سنّة رسوله ﷺ من إعجاز علمي واضح وضوح الشمس في رابعة النهار. يقنع المنبهرين بالعلم ومعطياته في زمن تفجر المعارف العلمية الذي نعيشه كما قد لا يقنعهم أي أسلوب آخر.

سادساً: إننا ـ معشر المسلمين ـ قصرنا كثيراً في التبليغ عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، وقد كلفنا بالتبليغ عنهما. ونحن اليوم نجني ثمار ذلك التقصير كله: حروباً طاحنة على كل أرض إسلامية من فلسطين والعراق إلى البلقان، ومنها إلى أرض الشيشان، وكشمير، وأفغانستان، وجنوب الفلبين، وأراكان، والصومال، والسودان وغيرها من أراضي المسلمين

الغارقة في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، وإنا لله وإنا إليه راجعون. هذا بالإضافة إلى حصار لأكثر من دولة مسلمة، ومصادرة لبلايين الدولارات من أموال المسلمين واحتلال عسكري مقنع لكل دولة من دول الجزيرة العربية وغالبية بلاد الشام والعراق، وأفغانستان، ومن الأراضي المغربية سبتة ومليلة وجزيرة ليلى، والعديد من الجزر الآسيوية.

وفي غمرة هذه المؤامرات الغربية لا ننسى مطاردة المسلمين في كل مكان من أماكن العالم ومحاولة اعتقالهم وتجريمهم وإذلالهم، وتشويه سمعتهم بوصفهم بالإرهاب تارة وبالتخلف أخرى، وليس ببعيد عن الأذهان ما يجري للمسلمين اليوم من إذلال وامتهان وتجاوزات لكل حقوق الإنسان في معتقلات وسجون كل من الولايات المتحدة والبحر الكاريبي من مثل (معتقل جوانتانامو) والعراق من مثل (سجن أبو غريب وأفغانستان وغيرها).

سابعاً: إن في إثارة قضية الإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم، وسنّة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ استنهاضاً لعقول المسلمين واستثارة للتفكير الإبداعي فيها وتشجيعاً على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التي تخلفت فيها الأمة مؤخراً تخلفاً كبيراً، في الوقت الذي تقدمت فيه دول العالم الصناعية تقدماً مذهلاً حتى أصبح كم المعارف المتاح يتضاعف كل خمس سنوات، وتتجدّد تقنياته مرّة كل ثلاث سنوات تقريباً، وبذلك أخذت الهوة الفاصلة بيننا وبينهم في مجال العلوم والتقنية تزداد اتساعاً وعمقاً يوماً بعد يوم، وأصبحت مخاطر ذلك علينا تتضاعف مع تزايد تلك الهوة عمقاً واتساعاً.

هذا بالإضافة إلى حاجة العلوم المكتسبة اليوم إلى التأصيل الإسلامي الدقيق إنصافاً لكل من العلم والدين، وذلك لأن هذه المعارف لم تنطلق في بدء عصر النهضة إلا بعد معارك شرسة بين الكنيسة وطلاب العلم، وقد انتهت هذه المعارك بهزيمة منكرة للكنيسة فانطلقت العلوم المكتسبة كلها في الغرب من منطلقات مادية بحتة، منكرة أو متجاهلة كل القضايا الغيبية، فأنكرت الدين والروح والأخلاق والقيم، وتقدمت علمياً وتقنياً تقدماً مذهلاً دون فهم لرسالة الإنسان في هذه الحياة مما يشكل واحدة من أكبر الكوارث التي تواجه عالم اليوم، وصدق الله العظيم إذ يقول:

• ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾
«سورة البينة، الآية: 1»

ثامناً: إن القرآن الكريم نزل للناس كافة: عربهم وعجمهم وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ «سورة إبراهيم، الآية: 52». ومعنى الآية الكريمة أن القرآن الكريم بلاغ لكل الناس في كل مكان وزمان. ويؤكد ربنا ـ عز من قائل ـ هذا المعنى الكريم بقوله الجليل مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ آمراً إياه بأمره:

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾
«سورة الأنعام، الآية 19».

وإذا كان جانب الإعجاز اللغوي ميسراً للعرب كي يفهموه فلا بد وأن يكون في القرآن الكريم من الجوانب الأخرى الميسرة لغير العرب كي يؤمنوا به: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ «سورة الأنفال، الآية 42».

الحيوان في القرآن الكريم

جاءت الإشارة إلى عدد من حيوانات الأرض في أكثر من مائة وأربعين آية من آيات القرآن الكريم، وسمى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ستة من سور هذا الكتاب العزيز بأسماء عدد من الحيوانات الأرضية المعروفة لنا وهي:

البقرة، الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، والفيل.

وجاء ذكر الحيوانات بصفة عامة تحت مسمى الدواب أربع مرات، وتحت مسمى دابة (14) مرة، كما جاءت لفظة (الحيوان) بمعنى الحياة مرّة واحدة.

وجاء ذكر مجموعة من أهم مجموعات الحيوان للإنسان تحت مسمى (**النعم**) مرة واحدة، وتحت مسمى (**الأنعام**) ستة وعشرين (26) مرة، وجاءت بلفظة (**أنعاماً**) مرتين، و(**أنعامكم**) ثلاث مرات، و(**أنعامهم**) مرة واحدة وذلك بمجموع (33) مرة للأنعام. وتشمل الأنعام الإبل، والبقر والغنم والماعز وما شابهها من الحيوانات اللبونة المجترة ذات الحافر وآكلة العشب. كذلك جاء ذكر (**الإبل**) مرتين، وجاءت لفظة (**بعير**) مرتين، وجاء ذكر (**بقرة**) أربع مرات، و(**البقر**) ثلاث مرات، و(**بقرات**) مرتين بمجموع تسع مرات للبقر، وجاءت لفظة (**عجل**) عشر مرات. وجاء ذكر (**نعجة**) و(**نعاج**) أربع مرات، ومرة خامسة بتعبير (**ذبح**) عظيم.

وورد ذكر (**الفيل**) في كتاب الله مرة واحدة. و(**الجياد**) مرة واحدة، ولكن جاء ذكر (**الخيل**) أربع مرات.

وجاء ذكر (**الحمير**) و(**الحمار**) و(**الحُمُر**) و(**حمارك**) خمس مرات و(**البغال**) وهي نتاج خليط بين الحصان والحمار ذكرت مرة واحدة.

وذكر (**الذئب**) في القرآن الكريم ثلاث مرات، و(**السبع**) مرة واحدة وإن قيل أن تعبير (**قسورة**) تعني الأسد أيضاً. وجاء ذكر (**الكلب**) خمس مرات، و(**الخنزير**) أربع مرات،

و(**الحوت**) خمس مرات ثلاثة منها بمعنى الأسماك، ومرتين بمعنى (**الحيتان**). وجا ذكر (**الزواحف**) بالإشارة إلى طريقة مشيها مرّة واحدة ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾، كما جاءت الإشارة إلى الحيّة في آية واحدة (طه: 20). وجاء ذكر (**الضفادع**) ممثلة للبرمائيات مرة واحدة.

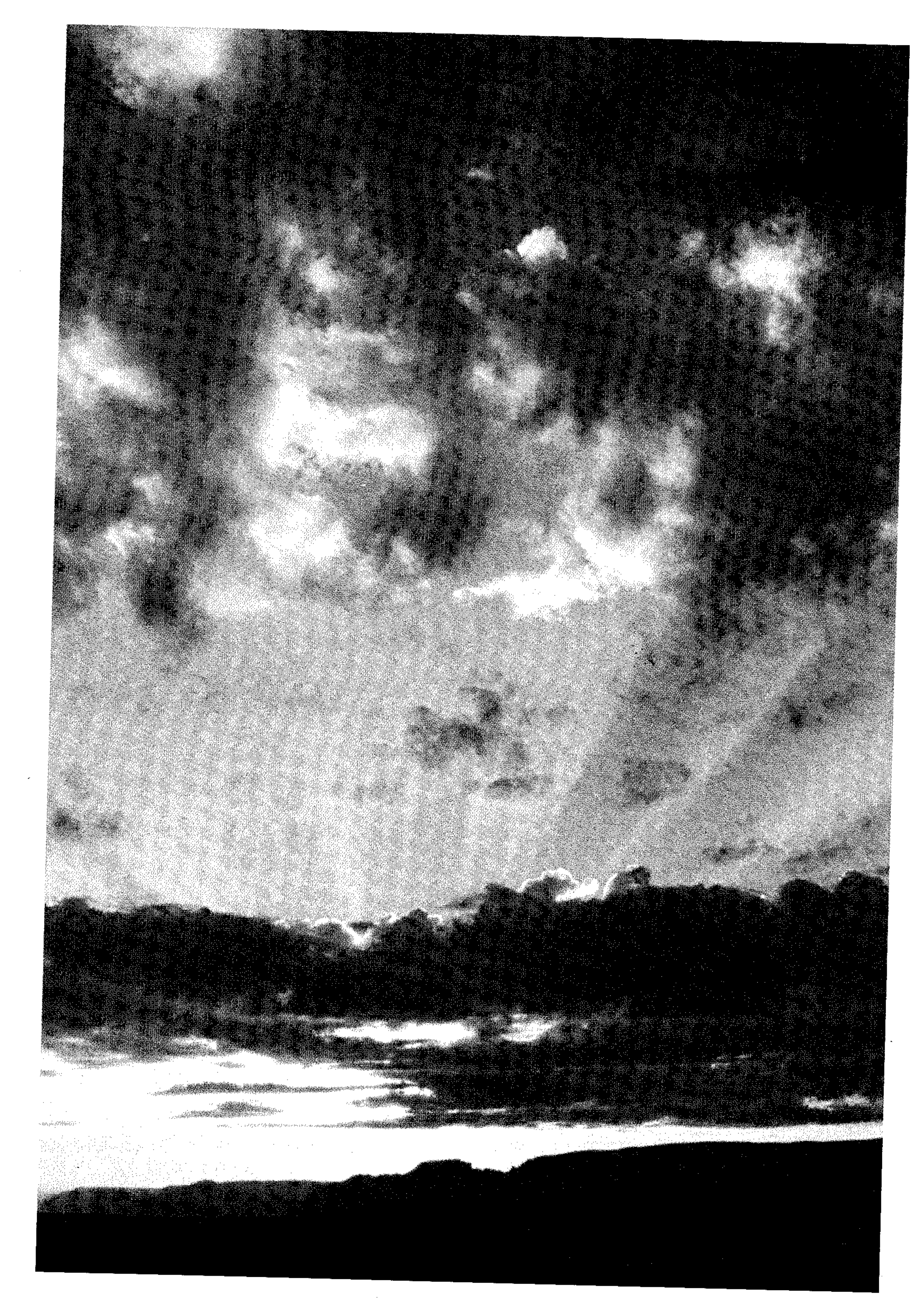
أما (**الطيور**) فقد جمعت في عشرين من المواضع، منها ستة عشر جاءت بلفظة (**الطير**)، ثلاث مرات بلفظة (**طيراً**)، ومرة واحدة بلفظة (**طائر**) وجاء ذكر (**الغراب**) مرتين، وذكر (**الهدهد**) مرة واحدة وذكر (**السلوى أو الحجل**) ثلاث مرات.

و(**الحشرات**) ذكرت في كتاب الله ستة عشر مرة، فقد جاء ذكر (**النحل**) مرة واحدة، و(**النمل**) ثلاث مرات، و(**العنكبوت**) مرتين، و(**الذباب**) مرتين، و(**البعوضة**) مرة واحد، و(**الجراد**) مرتين، و(**الفراش**) مرة واحدة، و(**المن**) ثلاث مرات، و(**القمل**) مرة واحدة.

وقد جاءت هذه الإشارات في حوالي مائة وأربعين آية من آيات القرآن الكريم، عالجنا منها في هذا الكتاب أكثر من ثلاثين آية، وسوف نعرض لباقي الإشارات في مؤلف قادم إن شاء الله تعالى...

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ **وَمَا مِن
دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**
مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ
إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم...﴾

«سورة الأنعام، الآية: 38».

1

هذه الآية الكريمة جاءت في الربع الأول من سورة «الأنعام»، وهي سورة مكية وعدد آياتها (165) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها، ولوجود إشارة إلى قاعدة من أهم قواعد تصنيف صور الحياة المختلفة في إحدى آياتها.

وكطبيعة القرآن المكي ركزت السورة الكريمة على العقيدة الإسلامية، وإن جاءت بها بعض التشريعات، وبعض الإشارات إلى عدد من الأمم البائدة، وإلى موقف كل أمة من تلك الأمم من رسولها الذي أرسله الله ـ تعالى ـ لهدايتها، وإلى عدم اعتبار كل منها بمن أهلك من الأمم السابقة عليهم جزاء عصيانهم لأوامر ربهم، ولا بما حل بهم من عقاب تأكيداً على غفلة الناس وقصر أنظارهم.

وفي التأكيد على وحدة الدين السماوي من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ جاءت الإشارة إلى عدد من أنبياء الله ورسله الذين بعثوا جميعاً بالإسلام.

كذلك استشهدت السورة الكريمة بعدد من الآيات الكونية للتدليل على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في خلق الكون، وعلى قدرته سبحانه وتعالى على البعث، وللتدليل كذلك على وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد ـ لأن ذلك كله من صفات المخلوقين، والله ـ تعالى ـ منزه عن صفات خلقه. وتبقى هذه الإشارات الكونية ـ فوق رسالتها الأصلية ـ خطاباً لأهل عصرنا، الذين فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة؛ تقيم الحجة عليهم بالدليل العلمي القاطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

من ركائز العقيدة في سورة «الأنعام»:

1 ـ الإيمان بخالق السمٰوات والأرض وبديعهما، وفاطرهما، وقيومهما، خالق الإنسان من طين، وخالق كل شيء، وربه ومليكه، ومبدعه، وقيومه، جاعل الظلمات والنور، ومبدع الظل والحرور، إلٰهاً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وبأنه ـ تعالى ـ هو مالك الملك، ومحصي أعمال الخلق، محدد الآجال والأرزاق، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، كاشف الضر، ومنزل الخير، القاهر فوق عباده، الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَمْ، السميع العليم، والغفور الرحيم، البر الودود، والباعث الشهيد، الحكيم الخبير، والغني القادر، الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، العليم بالسر والعلن وبكل ما تخفي الصدور، عالم الغيب والشهادة، فالق كل من الإصباح والحب والنوى، مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي، خير الفاصلين الذي لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، منزل الكتاب، ومجري السحاب؛ ومرسل الأنبياء والمرسلين لينذروا الناس بيوم الدين.

2 ـ الإيمان بملائكة الله، وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وتتويج كل ذلك بالإيمان بالرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي والرسول الخاتم ﷺ؛ لأنها قد تكاملت فيها كل رسالات السماء السابقة، ولذلك تعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظ هذه الرسالة الخاتمة لأنه ليس من بعد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من نبي ولا من رسول، وربنا ـ تبارك وتعالى ـ تعهد بعدم عذاب أحد من خلقه المكلفين بغير إنذار مسبق من رسول مرسل ورسالة سماوية محددة.

3 ـ الإيمان بعوالمِ الغيب التي أخبرنا بها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ دون الخوض فيها بغير علم؛ لأن عالم الغيب يختلف في طبيعته وسننه وقوانينه عن عالَم الشهادة الذي نعيشه.

4 ـ التسليم بحتمية الآخرة وبضرورتها، وبما فيها من بعث وحساب وجزاء وعرض أكبر أمام الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبخلود في حياة قادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ. ومن هنا تصف سورة الأنعام الحياة الدنيا بأنها لهو ولعب، وتصف الآخرة بأنها خير للذين يتقون.

5 ـ اليقين بأن من عمل سوءاً بجهالة ممن يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ثم تاب من بعد ذلك وأصلح فإن الله غفور رحيم.

6 ـ التصديق بأن الله ـ تعالى ـ يجازي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وإلى ما فوق ذلك لمن يشاء، ولا يجازي السيئة إلا بمثلها.

7 ـ الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى قد ختم وحيه بالقرآن الكريم، وبسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وأكمل لنا ديننا، وأتم علينا نعمه، ورضي لنا الإسلام ديناً، وحفظه بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في كل آية من الآيات، وفي كل سورة من السور وفي موضع الآية من السورة، وبترتيب السور في المصحف الشريف،حتى يبقى الإسلام هادياً للبشرية كلها وحجة عليها إلى يوم الدين.

من التشريعات الإلهية في سورة «الأنعام»:

1 ـ تحريم كلٍّ من الشرك بالله، وقتل الأولاد من إملاق (أي: من فقر)، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وما أُهلّ لغير الله به، وأكل أي من الميتة، أو الدم، أو لحم الخنزير ـ إلا من اضطر غير باغ ولا عاد ـ، وتحريم الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، أو افتراء الكذب على الله، ومن ذلك الادعاء الباطل بتلقي شيء من الوحي، أو بالتظاهر بالقدرة على الإتيان بشيء من مثل القرآن الكريم.

2 ـ الأمر بالتزام صراط الله المستقيم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتقوى الله ـ تعالى ـ ومراقبته في كل الأحوال، والإحسان إلى الوالدين، ووفاء كل من الكيل والميزان بالقسط، والعدل في القول، والإخلاص في العمل، والوفاء بعهود الله كلها.

من القصص القرآني في سورة «الأنعام»:

1 ـ جاء في سورة «الأنعام» ذكر عدد من أنبياء الله ورسله الذين بعثوا قبل بعثة خاتمهم سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وهم: نوح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب،

يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، عيسى، إلياس، اليسع، ويونس (على نبينا وعليهم من الله السلام).

2 ـ عرضت هذه السورة الكريمة لعدد من الأمم البائدة التي رفضت رسالات ربها، وجحدت آياته، وقاومت رسل الله وأنبياءه إليهم، على الرغم من علمهم بهلاك الأمم التي سبقتهم إلى هذه المعاصي.

3 ـ أكدت سورة الأنعام ـ كما أكدت أكثر من سورة غيرها من سور القرآن الكريم ـ حقيقة انحراف اليهود عن منهج الله، وكذبهم عليه ﷻ، فحرم الله ـ تعالى ـ عليهم كثيراً من أطايب الطعام.

4 ـ كذلك أكدت هذه السورة المباركة تكامل جميع رسالات السماء في هذا الدين الخاتم الذي بعث به النبي الخاتم ﷺ، لينذر به أهل مكة المكرمة، ومن حولها أهل الأرض جميعاً؛ وذلك لثبوت توسط هذه المدينة المباركة لليابسة بالكامل.

من الآيات الكونية في سورة «الأنعام»:

1 ـ التأكيد على قضية الخلق، وعلى أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء بالحق، وأنه على كل شيء وكيل، وعلى أن من بديع صنع الله خلق كل من السمٰوات والأرض، والظلمات والنور، والنجوم وتوابعها ـ من الكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والشهب والنيازك وغيرها ـ، وخلق الإنسان من طين، وخلق السلالة البشرية كلها من نفس واحدة، وخلق ما يسكن بالليل وما يسكن بالنهار من الكائنات.

2 ـ جاءت في السورة الكريمة الإشارة إلى أن كل نوع من أنواع الحياة عبارة عن خلق يشبه خلق الإنسان في انبثاقه عن أصل واحد، وترابطه في أمة واحدة.

3 ـ الإشارة إلى أن بالكون غيبيات مطلقه لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ، وأن النوم هو صورة مصغرة للوفاة، وأن اليقظة من النوم تمثل البعث بعد الموت، وأن ظلمة الكون هي الأصل، وأن النور هو نعمة يمنّ الله ـ تعالى ـ بها على من يشاء من خلقه، وأن فلق الصبح من ظلمة الليل في كل يوم، وفلق الحب والنوى لإخراج كل من السويقة والجذير من البذرة النابتة عمليتان متشابهتان، وتشهدان لله ـ تعالى ـ

بطلاقة القدرة في إبداع الكون، وأن الليل مخصص للسكن، وأن النهار مخصص لعمارة الأرض وللجري وراء المعايش.

4 ـ استخدام ظاهرة تبادل الليل والنهار للإشارة إلى حقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وأن كلاً من الشمس والقمر يجري بنظام محكم دقيق يُمَكِّنُ الإنسان من حساب الزمن والتأريخ للأحداث.

5 ـ التأكيد على أن الحب المتراكب في النبات يخرج أصلاً من الصبغة النباتية الخضراء المعروفة باسم «اليخضور»، وأن القنوان الدانية تخرج من طلوع النخل، وأنه بإنزال الماء من السماء أخرج ربنا ـ تبارك وتعالى ـ جنات معروشات وغير معروشات من الأعناب، والنخل، والزيتون، والرمان، متشابهاً وغير متشابه، ومن الزرع المختلف أكله، وأن ثمره إذا أثمر وينعه لهو من أروع الآيات لقوم يؤمنون.

6 ـ الإشارة إلى أن التصعّد في السماء بغير وقايات حقيقية يجعل صدر الصاعد ضيقاً حرجاً.

7 ـ الإشارة إلى توسط مكة المكرمة لليابسة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، وكلها يدخل من العلوم الكونية في الصميم؛ ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثانية فقط من القائمة السابقة التي تشير إلى خلق كل صور الحياة في تجمعات شبيهة بالتجمعات الإنسانية في انبثاقها عن أب واحد وأم واحدة، وترابطها في أمة واحدة، كما جاء في الآية الكريمة رقم (38) من سورة الأنعام، ولكن قبل الوصول إلى ذلك لا بد لنا من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 38».

- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله تعالى ـ ما مختصره: «... قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة».

وقال السدي: «﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ أي خلقٌ أمثالكم....».

- وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نختار منه قوله: «وهي حقيقة هائلة... حقيقة تجمع الحيوان والطير والحشرات من حولهم في أمم.. لها سماتها وخصائصها وتنظيماتها كذلك.. وهي الحقيقة التي تتسع مساحة رؤيتها كلما تقدم علم البشر، ولكن علمهم لا يزيد شيئاً على أصلها!! وإلى جانبها الحقيقة الغيبية الموصولة بها، وهي إحاطة علم الله اللدني بكل شيء، وتدبير الله لكل شيء... وهي الحقيقة التي تشهد بها تلك الحقيقة المشهودة....».

- وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نقتطف منه قوله: «﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ طوائف مختلفة أمثالكم في الخلق والموت، والحاجة إلينا في الرزق والتدبير في جميع أمورها، والدلالة على كمال القدرة، وبديع الصنعة في تسخيرها وتصريفها بقدرتنا....».

- أما أصحاب المنتخب «في تفسير القرآن الكريم» ـ جزاهم الله خيراً ـ فقد ذكروا ما نصه: «وإن أقوى دليل على قدرة الله وحكمته ورحمته أنه خلق كل شيء، وليس في الأرض حيوان يدب في ظاهر الأرض وباطنها، أو طائر يطير بجناحيه في الهواء، إلا خلقها الله جماعات تماثلكم، وجعل لها خصائصها ومميزاتها ونظام حياتها، ما تركنا في الكتاب المحفوظ عندنا شيئاً إلا أثبتناه. وإن كانوا قد كذبوا، فسيحشرون مع كل الأمم للحساب يوم القيامة».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما نصه: «تنتظم الكائنات الحية في مجموعات يختص كل منها بصفات تكوينية ووظيفية أو طبائع مميزة، وفي الآية الكريمة تنبيه إلى تباين صور المخلوقات وطرائق معيشتها، فكما أن الإنسان نوع له خصائصه فكذلك سائر أنواع الأحياء. وهذا ما يكشفه علم التصنيف كلما تعمقنا في دراسة نوع منها».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

يتعرف علماء الأحياء اليوم على أكثر من مليون ونصف مليون نوع من أنواع الأحياء التي تعمر مختلف البيئات المائية والأرضية والهوائية. وبالإضافة إلى ذلك تعرف علماء الأحافير على أكثر من ربع مليون نوع من أنواع الحياة البائدة، وبمعدلات الاكتشافات السنوية في هذين الميدانين يقدر العلماء أن المجموع المتوقع لأنواع الأحياء على كوكبنا الأرض قد يصل إلى نحو أربعة ملايين ونصف مليون نوع. ولمّا كان كل نوع من هذه الأنواع يمثل ببلايين الأفراد المتزامنين والمتعاقبين ـ حيث أن المدى الزمني لكل نوع من أنواع الحياة يتراوح بين نصف مليون سنة وخمسة ملايين من السنين (بمتوسط مليونين وسبعمائة وخمسين ألف سنة)، وإن أقدم أثر للحياة على الأرض يمتد إلى ثلاثة بلايين وثمانمائة مليون سنة ـ؛ فإنه يصبح من العسير تتبع كل فرد من هذه البلايين من ملايين الأنواع مهما أوتي الإنسان من علم ومهما توافر له من وسائل الإحصاء، ومن هنا كانت ضرورة التصنيف الذي أشارت إليه سورة الأنعام بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 38».

والآية الكريمة تشير إلى أن وحدة التصنيف الأساسية هي النوع الذي ينقسم إلى جماعات تضم أعداداً من هذا النوع، تعيش في منطقة معينة من مناطق الأرض ـ أمة من الأمم ـ فبنو الإنسان ينقسمون إلى أعراق مختلفة، يمثل كل عرق منها أمة من الأمم، وتنتهي هذه الأمم كلها إلى أصل واحد، وأب واحد هو آدم عليه السلام الذي وصفه ربنا ـ تبارك تعالى ـ بقوله العزيز:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ «سورة النساء، الآية: 1».

وبقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 189».

وبقوله ـ وقوله الحق ـ:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ «سورة الزمر، الآية: 6».

ويصف خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هذا الأصل الواحد لبني البشر فيقول:

«كلكم بنو آدم، وآدم من تراب»[1].

والآية الكريمة التي نحن بصددها تشير إلى أنه كما أن البشر ينقسمون إلى أعراق مختلفة، يمثل كل عرق منها بأمة من الأمم، وتنتهي أمم البشر جميعهم إلى أصل واحد، فكذلك كل نوع من أنواع الأحياء، ينقسم إلى عدد من الجماعات أو الأمم (Populations) التي تنتهي إلى أصل واحد، مما يؤكد تعدد النوع الواحد إلى جماعات أو أمم شتى، وعلى استقلالية كل نوع من أنواع الأحياء عن غيره من الأنواع، وإن كان هناك قدر من التشابه في البناء يشير إلى وحدانية الخالق ﷻ فجميع الخلق من الذرة إلى المجموعة الشمسية إلى المجرة، ومن الخلية الحية المفردة إلى جسد الإنسان كل ذلك مبني على نسق واحد، ونظام واحد في زوجية واضحة تشهد للخالق ـ تقدست أسماؤه ـ بالخالقية والألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

النوع في القرآن الكريم وفي علم التصنيف:

في محاولة للإلمام بهذه الأعداد غير النهائية من الخلق، قام علماء الأحياء بتصنيفها إلى مجموعتين رئيسيتين هما: النباتات والحيوانات على أساس من أن النباتات الرئيسية مثبتة في الأرض بواسطة جذورها، وقد أعطاها الخالق ﷻ القدرة على تصنيع غذائها بنفسها، أما الحيوانات فقد أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على الحركة الذاتية، وعلى جمع والتهام وهضم وتمثيل الغذاء الذي تحصل عليه من غيرها. وقد بقي تقسيم الكائنات الحية إلى هاتين المجموعتين الكبيرتين سائداً إلى أوائل القرن العشرين، على الرغم من اكتشاف الكثير من الكائنات الحية التي يصعب تصنيفها مع أي من النبات أو الحيوان وذلك باستخدام المجهر الذي تم بناؤه في القرن السابع عشر الميلادي، وقد كان من بين هذه المكتشفات العديد من

---

(1) رواه الهيثمي في «مجمع الزوائد» والبزار في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه.

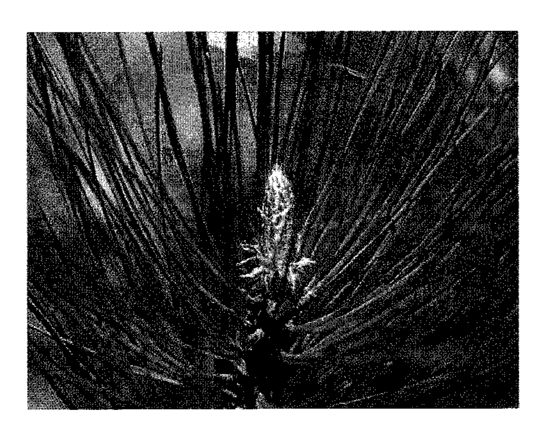


الكائنات الدقيقة ذات الخلية الواحد التي تضم أفراداً لها شبه بالنبات، وأخرى لها شبه بالحيوان، وثالثة تضم مميزات المجموعتين معاً. وقد وضعت هذه الكائنات وحيدة الخلية في مجموعة مستقلة عرفت باسم الطلائعيات (Protista).

وباكتشاف البكتيريا اتضح افتقارها إلى التركيب الخلوي الذي يميز أفراد الممالك الثلاث الكبرى وهي: الطلائعيات، النباتات، والحيوانات، فخلية البكتيريا تفتقر إلى النواة المحددة التي تميز خلايا المجموعات الثلاث الكبرى، ويشبه البكتيريا في ذلك كائنات بسيطة تعرف باسم الطحالب الخضراء المزرقة (Blue Green Algae) وكلها كائنات وحيدة الخلية، وليس لخليتها نواة محددة بل تنتشر حاملات الوراثة فيها في سائل الخلية دون أدنى قدر من التحديد.

كذلك مع اكتشاف الفيروسات (Viruses) اتضح أن لها ما يميزها أيضاً؛ فهي تعيش متطفلة على غيرها من الكائنات، وتتكاثر بإدخال مادتها الوراثية البسيطة إلى الخلايا النباتية أو الحيوانية أو الطلائعية؛ ولما كانت المادة الوراثية في هذه الكائنات البدائية غير مترابطة بشكل محدد فإن الفيروسات تسمى أحياناً باسم المورثات (الجينات) العارية.





وعلى ذلك قسمت الأحياء في أربعة ممالك هي: البدائيات (Monera) والطلائعيات (Protista) والنباتات (Plantae) والحيوانات (Animalia)، ثم ثبت بالدراسة أن الفطريات تختلف عن الأوليات في أنها تمتص غذاءها من خلال جدرها الخلوية كالنباتات، ولكنها لا تقوم بتصنيع غذائها بنفسها كالنباتات، كما أنها لا تقوم بالتهام غذائها كالحيوانات؛ ولذلك كان لا بد من فصلها في مملكة مستقلة، وبفصلها أصبحت ممالك الحياة المعروفة لنا خمساً كما يلي:

1 - مملكة البدائيات: (Kingdom Monera) وتشمل كلاً من: الفيروسات والبكتيريا والطحالب الخضراء المزرقة، وهي غالباً وحيدة الخلية، والخلية منها ليست لها نواة محددة.

2 - مملكة الطلائعيات: (Kingdom Protista) وتشمل الأوليات وبقية الطحالب وهي وحيدة الخلية وخليتها لها نواة محددة.

3 - مملكة الفطريات أو الفطور: (Kingdom Fungi).

وتشمل كلاً من الفطريات الغروية، والفطريات الحقيقية، والفطريات الطحلبية والأشنات، وقد تكون وحيدة الخلية أو عبارة عن تجمعات خلوية، ولكل خلية من خلاياها نواة محددة. وتختلف الفطريات عن النباتات في خلوها من الصبغة الخضراء؛ ولذلك فإنها تعتمد في غذائها على غيرها من الكائنات الحية أو على المواد العضوية المتحللة، فمنها الفطريات الرميّة التي تعيش على الجيف الميتة وبقايا النباتات المتحللة ومنها الفطريات الطفيلية التي تعيش على حساب غيرها من الكائنات الحية.

4 ـ مملكة النبات: (Kingdom Plantae) وتشمل كائنات عديدة الخلايا، ولكل خلية منها نواة محددة. والخلايا متخصصة في أنسجة وأعضاء، وتحمل الصبغات النباتية التي تمكنها من القيام بعملية التمثيل الكربوني لإعداد غذائها. والخلية جدارها غير حي، والنبات غالباً مثبت بالتربة.

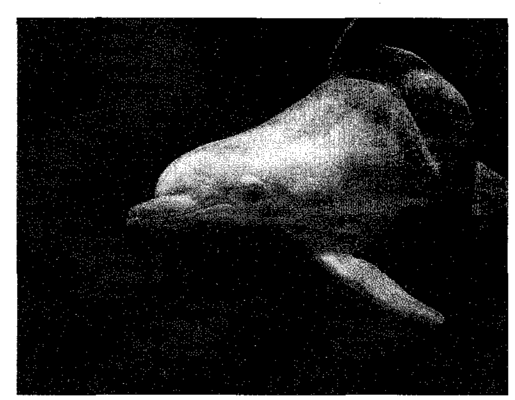
5 ـ المملكة الحيوانية: (Kingdom Animalia) وتشمل كائنات حية، عديدة الخلايا، ولكل خلية نواة محددة. وجدار حي، وهي كائنات قادرة على الحركة الذاتية والتغذي على غيرها من النباتات أو الحيوانات.

وهذا التقسيم الوضعي هو وسيلة من وسائل الحصر التي تعين دارسي الأحياء على الإلمام ولو بصورة تقريبية بهذا الكم من المخلوقات الحية الذي لا يكاد إنسان أن يحصيه، ولذلك يصفه أحد علماء الحياة البارزين في زماننا هذا وهو ريتشارد أ. جولدزبي في كتابه المعنون: «علم الأحياء» الجزء الأول، ص: 394 بقوله:

«ومع أن النظام المبني على أساس أن هناك خمس ممالك هو المفضل في هذا الكتاب إلا أنه كغيره من الأنظمة التقسيمية الأخرى لا يخرج عن كونه من صنع العقل الإنساني؛ ولهذا فهو محاولة لوضع حدود اعتباطية للطبيعة؛ ولما كانت الطبيعة تتميز بالتنوع الكبير فإن عمل تقسيمات دقيقة ومتجانسة يعتبر أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً» ([Richard A. Goldzbi (1980): Biology].

التصنيف الحالي للكائنات الحية

في محاولة للإحاطة ببلايين البلايين من أفراد الحياة، قسمت كل مملكة من هذه الممالك الخمس للأحياء إلى عدد من القبائل (Phyla) وقسمت كل قبيلة إلى عدد من الطوائف (Classes)، كما قسمت كل طائفة إلى عدد من الرتب (Orders) وقسمت كل رتبة إلى عدد من العائلات (Families) وقسمت كل عائلة إلى عدد من الأجناس (Genera)، وقسم كل جنس إلى عدد من الأنواع (Species) وقسم كل نوع إلى عدد من الأصناف (Varieties) وقسم الصنف الواحد إلى عدد من السلالات (Strains) وتشتمل كل سلالة على العديد من الأفراد.





وزيادة في التعقيد فتح الباب لمضاعفة كل وحدة من هذه الوحدات التصنيفية إلى ثلاثة أضعافها؛ وذلك بالسماح بإضافة وحدة قبلها تسبقها المقدمة: فوق أو (Super) ووحدة بعدها؛ وذلك بتوظيف الإضافة: تحت أو (Sub) فيقال: فوق المملكة، المملكة، وتحت المملكة وهكذا بالنسبة لجميع الوحدات التصنيفية المقترحة.

وهذا كله تم في محاولة يائسة من أدعياء التطور لإلغاء حقيقة الخلق، وإنكار الخالق ﷻ ونسبة كل شيء إلى الطبيعة، ولكن الكشوف العلمية المتلاحقة ـ وفي مقدمتها علم الوراثة ـ بدأت تؤكد لنا أن الوحدة التصنيفية الحقيقية للأحياء هي النوع الذي ميزه الخالق ﷻ إلى بلايين الأفراد التي نشرها في الأرض وجمعها في عدد من الأمم أو الجماعات (Populations)، يعيش كل منها في منطقة محددة من الأرض، وتحت ظروف بيئية خاصة، وينتهي نسبها إلى أصل واحد أوجده الخالق ﷻ بعلمه وحكمته وقدرته. ويبقى النوع (Species) هو الوحدة التصنيفية الوحيدة المؤكدة في جميع التصنيفات الحديثة لكل المخلوقات الحية، وما فوق ذلك من وحدات هو محض افتراضات ظنية، تدخل فيها اعتبارات شخصية عديدة، فالشخص الذي يقوم بعملية التصنيف يختار صفات ويتجاهل أخرى من أجل تيسير عملية حصر هذا الكم الهائل من الخلق.

وعلى ذلك فإن كل نوع من أنواع الكائنات الحية يشمل مجموعة من الأمم أو الجماعات (Populations) التي تجمعها صفات خارجية، شكلية، وصفية، واحدة، وصفات تشريحية داخلية واحدة، ووظائف أعضاء واحدة، وبنية كيميائية حيوية واحدة، وصفات

وراثية أساسية واحدة، وظروف بيئية متقاربة وإن باعدت بينها المسافات الأرضية، وقدرة على التزاوج فيما بينها وإنتاج سلالة خصبة نتيجة لهذا التلاقح. وهذه الصفات تجمع بين أفراد كل أمة من هذه الأمم كما تجمع بين جميع أفراد كل أمم النوع الواحد ـ وإن قامت بين تلك الأمم بعض الفوارق الناتجة عن الاختلافات البيئية، أو العزل الجيني ـ حيث إن جميع هؤلاء الأفراد قد استلوا من شيفرة وراثية واحدة.

وعلى ذلك فإن الأفراد من نوعين مختلفين من أنواع الأحياء لا يمكن أن يتم بينهما تلاقح يؤدي إلى سلالة خصبة أبداً، وكل نوع من هذه الأنواع لا يمكن أن ينسل خارج نوعه الذي ينتسب إليه أبداً، وإنما تتباين أفراده عن بعضها البعض تبايناً قليلاً في الأمة الواحدة، أو الجماعة الواحدة من أمم هذا النوع على أساس من تنوع نصيب كل فرد من الأفراد من الميراث الجيني الذي وضعه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في أصل هذا النوع من أنواع الأحياء. وقد تزيد الفروق الفردية قليلاً بين الأفراد في أمتين منفصلتين نتيجة للعزل الوراثي (الجيني) وللاختلاف في الظروف المناخية والبيئية.

وهذه الملاحظة وحدها تكفي لنفي فكرة التصنيف الرأسي لمجموعات الأحياء المبني على افتراض صلات القربى بين أفراد المملكة الواحدة من النوع أو السلالة إلى المملكة وبين الممالك كلها انتصاراً لفكرة التطور العضوي التي هزمها وحسمها العلم بمعطياته المتلاحقة، وأهمها قراءة الشيفرة الوراثية للإنسان وللعديد غيره من الكائنات الحية التي بدأ الإنسان بمحاولة تصنيفها في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي حين قام الطبيب وعالم الأحياء السويدي كارولس لينيوس (Carolus Linnaeus or Carl von Linné) بنشر كتابه المعنون: النظم الطبيعية (Systema Naturae) في سنة 1758م وذلك قبل نشر كتاب «أصل الأنواع» لتشارلس داروين (Charles Darwin) بمائة سنة، وقد نادى لينيوس في كتابه بضرورة تصنيف الأحياء وتسميتها حسب نظام وضعه باسم نظام التسمية الثنائية. وهو نظام قائم على افتراض تأصل كل أنواع الحياة ونسبتها إلى أصل واحد، ولكن الآية القرآنية التي نحن بصددها والتي يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 38»... تشير إلى أن كل نوع من أنواع الأحياء؛ بأممه وأفراده هو كيان خاص معزول عن غيره من الأفراد والأمم والأنواع، وأن كل صلات القربى المتعلقة به محصورة في أفراده، ولا تمتد إلى غيره من الأنواع، وهي حقيقة

بدأت نتائج العلوم المتلاحقة من مثل علوم الوراثة، علم الأحياء الجزيئي، علم الكيمياء الحيوية وغيرها تتحدث عنها بوضوح.

وسبقُ القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة من قبل ألف وأربعمائة من السنين لمما يؤكد أن هذا الكتاب الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى يزيد على الأربعة عشر قرناً وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، و ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 43». والصلاة والسلام على النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقى القرآن العظيم من ربه ـ تعالى ـ، فحمله إلينا بأمانة كاملة في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية، وبكل ما أنزل فيه من حق ـ وهو كله حق ـ والصلاة والسلام على آل بيته الطيبين الطاهرين وصحبه الغر الميامين، وعلى كل من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.



وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ
عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ**
نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ
وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ
رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 18».

2

هذه الآية الكريمة جاءت في الخُمس الأوّل من سورة «النمل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (93) بعد البسملة؛ وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى وادي النمل الذي مر به نبي الله سليمان عليه السلام وجنوده، فنطقت نملة ـ بلغتها الخاصة بها ـ محذرة رفاقها من إمكانية أن يطأهم سليمان وجنوده بأقدامهم أو بحوافر خيلهم فيحطمونهم وهم لا يشعرون؛ ولذلك أمرتهم بدخول مساكنهم. وفي هذه الواقعة من الدلالة على وجود قدر من الوعي والنطق والإدراك عند أمة النمل، وكذلك عند جميع المخلوقات وهي ما أكدته الدراسات العلمية في أواخر القرن العشرين.

وسورة «النمل» هي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية بنفس ترتيبها في المصحف الشريف وهي: الشعراء، النمل، والقصص، ويكاد منهاجها أن يكون واحداً، في استعراض قصص عدد من الأمم السابقة، والتعرف على كيفيات تعاملها مع رسالة السماء، وذلك من أجل استخلاص العبرة، والتدبر في سنن الله الواقعة بعباده دون تغير، أو تحول، أو توقف، وفي المقارنة بين مواقف مشركي قريش من خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ومواقف أعداد من الكفار والمشركين أمثالهم من رسل الله السابقين، ومواقف أعداد أخرى من اللاحقين من بعدهم من الظلمة المتجبرين على الخلق خاصة على الدعاة الصادقين إلى الله واستمرار ذلك عبر التاريخ إلى يومنا الراهن، وحتى قيام الساعة.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «النمل» حول إخلاص الإيمان بالله تعالى وحده، وإخلاص العبادة له ـ سبحانه ـ وحده بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد؛ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله تعالى منزه عن جميع صفات خلقه؛ ولذلك

كان توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله هو صلب رسالة السماء إلى المخلوقين من لدن أبينا آدم إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، ولذلك أيضاً تكرر في سورة «النمل» هذا السؤال التقريري، التقريعي، التوبيخي الشديد: (أإله مع الله؟) خمس مرات في سياق الاستدلال على الوحدانية المطلقة لله ـ تعالى ـ فوق جميع خلقه من خلال دراسة هذا الخلق. ويأتي الجواب في كل مرة صادعاً، قوياً، عنيفاً:﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

وبالإضافة إلى التركيز على وحدانية الله ـ تعالى ـ، وتجريم وتكفير الشرك به شددت سورة النمل على قواعد أخرى من ركائز العقيدة الإسلامية، ومنها حقيقة كل من النبوة والرسالة والوحي، وحقيقة الآخرة التي استشهدت السورة الكريمة بعدد من علاماتها، والمظاهر المصاحبة لها. وأشارت إلى البعث وأهواله، والحساب ودقته، والجزاء وعدله، وأكدت حقيقة الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ، الخلاق، الرزاق، العليم، واهب النعم، ومجري الخيرات، رب هذا الكون ومليكه، صاحب الحول والطَّول والقوة المطلقة، ولا حول ولا طول ولا قوة إلا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد استهلت سورة «النمل» بالحرفين المقطعين ﴿طسٓ﴾، ومثل هذه المقطعات من حروف الهجاء التي افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم تعتبر من أسرار هذا الكتاب الخالد، وهذا السر فَوَّضَ غالب المفسرين الأمر فيه إلى الله، وحاول البعض منهم إيجاد تفسير له. ومن هؤلاء من رأى في هذه المقطعات وسائل تنبيه كالتي استخدمها العرب في مطالع أحاديثهم لاستثارة انتباه المستمعين إليهم، ومنهم من رأى فيها رموزاً إلى كلمات أو أعداد أو معان محددة أو أسماء للسور التي وردت في أوائلها، ومنهم من رأى فيها وجهاً من أوجه تحدي العرب بالقرآن الكريم، وإثبات إعجازه؛ من باب أن هذه الحروف الأربعة عشر تشير إلى بقية حروف الهجاء التي هي في متناول أيديهم، وعلى الرغم من ذلك فهم عاجزون ـ وسوف يظلون عاجزين ـ عن الإتيان بسورة من مثله.

وقد تحداهم القرآن الكريم بذلك في أكثر من موقع، ولا يزال هذا التحدي قائماً دون أن يتقدم عاقل بسورة من مثل سور القرآن الكريم. ومن المفسرين من رأى في الفواتح الهجائية

التي جاءت في مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم معجزة للرسول الخاتم ﷺ تتمثل في نطقه بأسماء الحروف ـ وهو الأمي ـ والأمي ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها.

ومن المفسرين من يميل إلى الجمع بين هذه الآراء جميعها، ومنهم من يدعو إلى المزيد من الاجتهاد لعل الله ـ تعالى ـ أن يأذن بمعرفتها فيفتح لأحد الصالحين المجتهدين باب علم فيها، وما ذلك على الله بعزيز.

وبعد الفاتحة الهجائية تلك، تأخذ أول آيتين في سورة «النمل» بالثناء على القرآن الكريم وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ * هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ *﴾

«سورة النمل، الآيتان: 1 ـ 2».

ثم تصف الآيتان التاليتان المؤمنين بأنهم هم: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 3».

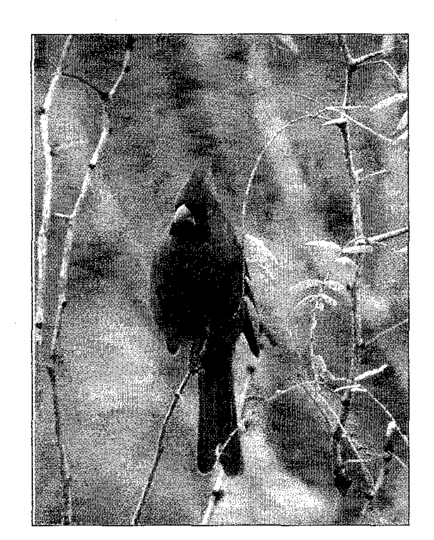
كما تصف الذين لا يؤمنون بالآخرة بأنهم ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ أي: يتيهون في ضلالاتهم التي يتحيرون فيها كثيراً ويترددون.

وتؤكد الآيات بعد ذلك حقيقة أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق؛ وذلك بتوجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ له:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ «سورة النمل، الآية: 6».

كذلك استعرضت الآيات في سورة «النمل» لمحات من سير عدد من أنبياء الله ورسله تأكيداً على وحدة الرسالة السماوية التي كانت كلها إسلاماً لله تعالى، وتكاملت كلها في بعثة الرسول الخاتم ﷺ.

وتبدأ السورة الكريمة في هذا السرد الإلٰهي بحلقة من قصة موسى عليه السلام ناجاه فيها ربه سبحانه وتعالى بالبقعة المباركة من أرض سيناء ـ جبل المناجاة ـ وكلفه بإبلاغ رسالته إلى فرعون وقومه، وأعطاه تسع آيات تشهد له بالنبوة وبالرسالة فكذبوا بها، وأنكروها لما جاءتهم، واعتبروها ضرباً من السحر على الرغم من تيقنهم من صدقها، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:



﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۞ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۞﴾

«سورة النمل، الآيتان: 13 ـ 14».

ثم جاء ذكر كل من داود وولده سليمان عليهما السلام في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ۞ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۞ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞﴾

«سورة النمل، الآيات: 15 ـ 19».

وكان الهدهد من ضمن ما حشر لسليمان من الطير، ولكنه عندما تفَّقده لم يجده، فتوعَّده بعذاب شديد، ثم فاجأه الهدهد بنبأ جاء به من مملكة سبأ، حيث وجد امرأة تحكمهم، وقد أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وانتقد الهدهد ذلك كما جاء في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ على لسانه إذ يقول:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ۞ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ۞﴾

«سورة النمل، الآيات: 24 ـ 26».

فأرسل سليمان الهدهد برسالة منه إلى أهل مملكة سبأ، وتلقته ملكتهم فقالت ـ كما يقول الحق ـ تبارك وتعالى:

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ *﴾ «سورة النمل، الآيات: 29 ـ 31».

وبعد مشاورات مع أهل الرأي عندها قامت ملكة سبأ بإرسال هدية إلى سليمان فرفضها، وتوعدها بالحرب، وأمر بالإتيان بعرشها فجيء به إليه، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...﴾ «سورة النمل، الآيات: 38 ـ 40».

ثم جاءت ملكة سبأ لملاقاة سليمان، وقد سبقها عرشها إليه، فقالت كما تروي الآيات في سورة النمل:

﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ «سورة النمل، الآية: 44».

وبعد ذلك انتقلت سورة «النمل» إلى جانب من قصة نبي الله صالح عليه السلام، وكان أغلب قبيلته ثمود من المفسدين في الأرض فدعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار، وأبرز لهم من المعجزات الحسية ما يشهد له بالنبوة ولكنهم كفروا برسالته، وتآمروا عليه، ومكروا به فدمرهم الله ـ تعالى ـ أجمعين، ونجّى صالحاً ومن آمن معه، ويذكرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بما حدث لهم قائلاً:

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ *﴾ «سورة النمل، الآيات: 51 ـ 53».

ثم عرجت سورة «النمل» إلى جانب من قصة نبي الله لوط عليه السلام، وقصة الكافرين المفسدين في الأرض من قومه، وهمهم بإخراجه ومن آمن معه من قريتهم بدعوى أنهم أناس يتطهرون، فأنزل الله تعالى عقابه بهم، ونجّى لوطاً والذين آمنوا معه.

وفي خواتيم سورة «النمل» وجهت الآيات الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ *﴾ «سورة النمل، الآيات: 59 ـ 64».

وتعاود الآيات في سورة «النمل» وصف كل من منكري الآخرة والمتشككين في وقوعها بالعمى، وتطالب خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بالرد عليهم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

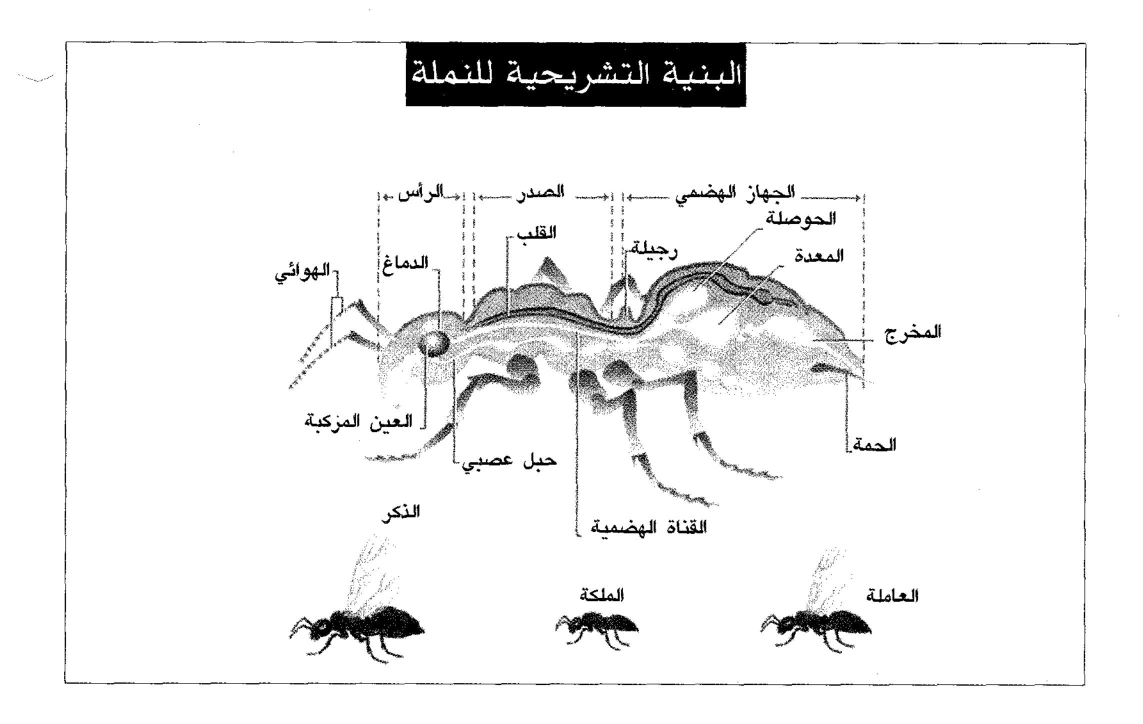
﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ *﴾ «سورة النمل، الآية: 69».

وتؤكد الآيات أن اليهود قد حرفوا دينهم واشتروا به ثمناً قليلاً، ممتدحة في نفس الوقت القرآن الكريم وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ *﴾ «سورة النمل، الآيتان: 76 ـ 77».

وتُذَكِّرُ سورة «النمل» بواحدة من العلامات الكبرى للساعة، مؤكدة جحود أغلب الناس بآيات الله، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 82».



ثم تذكّر الآيات كذلك بيوم البعث وأهواله، وبعدد من الأحداث المصاحبة له، وتصف تمايز الناس فيه بين محسنين ومسيئين، وتوضح جزاء كل منهم، وتنتهي إلى قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ على لسان خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۞﴾ «سورة النمل، الآيتان: 91، 92».

وتختتم هذه السورة المباركة بأمر من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 93».

وفي هذه الخاتمة الكريمة إشارة إلى التقدم العلمي والتقني الذي حققته مسيرة البشرية في زماننا الراهن، وما كان لأحد في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إدراك إمكانية تحقيق ذلك أبداً.

من ركائز العقيدة في سورة «النمل»:

1 ـ الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً واحداً أحداً، هو رب العالمين، وهو العزيز الحكيم، وهو رب العرش العظيم ورب هذا الكون ومليكه، وصاحب الحول والطول والقوة المطلقة، ولا حول، ولا طول، ولا قوة إلا به ﷻ، والإيمان بأنه ﷻ هو الخلاق، الرزاق، الفتاح، العليم، واهب النعم، ومجري الخيرات، وهو الغفور الرحيم.

2 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ منزه عن جميع خلقه: في ذاته وصفاته وأسمائه، فلا يجوز دعاؤه بغير ما سمى به ذاته العلية من أسماء، ولا يجوز وصفه إلا بما نعت به ذاته العلية من نعوت، ولا يجوز تحديده بمكان أو زمان لأنه خالق كلٍّ من المكان والزمان، ولا يجوز تجسيده في شكل مادة أو طاقة لأنه ﷻ، هو مبدعهما، والمخلوق لا يحد خالقه أبداً؛ ومن هنا فإن من أبشع صور الكفر بالله ـ تعالى ـ ادعاء الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة، أو الولد له ﷻ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله ﷻ منزه عن جميع صفات خلقه، لذلك كان توحيد الله ـ تعالى ـ هو رسالته الأولى إلى جميع خلقه يوم خلق السمٰوات والأرض، ثم علمها لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم أنزل بها سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، وأكملها وأتمها في رسالته الخاتمة: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولذلك تعهد بحفظهما إلى يوم الدين، كما حفظهما على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية.

3 ـ الإيمان بوحي السماء، وبوحدة الرسالة السماوية، وبالأخوة بين الأنبياء، وبأن جميع الرسالات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ قد تكاملت في الرسالة الخاتمة التي تعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظها إلى يوم الدين.

4 ـ الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، وبالعلامات الدالة على بدء وقوعها والتي استشهدت السورة الكريمة بأعداد منها مثل دابة الأرض التي تكلم الناس، والإيمان بجميع المظاهر المصاحبة للآخرة ومنها النفخ في الصور مرتين، وما يصحب كل واحدة منهما من فزع، والبعث وأهواله، والعرض الأكبر أمام الله ـ تعالى ـ ورهبته، والحساب بعدل الله وقسطاسه، والميزان ودقته، والصراط وحدَّته، والجزاء وإنصافه، ثم الخلود بعد ذلك إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً.

5 ـ التسليم بالغيوب المطلقة التي تحدث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لأن مثل هذه الغيوب لا يمكن للإنسان الوصول إليها بنفسه مهما تطورت قدراته البشرية، واتسع علمه المكتسب.

6 ـ اليقين بأن القرآن الكريم هو كلام الله الحكيم العليم، وهو ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وإنه ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأنه يقص على أهل الكتاب ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

7 ـ التصديق بكل ما جاء في القرآن الكريم من قصص الأولين، وبكل المعجزات التي أجراها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على أيدي أنبيائه تأييداً لهم، ودعماً لصدق رسالتهم.

8 ـ الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الذي ينبت نبات الأرض وأشجارها بعلمه وحكمته وقدرته، وهو الذي جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً، وهو الذي يهدي خلقه في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو الذي يرزق خلقه من السماء ومن الأرض، وهو الذي يعلم غيب السمٰوات والأرض.

9 ـ اليقين بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾ «سورة النمل، الآيتان: 89 ـ 90».

10 ـ الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ قد حرم مكة المكرمة يوم خلق السمٰوات والأرض، فهي أرض محرمة إلى يوم القيامة.

11 ـ التصديق بأن الله ـ تعالى ـ سوف يري خلقه عظيم آياته التي أنزلها في محكم كتابه والتي أبرأها في الأنفس والآفاق حتى يشهد كل ذي بصيرة أن القرآن الكريم هو كلام الله الحق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله؛ وحفظه بعهده، في نفس لغة وحيه دون أدنى تبديل أو تحريف أو تغيير حتى يبقى حجة على جميع الخلق إلى يوم يبعثون.

من التشريعات الإسلامية في سورة «النمل»:

1 ـ التشريع بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

2 ـ تحريم الشذوذ الجنسي تحريماً قاطعاً، على الرغم من محاولة حكومات الغرب تحليله والتشريع لتبنيه، ولتبني زواج الشواذ مما يقضي على مؤسسة الأسرة، ويؤدي إلى إفناء الجنس البشري بالكامل.

3 ـ تحريم الظلم لأنه من صور الإفساد في الأرض، ولأن عواقبه وخيمة.

4 ـ الحث على صحبة الصالحين لما فيها من خير عميم.

5 ـ تحريم السجود لغير الله ـ تعالى ـ لأنه صورة من صور الشرك الذي حرمه الله.

6 ـ الحث على مداومة الشكر لله ـ تعالى ـ على عظيم نعمه، وعلى استغفاره طلباً لرحمته، وعلى التوكل عليه استعانة به.

8 ـ الحث على تلاوة القرآن الكريم وعلى تدبر آياته، وهو الكتاب المبين الذي تلقاه النبي الخاتم من لدن الله الحكيم العليم، الذي أنزله ﷻ هدى، ورحمة، وبشرى للمؤمنين.

من الإشارات الكونية في سورة «النمل»:

1 ـ الإشارة إلى حقيقة الآخرة، والعلوم المكتسبة تؤكد أن الكون مستحدث فَانٍ، كانت له في الأصل بداية، وأنه لا بد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية لا يعلم موعدها إلا الله ﷻ؛ لأن العلوم المكتسبة لا تستطيع تحديدها رغم الشواهد المادية الكثيرة التي تؤكد حتمية وقوعها.

2 ـ الإشارة إلى عالمي الغيب والشهادة، والعلوم المكتسبة تؤكد أن الغيبيات في الكون المدرك تفوق المشاهد منه بتسعة أضعاف على أقل تقدير؛ لأن المعلوم لنا من الجزء المدرك من الكون لا يتعدى 10٪ من مجموع الكتل المحسوبة رياضياً وفيزيائياً وفلكياً من أجل انتظام وجوده.

3 ـ إثبات أن لكل خلق من خلق الله كالنمل والطير، وغير ذلك من الكائنات الحية، وحتى النباتات والجمادات ـ لكل واحد منها ـ قدراً من الوعي، والإدراك،

والذاكرة، والشعور، والإحساس، وله إيمان فطري بالله ـ تعالى ـ، وله عبادة تسخيرية، وتسبيح غير إرادي، ولا يدرك ذلك إلا من وهبه الله ـ تعالى ـ شفافية خاصة، كما أن لكل منها صورة من صور التعبير عن الذات، والتفاهم والاتصال بالغير، وتبادل المعلومات، وقدرة على إصدار الأوامر وتلقيها وعلى تنفيذها في أحسن صورة، وعلوم سلوك الحيوان والنبات، وحتى سلوك الجمادات قد بدأت في التعرف على بعض الجوانب في هذا المجال الغامض.

4 ـ إن في الإتيان بعرش الملكة من أرض سبأ إلى بيت المقدس في أقل من طرفة عين إشارة إلى سرعات فائقة تقترب من سرعة الضوء، ومثل هذه السرعات الفائقة لم يعرف إلا في القرن العشرين، والإشارة إليها في القرآن الكريم وهو كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين يعتبر سبقاً علمياً معجزاً يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية.

5 ـ التأكيد على خلق السمٰوات والأرض بالحق. وعلى أن الله ـ تعالى ـ يبدأ الخلق ثم يعيده، والمشاهدات في الكون كما تدونها العلوم الحديثة تؤكد ذلك وتدعمه.

6 ـ الإشارة إلى كلٍّ من تصريف الرياح، ودورة الماء حول الأرض بالتأكيد على إنزاله من السماء، وإلى إنبات الأرض بمجرد إنزال الماء عليها.

7 ـ ذكر العديد من صفات الأرض ومنها أن الله ـ تعالى ـ قد جعلها قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً، وكلها من الحقائق التي لم يتمكن العلم من إثباتها إلا مؤخراً.

8 ـ الإشارة إلى هداية الله ﷻ لعباده في ظلمات البر والبحر بواسطة كل من أضواء نجوم السماء، وأنوار القمر، وكلها من نعم الله العديدة على خلقه، ومن صور رزقه المتعددة لهم وهو الذي يرزقهم من السماء والأرض.

9 ـ التلميح إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بذكر تبادل كل من الليل والنهار، وبالإشارة إلى مرور الجبال مر السحاب وهي تبدو للناظر إليها وكأنها جامدة راسخة في أماكنها.

10 ـ الإشارة إلى أن مستقبل البشرية في تطورها العلمي سوف يؤكد صدق ما جاء به

القرآن الكريم من حقائق علمية، وتاريخية، ونفسية، وتربوية، وسلوكية ترددت في ثنايا رسالته الأساسية وهي الدين، بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات؛ كي يكون في استمرارية ذلك ما يؤكد على صدق ما جاء به القرآن الكريم من غيب. وعلى صدق النبي الخاتم الذي تلقاه، وليقيم هذا الكتاب العزيز الحجة بهذا الدين على الخلق أجمعين حتى يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها؛ ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثالثة فقط من القائمة السابقة والتي أشارت إليها الآية الثامنة عشرة من سورة «النمل».

وقبل البدء في ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

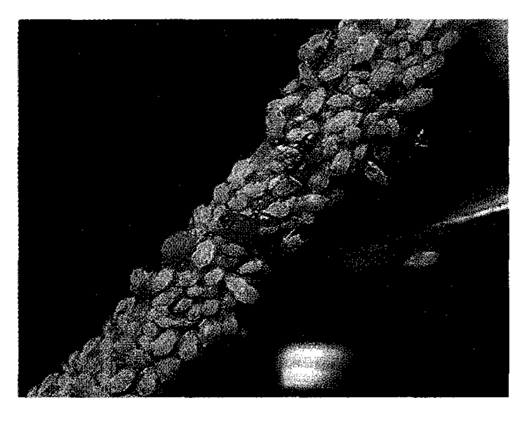
من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 18».

- ذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله برحمته الواسعة ـ ما نصه:

«لقد سار الموكب؛ موكب سليمان من الجن والإنس والطير في ترتيب ونظام يجمع آخره على أوله، وتضم صفوفه، وتتلاءم خطاه، حتى إذا أتوا على وادٍ كثير





النمل.. قالت نملة لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح في الوادي ـ ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم، تتنوع فيها الوظائف، وتؤدى كلها بنظام عجيب، يعجز البشر غالباً عن اتباع مثله، على ما أوتوا من عقل راق وإدراك عال ـ قالت هذه النملة للنمل بالوسيلة التي تتفاهم بها أمة النمل، وباللغة المتعارفة بينها، قالت للنمل: ادخلوا مساكنكم كيلا يحطمنكم سليمان وجنوده، وهم لا يشعرون بكم».

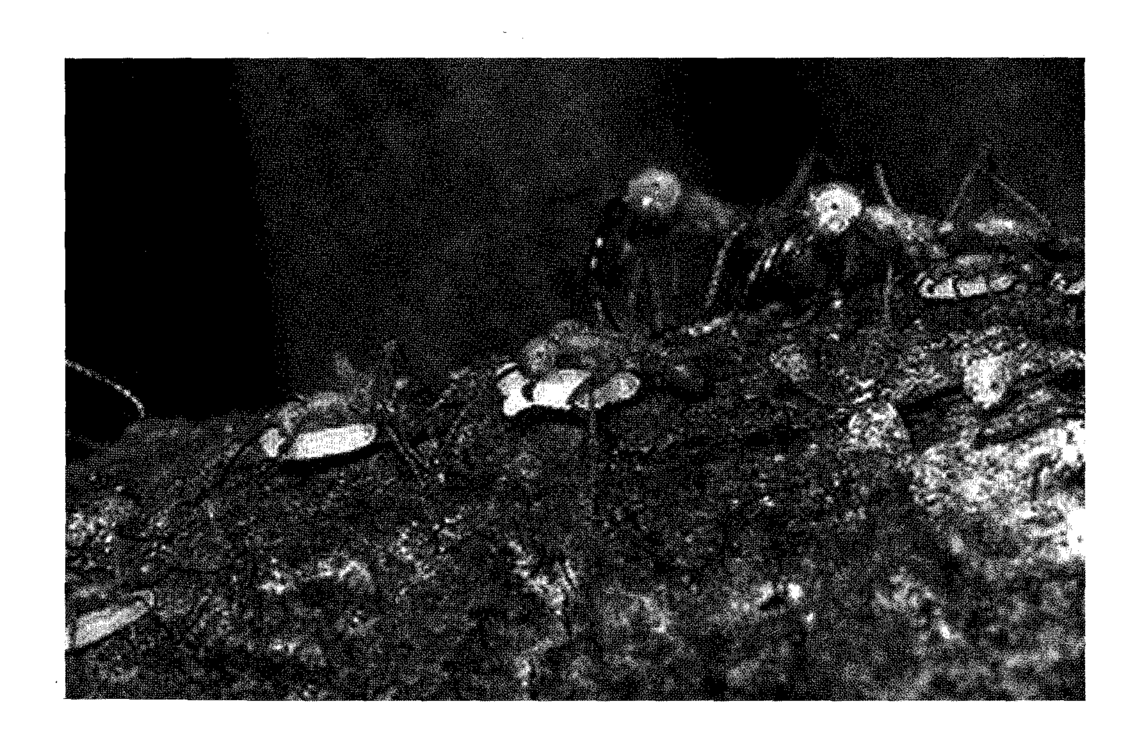
- وجاء في تعليق الخبراء على شرح أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «يتَّضح من هذه الآية الشريفة أن النمل يعيش في جماعات؛ أي أن له مجتمعاً، وأن من خصائصه اليقظة والحذر.. وقد عرف لمجتمع النمل منذ القدم خصائص عدة تشهد بأن له مجتمعاً منظماً، له نظام دقيق في الحكم، وأنه على قدر كبير من الذكاء والدهاء، وقوة الذاكرة، وحب العمل والمثابرة، والجهاد الذي لا يعرف الكلل ولا اليأس، كما عرف سعة الحيلة فيما يقوم به من أعمال، وآية ذلك أن مجتمع النمل.. يقوم بدفن موتاه، وتحرص جماعاته المختلفة على الالتقاء في صعيد واحد من حين إلى آخر؛ ولهذا خصص أياماً معينة لإقامة سوق تجتمع فيها جماعات لتبادل السلع وللتعارف. وهذه الجماعات حين تلتقي تتجاذب أطراف الحديث باهتمام بالغ، ويسأل بعضها البعض أسئلة تتصل بشؤونها. ومن مظاهر مجتمعها المترابط قيامها بمشروعات جماعية مثل إقامة الطرق الطويلة في أناة ومثابرة تثيران الدهشة.. ولا تكتفي هذه الجماعات بالعمل نهاراً بل تواصله ليلاً في الليالي القمرية، ولكنها تلزم مستعمراتها في الليالي المظلمة. ولأعضاء هذا المجتمع في جمع المواد الغذائية وحملها وتخزينها والمحافظة عليها طرق فريدة في نوعها، فإذا لم تستطع النملة حمل ما جمعته في فمها كعادتها لكبر حجمه حركته بأرجلها الخلفية ورفعته بذراعيها. ومن عاداتها أن تقضم الجذور، وتفلق بعض الحبوب قبل تخزينها حتى لا تعود إلى الإنبات مرة أخرى، وتجزىء البذور الكبيرة لكي يسهل عليها إدخالها في مستودعاتها، وإذا ما ابتلت بفعل المطر أخرجتها إلى الهواء والشمس لتجف».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: أن النمل يحيا في جماعات منظمة:

ويشير إلى هذه الحقيقة كل من اسم السورة والآية التي نحن بصددها، فاسم السورة جاء بصيغة الجمع ـ النمل ـ ولم يأت بصيغة الإفراد التي سميت بها سور قرآنية كريمة أخرى مثل سورة العنكبوت، والعنكبوت يحيا حياة فردية، والنمل لا يحيا إلا في جماعات، وإذا ضلت نملة منها عن جماعتها أو انفصلت عنها بسبب من الأسباب، فإنها إما أن تنضم إلى جماعة أخرى أو تموت.

وكذلك استخدمت الآية الكريمة التي نحن بصددها تعبير (وادي النمل) وقد ثبت أن النمل يحيا في جماعات يتفاوت عدد أفرادها بين بضع عشرات، وعشرات الملايين، يحكمها تنظيم دقيق، تتنوع فيه المسؤوليات والوظائف والأعمال التي تؤدى كلها بمستويات مبهرة من الإتقان في الأداء، والتفاني في العطاء، والثبات والاجتهاد والمثابرة التي يفتقر إليها كثير من الناس.



وتبدأ جماعة النمل بالملكة المخصبة التي تضع بيضها في مكان آمن ترعاه فيه حتى يفقس وتخرج منه اليرقات التي تتعهدها الملكة حتى يتم نموها إلى الحشرة الكاملة، والملكات هي الإناث الخصبة من النمل التي أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على التكاثر، ووضع البيض، ورعاية صغارها حتى تصبح قادرة على العمل؛ وحينئذ تبدأ الشغالات القيام بمسؤولية مستعمرة النمل قياماً كاملاً حتى تأتي ملكة جديدة، وتستغرق هذه الدورة عدة سنوات تتفاوت من نوع من النمل إلى نوع آخر.

والشغالات التي تشكل الغالبية الساحقة في مستعمرة النمل هي إناث النمل العاقرة (العواقر) التي لا دور لها في عملية التكاثر ولكنها تقوم بمسؤوليات الجماعة كاملة، أما ذكور النمل فيتحدد دورها في إخصاب الملكات، وكل من الملكات وذكور النمل لها أجنحة تطير بها بعد نضجها مباشرة في أسراب تتم خلالها عملية التزاوج وإخصاب الملكات، وبعد ذلك تموت الذكور مباشرة، وتعود الملكة المخصبة إلى عش النمل لتضع بيضها، وتقصف أجنحتها حتى لا تتكرر عملية الإخصاب لها، وتستمر الملكة في إدارة أمور جماعة النمل طيلة حياتها التي قد تمتد إلى خمس عشرة سنة، بينما تعيش الشغالات لفترات تتراوح بين الأربع وسبع السَّنَوات ثم تموت، ولذلك تقوم على مستعمرة النمل ملكة واحدة، أو عدة ملكات بحسب حجم المستعمرة، وتقوم الشغالات ببناء المستعمرة ـ عش أو أعشاش النمل ـ وشق الطرقات المؤدية إليها، ونظافتها وصيانتها، وحراستها، والدفاع عنها، كما تقوم بجمع الطعام، وتجهيزه وتخزينه، وغير ذلك من الأعمال.

وقد يحتوي عش النمل على كائنات أخرى تتعايش مع النمل في تكافل عجيب، وذلك من مثل حشرة المن وبعض الخنافس.

وأمة النمل هي من أكثر الأمم الحية عدداً، وأوسعها انتشاراً إذ يعرف منها اليوم أكثر من ثمانية عشر ألف نوع، يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد التي تنتشر في جميع مناطق الأرض ما عدا المناطق القطبية، ويزدهر انتشار النمل في المناطق الحارة بمتوسط 150 نملة في المتر المربع، وهذه الأسراب من النمل تبني ملايين البيوت ـ الأعشاش ـ وتقضي على بلايين الحشرات سنوياً التي لو تركت لدمرت الكساء الخضري للأرض؛ وعلى ذلك فإن أسراب النمل تلعب دوراً رئيسياً في عملية الاتزان البيئي للأرض، وتمثل حلقة هامة منها، وبالإضافة إلى ذلك فإن النمل بحفره المستمر في الأرض يقوم بدور هام في تهوية التربة،

وتسميدها، وتعقيمها، وتطهيرها من العديد من الآفات، وبحركته وسط النباتات يقوم بدور في تلقيح بعض الزهور، ونشر عدد من البذور عبر مساحات متباعدة من الأرض.

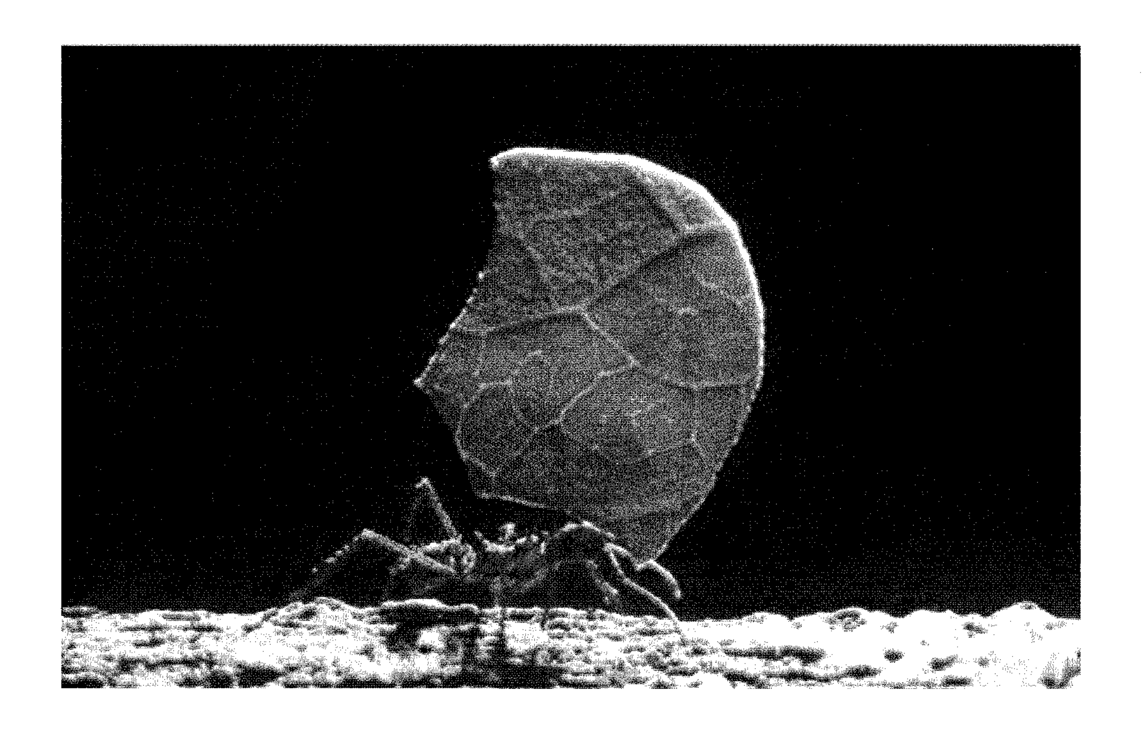
ثانياً: أن لأمة النمل لغات خاصة بها:

وهذه الحقيقة أثبتتها الآية الكريمة التي نحن بصددها بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 18».

وقد سمع نبي الله سليمان عليه السلام نصيحة النملة لرفاقها، وفهم لغتها بنعمة من الله وفضل، ولغات النمل ظل عدد من علماء الحشرات يحاولون فك رموزها لعشرات من السنين دون جدوى، وقد وظفوا في ذلك كل وسائل المنهج العلمي وتقنياته المتطورة، وأصبحت لغات التخاطب ووسائل الاتصال عند الحيوان علماً من العلوم المستحدثة في زماننا ينطوي تحت ما يعرف باسم «علم سلوك الحيوان»، إلا أن هذا المنهج البشري في استقراء لغات الحيوان وفهم سلوكه يبقى منهجاً جزئياً استنتاجياً، تجريبياً يحتمل الصواب والخطأ؛ بينما العلم الذي تلقاه نبي الله سليمان عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ هو علم يقيني، كامل، صحيح، علم به سليمان لغات عدد من الحيوانات كالطير والنمل وهي معجزة من المعجزات الحسية التي خصه الله ـ تعالى ـ بها، وجعلها خارقة من الخوارق تخالف المألوف عند الناس. وكانت هذه أول إشارة مؤكدة إلى وجود لغات محددة لكل أمة من المخلوقات العديدة التي أوجدها الخالق العظيم بعلمه وحكمته وقدرته.

وأحدث ما كتب عن النمل يؤكد أن هذه الحشرة العجيبة التي يتراوح طول الفرد من أفرادها بين المليمتر الواحد وسبعة المليمترات، ولا يتعدى حجم مخه حجم حبة الملح المسحوق الناعم، ولها قدرة هائلة على التخاطب بأكثر من لغة واحدة، فلكل مستعمرة من مستعمرات النمل لغتها الخاصة بها التي يتحدث ويتفاهم بها أفرادها مع بعضهم البعض، ولها لغة أخرى تتفاهم بها مع النمل من غير مجموعتها، ومع غيرها من الحشرات والحيوانات الأخرى.

ولم يستطع العلم بكل تقنياته الراهنة المتطورة أن يستشف من لغات النمل إلا بعض الظواهر والحركات والأصوات المصاحبة للكلام والتي تم تلخيصها فيما يلي:



1 ـ **اللغة الكيميائية:** التي تتمثل في إفراز عدد من المركبات الكيميائية الطيارة من جسم النملة لتعبر بكل مركب منها عن معنى محدد من مثل إصدار الأوامر والتعليمات، والتوجيهات والتحذيرات، وغير ذلك من عمليات الاتصال، وتبادل المعلومات والرسائل للإرشاد إلى بعض الأمور من مثل مواقع الغذاء أو مواد البناء التي تريد أن توجه أنظار الشغالات إليها.

وقد ثبت أن هذه الإفرازات الكيميائية تختلف في أنواع النمل المختلفة وتعرف عند علماء الحشرات باسم: **الإفرازات الدالة على الأثر.**

ومن هذه الإفرازات الكيميائية ما يستخدم للإنذار في حالات الأخطار وتعرف باسم: **إفرازات الإنذار.**

2 ـ **اللغة الحركية:** وتتم بواسطة تحريك كل من الأرجل والبطن والملامسة بواسطة قرون الاستشعار، وقد رصدت هذه الحركات بدقة شديدة في محاولة لإيجاد تفسير لها.

3 ـ **اللغة الصوتية:** وهذه لم يفهم منها علماء السلوك الحيواني سوى ذبذبات صوتية

مترددة كالصرير تلتقطها خلايا سمعية في أرجل كل واحدة من النمل. وهذه الذبذبات الصوتية ـ وإن أكدت أن للنمل قدرة على التخاطب ـ إلا أنها تبقى دون اللغة التي سمعها سليمان عليه السلام وفهم دلالاتها.

ثالثاً: أن للنمل قدراً من الذكاء والوعي والإدراك والشعور:

وهي حقيقة أكدتها الآية الكريمة بتعرف النملة على شخص نبي الله سليمان ومن معه من الجنود.. وبتخويفهم من إمكانية أن يطأ الجند النمل بأقدامهم أو بحوافر خيلهم، وبنصيحتها لأقرانها أن يدخلوا مساكنهم نجاةً من تلك المخاطر، وبإدراكها أن من صفات النبوة الرحمة بالخلق فأضافت هذه الجملة الراقية... ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، بمعنى أنها تدرك أن من صفات المؤمنين الرفق بالخلق فإن حدث غير ذلك فإنما يكون عفواً بغير قصد منهم ولا شعور.

وقد أكدت الدراسات المتخصصة في علم سلوك الحيوان كل هذه الحقائق باكتشاف أن النمل ـ كغيره من المخلوقات ـ له من الغرائز الفطرية ما يعطيه قدراً من الذكاء والوعي والإدراك والشعور الذي يمكِّنه من معرفة الأشياء والأماكن والاتجاهات والأوقات والأشخاص ويعينه على التمييز بين الحق والباطل، وعلى توقِّي المخاطر وتجنبها، وفي



الإقدام على المغانم واقتناص فرصها، وفي ترتيب وتنظيم وضبط حياته الاجتماعية بعدد من القواعد الدقيقة. وفوق ذلك كله فإن الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة تؤكد أن أمة النمل ـ كغيرها من الأمم غير المكلفة ـ مفطورة على الإيمان بالله ـ تعالى ـ وحده رباً وإلٰهاً، وفاطراً ومعبوداً ورازقاً ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ـ ومفطورة على عبادته وتقديسه، والتسبيح بحمده، عبادة وتقديساً وتسبيحاً تسخيرياً لا إرادة لها في شيء منها، ولكنها تدركه وتعلمه وتعيشه. وهذا يفسر تعرف النملة على نبي الله سليمان، والإشارة بهذا الأدب الجم إلى مقام النبوة الذي أفاء الله ـ تعالى ـ به على هذا العبد الصالح.

وهذا العلم الوهبي الذي منَّ الله ـ تعالى ـ بأقدار منه على جميع مخلوقاته تتفاوت بتفاوت الأدوار المطلوبة من كل منها في هذه الحياة، وفي الحدود التي وضعها الله تعالى لكل أمة من أمم الوجود الحيوي على الأرض.

ولذلك تبسم نبي الله سليمان عند سماعه مقولة النملة، والتي فهمها بما وهبه الله ـ تعالى ـ من علم، وأعجب بقدرة الله البالغة التي أعطت النملة الضئيلة في الحجم هذا القدر من الإدراك والأدب والحكمة، وأعطت رفاقها قدرة الفهم عليها، والانصياع لأوامرها، وأعطته هو القدرة على إدراك ذلك فتوجه إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء أن يلهمه شكر النعم العديدة التي أسبغها عليه وعلى والديه، وأن يوفِّقه إلى عمل الخير الذي يرتضيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ، وأن يدخله الجنة مع عباده الصالحين.

ومن الأدلة المتجمعة على ذكاء النمل، ووعيه، وإدراكه: دقة تنظيم مجتمعاته، وتوزيع العمل بين أفراده، وبناء أعشاشه وبيوته، وتنظيم المخارج منها والمداخل إليها، والمهارة في اصطياد وجمع طعامه، وحسن تجهيزه وتخزينه وصيانته ورعايته، وقدرته على زراعة بعض النباتات ـ مثل الفطر ـ، وحمايتها من الميكروبات بإفراز العديد من المضادات الحيوية، وقدرته كذلك على التعايش في توازن وتكافل تامّين مع العديد من الحشرات الأخرى مثل المن والخنافس.

هذه الحقائق لم يدركها علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالوحي بها من قبل أربعة عشر قرناً في زمن لم يتوافر لأي من البشر أدنى إلمام بشيء منها؛ مما يؤكد أن هذا الكتاب الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو

كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً تحقيقاً لوعده الذي قطعه على ذاته العلية فقال ـ عزّ من قائل ـ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ «سورة الحجر، الآية: 9».

وهكذا بقي القرآن الكريم محتفظاً بنصه الإلهي، وإشراقاته النورانية، والحق المطلق الذي جاء به على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها بقي المصدر الوحيد للهداية الربانية في أمر الدين الذي تعرضت كل رسالاته السابقة للضياع التام وبقيت من بعضها ذكريات متناثرة ظلت تتناقل شفاهاً، تفسرها الأهواء، وتضيف إليها، وتحذف منها، وتحرفها كيفما تشاء حتى تم إخراجها عن إطارها الرباني، وإلقاؤها في أحضان عدد من الوثنيات القديمة والفلسفات الوضعية التي جعلتها عاجزة عن هداية أتباعها، وهذا هو السبب الحقيقي من وراء المظالم التي تسود الأرض في زماننا...!!

وحين تم التدوين لبعض هذه الذكريات القديمة تم بلغات غير لغات الوحي، وبواسطة أقلام متفرقة في أماكن متعددة، وفي أزمنة متباعدة وصلت إلى العديد من القرون بعد موت أو رفع الرسول الذي تلقى الرسالة الأصلية والتي فقدت أصولها السماوية بالكامل، ولذلك تعددت الأسفار، وتناقضت المعلومات، وكثرت المراجعات إلى يومنا الراهن وستظل كذلك إلى ما شاء الله.

وللخروج من هذه الدوامات العاتية من الشك والشرك والشقاق والنفاق فإننا ندعو كل مؤمن بالله إلى قراءة القرآن الكريم بحيدة وموضوعية ثم الحكم بنفسه إن كان هذا هو كلام الله الخالق أم كلام البشر المخلوقين؟ ونحن معشر المسلمين نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا نفرق بين أحد من رسله، ونؤمن بوحدة الدين، وبوحدة جميع رسالات السماء، وبالأخوة الإنسانية، وبأنه لا إكراه في الدين، وانطلاقاً من ذلك كله نقدم القرآن العظيم للبشرية التائهة، عسى الله تعالى أن يهديها إلى طريقه القويم، وما ذلك على الله بعزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.



وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ
نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ
سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ
رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ
مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾

«سورة النحل، الآية: 68».

3

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في بداية النصف الثاني من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المجموعة المباركة من الحشرات المعروفة باسم النحل، لأن الله ـ تعالى ـ قد نحل إناثها القدرة على جمع رحيق الأزهار، وما بها من غبار الطلع (حبوب اللقاح) من العديد من النباتات المزهرة، وهضمه وتحويله في بطونها إلى ذلك الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس والمعروف إجمالاً باسم عسل النحل، ولو أنه يشمل مركبات عديدة بالإضافة إلى هذا العسل من أهمها غذاء ملكات النحل، والشمع، وحبوب اللقاح، والعكبر (صموغ النحل)، وسم النحل.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضيتي العقيدة الإسلامية، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وكلتاهما من ركائز الإسلام، واستشهدت في سبيل الدعوة إلى تلك الركائز بالعديد من الإشارات الكونية التي صيغت صياغة علمية غاية في الدقة والشمول والكمال مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

من ركائز العقيدة في سورة «النحل»:

1 ـ الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة، والولد، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وتوحيده ـ تعالى ـ توحيد الألوهية فلا يعبد سواه، وتوحيد الربوبية فلا يخلق ولا يرزق غيره، وتوحيد الأسماء والصفات فلا يسمى ولا يوصف

إلا بما سمى به ذاته العلية من الأسماء الحسنى، ووصف به جانباً من صفاته العليا. والإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء وربه ومليكه يجعل كل ما سواه مخلوقاً بأمره، والخالق يختلف اختلافاً كلياً عن خلقه، كما أن المخلوقين يختلفون اختلافاً كلياً عن خالقهم؛ ومن هنا فلا يجوز لهم أن يضربوا الأمثال للخالق ﷻ وهو الذي يعلم كل شيء وهم لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا. ومن صفات الله ـ تعالى ـ التي أوردها لنا في سورة النحل أن له غيب السمٰوات والأرض، وأن أمره نافذ عاجل لا يرد؛ وهو بين الكاف والنون، وأن الدين له ﷻ وحده، لا يشاركه في ذلك شريك، ولا ينازعه منازع، وأن الله على كل شيء قدير.

واليقين بأن الخلق يشهد لخالقه بالربوبية، والألوهية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله ﷻ، فالخلق يشهد لخالقه بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق، وبالعلم المحيط، والهيمنة الكاملة على جميع ما في السمٰوات والأرض وكلهم له عبد، يسجد لجلاله طوعاً وكرهاً.

2 ـ الإيمان بحقيقة الوحي. ومن معانيه أن الله ـ تعالى ـ ينزل ملائكته بالهداية الربانية لخلقه على من يشاء من عباده الذين يصطفيهم بعلمه وحكمته، وهم الأنبياء والمرسلون الذين يبعثهم الله ـ سبحانه ـ بتعاليم الدين. والدين قائم على ركائز أربع من العقيدة وهي غيب مطلق لا يستطيع الإنسان الوصول إليه بعقله ولا بحواسه منفرداً، والعبادة وهي: أوامر إلٰهية كاملة لا يليق بالإنسان أن يكون له فيها رأي، وعلى كل من الأخلاق والمعاملات وهي: ضوابط للسلوك. والتاريخ يؤكد لنا عجز الإنسان دوماً عن وضع ضوابط صحيحة للسلوك من عند نفسه الأمَّارة بالسوء.

ومن رسالة الوحي: دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، ودعوتهم إلى توحيد الله ﷻ توحيداً خالصاً لا تشوبه أدنى شبهة من شرك، وتدعوهم كذلك إلى عبادته ـ تعالى ـ بما أمر، وإلى تقواه في كل أمر، وإلى اجتناب الطاغوت، ويؤكد الوحي الخاتم أن الله ﷻ قد أكمل للإنسانية دينها، وأتم نعمته عليها، ورضي لها الإسلام ديناً ببعثه الرسول الخاتم ﷺ، وأنه ما على الرسول إلا البلاغ المبين.

3 ـ اليقين بحقيقة الآخرة، وبحتميتها، وفجائيتها، وبأن موعدها قد اقترب، والتصديق بحقيقة كل من البعث، والحساب، والجنة، والنار، وبأن الجنة هي مثوى المتقين، وبأن النار هي مثوى المتكبرين الذين لم يؤمنوا بالله ولا برسالته، أو أشركوا غيره في عبادته، ولم يعتبروا بتكرار عقاب الأمم العاصية من قبلهم.

وتؤكد الآيات في سورة النحل أن الله ـ تعالى ـ سوف يبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم في يوم القيامة، وأن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ سوف يشهد على أمته، وعلى جميع الأمم من بعدها إلى يوم الدين لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبعوث للناس كافة.

4 ـ الإيمان بأن كل نعمة اختص الله ـ تعالى ـ بها عبداً من عباده هي من فضل الله العلي العظيم الذي لا تحصى نعمه ولا تعد أفضاله، وأن الله ﷻ قد فضل بعض خلقه على بعض في الرزق، لحكمة يعلمها، وأن من نعمه ـ تعالى ـ على عباده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً، وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة حتى يكتسبوا بها المعارف والعلوم لأن الله ـ سبحانه ـ يخرج المواليد من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً.

5 ـ التصديق بأن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وبأن الهجرة في سبيل الله أجرها عظيم في الدنيا، وثوابها في الآخرة أعظم. وأن الذين مكروا السيئات في الدنيا لا يأمنون أن يخسف الله ـ تعالى ـ بهم الأرض أو أن يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. وأن من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فسوف يحييه الله حياة طيبة ولسوف يجزيه أجره بأحسن ما كان يعمل، وأن الذين زين لهم الشيطان أعمالهم سوف يكون هو وليهم يوم القيامة، وأن لهم عذاباً أليماً، ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكن يؤخرهم إلى نهاية الأجل حيث لا مهرب منه، ولا تأخر عنه.

6 ـ التسليم بأن الحاكمية لله ـ تعالى ـ وحده، ومن ثم فإن له وحده حق التحليل والتحريم، ولا يجوز ذلك لأحد من المخلوقين أبداً.

7 ـ القناعة بأن الله ـ تعالى ـ قد وهب الناس عقولاً مدركة تفكر، وإرادة حرة تختار وتوجه، وتبين لهم طريق الاستقامة الموصل إلى الخير، وطرق الانحراف المفضية

إلى الشر، وترك الخيار كاملاً لكل فرد، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه.

من مكارم الأخلاق في سورة «النحل»:

1 ـ الدعوة إلى إقامة عدل الله في الأرض، وإلى الإحسان إلى الخلق، والوفاء بالعهد، واحترام الأيمان، على أن ينطلق ذلك كله من منطلق تقوى الله، ورجاء رضوانه، ومخافة عقابه بعد القناعة الكاملة بضرورة ذلك من أجل استقامة الحياة على الأرض.

2 ـ الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله وإيتاء ذي القربى.

3 ـ الدعوة إلى رفض الظلم بكل أشكاله وصوره، وبضرورة مقاومته بكل وسيلة مشروعة، فإن تعذر ذلك فلتكن الهجرة في سبيل الله.

4 ـ التحذير من الوقوع في الفتن ما ظهر منها وما بطن، ومن أخطرها فتن الكفر بالله أو الشرك به، وما أكثرها في هذه الأيام.

5 ـ النهي القاطع عن الوقوع في الفحشاء أو المنكر أو البغي، والتذكير الدائم بنعم الله العديدة على الخلق، والحض المستمر على دوام شكرها، فبالشكر تدوم النعم، وتنكسر حدة الغرور في النفس الإنسانية التي تدرك أن ليس لها من مخرج في كل شدة من الشدائد التي تمر بها إلا اللجوء إلى الله ﷻ، والتذكير كذلك برحلة الإنسان في هذه الحياة الدنيا من النطفة إلى النطفة الأمشاج، إلى العلقة ثم المضغة المخلقة وغير المخلقة، ثم خلق العظام، ثم كسوتها باللحم، ثم إنشاء الجنين خلقاً آخر، ثم إخراجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ثم ما بعد ذلك من مراحل الطفولة، ثم الشباب والفتوة، ثم الكهولة، والشيخوخة، والضعف والهرم حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً، ثم الاحتضار والموت، وما يتخلل ذلك العمر من فترات الرخاء والنعمة، وفترات الابتلاء والشدة، ومحصلة ذلك عند لحظة الموت.

من الإشارات الكونية في سورة «النحل»:

1 ـ التأكيد على قضية خلق السمٰوات والأرض، وخلق كل شيء، وإفراد الله ﷻ بذلك، ومنه خلق الإنسان من نطفة لا ترى بالعين المجردة، وعلى الرغم من ذلك

فإنه بمجرد بلوغه مرحلة الشباب والفتوة كثيراً ما يقابل فضل ربه عليه بالجحود والنكران، وقد خلق له الأنعام من مثل الإبل والبقر والضأن والماعز، وجعل فيها منافع كثيرة، وخلق له الخيل والبغال والحمير وغير ذلك من وسائل الركوب والزينة وحمل الأثقال المعروفة في زمن الوحي والتي استجدت من بعده، والله الخالق قادر على أن يخلق ما يعلمه الناس وما لا يعلمون.

2 ـ الإشارة إلى دورة الماء حول الأرض بذكر إنزاله من السماء مصدراً للشراب ولإنبات الشجر والزروع من مثل الزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، وجعل ذلك آية للذين يتفكرون.

3 ـ الاستشهاد على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في جنبات الكون بتسخير الأرض كي تكون صالحة للعمران وذلك بتكويرها وتدويرها حول محورها أمام الشمس، حتى يتبادل عليها الليل والنهار، وتسخير كل من الشمس والقمر والنجوم بأمر من الله ـ تعالى ـ كي تستقيم الحياة على الأرض وفي الكون كله. وتؤكد السورة الكريمة دوران الأرض حول محورها كذلك بالإشارة إلى ظاهرة مد الظل وقبضه واعتباره صورة من صور السجود الفطري التسخيري لله ـ تعالى ـ.

4 ـ الإشارة إلى ظاهرة مد الظل وقبضه كنتيجة لدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، واعتبار ذلك صورة من صور سجود كل شيء لله ـ تعالى ـ سجوداً تسخيرياً جبرياً، يختلف عن السجود الإرادي الاختياري عند الخلق المكلفين.

5 ـ الإشارة إلى نشر مختلف صور وأشكال وألوان المخلوقات من الأحياء والجمادات في الأرض، وإعطاء الإنسان قدرات من مختلف صور الحس تعينه على تمييزها والتمتع بها حتى يشهد بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة في جنبات الكون.

6 ـ ذكر تسخير الله ـ تعالى ـ البحر للإنسان بما فيه من أحياء ذات لحم طري يؤكل، وهياكل للحيوانات تصلح لصناعة الحلي التي تلبس، وقدرة على حمل الفلك ذات الأحجام المختلفة التي تجري بمصالح العباد شاقَّة عباب مائه، وعباب ما فوق الماء من هواء.

7 ـ الاستشهاد بإلقاء الجبال على الأرض، وجعلها رواسي لها كي لا تميد ولا تضطرب،

وارتباط قمم الجبال بتكون منابع الأنهار، ودور تلك المجاري المائية في تفتيت الصخور، وشق الفجاج والسبل، وتكوين تضاريس الأرض التي تصبح علامات دالة للاهتداء بها في وضح النهار، كما جعل النجوم علامات للهداية بالليل.

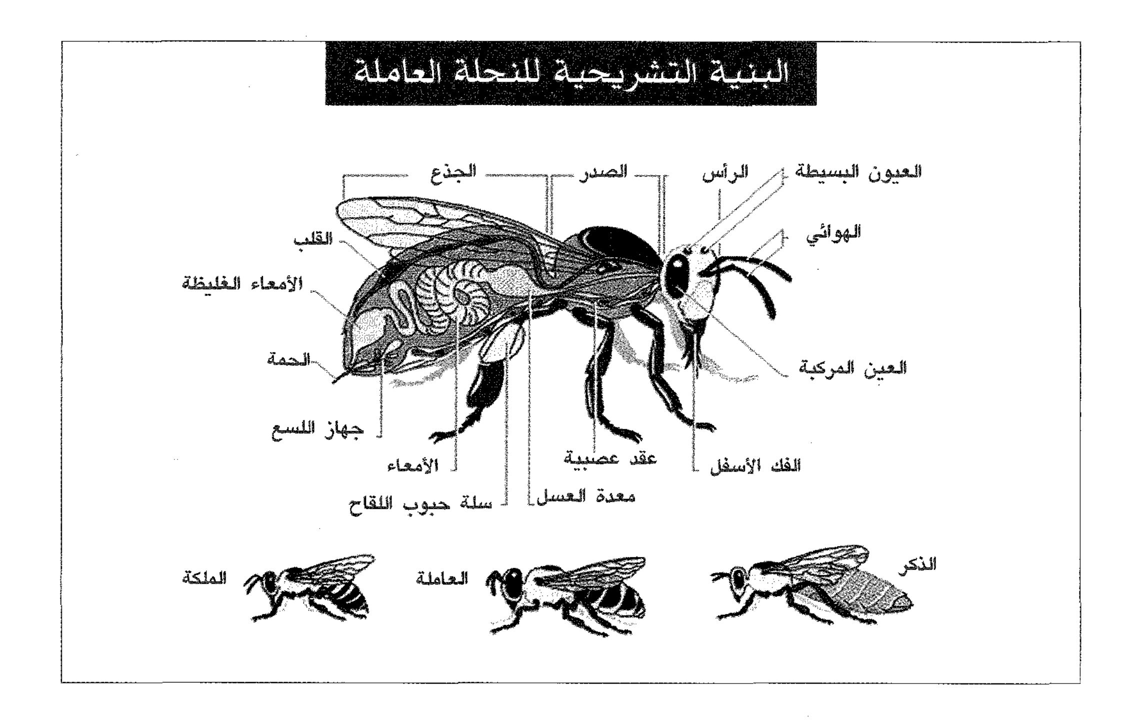
8 ـ وصف عقاب بعض الأمم السابقة وصفاً ينطبق بدقة فائقة على ما تحدثه الهزات الأرضية العنيفة (الزلازل) في زماننا، وذلك من قبل أن يدرك أحد من الخلق تفاصيل حدوث تلك الهزات الأرضية. والإشارة إلى خسف الأرض بعدد من الأمم الباغية في القديم والحديث مما يؤكد أن الزلازل ـ كغيرها من صور الابتلاءات الدنيوية ـ هي جند من جند الله يسلطها على من يشاء من عباده: عقاباً للمذنبين المجاهرين بالمعاصي من الكفار والمشركين وعصاة المسلمين، وابتلاءً للصالحين، وعبرةً للناجين.

9 ـ تأكيد لمحة الإعجاز في خلق الأنعام، وفي تكوين اللبن في ضروعها من بين فرث ودم، وخروجه من تلك الضروع لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

10 ـ الاستشهاد بما في ثمرات كلٍّ من النخيل والأعناب من الرزق الحسن، وإن أساء بعض الناس استخدامها في صناعة المسكرات.

11 ـ الإشارة إلى خلق أمة نحل العسل، وإلى إعطائها قدراً من الوعي والإدراك، ومنحها القدرات الفطرية على تنظيم مجتمعاتها تنظيماً مبهراً دقيقاً تتوزع فيه الاختصاصات والمسؤوليات والمهام في عيش جماعي تكافلي رائع؛ ومن هنا كانت الإشارة إليها بالجمع في تسمية السورة (سورة النحل) وفي الآيات التي جاء ذكر النحل فيها. وإعطائها كذلك قدراً من الحرية الكبيرة في اختيار بيوتها من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون، وقدراً من معرفة الأماكن والاتجاهات، وقوة على الطيران بسرعات فائقة حتى تغطي أكبر مساحة ممكنة من الأرض تجني الرحيق وحبوب اللقاح من أزهار نباتاتها، ومنحها القدرة على تحويل ذلك في بطونها إلى شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس.

12 ـ الاستشهاد على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في خلق الإنسان باستخراج هذه البلايين من الرجال والنساء من نفس واحدة هي نفس أبينا آدم عليه السلام التي خلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، وخلق من هذه الأزواج البنين والحفدة في دورة مبهرة



للحياة، وجعل من كل هؤلاء من يتوفى مبكراً، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر وضعف البنيان الجسدي، ومن أبرز مظاهره فقدان الذاكرة جزئياً أو كلياً.

13 ـ الإشارة إلى السمع قبل البصر في هذه السورة المباركة وفي العديد من السور القرآنية الأخرى. والدراسات العلمية تؤكد السبق في نشاط حاسة السمع على حاسة البصر في أجنة الإنسان وفي أجنة غيره من المخلوقات، وبعد الميلاد مباشرة. فالجنين يسمع في بطن أمه ولا يرى، ويسمع بعد ميلاده مباشرة بينما تتأخر قدرة الرؤية عنده إلى ما بعد ذلك.

14 ـ التلميح إلى الإمساك بالطيور مسخرات في جو السماء، وإلى حقيقة أنه لا يمسكهن إلا قدرة الله البالغة.

15 ـ استخدام تعبير ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ بمفهوم كلٍّ من الحرارة والبرودة؛ لأن كلها درجات حرارة نسبية فإذا كانت درجة الحرارة فوق المعتاد كانت تعبيراً عن الحر، وإذا كانت دون المعتاد كانت تعبيراً عن البرد، وهي حقيقة علمية لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده.

16 ـ تحريم أكل كلٍّ من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والبحوث العلمية أثبتت أخطار ذلك كله على صحة الإنسان.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها؛ ولهذا فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة العاشرة من القائمة السابقة التي عبرت عنها الآية الكريمة رقم (68) من سورة النحل.

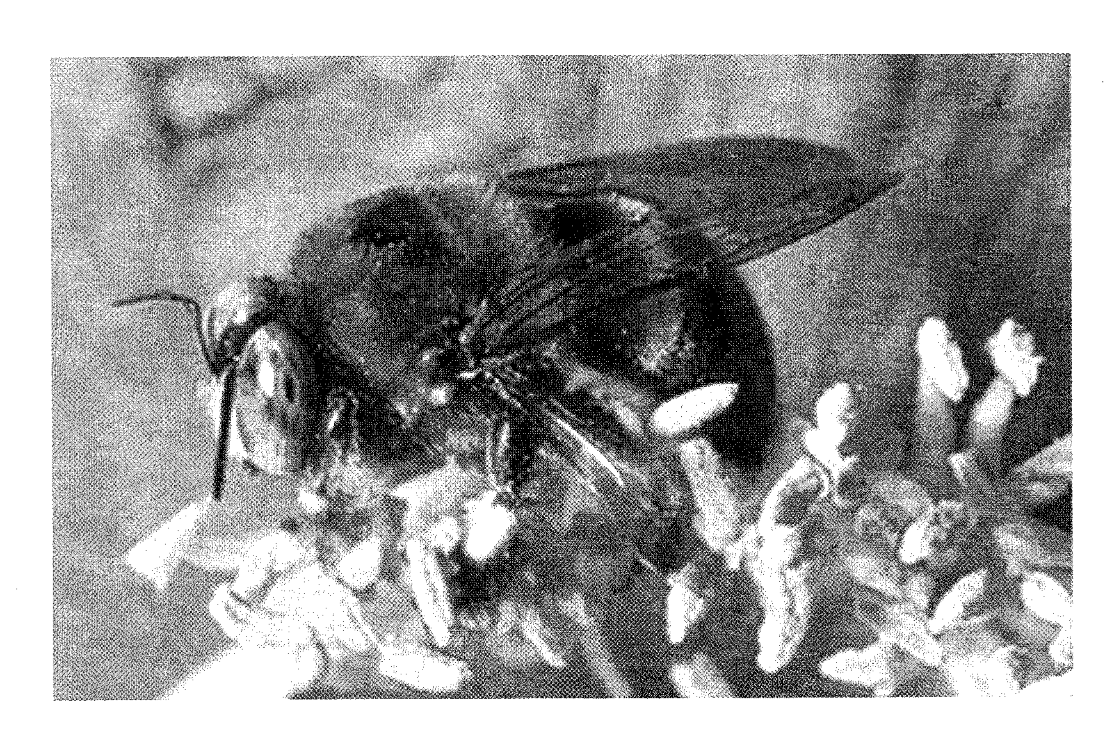
وقبل استعراض دلالتها العلمية لا بد من الرجوع إلى كلام عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾

«سورة النحل، الآية: 68».



- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «المراد بالوحي ـ هنا ـ: الإلهام والهداية والإرشاد للنحل، أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون».

- **وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه:** «والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إياها الخالق، فهو لون من الوحي تعمل بمقتضاه، وهي تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفى؛ وهي تتخذ بيوتها حسب فطرتها في الجبال والشجر ومما يعرشون أي ما يرفعون من الكروم وغيرها...».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة لإعادته هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في الخطاب بالتأنيث وبالجمع وفي الماضي:

واضح من هذه الآية الكريمة أن النحل المقصود هنا هو نحل العسل بدليل قوله ـ تعالى ـ في الآية التي تليها:... ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾

«سورة النحل، الآية: 69».

و(الواو) حرف عطف لا يدل على الترتيب، وقد تكون بمعنى (مع) لما بينهما من المناسبة لأن (مع) تعني المصاحبة، وواضح الأمر هنا أنها للجمع بين الشيئين دون الترتيب، فبعد أن ذكر الله ـ تعالى ـ عدداً من دلائل قدرته في إبداع خلقه، ومنها إخراج اللبن إلى ضروع الأنعام من بين فرث ودم، وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ـ وإن أساء بعض الناس استخدامه ـ، ذكر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في هذه الآية الكريمة قدرته البالغة في الإيحاء إلى الشغالات من نحل العسل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، ثم أن تأكل من كل الثمرات وتسلك سبل الله المذللة لها، وأن تخرج من بطونها ذلك الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس؛ ولذلك جاء الخطاب في هذه الآيات موجهاً إلى أنثى عسل النحل من الشغالات؛ لأنها هي التي تبني البيوت، وهي التي تطير إلى عشرات الكيلومترات لتجمع رحيق الأزهار وحبوب اللقاح من

العديد من النباتات المزهرة، وهي التي أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على إنتاج ذلك الشراب المعروف إجمالاً باسم عسل النحل.

والفعل (أوحى) هنا من معانيه الإلهام والتسخير، ومن معاني الوحي: الإلقاء بالأمر أو بالخبر في خفاء وسرعة، والوحي من الله ـ تعالى ـ إلى نحل العسل قد يكون نوعاً من الإلهام الفطري الغريزي الذي زرعه الله ـ تعالى ـ في جبلتها أو في الشيفرة الوراثية الخاصة بنوعها، أو ألقاه في روعها بعلمه، وحكمته، وقدرته وكلا الأمرين يشي بشيء من الغرائز الفطرية لدى نحل العسل تعطيه قدراً من الذكاء والوعي والإدراك والشعور والإحساس الذي يمكنه من تمييز الأشياء، والأماكن، والاتجاهات، والأوقات، كما يمكنه من تنظيم وترتيب وضبط حياته الاجتماعية بعدد من القواعد الدقيقة التي وهبه الله ـ تعالى ـ إياها.

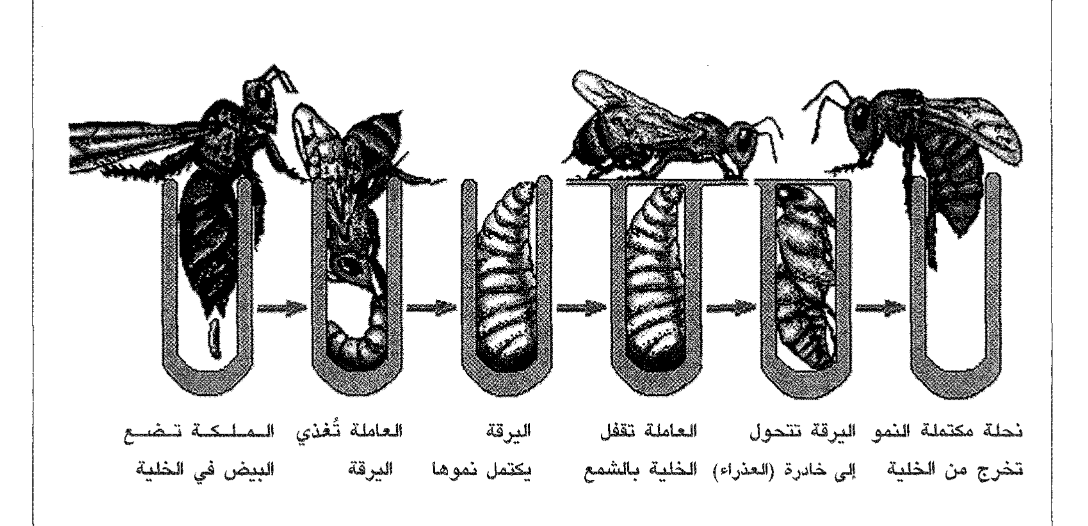
وهذا العلم الوهبي الذي منّ الله ﷻ به على نحل العسل، لم يحرم منه أياً من مخلوقاته التي وهب كل أمة منها قدراً منه يتفاوت بتفاوت الدور المخطط لها في هذه الحياة، وفي الحدود التي خططها لها الله ـ سبحانه ـ بعلمه وحكمته وقدرته.

وقد تعرف علماء الحشرات على أكثر من 12000 نوع من أنواع النحل، منها حوالي 600 نوع يَحْيَون حياة جماعية في مستعمرات متباينة الأحجام، والباقي يحيون حياة فردية.

ونحل العسل المقصود في الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها يحيا في جماعات منظمة تنظيماً دقيقاً للغاية؛ ولذلك جاء اسم السورة الكريمة بصيغة الجمع ـ النحل ـ، وجاءت الإشارة في الآيتين الكريمتين المتعلقتين بهذه الحشرة المباركة بصيغة الجمع أيضاً حيث يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾.

ويتراوح عدد الأفراد في خلية نحل العسل سنوياً من 40000 إلى 80000 شغالة من إناث النحل العاقرات (العواقر)، وحوالي المائتين من ذكور النحل، وملكة واحدة تبيض حوالي 1500 بيضة في اليوم، وما يلقح من هذا البيض ينتج إناثاً وملكات، وما لا يلقح ينتج الذكور. ووظيفة ذكر النحل منحصرة في إخصاب الملكة، بينما تقوم شغالات النحل العقيمة بجميع أعمال الخلية. والملكة تمثل أكبر الأحجام في الخلية، يليها في الحجم الذكور، ثم الشغالات.



وتتمثل دورة حياة نحل العسل في المراحل الأربع التي تتحرك فيها من طور البيضة إلى طور اليرقة، إلى طور العذراء (الخادرة)، ثم إلى طور الحشرة الكاملة.

وواضح الأمر أن النحل المقصود في الآية الكريمة التي نحن بصددها هو نحل العسل، ويوجد منه أربعة أصناف هي كما يلي:

1 ـ النحل الكبير (Apis dorsata).

2 ـ النحل الصغير (Apis florea)

3 ـ النحل الهندي (الشرقي) (Apis cerana)

4 ـ النحل الغربي (Apis melifera)

والأصناف الثلاثة الأولى لا تزال تحيا حياة برية في العديد من دول جنوب شرق آسيا، والرابع هو الصنف المستأنس والمنتشر في غالبية دول عالم اليوم، ولذلك فهو أهم هذه الأنواع الأربعة.

ونحل العسل لا يستطيع العيش إلا في جماعات منظمة تنظيماً دقيقاً، فإذا انعزلت

إحداها عن جماعتها لسبب من الأسباب فعليها أن تنضم إلى جماعة أخرى من صنفها إذا قبلتها أو أن تموت.

وجاء التعبير عن وحي الله ـ تعالى ـ إلى النحل بصيغة الماضي ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾؛ لأن ذلك يشمل الزمن كله من الماضي إلى الحاضر والمستقبل.

وذلك لأن الزمن الذي يحد المخلوقين بحدود آجالهم، كما يحد أقوالهم وأفعالهم في حياتهم، هذا الزمن نفسه هو من خلق الله ـ تعالى ـ، والمخلوق لا يحد خالقه أبداً؛ وعلى ذلك فإن الزمن لا يحد الله جل جلاله، ولا يحد أفعاله وأوامره، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 73».

ويقول ـ عز من قائل ـ:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ «سورة النحل، الآية: 40».

ويقول جل جلاله:

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

«سورة مريم، الآية: 35».

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ «سورة يس، الآية: 82».

ويقول ـ عز من قائل ـ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ «سورة غافر، الآية: 68».

وانطلاقاً من ذلك فإن كلاً من الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة إلى الله ـ تعالى ـ هو حاضر، لأن الله ـ تعالى ـ فوق الكون بأماكنه، وأزمنته، ومختلف صور المادة والطاقة فيه، ومرجعية كل شيء في الكون ومرجعية الكون كله إليه سبحانه وتعالى.

بالإضافة إلى ذلك فإن أقدم أثر للنحل في صخور القشرة الأرضية يرجع إلى أكثر من مائة وخمسين مليوناً من السنين، وأمر الله ـ تعالى ـ إلى النحل، وإلهامه إياه بهذا السلوك المنظم الدقيق قد غرسه أو غرزه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في جبلة نحل العسل؛ أي في شيفرته الوراثية منذ الخلق الأول لأمة النحل، وجعل ذلك جزءاً من فطرتها التي فطرها الله ـ تعالى ـ عليها؛

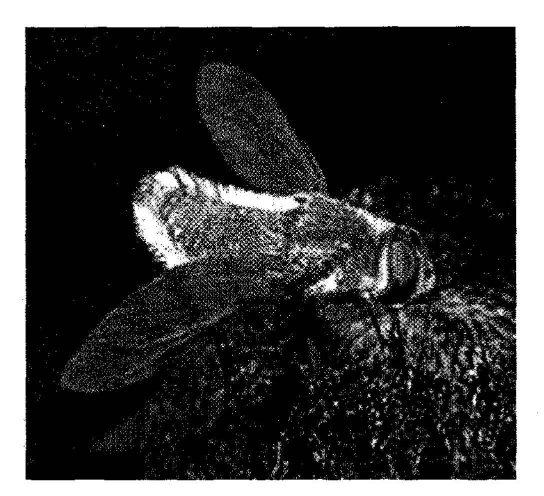


ولذلك تعرف باسم الفطرة أو الغريزة؛ ولما كان ذلك قد تم منذ أكثر من مائة وخمسين مليوناً من السنين فهو بالنسبة لنا يرجع إلى ماضٍ بعيد جداً.

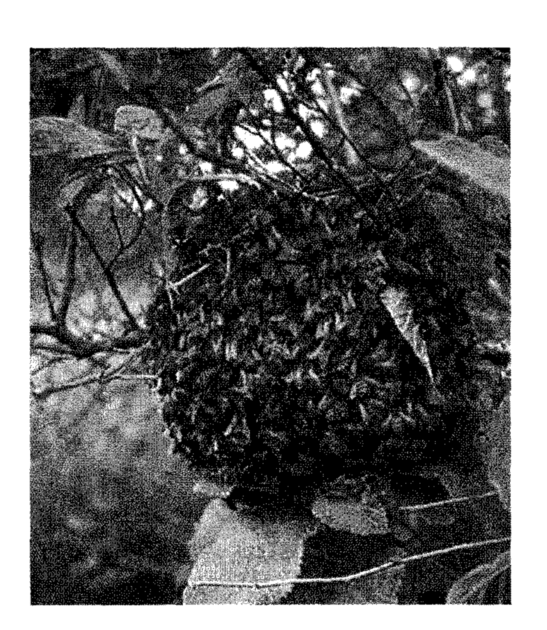
ولما كان الأمر أو الإلهام الإلٰهي إلى النحل مستمراً من هذا الماضي البعيد جداً إلى زمننا الراهن، وممتداً في المستقبل إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها كان التعبير عن عملية الوحي هذه بصيغة الماضي هو الأنسب لتغطية هذا الحدث القديم والمستمر إلى أن يشاء الله ـ تعالى ـ.

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾:

و(رب) كل شيء هو مالكه، والمتكفل برزقه وقضاء حاجاته ومنشئه ومنمّيه ومربّيه والرقيب عليه والمتكفل بإصلاح حاله، و(الرب) اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ، ولا يقال لغيره إلا بإضافة، وقد استخدم هنا التعبير (ربك) ليفيد بأن الله ﷻ هو رب كل شيء ومليكه، وهو واهب النعم، ومجري الخيرات، وموزع الأرزاق، ومسخر الكائنات لخدمة بعضها بعضاً ولخدمة ذلك المخلوق المكرم المعروف باسم الإنسان أو بني آدم، ولم يستخدم تعبير (إلٰهك)؛ لأن الإلٰه هو المعبود المقدس المنزه عن صفات خلقه، وعن كل







وصف لا يليق بجلاله. والمقام هنا مقام التحدث بنعمة هي من أعظم صور رزق الله على الإنسان؛ ألا وهي نعمة عسل النحل الذي فيه شفاء للناس. والأنسب في حال ذكر النعم هو مقام الربوبية، كما أن الأنسب في حال ذكر وجوب الخضوع للخالق الأعظم بالطاعة والعبادة هو مقام الألوهية.

وضمير المخاطب في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾. يعود في المقام الأول إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ثم من بعد ذلك إلى كل من يقرأ هذه الآية الكريمة أو يسمعها ليعلم أن له رباً كريماً، عليماً، حكيماً أنشأ له هذه الحشرة المباركة التي وهبها من القدرة على صناعة هذا الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس، ما تعجز عنه البشرية مجتمعة.

ثالثاً: في قوله ـ تعالى ـ:... ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾:

والخطاب هنا على الرغم من أنه موجَّه إلى النحل كله، إلا أنه جاء بصيغة الضمير المفرد المؤنث ليختص إناث النحل من الشغالات اللائي يقمن بالبحث عن المكان المناسب لبناء بيوت النحل، ويقمن بالبناء بذواتهن، وبصيانة وتنظيف وترميم البناء، وعلى حمايته وتهويته، وهذا القدر من الحرية الكبيرة الذي أعطاه الله تعالى إلى

أمة نحل العسل في اختيار مسكنها ـ أي: المكان الذي تبني فيه بيوتها من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون ـ له حكمة بالغة؛ لأنه يتيح لهذه الحشرة الصغيرة الحجم فرصة الاستفادة بأكبر عدد ممكن من البيئات المختلفة وبما فيها من متنوع النباتات حتى تنوع ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرج من بطونها والذي فيه شفاء للناس، ويجعل الله تعالى من أنواعه المختلفة شفاء لأمراض متباينة، وهذا بخلاف العديد من الحيوانات بصفة عامة ومن الحشرات بصفة خاصة التي حدد الله ـ تعالى ـ لها بيئات لا تستطيع الخروج عنها وإلا هلكت.

واتخاذ أي تجمع من تجمعات أمة نحل العسل القرار ببناء بيوت لها يحتاج إلى عمليات استطلاع وبحث وتشاور مكثفة حتى يتم الإجماع على اختيار المكان. وتبدأ الشغالات في بناء مستعمرة النحل من الشمع الذي تفرزه من غدد خاصة في أسفل بطن كلٍّ منها تعرف باسم **الغدد الشمعية** وعددها أربعة أزواج.

ومن إلهام الله ـ تعالى ـ للشغالات بناء بيوت النحل على الهيئة السداسية الأضلاع للقضاء على المسافات البينية التي يمكن أن تنشأ عن الأشكال الأخرى؛ ولبناء أكبر عدد ممكن من البيوت في مساحة محددة، ولملاءمة هذه الأشكال السداسية لنمو يرقات النحل الأسطوانية الشكل. ويقوم على حراسة الخلية عدد من الشغالات بالتناوب على باب الخلية من الداخل، فإذا حضر مهاجم لدغته النحلة الحارسة وماتت على الفور.

ويقوم فريق آخر من الشغالات بأعمال صيانة وترميم ونظافة خلايا النحل باستمرار، ومن عجائب الأمور أن النحل لا يتغوط أبداً في داخل الخلية، ولا يُبْقِي فيها أدنى قدر من القاذورات، كما تقوم بعض شغالات النحل بتلميع وترميم وصيانة الخلية من الداخل باستمرار، وبسد أي شقوق يمكن أن تحدث فيها باستخدام **صموغ (غراء) نحل العسل**، وهي مواد صمغية (راتنجية) لزجة، تجمعها شغالات النحل من براعم بعض النباتات ومن قلف بعض الأشجار، وتستخدمها أيضاً في الإحاطة التامة ببقايا بعض الحشرات المهاجمة بعد قتلها كي لا تتعفن قبل إلقائها إلى خارج الخلية.

ويقوم فريق ثالث بتهوية الخلية وتكييفها، وفريق رابع يقوم على العناية بالصغار في مراحل النمو المختلفة من البيضة إلى الحشرة الكاملة.

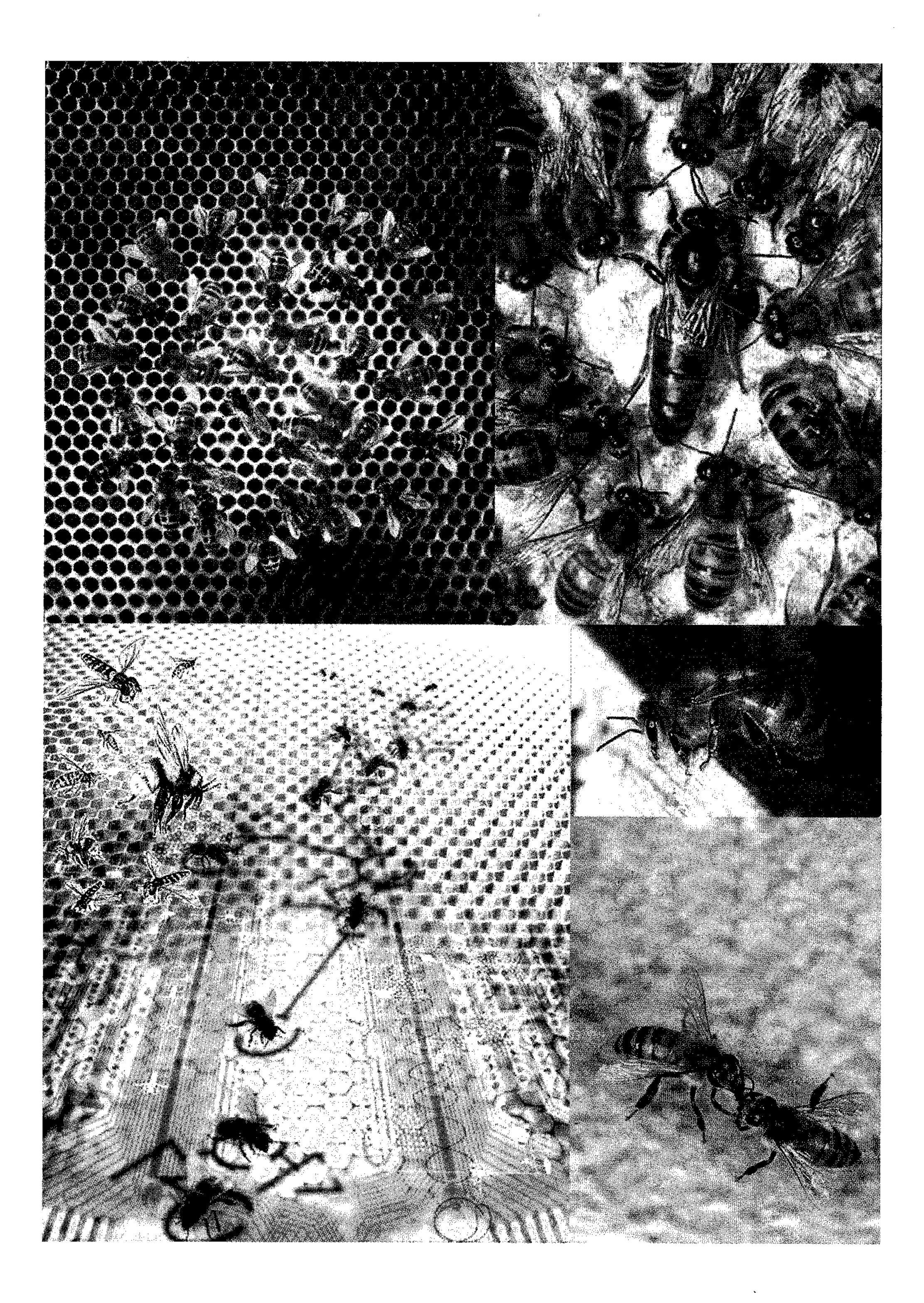
والآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها تشير إلى سبق خلق النحل لخلق الإنسان، وهي حقيقة علمية ثابتة، وإلى أن النحل سكن الجبال والأشجار قبل أن يغرس له الإنسان المناحل المختلفة، كما تشير إلى أفضلية أنواع عسل النحل الجبلي على الشجري على عسل المناحل الاصطناعية.

واستخدام حرف الجر (من) بدلاً من (في) يفيد التبعيض لأن النحلة لا تبني بيتها في كل الجبل ولا في كل الشجر. والله تعالى أعلم.

هذه الدقة العلمية الفائقة في الإشارة إلى ما وهب الله ـ تعالى ـ النحل من ذكاء فطري وعلم وهبي تحاول المعارف المكتسبة اليوم الكشف عن شيء منه، والذي أشارت إليه الآية الكريمة بالفعل (أوحى) واستخدام صفة الربوبية للخالق ﷻ بدلاً من صفة الألوهية في مقام التحدث عن نعمة من نعمه، ومن توحيد الربوبية لله الخالق وصفه ـ تعالى ـ بأنه وحده هو واهب النعم ومجري الخيرات، بينما توحيد الألوهية يقتضي ألا يعبد سواه.

كذلك فإن استخدام ضمير المخاطب في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾ قصد به في المقام الأول خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولكنه ينسحب أيضاً على كل قارىء أو مستمع لهذه الآية الكريمة، ثم إن في الإشارة إلى النحل بصيغة الجمع ـ ونحل العسل لا يعيش إلا في جماعات كبيرة ـ وفي توجيه الخطاب إلى المفردة من إناث النحل ـ الشغالات ـ بالفعل (اتخذي) وهن اللائي يقمن بالبحث عن السكنى، كما يقمن على بناء البيوت وصيانتها وحراستها ونظافتها وترميمها وتكييفها، وتهويتها، وفي هذه المساحة الهائلة من البيئات المتعددة التي وهبها الله ـ تعالى ـ لأمة نحل العسل على عكس غيرها من المخلوقات، كل ذلك يؤكد أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، دون أن يضاف إليه حرف واحد أو أن ينتقص منه حرف واحد، وسوف يبقى القرآن الكريم محفوظاً كذلك إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والصلاة والسلام على النبي الخاتم الذي تلقاه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.



وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ
نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا
لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ
سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ
رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ
مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن



﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا...﴾ «سورة النحل، الآية: 69»

4

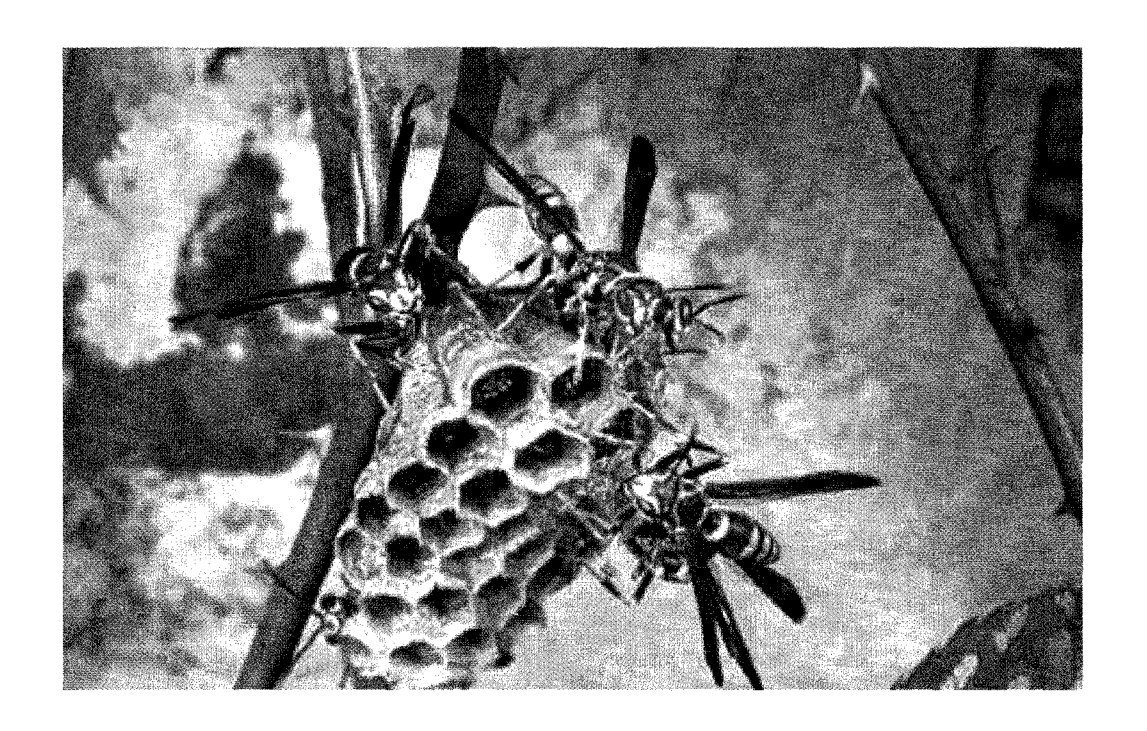


هذا النص القرآني الكريم جاء في بدايات النصف الثاني من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المجموعة من الحشرات المعروفة باسم نحل العسل، والتي نحلها الله ـ تعالى ـ القدرة على جمع رحائق الزهور، وغبار طلوعها، وهضمه وتحويله في بطونها إلى ذلك الشراب المختلف الألوان، الذي جعل الخالق سبحانه وتعالى فيه شفاء للناس.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «النحل» حول قضيتين من ركائز الدين الإسلامي الحنيف وهما: العقيدة، ومكارم الأخلاق، وفي سبيل الاستشهاد على حجية ما دعت إليه أوردت السورة الكريمة عدداً من آيات الله في الكون، تنطق بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، وتشهد على حتمية البعث، وعلى وحدانية الخالق سبحانه وتعالى: بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد؛ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والخالق منزه تنزيهاً كاملاً عن صفات خلقه.

وقد صيغت هذه الإشارات الكونية في سورة «النحل»، كما صيغت في باقي سور القرآن الكريم صياغة فائقة الدقة والشمول والكمال، مما يشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم، الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة؛ حيث لم يكن لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إلمام بشيء من تلك الحقائق التي لم يصل إليها علم الإنسان إلا في خلال القرنين الماضيين على أقصى تقدير.

ولما كنا قد ذكرنا في المقال السابق كلاً من الإشارات الكونية وركائز العقيدة ومكارم الأخلاق الواردة في سورة النحل فسوف أقصر حديثي هنا على الإعجاز في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا...﴾. وقبل استعراض الدلالة العلمية لهذا النص الكريم لا بدّ من الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين في شرحه.



من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «.. ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها؛ أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل فتبني الشمع... وتقيء العسل من فيها...».
- وذكر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كلاماً مشابهاً لا داعي لتكراره.
- وجاء كل من «الزمخشري» و «أبي حيان» بتفسير للسبل، بمعنى الطرق التي ألهمها الله ـ تعالى ـ لشغالات النحل في عمل العسل، مع عدم إنكار المعنى السابق أي الطرق.
- وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «والنحل تعمل بإلهام من

الفطرة التي أودعها إياها الخالق... وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق...».

- وجاء في «صفوة البيان لمعاني القرآن» ـ رحم الله كاتبها رحمة واسعة ـ ما نصه: «... وفي غدوها لاقتطاف الأزاهير والثمار، ورواحها إلى خلياتها من مسافات بعيدة دون أن تخطئها، وفي تنصيب أمة النحل في الخلايا ملكة عليها نافذة الحكم والسلطان، وإقامة حاجب على كل خلية يحرسها ولا يمكن غير أهلها من الدخول فيها مع صغر حجم النحلة وضعف بنيتها، ودأبها على العمل بنظام دقيق أدلة متضافرة على كمال قدرة مبدعها، وبداعة صنع ملهمها...، ﴿سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ مذللة، ذللها الله تعالى وسهلها لك ـ جمع ذلول ـ وهو حال من (سبل) أي الطرق التي هداها الله إليها وهي راجعة إلى خلاياها وبيوتها...».

- وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «ثم هداها الله سبحانه للأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهل لها أن تسلك لذلك طرقاً هيأها لها ربها مذللة سهلة فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على وجود صانع قادر حكيم، ينتفع بها قوم يستعملون عقولهم بالتأمل فيفوزون بالسعادة الدائمة». وبالهامش تعليق للخبراء على تركيب عسل النحل.

- وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ ما نصه: «﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها....، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾؛ أي ادخلي الطرق في طلب المرعى حال كونها مسخرة لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب...».

ومن الغريب حقاً، أن يصل عدد من قدامى المفسرين من أمثال الزمخشري (في الكشاف)، وأبو حيان (في تفسير البحر المحيط)، والنسفي (في مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، والعز بن عبد السلام في (فوائد في مشكل القرآن) إلى تفسير قول الحق (تبارك وتعالى): ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ بالطرق التي يرشح منها الغذاء الذي تأكله شغالات النحل إلى فمها فيخرج عسلاً، ويأتي العلم الحديث مؤكِّداً أن الله ـ تعالى ـ قد زوَّد

شغالات النحل بأربع مجموعات من الغدد التي تنتقي من غذائها: **العسل، والغذاء الملكي، والشمع، والخمائر، والسموم**، وليس هذا لغير شغالات النحل.

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

أولاً: في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

واضح الأمر أن المقصود بالثمرات هنا، هي الزهور بما فيها من الخلايا التناسلية التي تنتجها النباتات المزهرة، والرحائق المصاحبة لها، وهذه الخلايا التناسلية منها الأنثوية (بويضات الزهور)، والذكرية (حبوب اللقاح أو غبار الطلع)، وباتحادهما تتم عملية إخصاب الزهور وإنتاج الثمار المعروفة لنا في أغلب الأحوال؛ لأن بعض الثمار قد تنتج عن تضخم مبيض الزهرة وحده أو الكأس وحده أو غير ذلك من أجزاء الزهرة. ونستند في ذلك إلى قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الرعد:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ...﴾ «سورة الرعد، الآية: 3».

فزهور النباتات تحمل كلاً من أعضاء التأنيث (مبيض الزهرة)، وأعضاء التذكير (أسْدِية الزهرة التي تنتج حبوب اللقاح)، وقد ينفصل الجنسان على شجرة مؤنثة وأخرى مذكرة، كما هو الحال في نخيل البلح، وقد يوجدان في نفس الزهرة الواحدة، كما هو الحال في زهرة التين.

وفي الحالتين الأخيرتين تتم عملية إخصاب الزهرة بما يعرف باسم عملية التلقيح الخلطي، حيث تقوم الحشرات أو الرياح أو كلاهما بنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى بويضات زهرة أخرى؛ وذلك لأن تلقيح بويضات الزهرة بحبوب لقاحها هي، يتسبب في إضعاف كلٍّ من ثمرتها ونسلها تماماً كما يحدث في تكرار زواج الأقارب لأجيال متعاقبة.

ولذلك فإن من حكمة الله البالغة في خلقه أننا نجد تفاوتاً كبيراً في أطوال الأسدية والبويضات المجتمعة في زهرة واحدة، أو تفاوتاً في أزمنة نضج كل منهما حتى يلقح بنظير من زهرة مختلفة من نبات آخر من نفس النوع؛ وذلك لتحسين كل من النسل والثمار،

وتقوم الشغالات من إناث النحل بالدور الأكبر في عملية التلقيح الخلطي للزهور، وذلك في أثناء امتصاصها للرحائق وحملها قدراً من حبوب اللقاح.

فشغالات النحل تتغذى على كل من رحيق الأزهار وحبوب اللقاح الموجودة فيها، والرحيق عبارة عن محلول مائي غني بالكربوهيدرات التي أهمها السكريات، أما حبوب اللقاح فهي غنية بكل من البروتينات، والأحماض الأمينية، والفيتامينات، والخمائر، بالإضافة إلى عدد من العناصر المعدنية.

ويفرز الرحيق بواسطة غدد خاصة في الزهرة، توجد عادة في قاعدة السداة (أعضاء التذكير)، وهي غدد معقدة البناء تقوم على تنظيم عمليات تركيب الرحيق وتدفقه إلى داخل الزهرة باستمرار طوال فترة حياتها.

وقد ألهم الله ـ تعالى ـ الشغالات، من إناث نحل العسل، اختيار فرق من المستكشفات من بينهن يغادرن الخلية للبحث عن الأزهار الحاملة للرحيق، ثم يعدن لإخبار بقية الشغالات عن أمكنة وجود تلك الزهور، وعن أنواعها، وأنواع ما تحمله من الرحيق، وتحدد لها الموقع بدقة فائقة، فتتحرك جامعات الرحيق من الشغالات إلى تلك المناطق، متنقلة من زهرة إلى أخرى لجمع ما تستطيع جمعه من الرحيق ومن حبوب اللقاح، ومع تنقلها تحمل بعض حبوب اللقاح من زهرة إلى أخرى، فتعين على إخصابها، مما يؤدي إلى إنتاج الثمار والبذور التي تساعد على تكاثر النبات واستمرارية سلالاته.

وتتغذى الشغالات الجانية لعسل النحل على جزء مما تجمعه، وتغذي عدداً من أفراد خليتها على جزء آخر منه، ويمكنها الباقي من صناعة الشراب الشافي من العسل، والغذاء الملكي، والشمع والسم.

ولكي تنتج الواحدة من شغالات النحل كيلو جراماً واحداً من العسل الناضج، فعليها أن تجمع ما بين 3، 4 كيلوجرامات من رحيق الأزهار، ويستلزم ذلك ما بين ستمائة ألف وثمانمائة ألف طلعة، والوقوف على ما يتراوح بين ستة الملايين وثمانية الملايين زهرة.

ويتفاوت مجموع أطوال المسافات التي تقطعها شغالة النحل لتحقيق ذلك، بتفاوت بعد الزهور عن الخلية، وإن كان يصل في المتوسط إلى نحو نصف مليون كيلومتر، وهي مسافة تعادل أكثر من عشرة أضعاف محيط الأرض، المقدر بنحو أربعين ألف كيلومتر (40،075 كم) عند خط الاستواء، (وهو أقصى طول لمحيط الأرض)؛ وذلك لأن كيس العسل في الشغالة من إناث النحل يتَّسع لنحو خمسين ملليجراماً من الرحيق في المتوسط، ويستغرق ملؤه بالرحيق قرابة الساعة تزور خلالها الشغالة ما يقرب من مائة زهرة، وعادة ما تركز على نوع معين من الزهور في كل فصل من فصول السنة، وبذلك تقطع آلاف الكيلومترات ذهاباً وإياباً بين الخلية وموضع الزهور الحاملة للرحيق[1].

وبالإضافة إلى الرحيق تجمع الشغالة حبوب اللقاح، ويبلغ متوسط ما تجمعه الشغالة الواحدة من تلك الحبوب نحو عشرين ملليجراماً في كل طلعة، وهي حبوب متناهية الصغر، الواحدة منها عبارة عن خلية كاملة محاطة بغلاف داخلي هش وغلاف خارجي مقاوم لكلٍّ من التفكك، والتعفن، والحرارة العالية، وكلٍّ من الحموضة والقلوية الشديدتين، وتجمع شغالة النحل حبوب اللقاح في سلال خاصة على أرجلها الخلفية وتعود إلى خليتها مثقلة بما تحمله من الرحيق وحبوب اللقاح؛ لتفرغه في عيون خاصة بالخلية.

وبعد ذلك تقوم العاملات من الشغالات في داخل الخلية بتفتيت حبوب اللقاح وخلطها بالقدر المناسب من العسل، وكبسها في عيون خاصة بخلية النحل لكي تتغذى عليه اليرقات الكبيرة. أما اليرقات الصغار فتتغذى على مادة هلامية بيضاء تفرزها الشغالات تعرف باسم **الهلام الملكي** ثم يستبدل ذلك بعد أيام برحيق الأزهار وحبوب اللقاح. أما اليرقات التي تعد لمنصب الملكات فإنهن يغذين باستمرار **بالهلام الملكي (المعروف باسم غذاء ملكات النحل)** وقد زود الله ﷻ تلك الحشرة بحواس متطورة للبصر والشم والتذوق وبأجهزة خاصة لتقدير المسافات والاتجاهات والأزمنة بواسطة ما يعرف باسم **الساعة الحيوية**. ومن هذه الأجهزة: ثلاث عيون بسيطة وزوج من العيون المركبة التي تحتل مكاناً مناسباً من رأسها وتتكون كل عين منها من 6300 عدسة صغيرة متجانسة، وهذا النظام الإبصاري المعقد والمكون من العيون المركبة والبسيطة يعين النحلة على الرؤية من مسافات بعيدة ومرتفعات

---

(1) وجوه الإعجاز في آيات النحل، د. رضا فضيل بكر.

شاهقة حيث تستطيع شغالة النحل الطيران لمسافة تتراوح بين 7، 11 كم ذهاباً، ومثلها إياباً من الخلية وإليها بسرعة تصل إلى60 كم/ ساعة في الذهاب، ونصف ذلك في الإياب. وقد أعطى الله ﷻ عيون النحلة القدرة على تمييز عدد من أطياف النور الأبيض بالإضافة إلى الأشعة فوق البنفسجية التي لا تراها عين الإنسان؛ وبذلك تستطيع تمييز ألوان الزهور بدقة فائقة، كما أعطاها الخالق العظيم قدرات عالية لكل من حاستي الشم والتذوق؛ لتمايز بين الزهور بواسطة روائحها وروائح ما بها من الرحيق ومن حبوب اللقاح، ولتمايز بين طعوم ما بها من سكريات فتقبل على المناسب منها وتتجنب غير المناسب.

كذلك زود الله ـ تعالى ـ شغالات النحل بزوجين من الأجنحة الغشائية موزعين على جانبي جسمها، وبفم قارض لاعق، وبعدد من قرون الاستشعار التي يتألف الواحد منها من (13) عقلة تحتوي العقل الست الأولى منها على حفر صغيرة يحف بها من أسفل أقراص سمعية مرنة يتصل كل منها بعصب حسي دقيق وبمراكز لكل من اللمس والشم، ويبلغ عدد المراكز الحسية على قرن الاستشعار الواحد ما يصل إلى نحو ألفين وأربعمائة مركز، كل هذه التجهيزات أعانت الإناث من شغالات النحل على جمع أكبر قدر ممكن من رحيق الأزهار وطلوعها.

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا...﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

إن ورود هذه الجملة القرآنية الكريمة على هذا النحو قد بين الأمر إلى إناث النحل من الشغالات بالأكل من كل الثمرات، وقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد ذلك:

﴿...يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾
جعل من معاني ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ ما يتجاوز مجرد تمكن شغالات النحل من التحرك من خلاياها إلى مناطق الزهور والرحائق ثم العودة إلى خلاياها دون أن تضل الطريق مهما تباعدت المسافات بعد أن تكون قد أكلت من كل الثمرات، وحملت من رحيق الأزهار وحبوب اللقاح الخاصة بها إلى معنى آخر يشمل الطرق التي ألهمها الخالق ﷻ أن تصنع عبرها ذلك الشراب الشافي مما جمعته بواسطة العديد من الخلايا الحيوية والغدد الخاصة التي تقوم على تجهيز هذا الشراب الشافي عبر الطرق التي تصل بين معدة النحلة والغدد المختلفة التي تقوم بتحويل الغذاء إلى هذا الشراب الذي جعل الله

ـ تعالى ـ فيه شفاءً للناس. ومعدة النحلة تختلف في تركيبها عن معي سائر الحشرات، والوسائل الفطرية التي ألهم الله ـ تعالى ـ بها النحلة، كي تستطيع بواسطتها تحويل ما جمعته من غذاء إلى عسل، وشمع، وسم، وغذاء الملكات، والإنزيمات التي تحول السكريات المعقدة في رحيق الأزهار إلى سكريات بسيطة، هي وسائل خص الله ـ تعالى ـ بها النحل دون العديد من الحشرات.

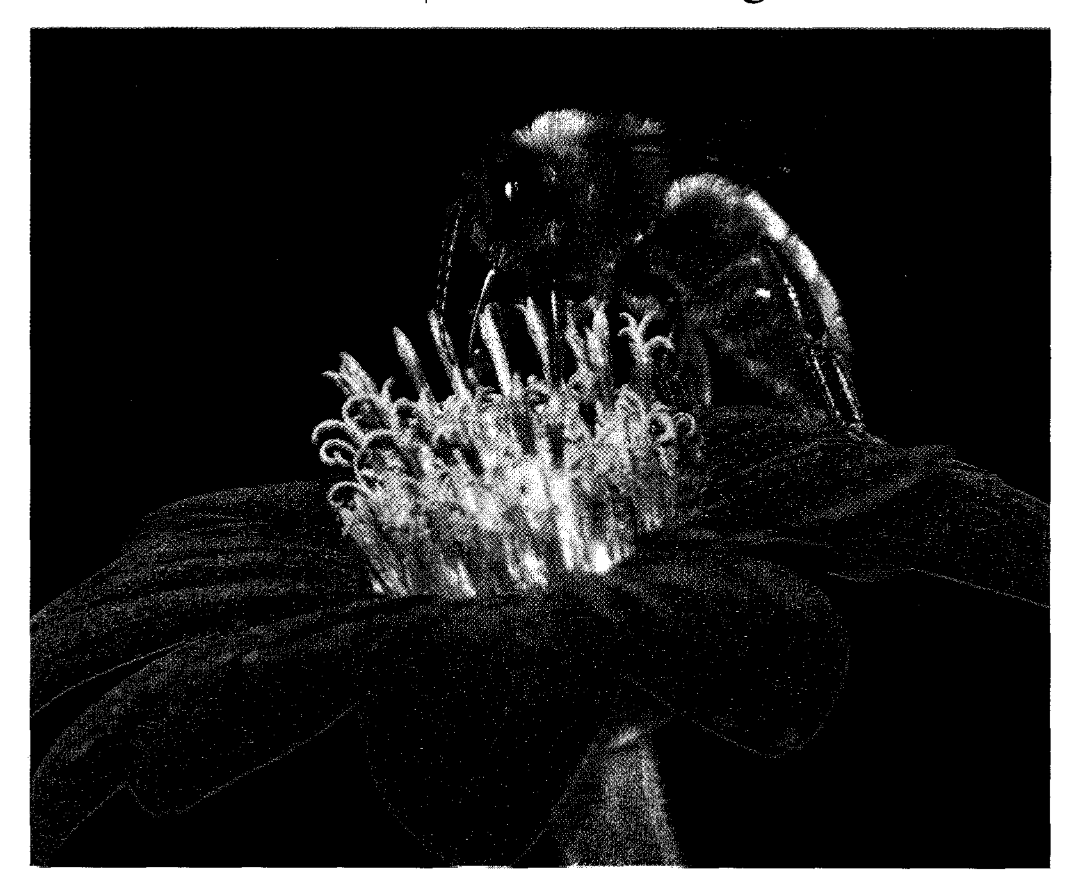
ومن السبل التي يسرها الخالق ﷻ للشغالات من إناث النحل؛ كي يمكنها من إنتاج هذا الشراب العجيب الذي جعل فيه شفاء للناس: فم قارض، ماص، لاعق، وشفاه ملعقية، وخرطوم ماص وجهاز هضمي مميز يختلف عنه في بقية الحشرات يبدأ بعد الفم بالبلعوم، ثم المريء الذي يمتد حتى البطن الذي ينتفخ في جزء منه، مكوناً معدة العسل التي أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على إفراغ محتوياتها إلى أقراص شمع الخلية عن طريق الخرطوم لتخزين العسل فيها، ثم المعدة الوسطى التي تقوم بعملية هضم الغذاء، ثم المعي السفلي التي تنتهي بجهاز الإخراج. ويتكون العسل بإفراز عدد من الإنزيمات الخاصة من الغدد اللعابية على الرحيق لتحول ما به من السكريات الثنائية ـ مثل سكر القصب ـ إلى سكريات أحادية من مثل كل من سكر العنب وسكر الفواكه، التي تختلط بعدد آخر من الإنزيمات والهرمونات، التي تحول الرحيق المهضوم إلى عسل النحل. وبالإضافة إلى ذلك تقوم الغدد البلعومية بإفراز **غذاء ملكات النحل**، وتقوم الغدد الشمعية بإفراز **شمع العسل**، ويتحول المبيض في شغالات النحل إلى جهاز لاسع يفرز **سم النحل**، الذي تدافع به النحلة عن ذاتها وعن خليتها، والذي جعل الله ـ تعالى ـ فيه كذلك شفاءً لعدد من الأمراض، هذا بالإضافة إلى عدد من الغدد الأخرى التي هيأ الله ـ تعالى ـ كلاً منها لإفراز مادة خاصة مما تحتاجه شغالات النحل في القيام بنشاطاتها المختلفة، وتأدية وظائفها المتعددة.

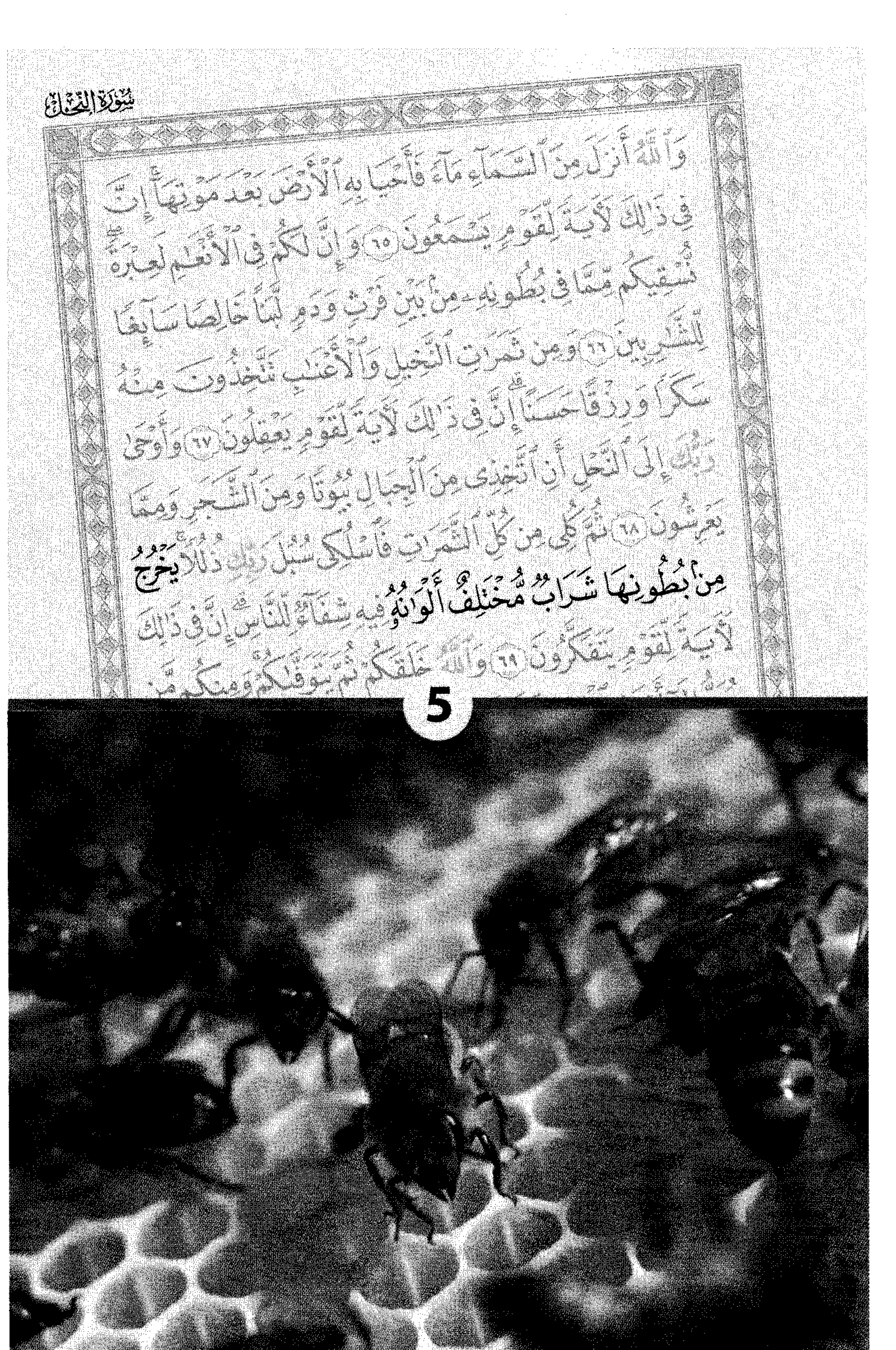
وبذلك يكون من معاني الأمر الإلهي إلى شغالات النحل:

﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ﴾؛ أي فاصنعي من رحيق الأزهار وطلوعها ـ حبوب اللقاح ـ عسلاً وغذاء ملكياً وشمعاً وخمائر ـ إنزيمات ـ وسموماً بالسبل التي يسرها الخالق ﷻ لك، أي القنوات المختلفة في جهازك الهضمي المعقد الذي خصك الخالق القادر به، والذي يمر به غذاؤك الذي جمعته من كل الثمرات فتتغذين على جزء منه، وتخرجينه على هيئة فضلات، وتحولين أغلبه إلى هذا الشراب المختلف الألوان الذي أعطاك الله ـ تعالى ـ

الإلهام والقدرة على إعادة إخراجه من بطنك إلى فمك فتصبينه في خليتك شراباً جعل الله ـ تعالى ـ فيه شفاءً للناس؛ ولذلك جاءت لفظة (سبل) جمعاً منكراً، ونسبت إلى رب النحل (سبل ربك) تعظيماً لشأنها، ولشأن الدور الذي وهبها الله ـ تعالى ـ القدرة على القيام به لإخراج هذا الشراب، وإشارة إلى ما في ذلك من إبداع الله في الخلق، وروعة التقدير الذي خص به إناث النحل من الشغالات دون غيرها من الحشرات.

وهذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وجمعُها في هذا النص القرآني المعجز بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ ...﴾ «سورة النحل، الآية: 69»؛ لَممّا يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.




سُورَةُ النَّحْلِ

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً
نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ
سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٦٧ وَأَوْحَىٰ
رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ
مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن

5

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿...يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ...﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

5

هذا النص القرآني المعجز، جاء في أوائل النصف الثاني من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت كذلك باسم «سورة النعم» لورود ذكر كل من اللبن والعسل فيها، وهما من أعظم نعم الله على الإنسان في مجال الطعام والدواء.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «النحل»، حول العقيدة الإسلامية وما تحمله من دعوة إلى الإيمان بالله ـ تعالى ـ وتوحيده وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله، وما يتطلبه هذا الإيمان من التزام صادق بمكارم الأخلاق، التي تمثل ركيزة من ركائز الإسلام.

وفي مقام الاستشهاد على حجية هذا الدين القيم أوردت السورة الكريمة عدداً من آيات الله في الكون مدللة بها على أن هذا الكون بما فيه ومن فيه لايمكن أن يكون نتاج الصدفة المحضة، ولا أن يكون قد أوجد نفسه بذاته، بل لا بد له من موجد عظيم له من كمال العلم، وتمام الحكمة، وطلاقة القدرة ما مكَّنه من إبداع خلقه، وله من صفات الربوبية والألوهية والوحدانية المطلقة ما يغاير صفات خلقه.

وقد سبق لنا تلخيص سورة «النحل» وإبراز محاورها الرئيسية من ركائز العقيدة إلى ما استشهدت به من إشارات كونية وإلى ما تدعو إليه من مكارم أخلاقية في المقالين السابقين وسوف أقصر حديثي هنا على إعجاز الله ـ تعالى ـ في منح أمة النحل القدرة على تحويل ما تجنيه من رحيق وحبوب لقاح في بطونها إلى شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس. وقبل شرح الدلالة العلميّة للنص الكريم سنمر سريعاً على أقوال عدد من المفسرين.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ... ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ...﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

● ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: «.. ما بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها...».

وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه، لا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا...﴾.

أصل (البطن) الجارحة أي الفراغ الحاوي على الأحشاء الرئيسية لجسم كل حيوان أو إنسان، وجمعه (بطون)، ويعرف (البَطْن) لغة بأنه ضد الظهر في كل شيء، ولفظة (البطن) تذكر وتؤنث، ويقال (بَطْن) الوادي أي وسطه، و(استَبْطَنَه) أي دخل في بطنه، و(بَطْنان) الجنة وسطها.

ويقال: (بَطِنَ) الأمر أي عرف باطنه، و(بَطِنَ) بفلان أي: صار من خواصه، و(بطانة) الرجل هي وليجته الذين يختصهم بالاطلاع على باطن أمره؛ ولذلك يقال: (أبْطنه) أي جعله من خواصه، و(استبطن) الشيء أي أخفاه أو طلب ما في بطنه، ومن هنا جاءت بطانة الثوب بمعنى ظهارته، ويقال: (بَطِنَ) الثوب (تبطيناً) أي جعل له بطانة.

ويقال: (بُطِنَ) الرجل أي اشتكى بطنه، و(المبطون) هو عليل البطن، و(المُبطِن) هو الضامر البطن، ويقال: (بطنه) أي أصاب بطنه، و(بَطِنَ) الرجل أي عظم بطنه من الشبع فصار (بطيناً) أو (مِبْطاناً)، و(البِطْنة) هي الامتلاء الشديد للبطن بالطعام، و(البَطِن) الذي لا يهمه إلا بطنه، ويقال لكل غامض أو غير مدرك بالحواس (بَطْن) أو (باطن)، ولكل جلي تدركه الحواس ظهر أو ظاهر.

و(البَطْن) تصنيفاً هو ما دون القبيلة، ودونه الفَخْذ ثم العائلة.

وضمير الهاء في (بُطُونها) يعود على إناث النحل من الشغالات، وهن اللائي يصنعن الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس، وهي حقيقة لم تدرك إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم.

وبطن الشغالة من إناث النحل (تقع داخل جذعها) الذي يأتي بعد كل من الرأس والصدر،

ويتألف بطنها من ثماني حلقات رقيقة مرنة، تحوي بداخلها كلاً من الجهاز الهضمي والتنفسي والدوري والعصبي بالإضافة إلى الجهاز التناسلي الذي يتحول في الشغالات إلى الجهاز اللاسع كما يحتوي بطن الشغالة من إناث النحل على عدد من الغدد المهمة.

فالجهاز الهضمي لشغالات النحل يبدأ **بالفم** وأجزائه المختلفة. ومن أهمها الغدد الفكية والوجناتية، وغدد خلف المخ، وكلها يفرز مواد مساعدة لتطرية وتليين ولصق قشور الشمع التي تفرزها غدد الشمع من بطن الشغالة، والغدد اللعابية وهي مسؤولة عن إفراز الخمائر المهمة ـ الإنزيمات ـ اللازمة لتحويل السكريات المعقدة في رحائق الأزهار إلى سكريات بسيطة سهلة الهضم والتمثيل والامتصاص، ويلي الفم **البلعوم** وحوله الغدد البلعومية، وهي تقوم بتكوين الغذاء الملكي، ويلي البلعوم **مريء طويل** يصل إلى **المعدة**، ومعدة شغالة النحل تختلف عن معي جميع الحشرات؛ إذ تنتفخ في أولها مكونة حوصلة خاصة تعرف باسم **حوصلة العسل** يجمع فيها هذا الشراب المختلف الألوان، وقد أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على إفراغ محتوياتها إلى أقراص الشمع بالخلية، عن طريق خرطومها الفمي؛ وذلك لتخزين العسل في الخلية، وحوصلة العسل تلك تقابل القونصة في بقية الحشرات، وتليها **المعدة الأمامية**، ثم **المعدة الخلفية** ثم **قنوات ملبيجي**، ثم **الأمعاء الدقيقة**، ويليها **المستقيم** المزود بغدد خاصة تعمل على تنظيم التوازن المائي في جسم الشغالة، وفي تجويف نهاية البطن يقع **الجهاز اللاسع** ويتكون من غدتين، إحداهما قلوية والأخرى حامضية، تفرزان سم النحل الذي فيه شفاء كذلك للعديد من الأمراض؛ وهذا الجهاز اللاسع متحور عن آلة وضع البيض في إناث النحل، التي تقلع بتقدير من الخالق ﷻ عن هذه الوظيفة، تاركة إياها للملكة حتى تتفرغ إناث الشغالات لمسؤولياتها الأخرى، وهي عديدة جداً، ولعل ما في بطن شغالة النحل من أجهزة وغدد مختلفة هي المقصودة بالسبل في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:... ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾... أي فاسلكي بما أكلت من كل الثمرات تلك السبل التي يسرها لك ربك لتخرجي من بطونك هذا الشراب المختلف الألوان، الذي جعل الله ـ تعالى ـ فيه شفاء للناس، ونسبتها إلى رب النحلة من قبيل التكريم تعظيماً لشأن تلك السبل التي لا يقدر على خلقها إلا الله ﷻ. وهذا لا ينفي السبل التي تأخذها شغالات النحل من خلاياها إلى مواطن الزهور والرحائق ثم العودة إلى خلاياها عبر مئات من الكيلومترات دون أن تضل عنها مهما تباعدت المسافات وتشعَّبت الطرق.

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ:... ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ...﴾:

وهذا الشراب المختلف الألوان يشمل كلاً من **عسل النحل** و **الغذاء الملكي**، وما بهما من **حبوب اللقاح** و **صمغ النحل (العكبر)**، و **شمع النحل** و **سم النحل**، وكلها يخرج من بطون الشغالات من إناث النحل في حالة سائلة ـ شراب ـ تحمل بعض المعلقات، ثم يجمد أو يتبلور بعد ذلك، ولذا جاءت الإشارة إلى هذا الخليط العجيب إشارة عامة ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ...﴾، وقد فهم جميع المفسرين من هذه الإشارة أنها تقصد عسل النحل؛ لأن بقية ما يخرج من بطن النحلة الشغالة لم يعرف إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومكونات ذلك الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس، يمكن إيجازها فيما يلي:



1 ـ **عسل النحل:** وهو سائل حلو، كثيف القوام لزج، يختلف في صفاته الطبيعية (من مثل ألوانه وروائحه ونكهاته وكثافته ودرجة رطوبته وقابليته للتبلور)، وفي تركيبه الكيميائي وذلك باختلاف كلٍّ من نوع الزهور المستمد منها الرحيق وحبوب اللقاح، ونوع الشغالة التي جمعت كل ذلك، وأوان جمعها له.

ويتكون عسل النحل أساساً، من السكريات التي تشكل نحو77٪ من كتلته (من مثل سكر العنب وسكر الفواكه وسكر القصب)، والماء الذي تتراوح نسبته بين10٪ و20٪ في المتوسط، بالإضافة إلى نسب متفاوتة من الأحماض العضوية والبروتينات وبعض المواد الدهنية والإنزيمات والفيتامينات والهرمونات، وآثار للعديد من العناصر (من مثل الحديد والنحاس والسيليكون والمنجنيز، والألومنيوم والكالسيوم والمغنيسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والفوسفور والكبريت) وبعض المضادات الحيوية وعناصر ومركبات أخرى غير معروفة.

ويتراوح لون عسل النحل بين الأبيض المائي والعنبري الغامق مع كل المراحل الوسطى الممكنة. وهذا التباين مرده إلى اختلاف نسب المكونات الصبغية القابلة للذوبان في الماء والتي تستمدها الشغالات من رحائق الزهور، وهي غنية بالصبغات النباتية من مثل الكلوروفيل الأخضر والكاروتين الأصفر والأكزانثوفيللات الحمراء.

كذلك تختلف رائحة العسل باختلاف نسب المواد الطيارة الموجودة فيه، والتي استخلصتها شغالات النحل من رحائق الأزهار أيضاً. والكثافة النوعية لعسل النحل تساوي في المتوسط مرة ونصف كثافة الماء (حوالي 1.5 جرام للسنتيمتر المكعب) وتزداد لزوجة هذا العسل بازدياد تركيزه؛ أي كلما قلت نسبة الماء فيه. وبعض أنواعه تصل كثافته إلى حد كثافة المواد الجيلاتينية (الهلامية).

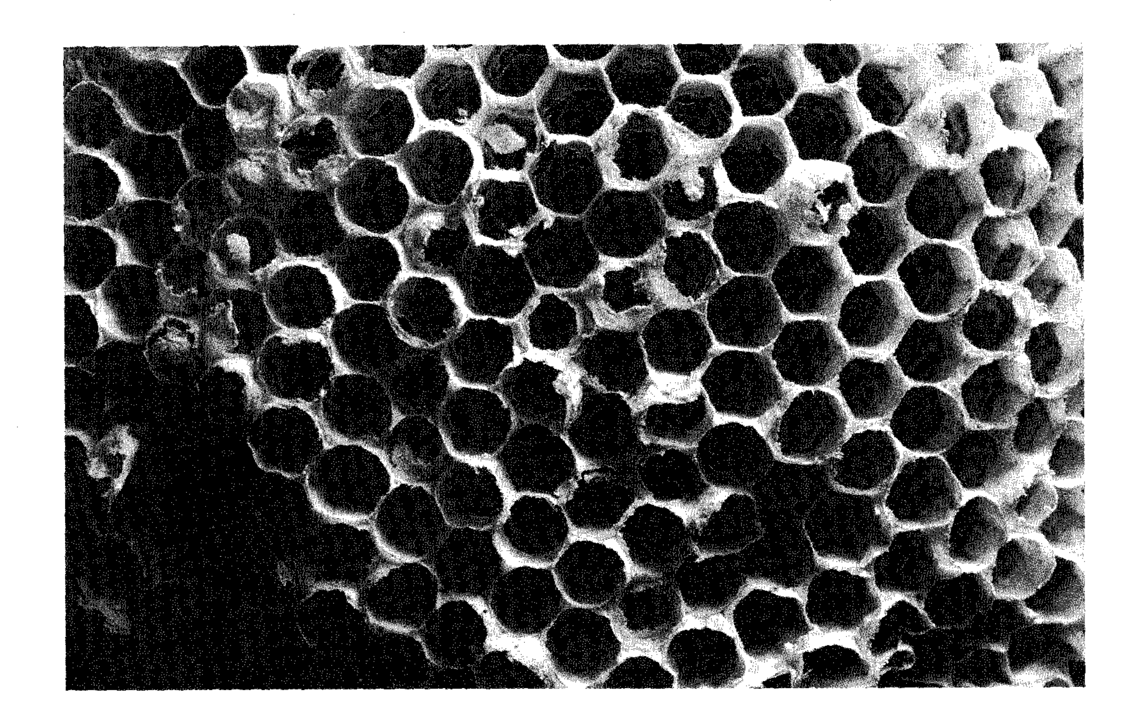
وتختلف قابلية العسل للتبلور باختلاف تركيبه الكيميائي، فبعضه يبقى سائلاً لعدة سنوات، والبعض الآخر يتبلور بعد إنتاجه مباشرة. وتتباين سرعة تبلور عسل النحل بتباين نسب الأنواع المختلفة من السكريات فيه (من مثل نسبة سكر العنب إلى سكر الفواكه) وتباين نسب كلٍّ من المواد الغروية والرطوبة فيه؛ ليس هذا فقط بل إنه من الثابت أن نسبة الماء في عسل النحل إذا تجاوزت 21٪ من كتلته، فإنه يتخمر على الرغم من أن الخمائر العادية لا يمكنها النمو في عسل النحل نظراً للتركيز العالي للسكريات فيه، فإذا انخفض هذا التركيز بزيادة نسبة الماء تمكنت بعض الخمائر من العيش في عسل النحل، والعمل على تخمره (أي تحوله إلى أنواع مختلفة من الكحول وثاني أكسيد الكربون) وبعد ذلك تتحلل تلك الكحولات في وجود الأكسجين إلى كلٍّ من الخل والماء، ولذلك تقف بعض الشغالات أمام عيون الخلية ضاربة بأجنحتها لفترة طويلة من أجل تبخير أكبر قدر ممكن من ماء العسل كي لا يفسد.

2 ـ **الغذاء الملكي**: وهو مركب كيميائي معقد هلامي القوام فاتح اللون، يميل إلى الاصفرار حتى يصل إلى لون القشدة، تفرزه الغدد البلعومية لشغالات النحل، ويتكون أساساً من البروتينات والأحماض الأمينية والدهنية والماء والسكريات، وبعض العناصر المعدنية والمواد المختزلة، والفيتامينات والهرمونات والإنزيمات، وبعض مكونات الحمض النووي، وغير ذلك من المركبات التي لم تعرف بعد.

ولقيمته الغذائية العالية وتمثله بأكمله في الجسم ومروره مباشرة إلى الدم دون حاجة إلى هضم، يصل وزن يرقة ملكة النحل التي تتغذى على هذا الغذاء الملكي طيلة حياتها عند تمام نموها إلى نحو (1800) مرة قدر وزن غيرها من أفراد الخلية المختلفة، وتعمر لمائة ضعف عمر قريناتها من الشغالات والذكور، وتضع أكثر من مليوني بيضة في المتوسط طيلة حياتها.

3 ـ **شمع النحل**: وهو عبارة عن مادة شمعية بيضاء شفافة خفيفة ذات تركيب كيميائي معقد تفرزها الشغالات من إناث النحل من غدد خاصة في أسفل بطنها على هيئة سائلة ثم تجف بمجرد تعرضها للهواء، وتختزن في جيوب خاصة على هيئة قشور تعاود الشغالة نقلها بأرجلها إلى فمها لتعجنها بفكوكها وتصنع منها أقراص الشمع التي تبنى بها خلية النحل. وشمع العسل عازل للحرارة ولا يتأثر بأيٍّ من الماء أو الكحول الباردين.

ويغلب على تركيب شمع العسل مركب كيميائي يعرف باسم «بالميتات المريسيل» (Mericyl Palmitate) وينتج عن اتحاد الأحماض الدهنية مع بعض أنواع



الكحول، هذا بالإضافة إلى نسبة من الأحماض الدهنية الحرة والمواد الكربوهيدراتية المشبعة والمواد العطرية.

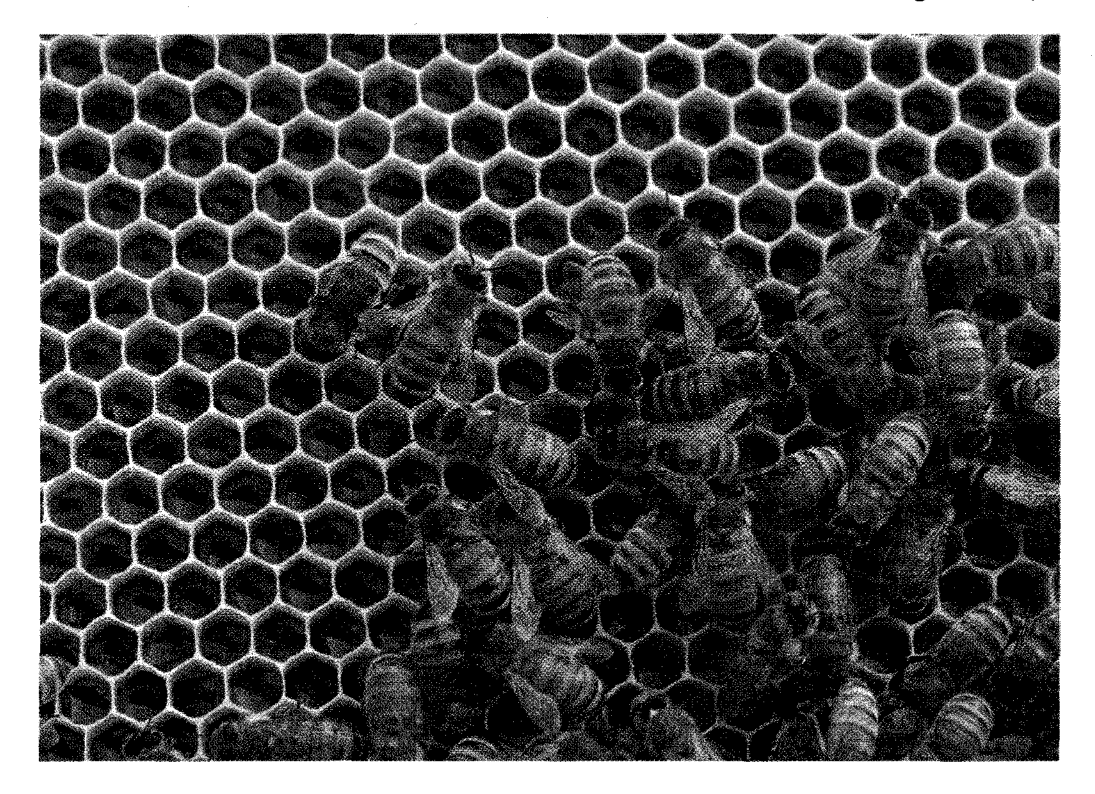
4 ـ **صموغ النحل وغراؤه (العكبر)**: وهي مواد صمغية راتنجية لزجة تجمعها الشغالات من إناث النحل من قلف الأشجار وبعض براعمها، ثم تفرز عليها من غدد وجناتها ما يحولها إلى صموغ تستخدمها في تثبيت الأقراص الشمعية وفي ملء الشقوق الفاصلة بينها، وفي تبطين عيونها السداسية من الداخل وتضييق مداخل الخلايا في فصل الشتاء، كما تستخدمها في تحنيط الآفات الحيوانية التي تتسلل إلى داخل الخلية بعد قتلها حتى لا تلوث البيئة. ويتكون العكبر من صموغ وراتنجات وزيوت طيارة، وبعض الأحماض العضوية والفيتامينات، وبعض المضادات الحيوية القاتلة للبكتيريا والفطريات.

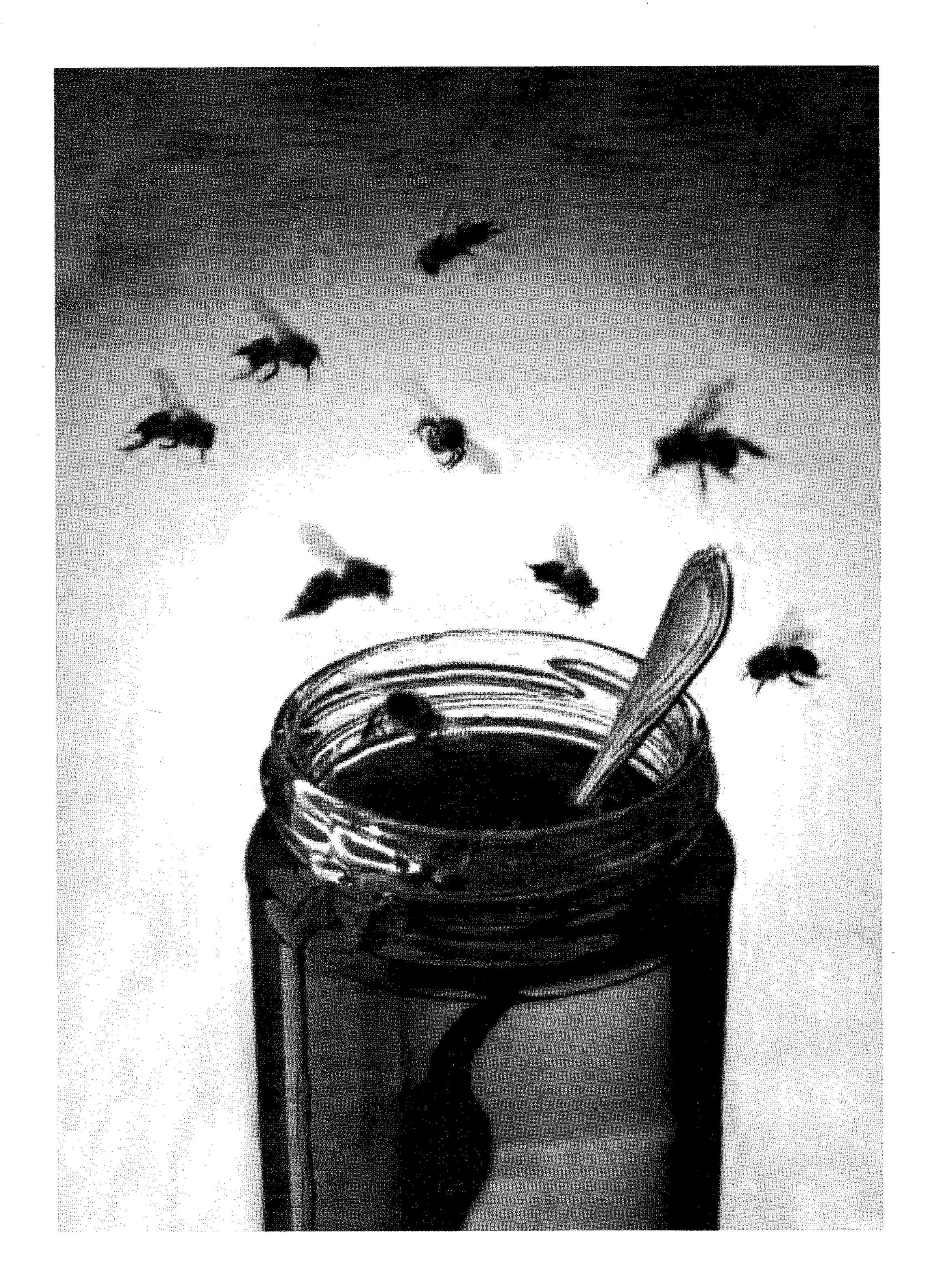
5 ـ **سم النحل**: وهو سائل شفاف سريع الجفاف، ذو رائحة عطرية لاذعة وطعم مر، يفرزه جهاز اللسع في الشغالات من إناث النحل للدفاع عن نفسها وعن خليتها، ويتكون أساساً من البروتينات والزيوت الطيارة، والأحماض والإنزيمات (نحو155 إنزيماً) وبعض مركبات العناصر، ويستخدم في علاج عدد من الأمراض، كما هو الحال في غيره من أنواع الشراب الذي يخرج من بطون شغالات النحل.

6 ـ **خبز النحل**: وهو من مكونات ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرج من بطون الشغالات من إناث النحل، التي تقوم بتغذية يرقات النحل في الأيام الثلاثة الأولى من حياتها بالغذاء الملكي، وابتداء من اليوم الرابع تقدم لليرقات التي سوف تصبح شغالات أو ذكوراً غذاء مكوناً من حبوب اللقاح المخلوطة بالعسل، يعرف باسم خبز النحل، بينما تستمر اليرقات التي ستصبح ملكات على الغذاء الملكي طيلة حياتها، وعلى ذلك فإن كلاً من خبز النحل وحبوب اللقاح يصبح جزءاً من مكونات ذلك الشراب الذي يخرج من بطون الشغالات من إناث النحل. غذاء الملكات يتكون أساساً من كل من مستخلصات الرحيق وحبوب اللقاح؛ أما خبز النحل فيتكون من فتات حبوب اللقاح المخلوط بالعسل، وتتراوح نسبة البروتينات في حبوب اللقاح بين7٪ و30٪، ويتكون الباقي من الأحماض الأمينية والدهون والهرمونات والخمائر (الإنزيمات الممثلة بأكثر من97 إنزيماً)،

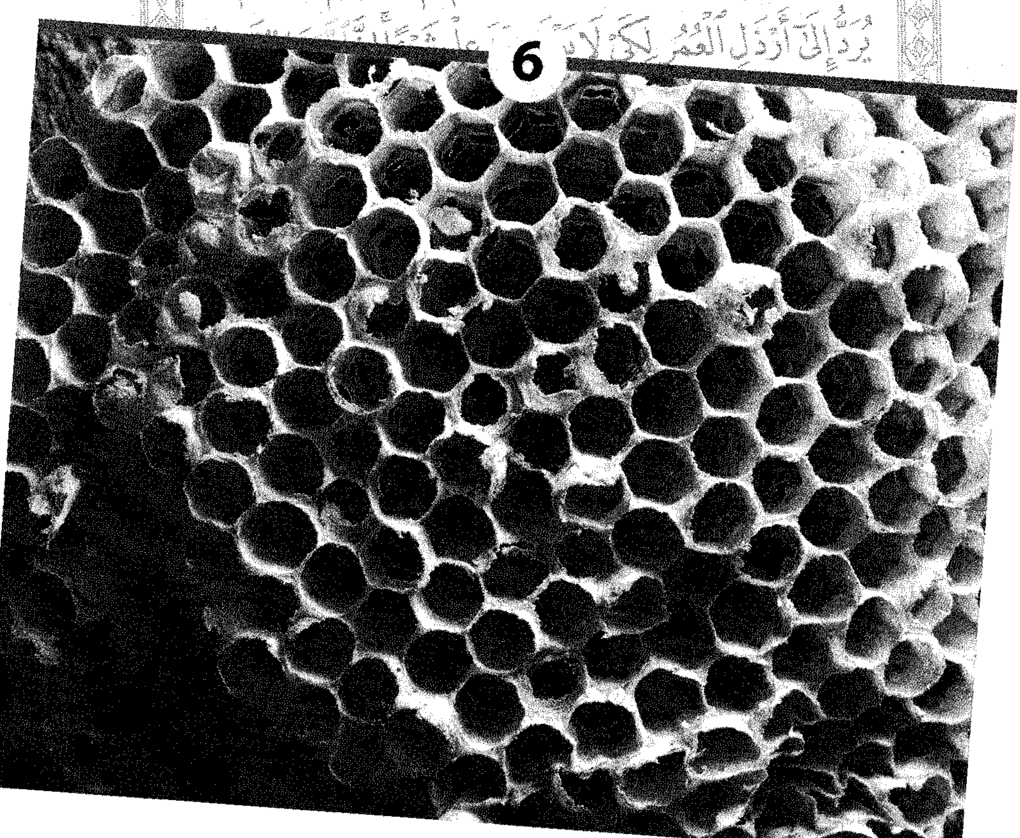
والفيتامينات والسكريات والمواد الطيارة، وبعض مكونات الحمض النووي بالإضافة إلى العديد من مركبات العناصر المعدنية والماء وبعض الأصباغ.

هذا الخليط العجيب الذي تعجز أكبر المصانع التي بناها الإنسان عن إنتاج شيء من مثله، يخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من بطون الشغالات من إناث النحل، ولذلك جاءت الإشارة إليها وإلى بطونها وإلى هذا الخليط العجيب بالتسمية (شراب مختلف ألوانه)، وهي حقائق لم يبدأ الإنسان في التعرف عليها إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وورودها في كتاب الله بهذه الصياغة العلمية الفائقة الدقة، وهو كتاب أنزل على نبي أميٍّ ﷺ من قبل أربعة عشر قرناً، وفي أرض كانت غالبية قاطنيها من الأميين، لممّا يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.





وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ
نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا
لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ
سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ
رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ
مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن
يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿...فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

6

هذا النص القرآني المعجز جاء في أوائل النصف الثاني من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت كذلك باسم «سورة النعم»، وذلك لورود الإشارة فيها إلى كل من اللبن والعسل وهما من أعظم نعم الله ـ تعالى ـ على الإنسان في مجالي الطعام والدواء.

وقد سبق لنا تلخيص سورة «النحل» وإبراز محاورها الرئيسية من ركائز العقيدة الإسلامية إلى ما تدعو إليه السورة من مكارم الأخلاق وفضائل العبادات، وما استشهدت به من إشارات كونية عديدة في أكثر من سبع عشرة آية من آياتها الكريمة، ولذلك فإني أركز هنا على هذا النص المعجز الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عن ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرجه ـ سبحانه ـ من بطون الشغالات من إناث النحل ما نصه:

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

وقبل استعراض ما في هذا النص من سبق علمي أرى لزاماً علي تلخيص أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالته.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿...فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

- ذكر القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره ما نصه: «اختلف العلماء في قوله ـ تعالى ـ ....﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾: هل هو على عمومه أم لا، فقالت طائفة: هو على العموم في كل حال ولكل أحد، فروي عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً،

حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلاً. وقالت طائفة: إن ذلك على الخصوص ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل إنسان، بل إنه خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض الأحوال، وعلى حال دون حال، ففائدة الآية إخبار منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أنه دواء ولذلك كثر الشفاء به وصار خليطاً ومعيناً للأدوية في الأشربة والمعاجين؛ ومما يدل على أنه ليس على العموم: أن (شفاء) نكرة في سياق الإثبات، ولا عموم فيها باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل العلم ومختلفي أهل الأصول.. ولكن حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض، وكانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان».

- وجاء في مختصر تفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما نصه: وقوله ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ أي في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم عن الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء، ولكن قال: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بضده.. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي**». وقال البخاري عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن كان في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذغة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي**». وفي الحديث: «**عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن**».. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في إلهام الله لهذه المخلوقات الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو أطيب الأشياء ﴿لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم....».

- وذكر بقية المفسرين كلاماً مشابهاً لا أرى حاجة إلى تكراره فيما عدا من أصر على أن الشفاء هنا للعموم ومنهم: الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم) والذي جاء فيه: «... كون الفكرة في قوله ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ للعموم لأنها سيقت للامتنان (فهي إحدى النكرات الأربع التي تعم)، كما نص عليه السيوطي في الإتقان وغيره كالعطار في (جمع الجوامع)، وصاحب نشر البنود، وغير واحد من المحققين....».

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عن الشراب المختلف الألوان الذي يخرجه بقدرته من بطون الشغالات من إناث النحل ما نصه:

﴿...فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 69».

أولاً: الشفاء بين الإطلاق والتقييد

اعتبر غالبية المفسرين أن المقصود بهذا الشراب هو عسل النحل، علماً بأن ذكر الشراب مطلقاً يشمل كل ما يخرج من بطون الشغالات ومنه العسل والغذاء الملكي وسم النحل وخبز النحل وشمع النحل وصموغ النحل وغراؤه، والتي جمعها القرآن الكريم في كلمة واحدة هي (شراب). واختلف المفسرون بين تعميم الشفاء بهذا الشراب وتخصيصه، فالمعممون أطلقوا الشفاء به لجميع الأمراض استناداً إلى أن لفظة (شفاء) بمشتقاتها جاءت ست مرات في القرآن الكريم بيانها كما يلي:

1 ـ جاءت نسبة الشفاء إلى الله ـ تعالى ـ في قول نبي الله إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ «سورة الشعراء، الآية: 80».

2 ـ في ثلاث آيات متفرقات ينسب ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الشفاء بمعناه الشامل (المادي والمعنوي) للقرآن الكريم وذلك بقوله ـ عز من قائل ـ:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ «سورة يونس، الآية: 57».
- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 82».
- ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ «سورة فصلت، الآية: 44».

3 ـ وفي آية خامسة يشير القرآن الكريم إلى الشفاء المعنوي لما في الصدور، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ «سورة التوبة، الآية: 14».

4 ـ والآية السادسة هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي ربط فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الشفاء بأمر مادي من أمور الدنيا وهو ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرجه ـ بطلاقة قدرته ـ من بطون الشغالات من إناث النحل فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ «سورة النحل، الآيتان: 68، 69».

وانطلاقاً من ذلك اندفع بعض المفسرين وبعض المشتغلين بعلوم النحل وإفرازاته في فهم دلالة هذه الآية الكريمة (رقم 69 من سورة النحل) إلى أن هذا الشراب المختلف الألوان هو علاج شامل لجميع الأمراض التي يتعرض لها الإنسان، وأن الله سبحانه وتعالى قد



جعل فيه عمومية الشفاء، واستندوا في ذلك إلى عدد من أحاديث رسول الله ﷺ من مثل أقواله الشريفة التي جاء فيها:

- **«عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»**[1].
- **«إن كان في شيء من أدويتكم خير** ـ أو ـ **إن يكون في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذغة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي»**[2].
- **«الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي»**[3].

وبرروا ذلك الفهم أيضاً بورود لفظة (شفاء) نكرة غير معرفة في سياق الامتنان لتؤكد أن عسل النحل شفاء من كل داء، وعَلَّلُوا وصف رسول الله ﷺ لبعض العلاجات الأخرى بأنها بدائل في حال غيبة عسل النحل أو عدم توفره.

وذهب البعض الآخر من كل من المفسرين وعدد من المشتغلين بعلوم النحل وإفرازاته إلى أنه نظراً لتباين الأمراض، والأفراد، والظروف، ونظراً للاختلاف بين أعسال النحل في صفاتها الطبيعية والكيميائية باختلاف نوع النحل ومصادر طعامه، والظروف البيئية التي ينبت فيها هذا الطعام، فإن كل خلية نحل تتميز بعسل خاص بها، ويندر التشابه بين العسل المجموع من خليتين مختلفتين تشابهاً كاملاً. وانطلاقاً من ذلك وصل هؤلاء إلى أن الآية (رقم 69 من سورة النحل) قد ساقها الله ـ تعالى ـ في سياق التفكر والاعتبار، قبل أن تكون للامتنان، وأن النكرة في هذا السياق ليست قطعية في دلالتها على العموم خاصة أن القرائن تدل على التخصيص، وأن هناك إرشادات نبوية شريفة للتداوي بغير عسل النحل من مثل التداوي بالحبة السوداء أو بالحجامة، ويدعم ذلك رد رسول الله ﷺ على نفر من الأعراب حين سألوه: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال ﷺ: **«نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم ينزل داء إلا وأنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله»**[4].

---

(1) رواه ابن ماجه في كتاب الطب، (الحديث: 3452).

(2) رواه البخاري في كتاب: الطب (الحديث: 5683)، ومسلم في كتاب: السلام (الحديث: 5707).

(3) رواه البخاري في كتاب: الطب (الحديث: 5680)، وابن ماجه في كتاب: الطب (الحديث: 3489).

(4) رواه الإمام أحمد في أول مسند الكوفيين، عن أسامة بن شريك رضي الله عنه.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لكل داء دواء فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله عز وجل**»[(1)].

من هنا كان الاستنتاج المنطقي أنه لا يلزم أن يكون العسل علاجاً لكل داء، على الرغم من أن الدراسات المختبرية قد أثبتت أن الشراب المستخرج من بطون شغالات النحل له فوائد علاجية عديدة، وأنه منظم لطبيعة الجسم البشري، وأن الله ـ تعالى ـ قد أعطاه القدرة على إعادة هذا الجسد إلى توازنه الفطري كلما اختل هذا التوازن بالمرض أو بغيره، خاصة إذا وجد الإيمان بذلك انطلاقاً من اليقين الجازم في كتاب الله، والتصديق الكامل بسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ.

ثانياً: من الفوائد العلاجية للشراب المختلف الألوان

أ ـ من الفوائد العلاجية لعسل النحل:

1 ـ أثبتت الدراسات المختبرية لعسل النحل أنه مضاد حيوي قوي ومطهر من الطراز الأول، وأن دوره في ذلك يفوق أدوار العديد من المضادات الحيوية المصنعة؛ ولذلك فإن لعسل النحل دوراً متميزاً في علاج الجروح والحروق والقرحات المختلفة وفي تطهيرها مما يمكن أن ينتج عنها من نتانات، وفي تنشيط بناء الأنسجة الحية مما يساعد على سرعة التئام الجروح.

2 ـ ثبت للعسل دور فعال في علاج كل من قروح الفراش، وأمراض الجلد وتشققاته وحروقه وتقرحاته، من مثل ما ينتج عن أمراض الجمرة الحميدة، والتهابات الغدد العرقية وغيرها.

3 ـ لعسل النحل دور بارز في علاج حالات التهاب الجهاز الهضمي من مثل التهاب بطانة المعدة والأمعاء وقرحات كل من المعدة والاثني عشر، وفي علاج الاضطرابات المعدية من مثل الدوزنتاريا والتقيؤ والإمساك، والإسهال غير واضح الأسباب، وفي علاج التهابات الفم والبلعوم، وفي القضاء على الجراثيم المسببة

(1) رواه مسلم في كتاب: السلام (الحديث: 5705)، والإمام أحمد في مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

لذلك. وتعالج مثل هذه الحالات بأخذ ثلاث ملاعق كبيرة من العسل قبل الفطور وقبل النوم، ويفضل أن تذاب في كأس من الماء الفاتر وأن يضاف إليها شيء من خل التفاح (ولو قليل)، فالعسل أعطاه الله ـ تعالى ـ القدرة على إعادة التوازن لجسم الإنسان بعد أن يختل أثناء فترة الإصابة بالأمراض. وعسل النحل سائل كامن القلوية على الرغم من احتوائه على نسب من الأحماض الأمينية، وذلك بسبب ما يحتويه من العناصر المعدنية، وتعينه هذه الخاصية على معادلة الحموضة الزائدة في المعدة والتي عادة ما تتسبب في إحداث قرحات الجهاز الهضمي.

4 ـ ثبت للعسل دور واضح في تحسين وظائف الكبد وتنشيطه، وفي علاج كل من الالتهابات الكبدية المختلفة، وحالات التسمم الكبدي، وفي تنشيط عمل البنكرياس، وفي علاج داء البول السكري الذي يفيد في علاجه تناول كمية صغيرة جداً من عسل النحل قبل وجبة الفطور صباحاً في حالات الظهور المتأخر للمرض (بعد سن الأربعين)، وليس في حالات الإصابة به في أعمار مبكرة.

5 ـ كذلك للعسل دور مهم في تقوية القلب وضبط نبضاته، وتقوية الأوعية الدموية، وضبط ضغط الدم خاصة في حالات القصور التاجي المتزامنة مع الذبحة الصدرية وغير المتزامنة معها، وفي زيادة نسبة الهيموجلوبين في الدم، وفي المساعدة على سرعة تخثره في حالات النزيف، وفي علاج غير ذلك من أمراض القلب والشرايين.

6 ـ وثبت للعسل دور في علاج حالات المثانة البلهارسية المزمنة، وحالات اضطرابات الجهاز البولي/ التناسلي.

7 ـ وللعسل تأثير إيجابي في علاج آلام المفاصل الروماتيزمية.

8 ـ لعسل النحل دور مهم في علاج العديد من أمراض الجهاز التنفسي من مثل حالات النزلات الشعبية والربو، والالتهاب التحسسي (من مثل حمى القش)، والتهابات الأنف والجيوب الأنفية والقصبة الهوائية، والرئتين وأمراضها.

9 ـ ثبت للعسل دور واضح في علاج أمراض الجهاز العصبي من مثل التوتر والأرق،

وتقلصات الجفون أو تقلصات زاوية الفم، وتشنجات العضلات من مثل عضلات الكفين والساقين والقدمين، والشلل، وفي علاج حالات الإدمان وغيرها.

10 ـ كذلك ثبت للعسل دور كبير في علاج بعض أمراض العيون من مثل التهابات الجفون، والملتحمة، والقرنية، وأمراض الرمد المزمنة، وتقرحات العين بصفة عامة، ويجهز العسل لذلك بهيئة قطرات أو مراهم مناسبة لكل حالة، أو بتشريد محلول العسل المائي (بنسبة 10٪ إلى20٪) كهربائياً واستخدامه على هيئة قطرات للعين أو بحقنة تحت الملتحمة.

11 ـ لعسل النحل تأثير إيجابي في علاج حالات التسمم أثناء الحمل الذي من أعراضه ارتفاع ملحوظ في ضغط الدم في أواخر أيام الحمل، وانتفاخ واضح في الساقين مع زيادة في نسبة الزلال في البول، ويقترح لعلاجه ثلاث ملاعق صغيرة من عسل النحل المذاب في كأس من الماء الفاتر قبل الفطور بساعة، وبعد كل من الغداء والعشاء، أو تناول ملعقة صغيرة من حبوب الطلع بعد كل واحدة من الوجبات اليومية الثلاثة.

12 ـ ثبت لعسل النحل دور واضح في تقوية جهاز المناعة، وزيادة عدد كريات الدم البيضاء والحمراء زيادة ملحوظة، ولذلك يعتقد بأن تناول العسل الطبيعي بشمعه والغذاء الملكي المصاحب له وسم العسل الموجود فيه، وما قد يصاحبه من حبوب اللقاح (خبز العسل) وصموغ النحل يمكن أن يكون له دور في الوقاية من عدد من الأمراض الخطيرة كالسرطان والشلل.

13 ـ كذلك ثبت للعسل دور في علاج الشعر، وفي المحافظة على صحة فروة الرأس وذلك بخلطه مع زيت الزيتون (بنسبة 1 عسل: 2 زيت زيتون) وتدليك الشعر بهذا المزيج مرة كل شهر، ثم غسله وتجفيفه.

14 ـ وفي علاج الأطفال الخدج (المبتسرين) أي المولودين قبل أوانهم ثبت لعسل النحل دور بارز.

15 ـ المستحضرات الطبية التي تحتوي على العسل تساعد على تجديد حيوية الجلد بتغذيته وترطيبه.

ب ـ من الفوائد العلاجية للغذاء الملكي:

أثبتت الدراسات المختبرية والسريرية أن لغذاء ملكات النحل عدداً من الفوائد العلاجية الواضحة منها:

1 ـ أنه مطهر قوي لاحتوائه على نسب عالية من المضادات الحيوية الطبيعية، ولذلك يفيد في علاج العديد من الأمراض ومنها الأمراض الجلدية.

2 ـ علاج التهابات المفاصل والتقليل من الآلام المصاحبة لها.

3 ـ الوقاية من الإصابة بسرطانات الدم.

4 ـ التأثير الإيجابي على الصحة العامة للفرد ورفع قدراته البدنية والمعنوية، وزيادة نشاط غدده التناسلية.

5 ـ زيادة قدرة كلٍّ من المخ والقلب والكبد على التزود بالأكسجين مما يزيد من نشاط هذه الأجهزة ويضاعف من قدرتها على العمل وتحمل المشاق وينعش الذاكرة.

6 ـ علاج عدد من الأمراض العصبية من مثل التشنج وتصلب شرايين الدماغ، والربو العصبي، وارتعاش الأطراف.

7 ـ خفض نسبة الكوليسترول الضار في الدم مما يعين على تجنب الذبحات الصدرية.

8 ـ رفع كفاءة جهاز المناعة في الجسم مما يعين في الوقاية من العديد من الأمراض الخطيرة مثل السرطان.

9 ـ تجديد حيوية كل من قرنية العين، والملتحمة، والأجفان خاصة في حالات الحروق (ويستخدم الغذاء الملكي في هذه الحالة كمرهم بنسبة 1٪).

ويؤخذ الغذاء الملكي عادة قبل تناول وجبة الفطور بجرعة في حدود (40 إلى50 ملليجرام) يومياً إما مباشرة أو مخلوطاً بالعسل (بنسبة 1:100) بمعدل ملعقة صغيرة (حوالي7 جرامات)، كما يمكن أن يجهز على شكل جيلاتيني مثل غروي عسل النحل، أو على هيئة أقراص أو كبسولات أو برشام يحتوي كل منها على (1 ـ 5 ملليجرام) من الغذاء الملكي الجاف، وإن كان يفضل تناوله بهيئته الطبيعية، وقد يعطى الغذاء الملكي في بعض الحالات على هيئة مستحضرات خاصة حقناً تحت الجلد.

جـ ـ من الفوائد العلاجية لشمع العسل:

يفيد شمع العسل في المساعدة على تسليك مجاري الجهاز التنفسي من مثل الأنف والجيوب الأنفية والقصبة الهوائية والرئتين، وذلك بمضغ قطع صغيرة من شمع العسل الذي يساعد على انكماش الأنسجة المبطنة لتلك الأجهزة، والتي عادة ما تتضخم نتيجة للالتهابات التي تتعرض لها عند الإصابة بالأمراض مثل الانفلونزا (الرشح) والتحسس (مثل حمى القش).

ويساعد في ذلك أخذ ملعقتين صغيرتين من العسل مع كل وجبة غذائية. ويمكن الوقاية من مرض حمى القش بأخذ مضغة واحدة يومياً من شمع العسل لمدة شهر قبل الموعد المتوقع للإصابة بالمرض، فإذا وقعت الإصابة تؤخذ المضغة مرة واحدة في اليوم مع ملعقتين صغيرتين من العسل السائل بعد كل وجبة من وجبات الطعام الثلاث، ويزاد عدد المضغات في اليوم مع زيادة شدة الحالة المرضية. وفي الحالات بالغة الشدة ينصح بأخذ ملعقة كبيرة من العسل بعد كل وجبة غذائية، وملعقة كبيرة في نصف كوب من الماء الفاتر قبل النوم. كما ينصح بأخذ خليط من ملعقتين صغيرتين من العسل وملعقتين صغيرتين من خل التفاح مخففتين في كوب من الماء الفاتر قبل تناول وجبة الفطور وقبل النوم مع الاستمرار في أخذ ملعقة كبيرة من العسل بعد كل من وجبتي الغداء والعشاء.

وقد ثبت أن مضغ شمع العسل من (3 ـ 4) مرات أسبوعياً لمدة ثلاث سنوات يمكن أن يستأصل مرض حمى القش تماماً من المصاب به وأن يكسب جسمه مناعة ضد هذا المرض.

د ـ من الفوائد العلاجية لسم النحل:

أثبتت الدراسات المختبرية أن سم النحل يحتوي على عدد من الأحماض الأمينية وعلى غيرها من المركبات الكيميائية المضادة للالتهابات والتي تعطي تسكيناً عاماً للمجموعة العصبية المركزية، كما تنشط المقاومة العامة للجسم، ولذلك فإن سم النحل الذي توجد منه نسبة في العسل تضخها الشغالات في عيون الخلية كنوع من التعقيم بعد ملئها بالعسل وختمها بالشمع، هذا السم له فوائد علاجية كثيرة منها ما يلي:

1 ـ في علاج آلام المفاصل الناتجة عن عدد من الأمراض الروماتيزمية، والآلام

العصبية مثل تلك الآلام الناتجة عن أمراض عرق النسا، وتجويف النخاع (Syringomylia)، وآلام العمود الفقري.

2 ـ في مداواة بعض حالات الصداع النصفي المعروف باسم الشقيقة.

3 ـ في علاج بعض الأمراض الجلدية مثل الذئبة الوجهية، وداء الصدفية، والأكزيما، وتقرحات الركبتين، والتهابات البشرة، وغير ذلك من أمراض التهاب الجلد.

4 ـ في مداواة بعض حالات التهاب العين.

5 ـ في العلاج من أمراض سلس البول، والملاريا، والتسمم الدرقي.

هـ ـ من الفوائد العلاجية لخبز النحل:

يطلق تعبير خبز النحل على عجينة من حبوب اللقاح وفتاتها وعسل النحل، والدور الفعال فيها هو لحبوب اللقاح وفتاتها والتي توجد بكثرة مع عسل النحل، وهذه لها فوائد علاجية كثيرة منها ما يلي:

1 ـ في علاج العديد من التهابات الأنف التحسسية من مثل حمى القش والربو.

2 ـ في حالات التعرض لجرعات عالية من الإشعاع وما يصاحب ذلك من أمراض.

3 ـ في مداواة حالات التهاب البروستاتا.

4 ـ في تناول مستحضرات تجمع بين حبوب الطلع والغذاء الملكي وعسل النحل مثل مستحضر (Melbrosia P.L.D) أو مستحضر (Anplamil) ما يساعد على تحسن حالة الجسم عامة، وعلى تقوية الغدد التناسلية، وفي علاج حالات الإجهاد النفسي والتوتر العصبي، والخمول البدني بدرجة تفوق درجة أي من هذه المكونات وحدها.

5 ـ في التخفيف من أعراض سن اليأس عند النساء مثل الصداع، خفقان القلب، الارتفاع في درجة الحرارة والتوتر العصبي.

6 ـ في تركيب مستحضرات للتجميل تعين على إعادة حيوية الجلد.



و ــ من الفوائد العلاجية لصموغ وغراء النحل:

أثبتت الدراسات المختبرية أن صموغ وغراء النحل قاتلة للجراثيم من البكتيريا والفطريات والفيروسات، وأنها تزيد من مناعة الجسم ولذلك فلها عدد من الفوائد العلاجية في حالات منها:

1 ـ أمراض الجهاز التنفسي مثل الرشح (الزكام) والتحسس.

2 ـ آلام المفاصل الروماتيزمية، وتأخر نمو العظام.

3 ـ بعض الأمراض الجلدية.

4 ـ بعض أمراض العيون.

5 ـ تطهير الجروح خاصة جروح الحروب والمساعدة على التئامها.

6 ـ التهابات جوف الفم وتسوس الأسنان.

7 ـ تقوية المناعة ومقاومة الإجهاد، والتلوث البيئي وذلك لوفرة مضادات الأكسدة فيه.

وقد أضاف الأخ الكريم الأستاذ الدكتور عز الدين الدنشاري الأستاذ بكلية الصيدلة ـ جامعة القاهرة ـ في رسالة بعث بها إلى بريد الأهرام بتاريخ 11/ 12/ 2003 تحت عنوان: «أسرار النحل» تعليقاً على ما سبق وأن كتبت عن هذه الآية المباركة، ولخص في تعليقه عدداً من الحقائق التي تدعم ما ذكرته آنفاً وهي كما يلي:

1 ـ أكدت الدراسات فاعلية عسل النحل في علاج الأمراض والوقاية منها، حيث بينت أن النحالين في روسيا وغيرها، والذين يعتبر عسل النحل جزءاً من غذائهم اليومي، نادراً ما يصابون بالأمراض الروماتيزمية أو السرطان أو الشلل أو أمراض الكلى، كما يتمتعون بقوة الإبصار ويعمر الكثيرون منهم لأكثر من 130 سنة.

2 ـ يفيد العسل في تنظيم وظائف الكلى والأمعاء، ويهدئ الأعصاب ويقوي الأوعية الدموية لكل من القلب والمخ، ويعالج الأرق ويساعد على زيادة الهيموجلوبين، وهو مفيد في علاج النزلات الشعبية والربو الشعبي، والتهاب البروستاتا، وأمراض القلب والشرايين، والأورام، والسعال، والانفلونزا، والقرحة، والتهاب بطانة المعدة والأمعاء والقيء والإسهال والإمساك.

3 ـ تساعد المستحضرات التي تحتوي على العسل في تغذية الجلد وترطيبه وتليينه، وعلاج التجاعيد التي تظهر حول العين.

4 ـ يفيد العسل الرياضيين الذين يمارسون تسلق الجبال، والذين يشتركون في سباحة المسافات الطويلة حيث يساعد على تنشيطهم بدنياً وذهنياً، ويمكنهم من تحمل التعب.

5 ـ يحتوي سم النحل على مركبات مضادة للالتهابات، ولقد تم إجراء تجارب عليه بينت أنه يساعد في الشفاء من التهاب المفاصل الروماتويدي، وذلك بحقنه في مكان الإصابة، كما يفيد في علاج آلام الأعصاب والتهابها وفي علاج بعض الأمراض الجلدية، وأمراض العيون، والملاريا، والتسمم الدرقي.

6 ـ بوحي من الله ـ تعالى ـ تلتقط شغالات النحل مادة صمغية وهي صمغ النحل (أو البروبولس) من أماكن محددة من الأشجار ثم تضع الصمغ في الشقوق والثقوب

الموجودة في بيوت النحل لمنع تسرب الحشرات إليها، ويتميز صمغ النحل بقدرته على مقاومة الميكروبات، ولذلك فإن النحل يقوم برش أرضية البيت بهذه المادة حتى تتمكن الملكة من وضع البيض في مكان خال من الجراثيم. كما يقوم النحل بتغطية الحشرات الميتة بهذه المادة حتى لا تتعفن داخل بيت النحل وتفسد هواءه.

7 - تعلم الإنسان من النحل، فاستخدم صمغ النحل لمقاومة البكتيريا والفطريات والفيروسات وتطهير الجروح، كما استعان به في علاج القرحة وفي علاج كل من أمراض الأسنان والأورام، وتنشيط كل من نمو العظام والمناعة، ولقد أظهرت البحوث أن صمغ النحل يحتوي على مضادات الأكسدة التي تساعد في الوقاية من أمراض الإجهاد، والتدخين والتلوث البيئي. اهـ.

وهذه شهادة من أستاذ قدير في صميم التخصص نعتز بها وندعوه وزملاءه الكرام في كليات الصيدلة والطب والعلوم والطب البيطري والزراعة إلى إخراج هذا العلم الإسلامي العظيم إلى حيز التطبيق في عالمنا العربي والإسلامي الذي لا يزال يعتمد في صناعة الدواء على دول أجنبية لا تعرف القرآن الكريم ولا تهتدي بهديه، ولا تزال تتخبط في ساحات التجربة العلمية بغير هداية ربانية، فضلّت وأضلّت، واستغلّت حاجة الناس إلى الدواء فابتزتهم أبشع ابتزاز ولا تزال.

والقدرات الشفائية الهائلة لكل من عسل النحل وشمعه وغذاء ملكاته وسمومه وصموغه ولما يحتويه من حبوب اللقاح، والتي جمعها القرآن الكريم في الوصف ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾، والقيمة العلاجية الواضحة لهذا الشراب ولكلٍّ من مكوناته قد أثبتتها دراسات قام بها غير المسلمين، وفي مستشفيات دول حكمت في معظمها بواسطة نظم شيوعية، حتى لا يقول قائل إن المسلمين تحيزوا لقرآنهم فأذاعوا هذه المعلومات عن القدرات الشفائية لعسل النحل وملحقاته. فقد أقيم أول مركز طبي عالمي للاستشفاء بمنتجات نحل العسل في مدينة بوخارست برومانيا سنة 1975م، وتلته مراكز طبية مماثلة في كلٍّ من روسيا والصين واليابان وغيرها من دول العالم. وقد أثبتت هذه الدراسات صدق ما جاء بالقرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞﴾ «سورة النحل، الآيتان: 68، 69».

ومن قول النبي المصطفى والرسول المجتبى ـ عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ: «**عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن**»[1].

وقوله: «**الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار وأنهى أمتي عن الكي**»[2].

والقدرات الشفائية الهائلة للشراب المختلف الألوان الذي يخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من بطون الشغالات من إناث النحل بطلاقة قدرته لم تكتشف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبْقُ كلٍّ من القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ لتلك الكشوف بأربعة عشر قرناً أو يزيد، لممّا يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ
﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ
حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ
خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ **وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ**
لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن

7

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿...وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝﴾

«سورة العنكبوت، الآية: 41»

7

هذا النص القرآني الكريم جاء في مطلع النصف الثاني من سورة «العنكبوت»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (69) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود التشبيه فيها للجوء الكفار والمشركين إلى أولياء من دون الله بلجوء العنكبوت إلى بيتها وهو أوهن البيوت على الإطلاق. وهذا هو المقام الوحيد الذي جاء به ذكر العنكبوت في كتاب الله.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية الإيمان بالله وتكاليف ذلك الإيمان مما قد يتعرض له المؤمنون، بسبب تمسكهم بدين الله ودعوتهم إليه، نتيجة للصراع المحتوم بين الباطل وأهله، والحق وجنده.

وتأكيداً لهذه السنة الدنيوية عرضت السورة الكريمة لقصص عدد من أنبياء الله ورسله، ولما لقوه من العقبات في طريق دعوتهم إلى دين الله، كما عرضت لعدد من الشخصيات والأمم الطاغية المتجبرة وكيف أخذهم الله بذنوبهم، وحقرت من شأن هؤلاء الكافرين والمشركين وضربت بهم الأمثال، وربطت بين الحق في دين الله، والحق الذي في السمٰوات والأرض، وأكدت وحدانية الله تعالى، ووحدت بين رسالات السماء ودعت المؤمنين إلى الثبات على إيمانهم، أو الهجرة بدينهم في أزمنة الفتن، وعظمت من شأن الجهاد والمجاهدين في سبيل الله، وأكدت سنة الابتلاء، ومسؤولية الفرد وفردية التبعات، ووضحت مصائر كلٍّ من المؤمنين والمنافقين والكافرين، وختمت بالبشرى للمجاهدين وبتثبيت الله ـ تعالى ـ لهم في الدنيا والآخرة.

عرض موجز لسورة العنكبوت:

تبدأ سورة العنكبوت بالحروف المقطعة الثلاثة ﴿الٓمٓ﴾ التي تكررت في مطلع ست من سور القرآن الكريم.

وهذه الفواتح الهجائية التي جاءت في مطلع تسع وعشرين من سور القرآن الكريم إما أن تكون رمزاً إلى كلمات أو معان أو أعداد معينة، أو أن تكون أسماء للسور التي جاءت في مطلعها، أو هي من قبيل التحدي للعرب بالقرآن الكريم وإثبات إعجازه، أو هي من وسائل قرع الأسماع والقلوب كي تنشط وتتنبه لتلقي القرآن الكريم، أو أنها مجرد فواتح تميز أسلوب القرآن الكريم عن غيره من الأساليب، أو أن كل حرف منها عبارة عن كلمة لها معنى محدد في كلام العرب، أو أنها من الشهادات المادية الملموسة على صدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من حيث نطقه بأسماء الحروف، وهو النبي الأمي، والأمي لا يستطيع إلا النطق بأصوات الحروف دون أسمائها، أو فيها كل ذلك، أو هي من الغيب الموكول إلى الله ـ تعالى ـ حتى يفتح على واحد من أبناء المسلمين إلى رأي قاطع فيه.

وبعد هذا الاستهلال تؤكد السورة أن الابتلاء بالفتن للمؤمنين من سنن الله في الأرض كوسيلة من وسائل إعدادهم لتحمل أمانة التبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ *﴾ «سورة العنكبوت، الآيتان: 2 ـ 3».

ومن هذه الفتن: فتن النفس وشهواتها، وفتن إقبال الدنيا على أهل الكفر والشرك والمعصية، وفتن الشعور بالغربة وسط عوالم الضياع التي يعيشها إنسان اليوم، وفتن استبطاء نصر الله لعباده الصالحين، وفتن الأهل والأحباء في زمن اختلال الموازين واضطراب المقاييس وانقلاب المعايير، ولا يستطيع المؤمن الثبات على إيمانه إلا بالانتصار على الشهوات، والاستعلاء على الدنيا وما فيها، والإيمان بأنّه لو أنها تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء. ومن عوامل ثبات المؤمن: الأنس بمعية الله والثقة الراسخة في نصره وتأييده وثوابه، والصبر على فقد الأهل والأحباب. وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل**

فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في بلائه»[1].

وذلك لأن النفس الإنسانية تصقلها الشدائد وتطهرها وتوقظ كوامن الخير فيها، وتأخذ بزمامها إلى مسارات الجد الذي لا هزل فيه، وتصرفها عن كل تافه وحقير في هذه الحياة وتحفظها من الضياع والضلال في دروبها المتشعبة، وذلك على مستوى الأفراد والجماعات، فلا يبقى صامداً صابراً في الابتلاءات إلا من زكت نفسه وشرفت خصاله، وخلصت نواياه وأعماله لله الخالق البارئ المصور وحده ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ فيبقى المؤمن ثابتاً على عهد الله حتى يلقاه وهو ـ تعالى ـ راضٍ عنه، وقد أسلم الراية من بعده إلى من يكمل المسيرة من ورائه، فلا يحرم أجر ذلك حتى قيام الساعة.

أما الذين يفتنون المؤمنين ويعملون السيئات فلن يفلتوا أبداً من عقاب الله في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب مقيم. ولذلك تقول الآيات:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞﴾ «سورة العنكبوت، الآيات: 4 ـ 6».

وتؤكد الآيات أجر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتوصي الإنسان بوالديه، ثم تقابل مواقف الثابتين في الفتن بمواقف المستخذين فيها، وهو موقف من مواقف النفاق والله لا يحب المنافقين. وهناك فرق واضح بين تجاوز الفتنة قدرات الاحتمال فيضعف المؤمن ويبقى واثقاً من نصر الله، وبين اليأس والقنوط من رحمة الله.

ثم تعرض الآيات لوناً آخر من الفتن وهو فتنة الإغراء والإغواء التي يقوم بها كثير من الكفار، مع فساد تصورهم للمسؤولية، ولكل من التبعة، والجزاء.

وتحدد الآيات بجزم ووضوح أن المسؤولية والتبعة والجزاء على قدر القيام بحق هذه المسؤولية أو الإهمال فيها.

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (الحديث: 2398)، وابن ماجه في كتاب: الفتن (الحديث: 4023)، والإمام أحمد في مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وتستعرض الآيات بعد ذلك قصص نفر من أنبياء الله ورسله، ومواقف أقوامهم منهم، وما نزل من عقاب الله على تلك الأقوام جماعات وأفراداً، وكان منهم أقوام نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وهود (وقومه عاد)، وصالح (وقومه ثمود)، وكان من الأفراد كل من قارون، وفرعون، وهامان، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 40».

وبعد استعراض مصارع هؤلاء الكفار والمشركين من الطغاة المتجبرين في الأرض والمفسدين فيها، تعود الآيات للتأكيد على أنه لا سلطان في هذا الوجود لغير الله، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ﷻ، وأن قوى أهل الشر هزيلة ضعيفة واهنة، مهما تعاظمت وتجبرت، وأن اللجوء إليها والاحتماء بها كاحتماء العنكبوت ببيتها الهزيل الواهن الضعيف، والذي تصفه السورة الكريمة بأنه أوهن البيوت فتقول:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 41».

ثم تنتقل الآيات بالخطاب إلى رسول الله ﷺ فتقول:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 45».

وتأمر المسلمين بحسن مجادلة أهل الكتاب فتقول:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

«سورة العنكبوت، الآية: 46».

وفي ذلك أبلغ الرد على بعض المنغلقين على أفكارهم المريضة الذين شنوا حملة ظالمة على الإسلام وهم أجهل الناس به. فعبر السنتين الماضيتين ألقى جنرال أمريكي

مسئول عن الاستخبارات ويشغل منصباً قيادياً في وزارة الدفاع الأمريكية واسمه «وليام بويكن» عشرات المحاضرات هاجم فيها الإسلام والمسلمين بجهل فاضح، وسذاجة بلهاء ذكر فيها جدلاً دار بينه وبين أحد القواد العسكريين الصوماليين المسلمين قال فيه: أنا أعلم أن إلٰهي أكبر من إلٰهه، وأعلم أن إلٰهي إلٰه حقيقي وإلٰهه وثن. وكرر مراراً ادعاءه الباطل أن عدو أمريكا هو الشيطان وأن هذا العدو لا بد وأن يهزم إذا حاربناهم باسم المسيح.

وهذا الجاهل وأمثاله لا يعلم أن الإسلام هو دين التوحيد الخالص لله الواحد الأحد الذي لا يشبهه أحد من خلقه، ولا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، والمنزه عن الصاحبة والولد؛ ولا يعلم أن السيد المسيح - عبد الله ورسوله - بريء منه ومن بذاءاته، ومن أمثاله وبذاءاتهم، وأن الله ـ تعالى ـ سوف يعاقبه وأمثاله على هذه البذاءات في الدنيا قبل الآخرة، والله ﷻ لا يرضى من عباده الظلم.

وتعاود الآيات في سورة العنكبوت توجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ رداً على أهل الكتاب في زمانه ـ ومن بعده إلى زماننا وحتى قيام الساعة ـ فتقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۞ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۞ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ۞﴾ «سورة العنكبوت، الآيات: 47 ـ 49».

وتستمر الآيات في حوار الكفار والمشركين، وفي تعظيم شأن القرآن الحكيم، وفي التحذير من فجائية عذاب الآخرة، وأن جهنم بنيرانها قريب من الكفار والمشركين والمفسدين، ثم تنتقل الآيات بالخطاب مرة أخرى إلى المؤمنين: تدعوهم إلى الهجرة بدينهم إذا ضيق عليهم في بلادهم، فأرض الله واسعة، ويكرمهم الله ﷻ بنسبتهم إلى ذاته العلية وذلك بندائهم بقوله ـ عز من قائل ـ: «يا عبادي الذين آمنوا...» مؤكداً لهم أن أقصى ما يمكن أن يتعرض له العبد في هذه الحياة هو الموت، وهو حق على كل مخلوق؛ وأن جزاء الصابرين المتوكلين على ربهم هو الجنة ـ ونعم أجر العاملين ـ، وأن الله ـ تعالى ـ هو الذي...﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 62».

وإنه من تناقضات المشركين أنهم لا ينكرون أن الله ـ تعالى ـ هو الذي خلق السمٰوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وهو الذي نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وعلى الرغم من ذلك يشركون به، والله ﷻ يحذِّرهم بقوله العزيز: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 64».

وتستمر الآيات في عرض ما وقع فيه المشركون من قريش ـ وجميع المشركين من بعدهم ـ من تناقضات أفضت بهم إلى الكفر بأنعم الله ـ ولا تزال ـ من أجل التمتع الزائل ببعض قشور الحياة الدنيا الفانية، وهم الذين أكرمهم الله ـ تعالى ـ بحرم مكة الآمن، ومن حولهم القبائل في اقتتال وتناحر مستمر، ولا يجدون الأمن إلا في ظل هذا البيت الحرام، وبدلاً من تعظيمه ملأوا ساحته بالأصنام التي أشركوها في عبادة الله ـ تعالى ـ.

وتختتم السورة الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ * وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

«سورة العنكبوت، الآيتان: 68 ـ 69».

من الإشارات الكونية في سورة «العنكبوت»:

1 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يبدئ الخلق ثم يعيده وأن ذلك على الله يسير، ونحن نرى صورة مصغرة لذلك في دورة الحياة والموت التي تتكرر بالتناسل المستمر إلى أن يشاء الله، ودورة تخلّق أجرام السماء من دخان الكون وإفنائها إلى دخان الكون، وإعادة خلقها منه بإرادة الله ـ تعالى ـ، ودورة الماء حول الأرض، ودورة الصخور، ودورات تشكّل سطح الأرض، ودورات تخلّق كلٍّ من المادة والطاقة وتبادلهما وإفنائهما، وإعادة خلق كل منهما إلى غير ذلك من دورات.

2 ـ الإشارة إلى أن السير في الأرض وتأمل صخورها ودراسة بقايا الحياة في تلك الصخور هي وسيلة تعرف الإنسان على تاريخ الأرض، وعلى كيفيه بدء الخلق، وهذا ما أثبتته الدراسات في مجال علوم الأرض.

3 ـ تأكيد أن النشأة الآخرة بعد تدمير الكون سوف تسير على نفس الخطى التي بدأ بها الخلق، وتتبع نفس النظام.

4 ـ تأكيد أن بيت العنكبوت هو أوهن البيوت على الإطلاق من الناحيتين المادية والمعنوية، وهو ما أثبتته الدراسات المتأخرة في علم دراسة حيوانات الأرض.

5 ـ هذا بالإضافة إلى العديد من الإشارات التاريخية والنفسية التي تقع من الدراسات العلمية في الصميم، ولكنها تخرج عن إطار دراستنا للإشارات الكونية في كتاب الله.

وكل حقيقة من هذه الحقائق تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذا فسوف أركز هنا على قضية وهن بيت العنكبوت التي ضرب الله ـ تعالى ـ بها المثل في الآية الحادية والأربعين من سورة العنكبوت، وقبل الدخول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية القرآنية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 41».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسَّكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه بالله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها...».

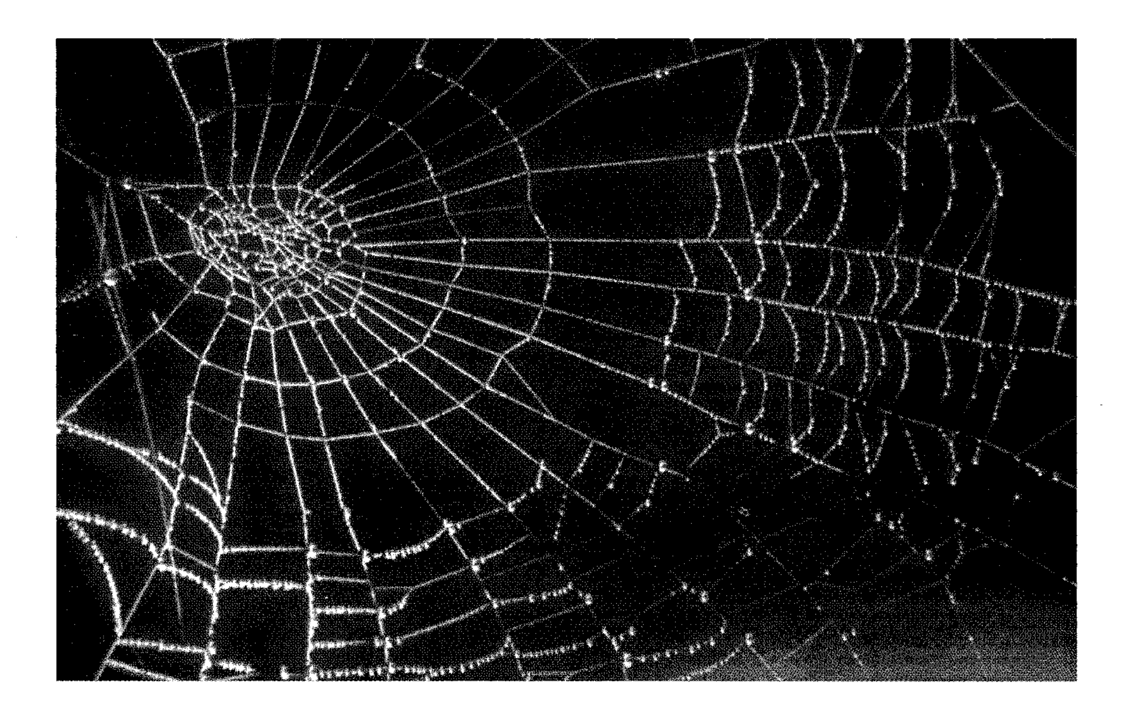
- وجاء في تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ بتحقيق وتعليق الشيخ محمد كنعان ـ جزاه الله خيراً ـ ما نصه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أصناماً يرجون نفعها ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ﴾ لنفسها تأوي إليه ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ﴾ أضعف ﴿ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ﴾ لا يدفع عنها حراً ولا برداً، كذلك الأصنام لا تنفع عابديها. ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ما عبدوها.

وجاء في التعليق بالهامش ما نصه: «قوله تعالى ﴿ٱتَّخَذَتۡ﴾: قال في حياة الحيوان الكبرى[1]: (العنكبوت) دويبة تنسج في الهواء، وجمعها (عناكب) والذكر (عنكب) وفي هذه الآية إشارة إلى أن الأنثى هي التي تقوم بنسج البيت دون الذكر، وبيتها هذا يضرب مثلاً على الضعف وعدم القوة أو المتانة....».

- وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما مختصره: «... إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود. الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً، فيسوء تقديرهم لجميع القيم... وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض... وتخدعهم قوة المال... وتخدعهم قوة العلم... وتخدعهم هذه القوى الظاهرة... تخدعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات وفي أيدي الدول، فيدورون حولها ويتهافتون عليها كما يدور الفراش على المصباح، وكما يتهافت على النار...!! وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة.... وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي أفراد، أو جماعات، أو.... هو كالتجاء العنكبوت... حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو، ولا وقاية لها من بيتها الواهن. وليس هناك إلا حماية الله.. وإلا حماه، وإلا ركنه القوي الركين. هذه الحقيقة الضخمة هي التي عنى القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها، وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض، ودكت بها المعاقل والحصون. لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس، وعمرت كل قلب، واختلطت بالدم، وجرت معه في العروق ولم تعد كلمة تقال باللسان، ولا قضية تحتاج إلى جدل، بل بديهية مستقرة في النفس، ولا يجول غيرها في حس ولا خيال. فقوة الله وحدها هي القوة، وولاية الله وحدها هي الولاية، وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل، مهما علا واستطال، ومهما تجبر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل. إنها العنكبوت: وما تملك من قوى ليست سوى خيوط العنكبوت: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾. وإن

---

(1) للإمام الدميري.



أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى، وللإغراء والإغواء، لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة، وهم يواجهون القوى المختلفة: هذه تضر بهم وتحاول أن تسحقهم، وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم... وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله، وفي حساب العقيدة حين تصح العقيدة، وحين تعرف حقيقة القوى وتحسن التقويم والتقدير».

- وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ـ ما نصه: «﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي مثل هؤلاء في اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها ويعتمدون عليها، ويرجون نفعها وشفاعتها، كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً واهياً من نسجها لا يغني عنها في حر ولا قر، ولا في مطر ولا أذى. والعنكبوت: دويبة معروفة تنسج نسجاً رفيعاً مهلهلاً في الهواء، وتطلق على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، والغالب في استعمالها التأنيث، والواو والتاء زائدتان، كما في طاغوت. وجمعها عناكب وعناكيب».

- وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه:

«شأن المبطلين الموالين لغير الله في الضعف والوهن والاعتماد على غير معتمد كشأن العنكبوت في اتخادها بيتاً تحتمي به، وبيتها أوهى البيوت وأبعد عن الصلاحية للاحتماء، ولو كان هؤلاء المبطلون أهل علم وفطنة لما فعلوا ذلك».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما يلي: «... بيوت العنكبوت التي تبنيها لسكانها، وللقبض على فريستها دقيقة الصنع لأنها مكونة من خيوط على درجة عظيمة من الرقة تفوق رقة الحرير، وهذا مما يجعل نسيجها أضعف بيت يتخذه أي حيوان مأوى له».

- وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خيراً ـ كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره.

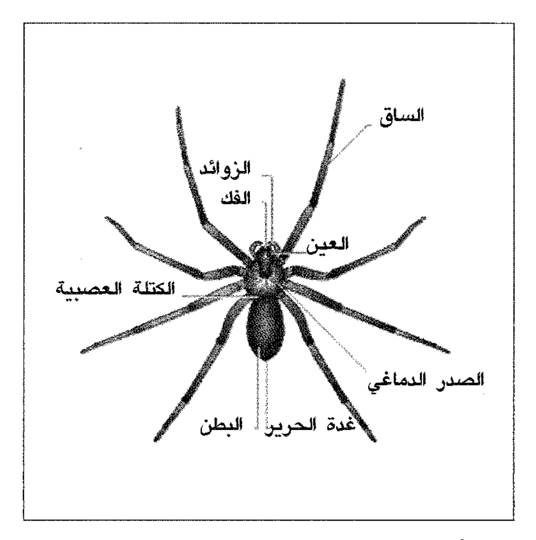
العنكبوت في منظور العلم:

العنكبوت حيوان من مفصليات الأقدام (Arthropoda)، يصنف في طائفة العنكبيات (Class Arachnida) التي تجمع رتبة العناكب أو العنكبوتيات (Order Araneida) مع عدد من الرتب الأخرى التي تشمل مجموعات العقارب، والفاش، والقراد.

والعنكبوت (Spider) ينقسم فيه الجسم إلى مقدمة يلتحم فيها الرأس مع الصدر، ومؤخرة غير مقسمة تشمل البطن. وتحمل المقدمة أربعة أزواج من الأقدام، وزوجين من اللوامس، وزوجاً من القرون الكلابية (Chelicerae) على هيئة الكماشة أو المخالب التي تحتوي على غدد السم، ويفصل مقدمة الجسم عن مؤخرته خصر نحيل.

وللعنكبوت عيون بسيطة يصل عددها إلى الثماني، وقد يكون أقل من ذلك، وهو حيوان مفترس يعيش على أكل الحشرات، وله جلد سميك مغطى بالشعر، ينسلخ عنه من سبع إلى ثماني مرات حتى يصل إلى اكتمال النضج. وعلماء الحيوان يعرفون اليوم أكثر من (30000) ثلاثين ألف نوع من العناكب التي تتباين في أحجامها (بين أقل من المليمتر والتسعين مليمتراً) وفي أشكالها وألوانها، ومعظمها يحيا حياة برية فردية في الغالب إلا في حالات التزاوج وفقس البيض عن الذرية. وتمتد بيئة العناكب من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع خمسة آلاف متر، وللعنكبوت ثلاثة أزواج من نتوءات بارزة ومتحركة في أسفل البطن لها ثقوب دقيقة يخرج منها السائل الذي تصنع منه خيوط نسيج البيت الذي تسكنه، ولذلك تعرف باسم

المغازل، وهذه المادة السائلة التي تخرج من عدد من الغدد الخاصة إلى خارج جسم العنكبوت عبر مغازل المؤخرة تجف بمجرد تعرضها للجو، وينشأ عن جفافها خيوط متعددة الأنواع والأطوال والشدة، تختلف باختلاف الغدد التي أفرزتها.



وقد يمكث العنكبوت في بيته الذي يزاول فيه جميع أنشطته الحياتية، وقد يتخذ له عشاً أو مخبأً غير البيت يرتبط به بخيط يعرف باسم خيط المصيدة ويهرب إلى هذا المخبأ في حالات الخطر.

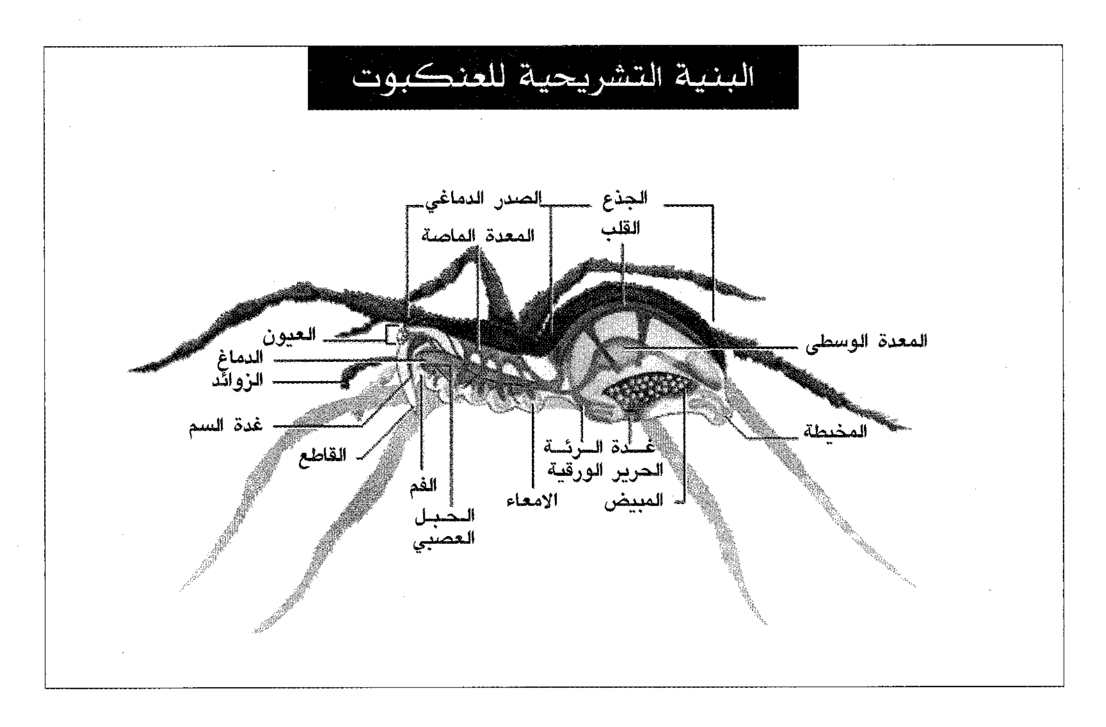
من الدلالات العلمية للنص الكريم

أولاً في الإشارة إلى العنكبوت بالإفراد:

جاء في لسان العرب تحت مادة (عنكب) أن (العنكبوت) دويبة تنسج في الهواء وعلى رأس البئر نسجاً رقيقاً مهلهلاً، مؤنثة، وربما ذكرت في الشعر. ويقال لبيت العنكبوت: (العُكْدُبة). وقال الفرّاء: العنكبوت أنثى، وقد يذكرها بعض العرب، والجمع (العنكبوتات)، و(العناكب)، و(العناكيب)، وتصغيرها (عُنَيْكِب)، وهي بلغة اليمن (عَكَنْبَاة) ويقال لها أيضاً (عَنَكباء)، وعنكبوه، وحكى سيبويه (عنكباء) مستشهداً على زيادة التاء في (عنكبوت)، فلا أدري أهو اسم للواحد أم للجمع. وقال ابن الأعرابي: (العَنكب) الذكر منها، و(العنكبة) الأنثى. وقيل: (العنكب) جنس العنكبوت، وهو يذكر ويؤنث، أعني العنكبوت. قال المبرد: العنكبوت أنثى ويذكر.

والغالب أن لفظة (العنكبوت) اسم للواحدة المؤنثة المفردة، والجمع (العناكب).

وتسمية السورة الكريمة بصياغة الإفراد (العنكبوت) يشير إلى الحياة الفردية لهذه الدويبة فيما عدا لحظات التزاوج وأوقات فقس البيض، وذلك في مقابلة كل من سورتي النحل والنمل والتي جاءت التسمية فيها بالجمع للحياة الجماعية لتلك الحشرات التي سميت باسمها السورتان الكريمتان الأخيرتان.



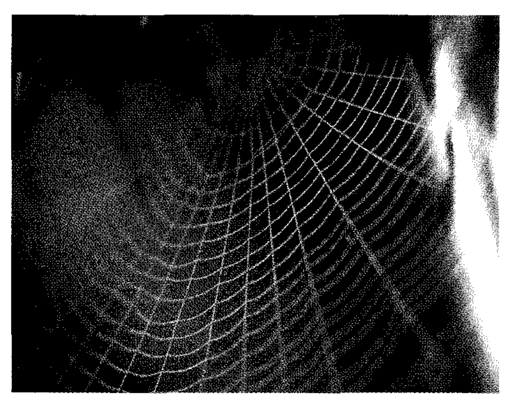
ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾:

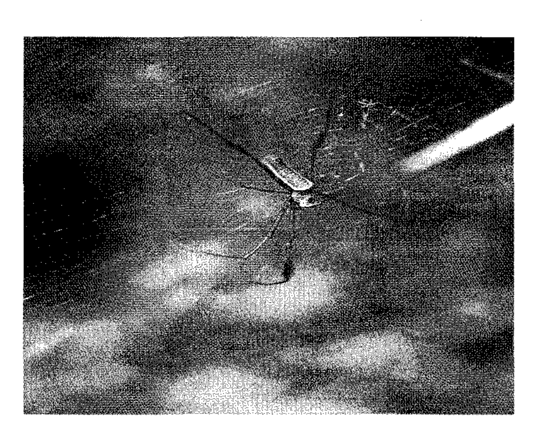
في هذا النص القرآني الكريم إشارة واضحة إلى أن الذي يقوم ببناء البيت أساساً هي أنثى العنكبوت، وعلى ذلك فإن مهمة بناء بيت العنكبوت هي مهمة تضطلع بها إناث العناكب التي تحمل في جسدها غدد إفراز المادة الحريرية التي ينسج منها بيت العنكبوت. وإن اشترك الذكر في بعض الأوقات بالمساعدة في عمليات التشييد أو الترميم أو التوسعة، فإن العملية تبقى عملية أنثوية محضة، ومن هنا كان الإعجاز العلمي في قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾.

ثالثاً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ﴾

هذا النص القرآني المعجز يشير إلى عدد من الحقائق المهمة التي منها:

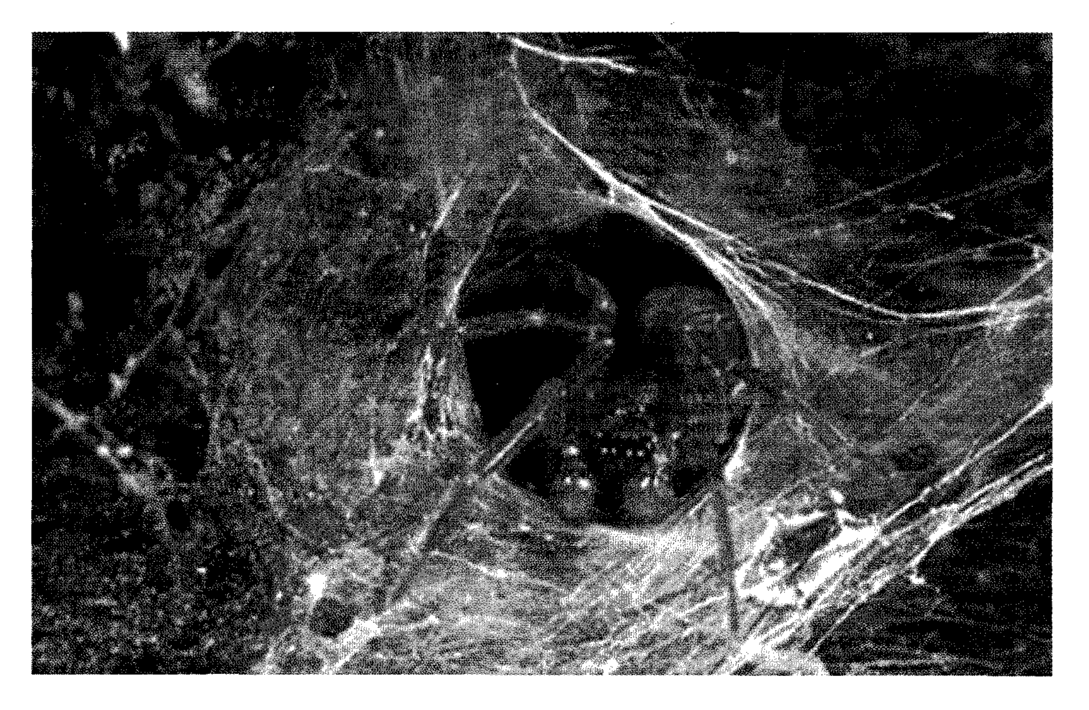
1 ـ إن بيت العنكبوت هو من الناحية المادية البحتة أضعف بيت على الإطلاق، لأنه مكون من مجموعة خيوط حريرية غاية في الدقة تتشابك مع بعضها البعض تاركة مسافات بينية كبيرة في أغلب الأحيان، ولذلك فهي لا تقي حرارة شمس، ولا زمهرير برد، ولا تحدث ظلاً كافياً، ولا تقي من مطر هاطل، ولا من رياح





عاصفة، ولا من أخطار المهاجمين، وذلك على الرغم من الإعجاز في بنائها، فخيوط بيت العنكبوت حريرية دقيقة جداً، يبلغ سمك الواحدة منها في المتوسط واحداً من المليون من البوصة المربعة، أو جزءاً من أربعة آلاف جزء من سمك الشعرة العادية في رأس الإنسان، وهي على الرغم من دقتها الشديدة أقوى خمس مرات من نظيرها من الصلب، وتتميز بمقاومة للشد أكبر من مثيلتها من الصلب سواء نسبت تلك المقاومة لوحدة الحجوم أو لوحدة الوزن من الخيط المختبر، بل إن الدراسات الحديثة قد أثبتت أن الخيط من حرير عنكبوت من نوع نيفيلا (Nephila) وهو من مجموعة الحائك الدوار (Orbweaver) يعد أقوى ثلاث مرات من مثيله المصنوع من المادة المعروفة باسم كيفلار (Kevlar)، وهي مادة ذات أساس بترولي تستخدم في صناعة الصديرية الواقية من طلقات الرصاص. لذلك يعد حرير العنكبوت واحداً من أقوى المواد الموجودة على سطح الأرض لأنه يتحمل شداً يصل إلى 42000 كيلو جرام على السنتيمتر المربع مما يكسبه قابلية هائلة للمط (Stretching) وأعطاه قدرة على الإيقاع بالفريسة من الحشرات دون أن يتمزق، خاصة وأن العنكبوت يبني بيته من ضفائر تضم الواحدة منها عدداً من هذه الخيوط المضفرة والمجدولة تجديلاً قوياً، ولذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾، ولم يقل أوهن الخيوط، وبقي بيت العنكبوت هو أوهن البيوت وأضعفها على الإطلاق، على الرغم من شدة وقوة خيوطه.

2 ـ إن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية هو أوهن بيت على الإطلاق لأنه بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد، وذلك لأن الأنثى في بعض أنواع العنكبوت تقضي على ذكرها بمجرد إتمام عملية الإخصاب وذلك بقتله وافتراس جسده لأنها أكبر حجماً وأكثر شراسة منه، وفي بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها دون أدنى رحمة، وفي بعض الأنواع تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها الذي عادة ما تحتضنه في كيس من الحرير، وعندما يفقس البيض تخرج صغار العناكب (Spider lings) فتجد نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معاً فيقتل الأخ أخاه وأخته، وتقتل الأخت أختها وأخاها حتى تنتهي المعركة ببقاء عدد قليل من العنيكبات التي تنسلخ من جلدها، وتمزق جدار كيس البيض لتخرج الواحدة تلو الأخرى، والواحد تلو الآخر بذكريات تعيسة، لينتشر الجميع في البيئة المحيطة وتبدأ كل أنثى في بناء بيتها، ويهلك في الطريق إلى ذلك من يهلك من هذه العنيكبات. ويكرر من ينجو منها نفس المأساة التي تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت



شراسة ووحشية، وانعداماً لأواصر القربى، ومن هنا ضرب الله ـ تعالى ـ به المثل في الوهن والضعف لافتقاره إلى أبسط معاني التراحم بين الزوج وزوجه، والأم وصغارها، والأخ وشقيقه وشقيقته، والأخت وأختها وأخيها..!!

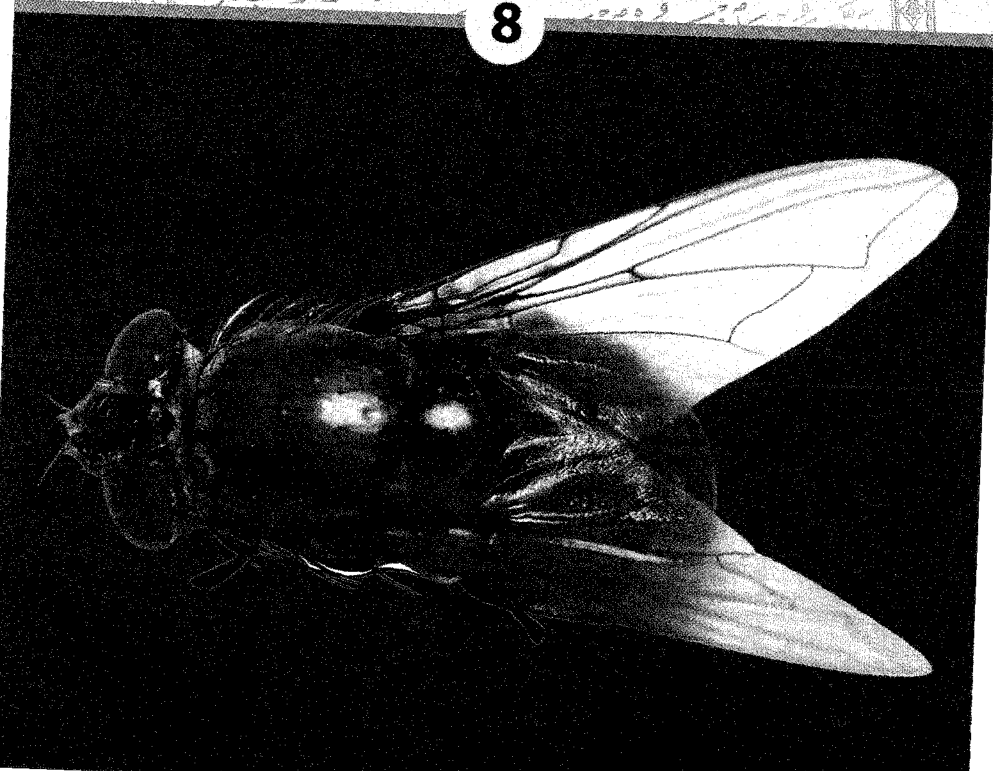
رابعاً: في قوله ــ تعالى ــ : ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾:

هذه الحقائق لم تكن معروفة لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، حيث لم تكتشف إلا بعد دراسات مكثفة في علم سلوك حيوان العنكبوت استغرقت مئات من العلماء لمئات من السنين حتى تبلورت في العقود المتأخرة من القرن العشرين، ولذلك ختم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الآية الكريمة بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

وعلى ذلك فإن الوصف القرآني لبيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت، هذا الوصف الذي أنزل على نبي أمي ﷺ، في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين من قبل ألف وأربعمائة سنة يعتبر سبقاً علمياً لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً غير الله الخالق الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد سبحانه وتعالى بذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها حتى يبقى هذا الكتاب العزيز حجة على الناس كافة إلى يوم الدين، ويبقى ما فيه من الحق شاهداً على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وشاهداً كذلك بالنبوة وبالرسالة للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ والذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين...!! فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيه خير ما جازى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن أداء رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده إن ربي لا يخلف الميعاد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟

8



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ «سورة الحج، الآية: 73»

8

هذا النص القرآني المعجز جاء في خواتيم سورة «الحج»، وهي سورة مدنية، ومجموع آياتها ثمان وسبعون بعد البسملة، وهي السورة الوحيدة من بين سور القرآن الكريم التي جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى الأمر الإلٰهي الصادر إلى أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ بالأذان في الناس بالحج.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول عدد من التشريعات الإسلامية بأحكام كلٍّ من الحج، والطعام، والإذن بالقتال والجهاد في سبيل الله دفاعاً عن النفس، وعن الدين وشعائره ومقدساته، وعن أعراض وأموال وممتلكات وأراضي المسلمين، دفعاً لظلم الظالمين، ولبغي الباغين المتجبرين في الأرض بغير الحق.

ويصحب هذه التكاليف وعد قاطع من الله ـ تعالى ـ بنصر المجاهدين في سبيله، وبالتمكين لعباده المؤمنين الذين ينهضون في غير تردد لدفع كل عدوان باغٍ على المسلمين، أو على غيرهم من البشر المسالمين، مع تأكيد قوة الله البالغة، وضعف الشركاء المزعومين، والإشارة إلى مصارع الغابرين من الكفار والمشركين والبغاة الظالمين، وإلى سنن الله ـ تعالى ـ في ذلك وهي سنن لا تتوقف ولا تتبدل ولا تتخلف.

عرض موجز لسورة «الحج»

تبدأ سورة الحج بدعوة الناس جميعاً إلى تقوى الله وتحذرهم من هول الساعة وما يصاحبها من أحداث جسام، ومن اتباع الشيطان لأنه يضل من يتبعه ويهديه إلى عذاب

السعير، وتحذر كذلك من الخوض في الذات الإلٰهية بغير علم، وتؤكد حقيقة البعث، مستشهدة على حتميته بخلق الإنسان من تراب، ومشبهة ذلك بإنبات الأرض بعد إنزال الماء عليها، واتخاذه دليلاً على إحياء الموتى، مؤكدة أن الله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وتعاود السورة الكريمة الحديث عمن يضلهم الشيطان فيجادلون في الذات الإلٰهية: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ «سورة الحج، الآية: 8»، ليضلوا غيرهم عن سبيل الله، وهؤلاء لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب شديد. وتشير إلى أن من الناس من يعبد الله ـ تعالى ـ طمعاً في كريم عطائه فقط، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن ابتلي بفتنة انقلب على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وتحذِّر سورة الحج من الشرك بالله، واصفة إياه بالضلال البعيد، ومؤكدة عجز الشركاء المزعومين عن نفع أو ضر من أشركوهم مع الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

وتؤكد السورة الكريمة جزاء العمل الصالح بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ «سورة الحج، الآية: 14».

وتضيف مؤكدة أن الله ﷻ قد تعهد بنصر خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وبنصر أتباعه في الدنيا والآخرة رغم كيد الكائدين وحقد الحاقدين.

وفي الإشارة إلى القرآن الكريم يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ «سورة الحج، الآية: 16».

وفوَّضت الآيات الأمر إلى الله ـ تعالى ـ في الفصل بين أصحاب الملل والنِّحَل المختلفة في يوم القيامة، مؤكدة أن جميع ما في هذا الوجود ومن فيه يسجد لله ﷻ في عبودية كاملة وخضوع تام، يمثلان قمة التكريم للمخلوقات، لأن من يعرض عن ذلك من أصحاب الإرادة الحرة فليس له من مكرم.

ومايزت سورة الحج بين عذاب الكافرين في الآخرة، ونعيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأشارت إلى أن من الكفر بالله: الصد عن سبيله، وعن المسجد الحرام، والظلم

والإلحاد فيه، وأكدت أن الله ـ تعالى ـ قد هدى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى التوحيد الخالص، وإلى مكان البيت الحرام، وأمره برفع قواعده وإعادة بنائه، والعمل على تطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود، وأن يؤذن في الناس بالحج يأتوه من كل فج عميق؛ وبذلك أقامت فريضة الحج وما فيها من تعظيم لشعائر الله، وحذرت من انتهاك حرمات الله، وأمرت بالحلال من الطعام، وباجتناب الرجس من الأوثان، واجتناب قول الزور، كما أمرت بالحنيفية السمحة ونهت عن الشرك بالله، وحذرت من عقاب المشركين في يوم الدين، وأكدت أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، وأشارت إلى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد جعل على كل أمة قرباناً تقدمه لله شكراً على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

وتكرر سورة الحج تأكيد وحدانية الله، وضرورة الخضوع الكامل لجلاله بالإسلام له، وتأمر خاتم الأنبياء والمرسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبشر بخيري الدنيا والآخرة كلاً من المتواضعين لله ـ تعالى ـ، والمطمئنين إلى حكمه، والذين تخشع قلوبهم بذكره، والصابرين على قضائه، والمقيمين للصلاة خالصة له، والمنفقين مما رزقهم الله طلباً لمرضاته. وأكدت أن من شعائر الحج النحر لله، فإذا ذبحت البدن بعد ذكر اسم الله عليها أكل منها مقدمها وأطعم السائل وغير السائل ممن يتعرضون له، ولذلك سخرها الله ـ تعالى ـ لهم. ومن قبيل الشكر لله على وهب تلك الأنعام، وعلى هدايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهؤلاء المحسنين الذين قدَّموها قرباناً إلى الله بشرهم الله ـ تعالى ـ بالقبول فيقول ـ عز من قائل ـ:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ *﴾ «سورة الحج، الآيتان: 37، 38».

ويتكرر في سورة الحج الإذن بالقتال الدفاعي للذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، كما حدث ـ ولا يزال يحدث ـ مع إخواننا الفلسطينيين، والعراقيين، والأفغان ومسلمي كلٍّ من البلقان، والشيشان، وكشمير، وأراكان، وجنوب الفليبين، والصومال، والسودان، وسبتة ومليلة وغيرها من أراضي المسلمين المستباحة اليوم على أيدي المعتدين الظلمة من غلاة الكافرين والمشركين، الذين أغرقوا بلاد الإسلام في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، وبقية المسلمين من حولهم يتفرجون في تخاذل وانهزام مذلَّين وقد تجاوزت أعدادهم المليار ونصف المليار.

وتؤكّد هذه السورة الكريمة أن الله ـ تعالى ـ سوف ينصر من ينصره وهو القوي العزيز، فعلينا بالرجوع إلى الله بصدق، وهو القادر على دحر كل المعتدين مهما تعاظمت أسلحتهم، ومهما خبث مكرهم.

وتصف سورة الحج أنصار الله بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ «سورة الحج، الآية: 41».

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في مواساة رقيقة من الله ـ تعالى ـ لتكذيب الكافرين والمشركين لبعثته الشريفة فيقول له رب العالمين:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ *﴾

«سورة الحج، الآيات: 42 ـ 48».

وتطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ بأن يعلن للناس جميعاً أنه نذير مبين لهم فتقول:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ *﴾

«سورة الحج، الآيات: 49 ـ 51».

وتؤكد سورة الحج أن الله العليم الحكيم قد أحكم آيات كتابه العزيز، وحفظها من كل تدخُّل شيطاني حتى يبقى كتاب الله في صفائه الرباني محتفظاً بالحق الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ، وفي ذلك يقول:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝﴾ «سورة الحج، الآيتان: 54، 55».

وتكرر السورة الكريمة التفريق بين نعيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الآخرة، وجحيم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، مؤكدة ثواب المهاجرين في سبيل الله والمجاهدين من أجل إعلاء دينه وإقامة عدله على الأرض، وأن الله ـ تعالى ـ قد أخذ على ذاته العلية نصرة كل مظلوم.

واستشهدت السورة الكريمة بعدد من الآيات الكونية على حقيقة الألوهية فتقول:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ «سورة الحج، الآية: 62».

وركزت الآيات على زجر المعارضين لرسول الله ﷺ من أهل الكتاب في زمانه وإلى زماننا وحتى قيام الساعة وتحذرهم من مخالفته وعصيانه، مؤكدة خروجهم على ما جاءهم من كتب وما أنزل لهم فيها من الشرائع والعقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات (النسك) وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝﴾ «سورة الحج، الآيتان: 71، 72».

وتختتم سورة الحج بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ * يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ * وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ *﴾

«سورة الحج، الآيات: 75 ـ 78».

من أسس العقيدة الإسلامية في سورة «الحج»:

1 ـ الإيمان بالله ﷻ رباً، خالقاً، واحداً أحداً بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد وأنه ـ تعالى ـ هو الحق، وهو القوي، العزيز، السميع، العليم، البصير، مالك الملك، الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ويفعل ما يشاء، وهو على كل شيء شهيد ووكيل، وهو ـ سبحانه ـ يدافع عن الذين آمنوا، وقد أخذ على ذاته العلية العهد بنصرة من ينصر دينه ومن يجاهد من أجل إعلاء كلمته وإقامة عدله على الأرض، وأن من يهن الله فما له من مكرم، وأن له يسجد كل من في السمٰوات والأرض، وأن إليه ترجع الأمور، وأنه ـ تعالى ـ يفصل بين أصحاب الملل المختلفة يوم القيامة.

2 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله وبخاتمهم أجمعين، وبالكتاب الخاتم الذي أنزل إليه ـ القرآن الكريم ـ المهيمن على كل الكتب السابقة والناسخ لها.

3 ـ التسليم بضرورة تقوى الله ﷻ ومخافته، والاعتصام بحبله المتين، وتعظيم شعائره، وأولها المسجد الحرام الذي قال ـ تبارك وتعالى ـ فيه:
﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ «سورة الحج، الآية: 25».

4 ـ التصديق بحقيقة البعث وحتميته وضرورته، وبالحساب والجزاء، وبالجنة والنار.

5 ـ التسليم بعدم جدوى الجدل في الأمور الغيبية غيبة مطلقة.

من العبادات المفروضة في سورة «الحج»:

1 ـ إقامة الصلاة على وقتها.

2 ـ إيتاء الزكاة إلى مستحقيها وبقدرها.

3 ـ حج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً.

4 ـ الجهاد في سبيل الله دفعاً لظلم الظالمين ولبغي الباغين.

5 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

6 ـ التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

7 ـ محاربة الشيطان وعدم اتباع خطواته.

8 ـ التخلص من الشرك بكل صوره وأشكاله ومراتبه.

9 ـ الامتناع التام عن قول الزور والعمل به.

من الإشارات الكونية في سورة «الحج»:

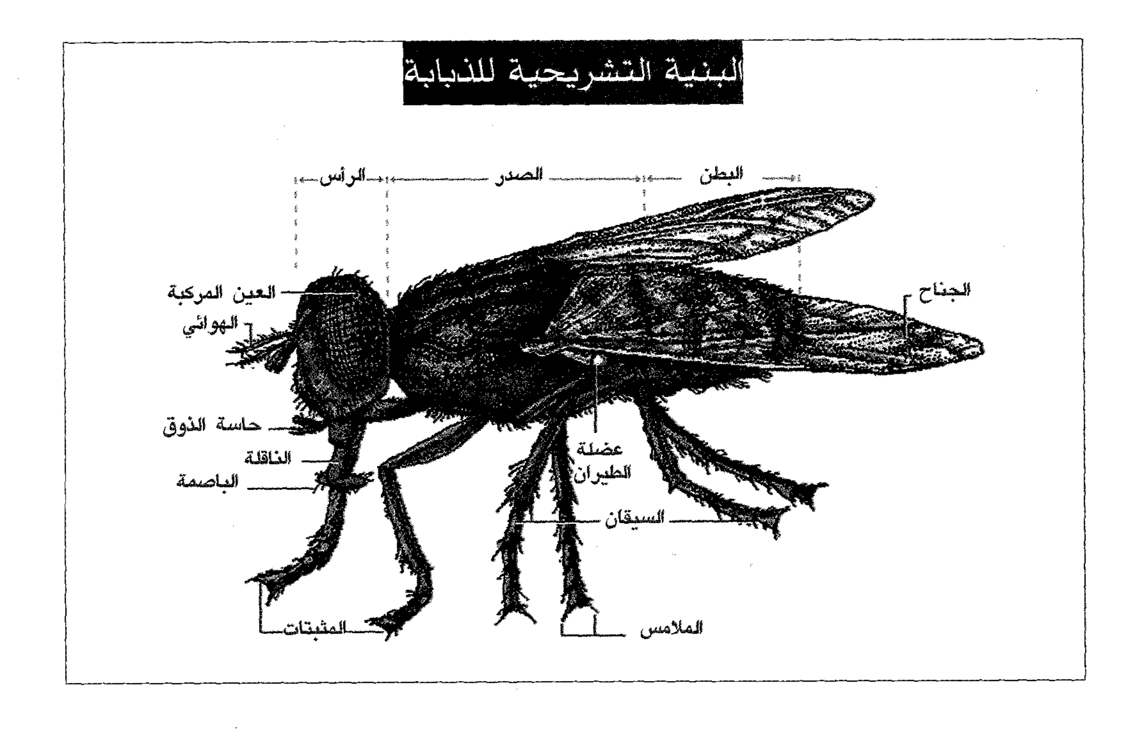
1 ـ الإشارة إلى خلق الإنسان من تراب، ووصف مراحل الجنين المتتالية بدقة بالغة حتى يخرج إلى الحياة طفلاً، يحيا ما شاء الله ـ تعالى ـ له أن يحيا، ثم يتوفاه الله سبحانه وتعالى عند نهاية أجله، والذي يرد من البشر إلى أرذل العمر تضعف ذاكرته في أغلب الأحوال حتى لا يكاد أن يعلم من بعد علم شيئاً.

2 ـ الإشارة إلى اهتزاز الأرض وارتفاعها، وإنباتها من كل زوج بهيج بمجرد إنزال الماء عليها، وتشبيه خلق الإنسان من تراب الأرض وبعثه منها بعملية إنبات النبات.

3 ـ تأكيد حقيقة أن جميع من في السمٰوات والأرض يسجد لله ـ تعالى ـ طوعاً أو كرهاً.

4 ـ الإشارة إلى نسبية كلٍّ من المكان والزمان في منظور الإنسان، وإلى ضخامة أبعاد الكون وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ «سورة الحج، الآية:47».



5 ـ التعبير اللطيف عن كروية الأرض، وعن دورانها حول محورها أمام الشمس بولوج كلٍّ من الليل والنهار في الآخر.

6 ـ الإشارة إلى اخضرار الأرض بمجرد إنزال الماء عليها من السماء.

7 ـ تأكيد أن كلّ ما في الأرض مسخر للإنسان، وكذلك كل ما في البحر بما في ذلك جري الفلك بأمر الله ﷻ.

8 ـ الإشارة إلى حقيقة أن الله ـ تعالى ـ يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

9 ـ تأكيد عجز كل المخلوقين (من الأصنام والأوثان والأشخاص منفردين ومجتمعين) عن خلق ذبابة واحدة، فضلاً عن إمكانهم استنقاذ ما يسلب الذباب منهم مما يقدم لهم من قرابين أو مما يلطخون به من طيب، أو مما يأكل الناس ويشربون بصفة عامة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الأخيرة في القائمة السابقة التي جاءت في الآية الثالثة والسبعين من سورة الحج، وقبل شرح دلالتها العلمية لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالاتها اللغوية والمعنوية.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ «سورة الحج، الآية: 73».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «يقول ـ تعالى ـ منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك...، ثم قال ـ تعالى ـ أيضاً: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب، واختاره ابن جرير، وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم...».

- وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة جزاء ما قدم ـ ما مختصره:

«إنه النداء العام والنفير البعيد الصدى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾... فإذا اجتمع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب، لا حالة خاصة ولا مناسبة حاضرة: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾... هذا المثل يضع قاعدة ويقرر حقيقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾... كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة: من أصنام وأوثان، ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه... كلهم ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾... والذباب صغير حقير، ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ـ ولو اجتمعوا وتساندوا ـ على خلق هذا الذباب الصغير الحقير! وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل، لأن الذباب يحتوي على

ذلك السر المعجز؛ سر الحياة فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل... لكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل! دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير. وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب! ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾... والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده. وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير، وهو في الوقت نفسه يحمل أخطر الأمراض ويسلب أغلى النفائس: يسلب العيون والجوارح، وقد يسلب الحياة والأرواح... إنه يحمل ميكروبات السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد... ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير!».

«وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآني المعجز... ولو قال: وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منها... لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف. والسباع لا تسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذباب! لكنه الأسلوب القرآني العجيب!. ويختم ذلك المثل المصور الموحي بهذا التعقيب: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب!».

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه:

«يا أيها الناس: إنا نبرز أمامكم حقيقة عجيبة في شأنها، فاستمعوا إليها وتدبروها: إن هذه الأصنام لن تستطيع أبداً خلق شيء مهما يكن حقيراً تافهاً كالذباب، وإن تضافروا جميعاً على خلقه بل إن هذا المخلوق التافه لو سلب من الأصنام شيئاً من القرابين التي تقدم إليها فإنها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تمنعه عنه أو تسترده منه، وما أضعف الذي يهزم أمام الذباب عن استرداد ما سلبه منه، وما أضعف الذباب نفسه، كلاهما شديد الضعف، بل الأصنام كما ترون أشد ضعفاً، فكيف يليق بإنسان عاقل أن يعبدها ويلتمس النفع منها؟».

وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ ما نصه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي يا معشر المشركين ضرب الله مثلًا لما يعبد

من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر، واعقلوا ما يقال لكم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي أن هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك. فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله! قال القرطبي: وخص الذباب لأربعة أمور: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين؟ وهذا من أقوى الحجج وأوضح البراهين ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي لو اختطف الذباب وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الصنم، فكلٌّ منهما حقير ضعيف».

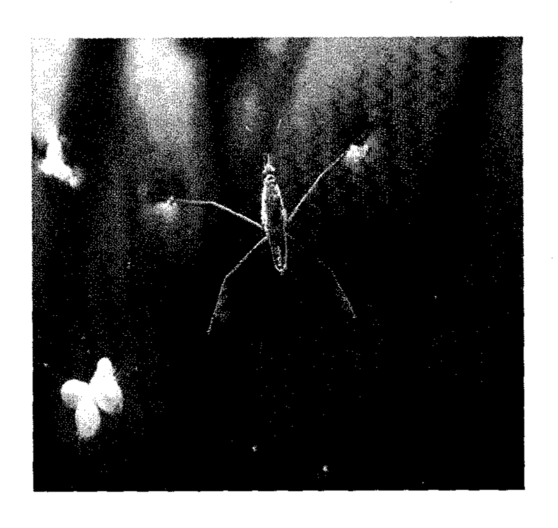
من الدلالات العلمية للنص الكريم:

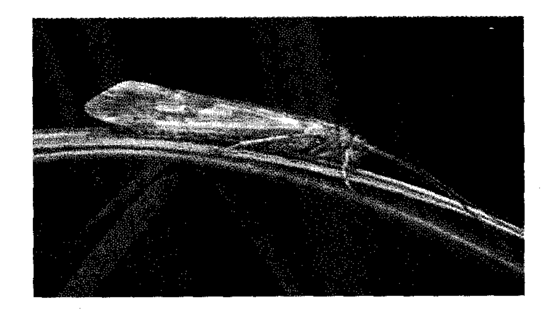
أولاً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿...وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا...﴾

و(**الاستلاب**) في اللغة هو الاختلاس، والسلب هو نزع الشيء من الغير على القهر، و(السلب) و(السليب) هو الشخص المسلوب، والناقة التي سلب ولدها، و(السلب) أيضاً هو الشيء المسلوب، ويقال للحاء الشجر المنزوع منه.

وفي استخدام القرآن الكريم تعبير ﴿...وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا...﴾ ومضة معجزة لأن الذباب يختلس ما يأخذه من أشربة وأطعمة الناس اختلاساً، وينزعها منهم نزعاً على القهر لعجزهم عن مقاومته في أغلب الأحوال.

فحركات الذبابة المنزلية على درجة عالية من التعقيد إذ تبدأ في الاستعداد للطيران بتحديد العضلات التي سوف تستخدمها، ثم تأخذ وضع التأهب للطيران وذلك بتعديل وضع أعضاء التوازن في الجهة الأمامية من الجسم حسب زاوية الإقلاع، واتجاه وسرعة الريح وذلك بواسطة خلايا حسية خاصة موجودة على قرون الاستشعار في مقدمة الرأس. وهذه العمليات المعقدة لا تستغرق أكثر من واحد من مائة من الثانية. ومن الغريب أن الذبابة لها قدرة على الإقلاع عمودياً من المكان الذي تقف عليه، كما أن لها القدرة على







المناورة بالحركات الأمامية والخلفية والجانبية بسرعة فائقة لتغيير مواقعها، وبعد طيرانها تستطيع الذبابة زيادة سرعتها إلى عشرة كيلو مترات في الساعة، وهي تسلك في ذلك مساراً متعرجاً ثم تحط بكفاءة عالية على أي سطح بغض النظر عن شكله وارتفاعه واستقامته أو انحداره، وملاءمته أو عدم ملاءمته لنزول شيء عليه. ويساعد الذبابة على هذه القدرة الفائقة في المناورة جناحان ملتصقان مباشرة بصدرها بواسطة غشاء رقيق جداً مندمج مع الجناح؛ ويمكن لأي من هذين الجناحين أن يعمل بشكل مستقل عن الآخر، وإن كانا يعملان معاً في أثناء الطيران على محور واحد إلى الأمام أو إلى الخلف يدعمهما نظام معقد من العضلات يعين هذين الجناحين على أن يتما إلى مائتي خفقة في الثانية الواحدة كما هو الحال في الذباب الأزرق وعليها أن تستمر على ذلك لمدة نصف الساعة وأن تتحرك لمسافة ميل كامل على هذه الحال. وتستمد الذبابة مهاراتها الفائقة في الإقلاع والطيران والهبوط من التصميم المثالي لجسدها ولأجنحتها، إذ أن النهايات السطحية للأوردة المنتشرة في تلك الأجنحة تحمل شعيرات حساسة جداً لقياس ضغط الهواء واتجاه الرياح، كذلك فإن أجهزة الحس الموجودة تحت الأجنحة

وخلف رأس الذبابة تقوم بنقل معلومات الطيران إلى دمائها باستمرار ثم إلى رأسها الذي يرسل أوامره إلى العضلات باستمرار أيضاً لتوجيه الأجنحة في الاتجاه الصحيح، وبذلك يتم توجيه الذبابة في أثناء الطيران بدقة وإحكام فائقين مما يعينها على إصابة الهدف وتجنب المخاطر بكفاءة عالية.

ويعين الذبابة في ذلك أيضاً عينان مركبتان، لا يزيد حجم الواحدة منهما على نصف المليمتر المكعب، وتتكون كل عين منهما من ستة آلاف عيينة سداسية لها القدرة على الرؤية في جميع الاتجاهات، وكل واحدة من هذه العيينات مرتبطة مع ثمانية أعصاب مستقبلة للضوء، اثنان منها للألوان، وستة متخصصة في ضبط تحركات الذبابة لأنها تكشف كل شيء في المجال البصري لها وبذلك يكون مجموع الخيوط العصبية في الواحدة من عيني الذبابة ما يقدر بـ 48 ألف خيط عصبي يمكنها معالجة أكثر من مائة صورة في الثانية الواحدة.

هذا بالإضافة إلى مليون خلية عصبية متخصصة بالتحكم في حركة الذبابة من أعلى إلى أسفل وبالعكس، ومن الأمام إلى الخلف وبالعكس. كل ذلك يعين الذبابة على الانقضاض على الشراب أو الطعام فتحمل منه بواسطة كل من فمها والزغب الكثيف المتداخل الذي يغطي جسمها ما تحمل ثم تهرب مبتعدة في عملية استلاب حقيقية بمعنييها: الاختلاس، ونزع الشيء على القهر.

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾:

يعرف العلماء اليوم من أنواع الذبابة الحقيقية المجموعة في رتبة ثنائيات الأجنحة (Diptera) حوالي100 ألف نوع، وتنتشر هذه الأنواع من الذباب انتشاراً هائلاً في مختلف بيئات الأرض، وتسيطر على مساحات شاسعة من أماكن انتشارها بسيطرة كاملة لا تمكن الإنسان من مجرد اجتيازها، فضلاً عن العيش فيها.

ومن حيث الانتشار على الأرض تأتي الحشرات في المقام الأول بين مختلف مجموعات الحياة، ويأتي الذباب في المرتبة الثالثة بعد كل من النمل والبعوض. ولولا التوازن الدقيق الذي وضعه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بين مختلف مجموعات الحياة لغطت جيوش الذباب سطح الأرض بالكامل وجعلت الحياة عليها مستحيلة؛ وذلك لأن الذبابة تضع نحو400 بيضة في المرة الواحدة في المتوسط، وأن من أنواع الذباب ما يتكاثر بمعدلات أعلى من ذلك بكثير بحيث لو قدر لجميع بيضها أن يفقس وأن يعيش كل



ما يخرج منه ويتوالد لنتج عن الزوج الواحد من الذباب خلال فصل واحد من فصول السنة ما تعداده يفوق الرقم عشرة مسبوقاً بستين صفراً، ولكن الله ـ تعالى ـ ـ من عظيم حكمته ـ يسلط من مخلوقاته مثل الطيور والنمل وغيرها ما يستهلك أغلب بيض الذباب كطعام له.

والذباب يتغذى عادة على النفايات المختلفة، وإن كانت أشربة الناس وأطعمتهم لا تسلم من هجماته. والذبابة المنزلية تتذوق الشراب أو الطعام بمجرد أن تحط عليه، وذلك بواسطة خلايا حساسة منتشرة في كل من شفتها وأقدامها، فإن راقها سلبت منه ما تستطيع وهربت بسرعة فائقة كما يفعل اللصوص، فإن كان ما سلبته شراباً امتصته بواسطة خرطومها ليصل إلى جهازها الهضمي المزود بالقدرة على إفراز الخمائر القادرة على هضمه وتمثيله تمثيلاً كاملاً في ثوان معدودة، وبذلك لا يمكن استنقاذه منها. أما إذا كان الطعام صلباً فإن الذبابة المنزلية تفرز عليه من بطنها عدداً من الإنزيمات والعصائر الهاضمة بالإضافة إلى لعابها، وهذه تبدأ في إذابة ما تقع عليه من الطعام الصلب فوراً مما يمكن الذبابة من امتصاصه بخرطومها وبأجزاء فمها ذات الطبيعة الإسفنجية، ومن ثم لا يمكن استرجاعه أبداً، أو استنقاذه بأي حال من الأحوال.

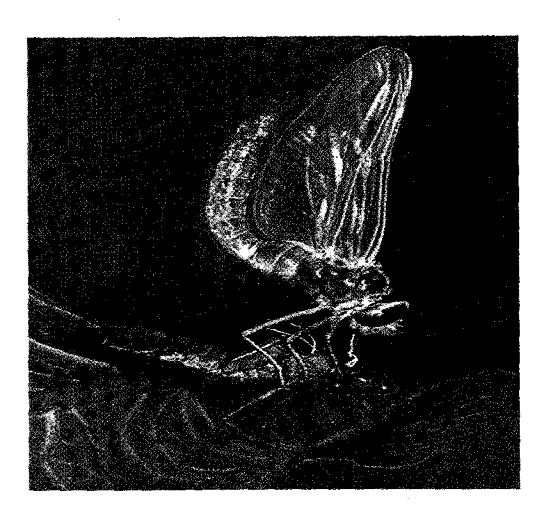
وحتى الذباب الذي يعيش على امتصاص بعض رحائق الأزهار أو امتصاص دماء غيره من الحشرات فإنه يقوم بتحقيق ذلك بواسطة خرطوم الفم الماص، وأجزائه الإسفنجية المهيأة لذلك.

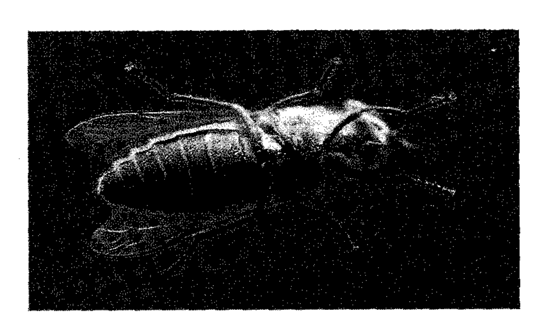
هذا بالإضافة إلى أن جسم الذبابة مغطى بزغب كثيف متداخل يغطي كلاً من رأسها وصدرها وبطنها وأرجلها الست وأقدامها وجناحيها، فإذا غطت نفسها في سائل من السوائل أو مسحوق من المساحيق حمل هذا الزغب منه ما لا يمكن استنقاذه أبداً.

ثالثاً: في قوله ـ تعالى ـ : ... ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ :

من الثابت علمياً أن البشرية كلها عاجزة كل العجز عن خلق خلية حية واحدة في الزمن الراهن ـ زمن التقدم العلمي والتقني المذهل وغير المسبوق في تاريخ البشرية كله ـ وهي بالتالي أعجز عن خلق ذبابة واحدة، ونحن نعلم اليوم أن جسد الذبابة مكون من ملايين الخلايا المتخصصة الموزعة في أنسجة متخصصة، وفي أجهزة متعددة تعمل في توافق تام من أجل حياة هذه الحشرة الصغيرة التي ينقسم جسمها إلى **رأس وصدر وبطن**، وهو مكون من حلقات مغطاة بزغب كثيف، **ومزودة بثلاثة أزواج من الأرجل، وبأقدام مغطاة أيضاً بزغب كثيف على هيئة الخف** تفرز مواد لاصقة تعين الذبابة على الالتصاق بأي سطح من الأسطح بهيئة معتدلة أو مقلوبة كالتصاقها بأسقف الغرف.

وإذا علمنا أن بجسم الذبابة أكثر من مليون خلية عصبية متخصصة بتحركات تلك الحشرة الضعيفة، وأن هذه الخلايا العصبية مرتبطة بثمانية وثلاثين زوجاً من العضلات منها سبعة عشر زوجاً من هذه العضلات لحركة الجناحين، وواحد وعشرون زوجاً لحركات الرأس. وإذا علمنا أيضاً أن للذبابة زوجاً من العيون المركبة التي تتكون الواحدة منهما من ستة آلاف عيينة سداسية، يتصل بكل واحدة منها ثمانية خيوط عصبية مستقبلة للضوء بمجموع 48 ألف خيط عصبي للعين الواحدة يمكنها معالجة مائة صورة في الثانية الواحدة. وإذا فهمنا غير ذلك من الأجهزة المتخصصة وتعقيداتها في جسم الذبابة لأدركنا مدى التحدي الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الحج بقوله ـ عز من قائل ـ :





﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ «سورة الحج، الآية: 73».

والطالب في هذه الآية الكريمة هو المسلوب الذي سلبه الذباب شيئاً مما هو له، والمطلوب هو الذباب السالب. وسواء كان المسلوب هو المعبود من دون الله صنماً كان أو بشراً، أو نظاماً أو قيماً أو أوضاعاً معينة فإنهم جميعاً عاجزون عن خلق خلية حية واحدة، فضلاً عن ذبابة واحدة، فما بالنا بمائة ألف نوع معروف من أنواع الذباب، ويمثل كل نوع منه بلايين البلايين من الأفراد.

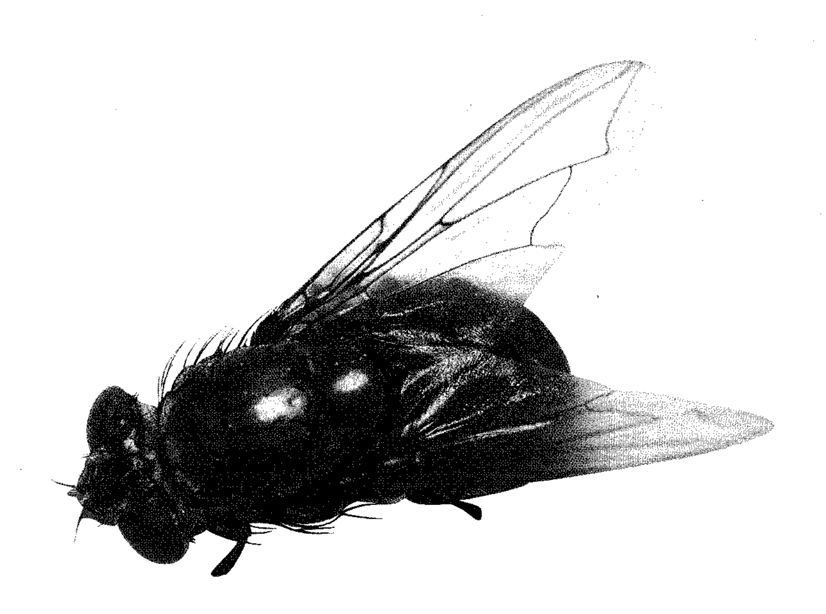
ويستمر القرآن الكريم في تحديه بأن الإنسان الكافر أو المشرك، وما يعبد من دون الله من وثن أو صنم أو بشر أو نظام لن يعجزوا فقط عن خلق الذباب، بل إنهم عاجزون عن استنقاذ ما يسلبه الذباب منهم من طعام أو شراب أو طيب أو دهون. فالذباب عندما يحط على شيء من ذلك فإن كان سائلاً سلب قطرة منه وأوصلها فوراً إلى جهازه الهضمي الذي يمتصها ويحولها إلى جهازه الدوري ومنه إلى مختلف خلاياه، وإن كان مادة صلبة صب عليها لعابه وإنزيمات معدته وعصائرها الهاضمة فيفككها فوراً ويذيبها، أي يهضمها قبل أن يمتصها ويوصلها مهضومة إلى جهازها الهضمي ومنه إلى جهازها الدوري ثم إلى مختلف خلايا جسم الذبابة، حيث يتحول جزء من هذا الطعام إلى طاقة، ويتحول جزء آخر إلى مكونات الخلايا والأنسجة، وإلى عدد من المركبات العضوية التي يستخدمها الجسم، ويتحول الباقي إلى فضلات تتخلص منها الذبابة، ولا سبيل أبداً إلى استرجاع أي من ذلك.

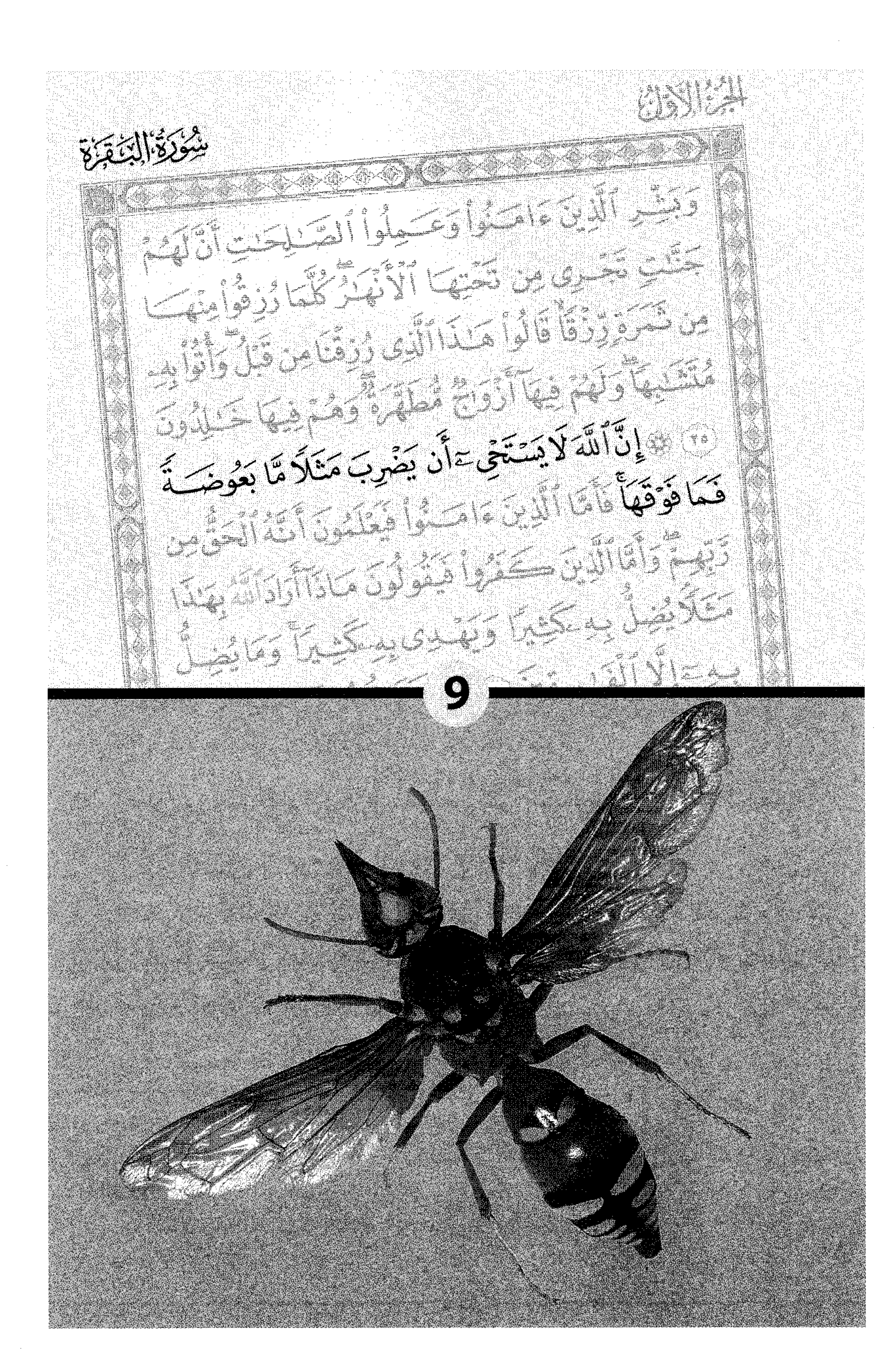
هذه الحقائق لم يصل إليها علم الإنسان إلا في القرن العشرين وفي العقود المتأخرة منه، وورودها في كتاب الله بهذه الإشارات الدقيقة المحكمة الموجزة لممّا يشهد بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده، في لغة وحيه نفسها ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد بذلك الحفظ إلى قيام الساعة، ليبقى هادياً للناس جميعاً، وحجة على أهل العلم منهم خاصة وذلك:

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

«سورة الأنفال، الآية: 42».

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة النبي والرسول الخاتم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.




الجزء الأول

سورة البقرة

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا
مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ
مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً
فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا
مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ

9

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...﴾

«سورة البقرة، الآية: 26».

9

هذا النص القرآني الكريم جاء في العشر الأول من سورة «البقرة»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها (286) بعد البسملة، وهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التي أجراها الله سبحانه وتعالى على يدي نبيه موسى عليه السلام حين تعرض شخص من بني إسرائيل في زمانه للقتل ولم يُعرف قاتله، فأوحى الله ـ تعالى ـ إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله، ويخبرهم عن قاتله، ثم يموت، إحقاقاً للحق، وشهادة لله سبحانه وتعالى بالقدرة على إحياء الموتى.

ومن مزايا سورة «البقرة» أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيها:

- **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»**[1].
- **«من قرأ الآيتين من آخر سورة «البقرة» في ليلة كفتاه»**[2].
- **«يأتي القرآن وأهله الذين يعملون به في الدنيا، تقدمه سورة البقرة، وآل عمران.. تأتيان كأنهما غيابتان وبينهما شرف، أو كأنهما غمامتان سوداوان، أو كأنهما ظلة من طير صواف تجادلان عن صاحبهما»**[3].

---

(1) رواه الترمذي في (الحديث: 2877).

(2) رواه البخاري في (الحديث: 4010)، ومسلم في (الحديث: 1875) والترمذي في (الحديث: 2881).

(3) أخرجه مسلم في (الحديث: 1873)، والترمذي في (الحديث: 2883).

● «اقرأوا سورة «البقرة»، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»[1].

ويدور المحور الرئيسي لسورة «البقرة» حول قضية التشريع الإسلامي في العبادات والأخلاق، والمعاملات، وإن لم تغفل قضية العقيدة الإسلامية لأنها صلب الدين، كذلك حددت السورة الكريمة صفات كلٍّ من المؤمنين والمنافقين والكافرين، وسجلت قصة خلق الإنسان بدءاً بأبوينا آدم وحواء ـ عليهما من الله السلام ـ.

وأشارت السورة إلى عدد من أنبياء الله ورسله منهم إبراهيم وولده إسماعيل وحفيده يعقوب، ومن نسله موسى، وداود، وسليمان، وعيسى ابن مريم، على نبينا وعليهم من الله السلام.

وبتفصيل بلغ أكثر من ثلث السورة تناولت سورة «البقرة» قضية أهل الكتاب وموقفهم من الرسالة الخاتمة، ومن النبي والرسول الخاتم ﷺ، وختمت بإقرار حقيقة الإيمان وبدعاء يهز القلب والروح والوجدان، على لسان العبد مناجياً ربه سبحانه وتعالى بما يجب أن يقول فيقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ «سورة البقرة، الآية: 286».

ويمكن إيجاز أهم معطيات سورة البقرة فيما يلي:

أولاً: من التشريعات الإسلامية في سورة «البقرة»:

1 ـ فصلت سورة «البقرة» أحكام الأسرة المسلمة من الخطبة إلى الزواج، والإنجاب، والطلاق ـ في بعض الحالات ـ والمتعة، والرضاعة، والعدة، وغيرها، وأمرت باعتزال النساء في المحيض، ونهت عن نكاح المشركات والمشركين حتى يؤمنوا.

2 ـ وعددت المحرمات من الطعام من مثل الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أُهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه، كما حرّمت كلاً من الخمر والميسر.

3 ـ وشَرَّعت سورة «البقرة» للقصاص في القتلى حماية للمجتمعات الإنسانية من إجرام المجرمين.

(1) رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

4 ـ وحضَّت على كتابة الوصية قبل الموت، وحرمت وجرمت تبديلها أو إخفاءها.

5 ـ وحرمت أكل أموال الناس بالباطل مهما صغرت القيمة.

6 ـ ووضعت ضوابط للتعامل بالدَّيْن وكيفية كتابته، والشهادة عليه وطبيعة شهوده.

7 ـ وحرمت التعامل بالربا تحريماً قاطعاً، وهددت الواقعين فيه بحرب من الله ورسوله، والغالبية الساحقة من بنوك العالمين العربي والإسلامي لا تتعامل اليوم إلا بالربا المعلن، والقليل من البنوك الإسلامية تحارب في كل أرض.

8 ـ وحضَّت على رعاية اليتيم حتى يبلغ أشده، وحددت ضوابط الإنفاقِ في سبيل الله.

9 ـ وحرمت «سورة البقرة» إنكار أي معلوم من الدين بالضرورة.

ثانياً: من قواعد العبادة في سورة «البقرة»:

1 ـ أمر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة «البقرة» بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وحدد آداب كل عبادة من تلك العبادات وضوابطها الشرعية، وشَرَّعَت السورة الإنفاق في سبيل الله والإحسان إلى الخلق بصفة عامة، وأكدت بأن ذلك كله كان من قواعد العبادة في كل الشرائع السماوية السابقة، وكلها كانت إسلاماً لله ـ تعالى ـ، علمه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لأبينا آدم عليه السلام وأنزله على فترة من الأنبياء والمرسلين، وأكمله وأتمه في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

2 ـ الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، ردعاً للمعتدين والغاصبين والمتجبرين في الأرض، ودفعاً للمعتدين على أراضي المسلمين، وعلى دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، ومقدساتهم، وللمعتدين على غيرهم من المستضعفين في الأرض من غير المسلمين، وذلك صوناً لكرامة الإنسان، وإقامة لعدل الله في الأرض.

3 ـ الدعوة إلى التوجه بالدعاء لله ـ تعالى ـ وحده دون سواه وتحديد الأوقات المفضلة لذلك، وآدابه والتزام تقوى الله في كل حال.

4 ـ مراعاة الأشهر الحرم وتوقيرها، وإقامة السنن التي سنها لنا رسول الله ﷺ فيها.

5 ـ إكرام الوالدين والإحسان إليهما، وإلى كلٍّ من ذوي القربى واليتامى والمساكين، وإلى الناس جميعاً دون منٍّ أو أذى.

ثالثاً: من ركائز العقيدة في سورة «البقرة»:

1 ـ الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

2 ـ التصديق بالقرآن الكريم، آخر وأتم وأكمل الكتب السماوية التي أنزلها الله ـ تعالى ـ بالحق على فترة من الرسل، ثم جمعها في هذا الكتاب الخاتم الذي أنزله على خاتم أنبيائه ورسله، وأبقاه محفوظاً بحفظه في نفس لغة وحيه، هدى للمتقين إلى يوم الدين.

3 ـ التسليم بالغيب الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في محكم كتابه، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، انطلاقاً من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وانطلاقاً من الإيمان بملائكته وبجميع كتبه وأنبيائه ورسله، بغير تمييز ولا تفريق، ومن الإيمان باليوم الآخر الذي ترجع فيه كل الخلائق إلى الله خالقها، ثم ترد إلى الخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وهذه كلها من الغيبيات التي يطالبنا الله ـ تعالى ـ بالإيمان بها، ويصف المؤمنين بها بوصف المتقين الذين يؤمنون بجميع رسالات الله دون أدنى تفريق، ويؤمنون بالآخرة بيقين لا يتزعزع.

4 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأن من خلقه السمٰوات السبع والأرضين السبع ومن فيهن، وأنه سبحانه وتعالى قد خلق الخلق من العدم، وأنه سوف يميتهم فرداً فرداً، ثم يحييهم بعثاً واحداً ليعودوا إلى بارئهم الذي يعلم غيب السمٰوات والأرض، ويعلم ما تكسب كل نفس فيحاسبهم ويجازيهم، وهو الرحمٰن الرحيم، وهو شديد العقاب، وهو ـ تعالى ـ سريع الحساب، وقد وصف ذاته العلية بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ «سورة البقرة، الآية: 255».

5 ـ الإيمان بوحدة الجنس البشري وبانتهاء نسبه إلى أبوينا آدم وحواء عليهما السلام وانطلاقاً من ذلك لا بد من نبذ جميع أشكال العصبيات العرقية، والاجتماعية، والدينية، وغيرها من أشكال التمييز بين الناس على أي أساس غير تقوى الله.

6 ـ التسليم بأن الله ـ تعالى ـ قد علم آدم الأسماء كلها، وبذلك يكون الإنسان قد بدأ وجوده عالماً عابداً، وليس جاهلاً كافراً كما يدعي أصحاب الدراسات الوضعية في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا).

7 ـ اليقين بوحدة رسالة السماء، وبأخوَّة جميع الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله ـ تعالى ـ بالإسلام الصافي، والتوحيد الخالص لله ـ سبحانه ـ، وقد تكاملت رسالاتهم جميعاً في الرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ الذي أرسله الله ـ تعالى ـ بشيراً ونذيراً للعالمين إلى يوم الدين.

8 ـ التصديق بضرورة تنزيه الله ـ تعالى ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله من أمثال الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله ـ تعالى ـ منزَّه عن جميع صفات خلقه، والإيمان بأن الشرك من أبشع صور الاعتقاد وأبغضها إلى الله، وهو من صور الكفر بالله، وأن من هذا الكفر منع مساجد الله ـ تعالى ـ أن يذكر فيها اسمه، أو السعي في خرابها وكلها من الأعمال التي لا يرضاها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ.

9 ـ الإيمان بأن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأنه يأمر بالسوء والفحشاء ويغري الضالين من العباد بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، ومن هنا فإن مخالفته واجبة على كل مسلم ومسلمة، وللنجاة من حبائل هذا اللعين، لا بد من الاعتصام بحبل الله المتين. وتأكيداً على هذه الحقيقة عرضت السورة الكريمة لقصة الشيطان الرجيم مع أبوينا آدم وحواء عليهما السلام حتى تم إخراجهما من الجنة بوسوسته وغوايته، ثم كانت توبتهما وقبول الله ـ تعالى ـ منهما تلك التوبة، وبذلك لا يمكن أن يطول أحداً من ذريتهما أثر من معصيتهما، انطلاقاً من عدل الله القائل:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾ «سورة الأنعام، الآية: 164».

وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «سورة البقرة، الآية: 37».

10 ـ اليقين بأن دين الله ـ الإسلام ـ قائم على السماحة واليسر، وعلى رفع الحرج عن الخلق، وأن من أصوله الثابتة أنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ «سورة البقرة، الآية: 256».

11 ـ التصديق بحتمية الآخرة وبضرورتها، وبالخوف من فجائيتها وأهوالها، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ «سورة البقرة، الآية: 281».

رابعاً: من مكارم الأخلاق التي دعت إليها سورة «البقرة»:

1 ـ الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

2 ـ الوفاء بالعهود والمواثيق.

3 ـ الشجاعة والإقدام وحب الاستشهاد في سبيل الله.

4 ـ الجرأة في مناصرة الحق، وإعلان الرأي، وعدم كتمان الشهادة.

5 ـ الجود والكرم والإنفاق في سبيل الله.

6 ـ الحرص على قول المعروف، والعمل الصالح، والعفو عن الناس.

7 ـ بر الوالدين الذي أمر به الله ـ تعالى ـ بعد الأمر للناس جميعاً بألا يعبدوا إلا إياه.

8 ـ الإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين وإلى الناس كافة دون منٍّ أو أذى.

9 ـ تجنب المال الحرام بكافة صوره وأشكاله، ومن أبرزها الربا والرشوة، والسرقة، والغش وغير ذلك من صور التحايل الباطل على الكسب الحرام.

خامساً: من القصص القرآني في سورة «البقرة»:

جاء في سورة البقرة ذكر عدد من أنبياء الله ورسله، وذكر عدد من الحوادث التي تمت في حياتهم أو حدثت لعدد من الصالحين من بعدهم، وذلك للاعتبار بها وأخذ الدروس منها، وهذه يمكن إيجازها فيما يلي:

1 ـ قصة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام.

2 ـ قصة نبي الله موسى عليه السلام وقومه مع فرعون مصر، وخروجهم منها وعبور موسى بهم البحر بمعجزة من الله ـ تعالى ـ، ثم تفجير الأرض لهم بالماء الزلال بعد العبور (عيون موسى)، وعصيانهم لله ـ تعالى ـ بعد كل هذه المعجزات التي رأوها رأي العين، وارتدادهم عن التوحيد إلى الشرك وإلى عبادة العجل، ثم صعقهم عقاباً على ذلك، وإحيائهم ورفع الطور فوقهم، وقصتهم مع القتيل، وأمر الله لهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل ببعضها فيبعثه الله ـ تعالى ـ من موته حتى يخبر عن قاتله ثم يموت. ومسخ الذين اعتدوا منهم في السبت إلى قردة وخنازير. وتلا ذلك كفرهم بآيات الله وتحريفهم للتوراة، وقتلهم للأنبياء من بعد موسى عليه السلام بغير الحق، وعصيانهم لأوامر الله وتعديهم لحدوده، وقصتهم مع كل من طالوت ملكهم من جهة، ومع كل من جالوت وداود عليه السلام ومن آمن معهما من جهة أخرى.

3 ـ قصص بعض أنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا من بعد موسى عليه السلام وذلك من أمثال كل من داود وسليمان عليهما السلام.

4 ـ قصة نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، وتعاونهما في رفع قواعد الكعبة المشرفة وإعادة بنائها، ودعوتهما إلى الله ـ تعالى ـ أن يبعث خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة، وكذلك الإشارة إلى حوار إبراهيم عليه السلام مع نمرود بن كنعان (أول من ادعى الألوهية كذباً وبهتاناً).

5 ـ قصة نبي الله يعقوب عليه السلام مع بنيه إذ حضره الموت، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

«سورة البقرة، الآية: 133».

6 ـ قصة الرجل الصالح عزير.. الذي مر على بيت المقدس بعد أن خربها بختنصر، وفي ذلك تقول سورة البقرة:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ «سورة البقرة، الآية: 259».

7 ـ قصة نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام.

8 ـ حادثة تحويل القبلة بعد حوالي سبعة عشر شهراً من مقدم النبي ﷺ إلى المدينة، وإنكار كلٍّ من اليهود والمشركين والكافرين ذلك على المسلمين، لجهلهم بأنه أمر من الله ـ تعالى ـ الذي يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم.

سادساً: من الإشارات الكونية في سورة «البقرة»:

1 ـ التفرقة الدقيقة بين كلٍّ من الضياء، والنور، والظلمات، وهي من الحقائق العلمية التي لم تدرك إلا مؤخراً.

2 ـ تقديم حاسة السمع على حاسة البصر في هذه السورة الكريمة وفي كثير غيرها من سور القرآن الكريم، وقد ثبت علميًّا أن حاسة السمع تتطور جنينياً قبل حاسة البصر، وتتكامل وتنضج في الشهر الخامس من حياة الجنين، بينما لا يتكامل نضج حاسة البصر إلا عند السنة العاشرة في عمر الطفل.

3 ـ وصف التلازم الدقيق بين الظلمات، والرعد، والبرق، والصواعق، وهطول الأمطار الغزيرة، والإشارة إلى إمكانية خطف البصر بواسطة البرق.

4 ـ الإشارة إلى المراحل المتتالية في إعداد الأرض لعمارتها بالإنسان، وذلك من قبيل تمهيد سطحها وإنزال الماء عليها وإحياء الأرض بعد موتها، وبث من كل دابة فيها، وإخراج الثمرات منها رزقاً للعباد.

5 ـ ذكر معجزات فلق البحر لنبي الله موسى عليه السلام ونجاته ومن كان معه من مطاردة فرعون وجنوده لهم، وهلاك فرعون وجنده بالغرق في اليم، وكذلك تفجر اثنتي عشرة عيناً بالماء بضربة من عصا موسى، ولا تزال واحدة من هذه العيون المائية موجودة حتى اليوم بالمنطقة الشرقية من خليج السويس والمعروفة باسم (عيون موسى).

6 ـ الإشارة إلى أمراض القلوب ومنها الخوف والقلق والوسوسة والشك والاكتئاب، وقد أثبتت الدراسات النفسية أنها حقائق علمية لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم.

وتشبيه قسوة قلوب اليهود بأنها أشد من قسوة الحجارة، لأن من الحجارة ما يلين عند تفجرها بالأنهار أو عند تشققها وخروج الماء منها، أو عند هبوطها من خشية الله ـ تعالى ـ، وقسوة قلوب اليهود لا تلين أبداً حسب ما أثبت التاريخ من جرائمهم التي جاوزت كل حدود الرحمة، وكل حقوق الإنسان إذا كانت بأيديهم الغلبة، وما الذي يحدث على أرض فلسطين اليوم وفي كل من العراق وأفغانستان المحتلتين من جرائمهم الوحشية إلا صورة من تلك القسوة البالغة التي وصفهم القرآن الكريم بها من قبل أربعة عشر قرناً أو يزيد، وقد كانوا كذلك عبر التاريخ، وسوف يظلون كذلك حتى يهلكهم الله ـ تعالى ـ بقدرته وما ذلك عليه بعزيز.

7 ـ الإشارة إلى خلق السمٰوات والأرض، وإلى اختلاف الليل والنهار، وإلى الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وإلى المشرق والمغرب وتأكيد أن ذلك كله لله.

8 ـ الإشارة إلى تصريف الرياح، وإلى السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهي حقائق لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده.

9 ـ الإشارة إلى أذى المحيض، والنصيحة باعتزال النساء فيه، وقد أثبتت الدراسات الطبية صحة ذلك.

10 ـ التأكيد على ما في كلٍّ من الخمر والميسر من آثام تفوق أية منافع يمكن أن تجتنى من وراء الخوض في أي منهما، مما أثبتت صحته التجارب الإنسانية عبر التاريخ، وعلى الرغم من ذلك فإن غالبية الدول المسلمة المعاصرة تقرهما وتسمح بهما.

11 ـ الإشارة إلى أن الأشجار تزكو وتزدهر، وتجود بعطائها من الثمار في الربى المرتفعة سواء كثر عليها المطر أو قل وهو مما أثبتته الدراسات العلمية مؤخراً.

12 ـ الإشارة إلى البعوضة وما فوقها من الخلق، وهي من أبسط الحشرات. ولكنها تبلغ في روعة بنائها ودقة خلقها ما تعجز البشرية كلها عن الإتيان بشيء من مثلها، كما تبلغ في خطرها على حياة الإنسان أنها تعد اليوم واحدة من أخطر الآفات الحشرية على الإطلاق.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذا فإنني سوف أقصر حديثي هنا على النقطة الأخيرة من القائمة السابقة والتي جاءت الإشارة إليها في الآية السادسة والعشرين من سورة البقرة، ولكن قبل الدخول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝﴾

«سورة البقرة، الآية: 26».

- ذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن رحمه الله ما نصه: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾ أي ليس الحياء بمانع لله تعالى من ضرب الأمثال بهذه المخلوقات



الحقيرة والصغيرة في نظركم، كالبعوض والذباب والعنكبوت، فإن فيها من دلائل القدرة وبدائع الصنعة ما تحار فيه العقول، ويشهد بحكمة الخالق. وقد جعلوا ضرب المثل بها ذريعة إلى إنكار كون القرآن من عند الله تعالى. وفي الآية إشعار بصحة نسبة الحياء إليه ـ تعالى ـ. ومذهب السلف إمرار هذا وأمثاله على ما ورد، وتفويض علم كنهه وكيفيته إلى الله ـ تعالى ـ، مع وجوب تنزيهه عما لا يليق بجلاله من صفات المحدثات. واختاره الألوسي وذهب جمع من المفسرين إلى تأويله لإرادة لازمة، وهو ترك ضرب الأمثال بها، لأن الاستحياء من الحياء، وهو تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب ويذم به، أو هو انقباض النفس عن القبائح. وهذا المعنى محال في حقه ـ تعالى ـ، فيصرف اللفظ إلى لازم معناه وهو الترك. ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ البعوض: ضرب من الذباب، ويطلق على البق المعروف وعلى الناموس. ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي في الحجم. أو في المعنى الذي وقع التمثيل فيه، وهو الصغر والحقارة. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الفسق: الخروج عن الطاعة.. ويقع بالقليل والكثير من الذنوب، ولكن تعورف فيما كان كثيراً، وهو أعم من الكفر...».

- ولم يخرج كلام بقية المفسرين عن ذلك فنكتفي به.

من الدلالات العلمية للنص الكريم

أولاً: النص الكريم يشمل ما فوق البعوضة حجماً وما هو أقل منها، وما هو أشد منها خطراً وما هو أهون منها:

من معاني هذا النص الكريم أن قدرة الله المبدعة في الخلق تتجلّى في أدق المخلوقات حجماً كما تظهر في أضخمها بناء، وتجليها في الكائنات المتناهية الضآلة في الحجم قد يكون أبلغ من وضوحها في الكائنات العملاقة، وكان الجهل بأخطار البعوض وبوجود كائنات أدق منه بكثير من وراء استنكار كل من الكفار والمشركين والمنافقين ضرب المثل في القرآن الكريم ببعض الحشرات من مثل البعوض، والذباب، والنحل، والنمل، والنمل الأبيض، والفراش، والجراد، والقمل، والمن، وببعض العناكب الصغيرة مثل العنكبوت.

ولما لم يكن في زمن الوحي من يدرك من الكائنات الحية ما هو أدق من البعوضة (وذلك من مثل: الفيروسات، البكتيريا، الطحالب وغيرها من البدائيات، والأوليات

(الطلائعيات)، والفطريات أو الفطور، وغير ذلك من الكائنات الدقيقة ومنها المتطفل وغير المتطفل فقد جاءت الصياغة القرآنية المعجزة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ «سورة البقرة، الآية: 26».

وتعبير ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ يشمل المعنيين المتضادين معاً أي ما يفوقها ضآلة في الحجم حتى لا يرى بالعين المجردة، وما يفوقها ضخامة في البنيان، وكذلك يشمل هذا التعبير القرآني أخطار البعوضة كما يشمل أخطار غيرها من كل من الكائنات الدقيقة التي لم تكن معروفة في زمن الوحي بالقرآن الكريم، والكائنات التي تفوقها حجماً؛ لأن الفوقية في اللغة تعني الزيادة والعلو في صفة يوضحها السياق.

وقد استهان الناس في القديم بالبعوضة لضآلة حجمها، فاستنكر القرآن الكريم عليهم ذلك، واتخذها مثلاً يتحدى به الكفار والمشركين قبل أن يعرف دورها في نقل العديد من الأمراض الفتاكة بكل من الإنسان والحيوان، بل من قبل أن يعرف الإنسان من ناقلات الأمراض ما هو دونها حجماً بما يزيد على اثني عشر قرناً من الزمن.

ثانياً: النص القرآني يشير إلى خطر البعوضة:

والبعوضة هي حشرة ضئيلة الحجم من ثنائيات الأجنحة (Diptera)، تتبع عائلة ضخمة من الحشرات تعرف باسم (Family Culicidae)، وتضم ما بين الألفين والثلاثة آلاف نوع من البعوض. وتأتي في المرتبة الثانية تعداداً بعد النمل.

ويتراوح طول البعوضة بين الثلاثة والتسعة مليمترات، وهي مع ضآلة حجمها فإن جسمها يتكون كما تتكون أجساد غيرها من الحشرات من **رأس وصدر وبطن**، ولها **ثلاثة أزواج من الأرجل** الطويلة النحيلة، **وزوج من الأجنحة الدقيقة** القوية والقادرة على الخفق المتواصل السريع الذي يصل إلى ستمائة خفقة في الثانية الواحدة، ولها **قرنا استشعار** في قمة الحساسية والكفاءة، **وعين البعوضة عين مركبة** تتألف من مئات العيينات المستقلة تشريحياً والمتكاملة وظيفياً مما يعطيها قدرة هائلة على الرؤية بالليل وبالنهار في كل أطياف الضوء، ولها جميع الأجهزة الحيوانية كاملة على الرغم من ضآلة حجمها.

وأنثى البعوض تتغذى على دماء ذوي الدماء الحارة ولذلك فإن لها فماً ثاقباً ماصاً



تستخدمه في امتصاص الدم من الإنسان ومن كل حيوان ذي دم حار، وعندما تغرس مثقابها في جلد الإنسان أو الحيوان فإنها تفرز لعابها الذي يحمل مركبات عضوية تؤدي إلى احتقان الجلد، وأخرى تمنع الدم من التجلط حتى يسهل امتصاصه، بينما يتغذى ذكر البعوض على رحائق الأزهار فقط. وتضع أنثى البعوض البالغة ما بين مائة وأربعمائة بيضة في المرة الواحدة، والذي ينجو من افتراس الحيوانات الأخرى من بيض البعوضة قد يفقس بعد يوم أو يومين، أو يبقى في فترة كمون قد تمتد إلى الأسبوعين، ويعتمد ذلك على عوامل كثيرة منها وفرة الماء؛ لأنه ضروري لفقس البيض ولحياة كل من اليرقات والعذارى.

ومع ضآلة حجم البعوضة فإنها تمثل خطراً لا يستهان به على صحة كل من الإنسان والحيوان، فالبعوض الأنثى التي تتغذى على دماء الإنسان وعلى دماء غيره من الحيوانات ذوات الدم الحار تصبح وسيلة خطيرة لنقل العديد من مسببات الأمراض من مثل الفيروسات، البكتيريا، الطحالب، وغيرها من البدائيات والأوليات (الطلائعيات)، ومن مثل الفطريات، وغير ذلك من الكائنات الدقيقة التي تصيب كلاً من الإنسان والحيوان.

ومن الأمراض التي تنقلها البعوضة: الملاريا، الملاريا الخبيثة، داء الفيل، الحمى الصفراء، الحمى الدماغية، الحمى الشوكية، الحمى النازفة، مرض حمى أبي الركب (أو

حمى تكسير العظام أو حمى الركب النازفة)، حمى الوادي المتصدع، مرض دودة القلب، الالتهاب السحائي، الالتهاب المخي، الالتهاب المخي الشوكي، وأمراض ضعف المناعة ومنها الإيدز. ومن أخطر ما تحمله البعوضة فيروسات تغزو الجهاز العصبي للإنسان مما قد يصيبه بعدد من الأمراض فائقة الخطورة من مثل مرض التهاب الدماغ والسحايا (Encephalo meningitis)، ومرض التهاب الدماغ والنخاع (Encephalo myelitis).

والأمراض التي تنقلها البعوضة قد أدت إلى هلاك الملايين من البشر منذ بدء الخليقة وإلى يومنا الراهن حيث لا تزال تصيب الملايين في كل عام إلى أن يشاء الله، ولذلك تعد هذه الحشرة الضئيلة الحجم واحدة من أخطر الآفات الحشرية المعروفة. ومن هنا كان ضرب المثل بها في القرآن الكريم على شدة خطرها مع ضآلة حجمها، وعلى وجود ما هو أخطر وأدق منها وما هو أعظم منها حجماً وخطراً من مخلوقات الله الأخرى.

ومن هنا أيضاً كان تحدي الله ﷻ كل الكافرين والمنافقين والمشركين من أهل الجزيرة العربية، وغيرهم من أهل الأرض إلى قيام الساعة بهذه الحشرة المتناهية الصغر في الحجم. وفي زمن الوحي لم يكن أحد من الناس يدرك حقيقة خطر البعوضة فكانوا يستهينون بها، وفي زماننا ـ زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه ـ تقف البشرية عاجزة أمام أخطار هذه الحشرة الصغيرة على الرغم من كل مستويات التقدم التي حققها إنسان هذا العصر.

والبعوض يتراوح عدد أنواعه بين ألفين وثلاثة آلاف نوع من أخطرها الأنواع الثلاثة التالية:

1 ـ بعوضة الأنفيل (Anopheles) التي تنقل طفيل مرض الملاريا (مرض البرداء) وهذا الطفيل معروف باسم (Plasmodium)، كما تنقل طفيليات العديد من الأمراض الأخرى مثل طفيل مرض الفيلاريا (Filaria) الذي يسبب داء الفيل (Elephantiasis). وتنقل فيروس حمى التهاب الدماغ المعروف باسم الحمى الدماغية (Encephalitis).

2 ـ بعوضة الكيولكس (Culex) التي تنقل كلاً من طفيل مرض الفيلاريا، وفيروس الحمى الدماغية.

3 ـ البعوضة الزاعجة (Aedes) التي تنقل فيروسات الحمى الصفراء (Yellow Fever) والحمى الدماغية وحمى الضنك (Dengue Fever) المعروفة باسم حمى أبي الركب أو حمى الركب النازفة أو حمى تكسير العظام.

وتتم دورة طفيل مرض الملاريا (البرداء) بين بعوضة الأنفيل والإنسان حيث تنفذ البعوضة مسببات المرض إلى مجرى دم الإنسان عند قرصه، فتحملها مجاري الدم إلى الكبد حيث يبدأ الطفيل في التكاثر لاجنسياً وفي مهاجمة خلايا الدم الحمراء التي تنفجر لتملأ مجرى الدم بجراثيم المرض التي تبدأ في التكاثر جنسياً بعد عدد من الأجيال فتؤدي إلى الحمى وإلى تضخم الطحال، وإذا تعرض هذا المريض لقرصة أخرى من ناموسة الأنفيل فإن هذا الطور الجنسي من الطفيليات ينتقل إلى معدة البعوضة حيث يتم تكاثره لاجنسياً وانتقاله إلى غددها اللعابية فيصبح جاهزاً لإصابة إنسان آخر تهاجمه هذه البعوضة، وبذلك يصاب أكثر من 270 مليون إنسان بالملاريا سنوياً في كل أنحاء الأرض، ويتوفى منهم قرابة المليونين من الأفراد مما يجعل الملاريا من أكثر الأمراض انتشاراً في كوكبنا الأرضي، وقد عجزت أكثر دول العالم تقدماً في مجال العلوم البحتة والتطبيقية عن مقاومة أخطار البعوضة، ففي أغسطس من سنة 1995م انتشرت في مدينة نيوجيرسي (في شرق الولايات المتحدة الأمريكية) أسراب من البعوضة الزاعجة المعروفة باسم (Aedes albopictus)، وكانت تهاجم الناس بشراسة بقرصاتها المؤلمة حتى في وضح النهار وقد عرفت باسم النمر الآسيوي (The Asian Tiger) لأصولها الآسيوية ولشراستها في الهجوم، وكانت هذه الحشرة قد ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في سنة 1985م بعد أن غزت كلاً من جزر هاواي ومناطق من المحيط الهادي عقب الحرب العالمية الثانية (1945م)، ولا تزال هذه الحشرة الصغيرة تجتاح آلاف الأنفس من أبناء القوة العسكرية الكبرى في العالم دون أن تنفعها أسلحتها في الدفاع عنهم، ﴿...وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞﴾ «سورة الفتح، الآية: 4».

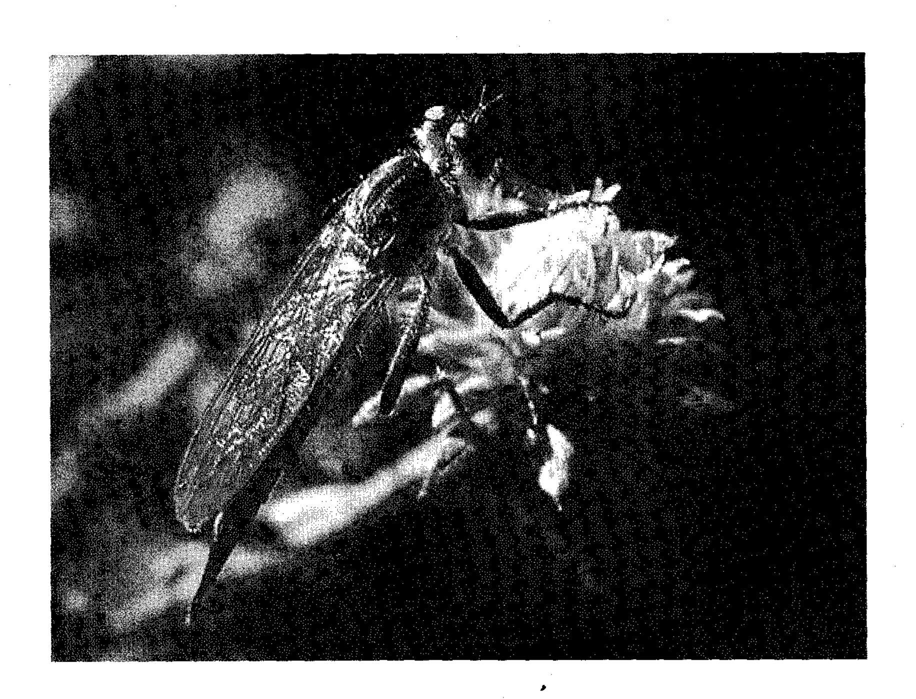
ثالثاً: النص القرآني يفيد أن أنثى البعوض وحدها هي الناقلة للأمراض ومن ثم كانت مناط التحدي:

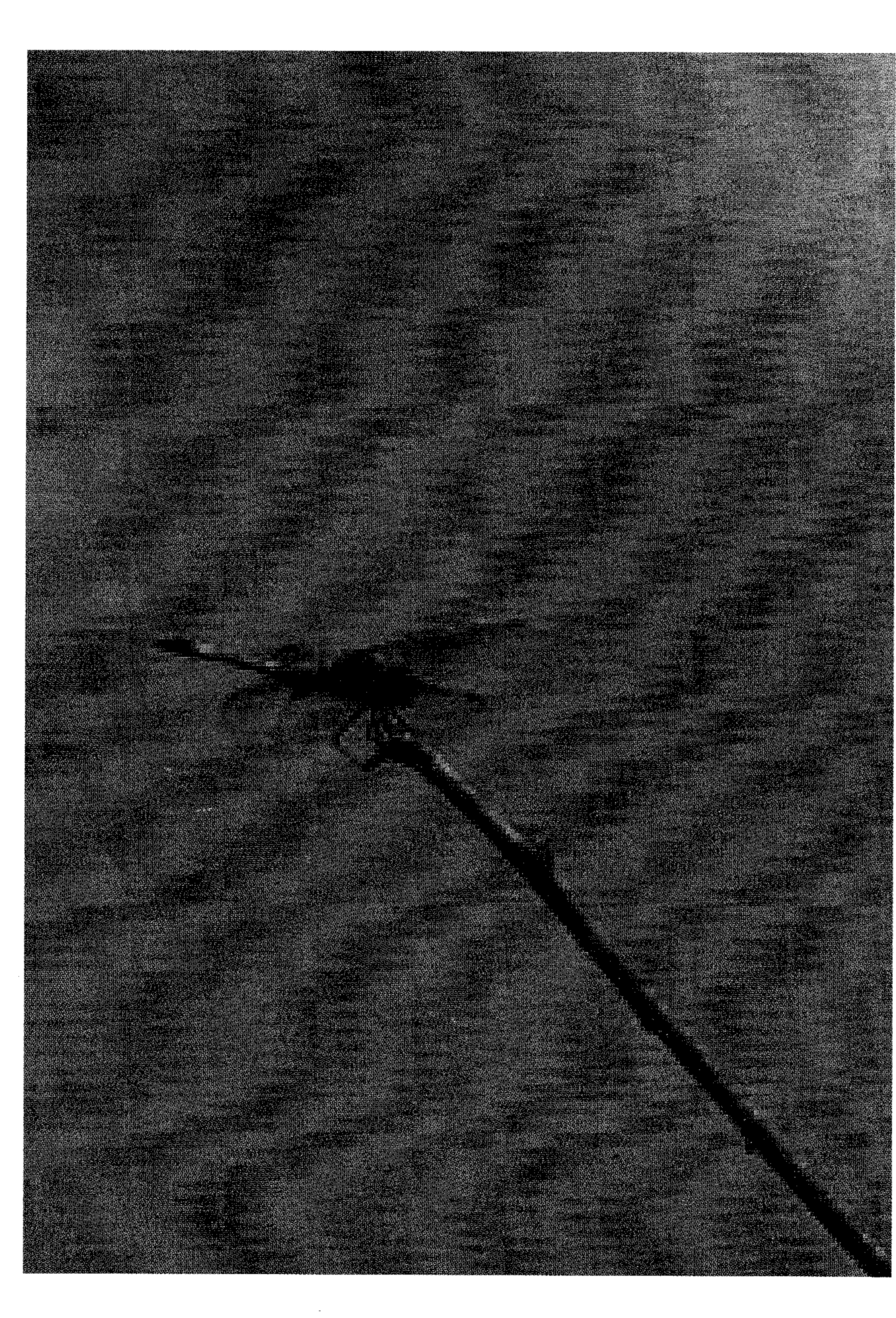
إن إفراد لفظ (بعوضة) وتأنيثه في هذا النص القرآني المعجز يشير إلى عيشة البعوض عيشة فردية سوى في حالة التزاوج وإلى تمايز الأنثى عن الذكر في هذه الحشرة الخطيرة،

وإلى تفرد الأنثى وحدها ـ دون الذكر ـ بهذا الخطر الداهم، وهي حقيقة لم يعرفها الإنسان إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (1897م ـ 1900م).

كذلك فإن تنكير لفظ (بعوضة)، وإيراد اسم الموصول (ما) مكرراً مرتين يشير إلى تعدد أنواع البعوض، فضلاً عن شمول كل مما هو دونها حجماً، وما هو أكثر منها ضخامة، وكل ما هو دونها أو أكثر منها ضرراً من مخلوقات الله الأخرى.

وهذه حقائق لم تصل إلى علم الإنسان إلا بعد مجاهدة استغرقت جهود آلاف من العلماء منذ نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولا تزال مستمرة إلى اليوم، وإلى أن يشاء الله، وورودها بهذه الصياغة العلمية الشاملة والدقيقة في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ـ عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لممّا يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ
﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾
وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

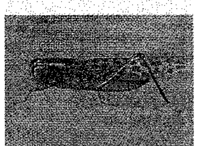


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝﴾

«سورة القمر، الآية: 7».

10



هذه الآية الكريمة جاءت في مقدمات «سورة القمر»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (55) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بذكر معجزة انشقاق القمر كرامة لرسول الله ﷺ، ويدور المحور الرئيسي للسورة حول الآخرة وأهوالها، والتحذير من اقتراب وقتها وظهور بعض علاماتها، ومن ثم التحذير من الإعراض عن آيات الله وتكذيبها، ولذلك تحمل هذه السورة الكريمة على المكذبين ببعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، وعلى المعرضين عن الآيات التي أيده الله سبحانه وتعالى بها، وفي مقدمتها القرآن الكريم، ذلك الكتاب الخالد الذي أكمل الله ـ تعالى ـ به الدين، وأتم النعمة، ورضي لعباده الإسلام ديناً بعد أن أنزله على فترة من الأنبياء والمرسلين بلغ عددهم أكثر من مائة وعشرين ألف نبي، تخير الله جل جلاله من بينهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، أوكل إلى كل منهم تبليغ وحيه إلى قومه، وأوكل إلى تلك الأقوام حفظ الوحي المنزل إلى كل منها فضيعوه، وأشبعوا ما بقي من ذكرياته (المنقولة شفاهاً) تحريفاً وتبديلاً وتغييراً، حتى أخرجوا وحي السماء عن إطاره الرباني.

وتصحيحاً لما حرف البشر وبدلوا وغيروا، منّ الله ـ تعالى ـ على الخلق أجمعين بإنزال رسالته الخاتمة على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد بحفظها إلى يوم الدين بصفتها رسالته الخاتمة حتى تكون حجة على الناس كافة، وحتى لا يبقى لعبد ذريعة من الذرائع أنه لم يتلقَّ هداية الله، وقد جمعها في قرآنه الكريم وفي سنة رسوله الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ، وحفظها بنفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد بذلك الحفظ إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

وانطلاقاً من هذه الحقائق تحمل سورة «القمر» على المكذبين ببعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، وعلى المعرضين عن الآيات التي أيده الله ـ تعالى ـ بها والتي كان في مقدمتها القرآن الكريم، ومنها عدد من المعجزات الحسية المبهرة التي كانت منها حادثة انشقاق القمر، والتي رآها مشركو قريش بأعينهم فكذبوها وأحالوها إلى السحر الدائم المستمر، وهم يعلمون أن الذي جرت له المعجزة معروف عندهم بالصادق الأمين، وأنه ﷺ ما اقترف السحر أو الشعوذة أبداً، فقد نزهه الله ـ تعالى ـ عن ذلك وعن غيره مما نزه جميع أنبيائه ورسله عنه.

ولذلك تطالب سورة «القمر» خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بالإعراض عن هؤلاء الكافرين، وإمهالهم إلى يوم البعث العظيم، يوم يخرج الخلق من قبورهم بالبلايين كأنهم جراد منتشر، وهو يوم الفزع الأكبر والهلع الأكبر الذي لا ينجو من أخطاره إلا من أتى الله بقلب سليم، مطمئن بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومنزه لله ـ تعالى ـ عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وقد جاهد في الحياة الدنيا من أجل حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وإقامة عدل الله فيها بأمانة وصدق وتجرد كاملين.

وقد استهلت سورة «القمر» بالتحذير من اقتراب وقت الساعة، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**بعثت أنا والساعة هكذا**» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى»[1].

ثم تابعت السورة الكريمة بذكر حادثة انشقاق القمر التي أجراها الله ـ تعالى ـ معجزة تشهد لسيدنا محمد ﷺ بالنبوة وبالرسالة وقد كذب بهما مشركو قريش، وعلى الرغم من وقوع المعجزة التي لم ينكرها أحد منهم فإنهم ـ إمعاناً في تكذيبهم وغطرستهم وكبرهم ـ أحالوها إلى سحر أعينهم تارة وإلى سحر القمر تارة أخرى، والسحر من الكبائر التي جاءت بعثة المصطفى ﷺ بتحريمها ومحاربتها، وهو الذي لم يُشْهَدْ عليه كذبٌ أبداً. وقد كان هذا هو دأب الكفار والمشركين في كل زمان ومكان، أن يعرضوا عن التأمل في الآيات التي أنزلها الله ـ تعالى ـ رفضاً للإيمان بها واستكباراً عليها وإنكاراً لها، تماماً كما أنكر مشركو قريش معجزة انشقاق القمر، فقال فيهم رب العالمين وهو أحكم القائلين: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ «سورة القمر، الآية: 2» أي سحر محكم قوي شديد دائم.

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق (الحديث: 6504)، ومسلم في كتاب: الفتن (الحديث: 7331).

وتؤكد الآيات كذبهم فيما ذهبوا إليه، واتباعهم أهواءهم بدلاً من توظيف عقولهم في الحكم على هذا الأمر الخارق للعادة فقال ـ تعالى ـ فيهم: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ «سورة القمر، الآية: 3» أي وكل شيء في هذا الوجود من حولهم منضبط في ذاته وعلاقاته، على الرغم من حركة كل شيء إلى الفناء، وتتجلى طلاقة القدرة الإلٰهية في ضبط علاقات الأجرام في السماء، وانضباط سنن الحياة والموت على الأرض، وكل أمر من هذه الأمور له غاية يستقر عندها لا محالة، ومن ذلك أمر الحق الذي أنزله الله ـ تعالى ـ بعلمه؛ ولذلك فلا بد وأن يكون له النصر الحاسم في النهاية، وأمر الباطل الذي يتشدق به الكفار والمشركون والذي لا بد له من أن ينهزم وينهار في النهاية بإذن الله ـ تعالى ـ.

وتؤكد الآيات في سورة «القمر» أن الخلق قد جاءهم من آيات الله عبر تاريخهم الطويل ما كان كافياً لهم أن يعتبروا به، وقد صور الله ـ تعالى ـ لمشركي قريش ولبقية الكفار والمشركين من بعدهم في آخر كتبه (وهو القرآن الكريم) من أنباء المكذبين من الأمم السابقة ومصارعهم، ومن أهوال الآخرة التي تنتظرهم وفزعها ورهبتها ما كان كافياً لردعهم وزجرهم، وكان في استعراض ذلك ما يوجه القلوب والعقول إلى معرفة الخالق العظيم والخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة، وبالتنزيه عن كل وصف لا يليق بهذا الجلال، وبالتقرب إليه بحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وبالإكثار من العمل الصالح فيها وفي مقدمته إقامة عدل الله والاستعداد لملاقاته ﷻ وللعرض الأكبر أمامه في يوم البعث، ولكن القلوب المظلمة لا ترى النور أبداً، والطبائع المنحرفة المصرة على المعاصي لا تعرف الاستقامة أبداً، والآذان الصم أبداً لا تسمع صوت النذير، ولا نداءات التحذير، ولذلك قال فيهم رب العالمين: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ *﴾ «سورة القمر، الآيتان: 4، 5».

وعند هذا الحد من الانصراف عن الحق وصم الآذان دونه، والانغماس في الباطل والتلبس بأدرانه، فإن الآيات في سورة «القمر» تأمر رسول الله ﷺ بالإعراض عن هؤلاء الضالين، وإمهالهم إلى يوم البعث العظيم، يوم يخرج الخلق أجمعون من قبورهم وينتشرون ببلايين البلايين وكأنهم أسراب الجراد المنتشر، في الكثرة والزحام والتموج وهم في الطريق إلى أرض المحشر، وهو مشهد مرعب للذين لم يؤمنوا به في حياتهم الدنيوية، يملأ قلوبهم

بالهلع والفزع والإشفاق على كل شيء، والخوف من كل شيء، ويجبر أبصارهم على الخشوع في ذل وهوان، ويسرع خطاهم إلى الداعي الذي يدعوهم إلى أمور لا يعرفونها ولا تطمئن قلوبهم إليها، لأنها كانت في الدنيا لا تؤمن بها، وتستبعد وقوعها فإذا هي أمام أبصارهم واقع قائم لا هروب منه، ولا انفكاك عنه، فيعترف الكفار والمشركون ومنكرو الدين بمصيبتهم ولا يملكون إلا الاعتراف بقولهم في ذلة ومسكنة:﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾، وهو اعتراف الذليل المكروب الذي لم يستعد لهذا اليوم ولا لمواجهة أهواله..!!

ومن قبيل تذكير مشركي قريش وتذكير كل من سار على دربهم ونهج نهجهم إلى يوم القيامة بمصائرهم الحالكة السواد في الدنيا قبل الآخرة، استعرضت سورة القمر مصارع المكذبين من الكفار والمشركين في عدد من الأمم السابقة، منهم أقوام نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وفرعون، وما نالهم من عذاب الله وتنكيله، والله ـ تعالى ـ هو أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين. ولذلك فإننا ننقل لإخواننا المظلومين على أرض فلسطين وفي كلٍّ من العراق وأفغانستان، والبلقان والشيشان، وكشمير وأراكان، والصومال، ونيجيريا وجنوب السودان ما أمر به ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عباده المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ «سورة آل عمران، الآية: 200»، ونوصيهم: أن أحسنوا صلتكم بالله القوي العزيز الذي لا يرضى من عباده الظلم، وهو قادر على أن ينتقم لكم من ظالميكم في الدنيا قبل الآخرة إن شاء الله ـ تعالى ـ وما ذلك على الله بعزيز.

فالريح التي دمر الله ـ تعالى ـ بها قوم عاد هي من جند الله التي بجانب دورها المنتظم في هذا الكون، فإن الله ـ تعالى ـ يسخرها على من يشاء من الظالمين المتجبرين على الخلق، والمفسدين في الأرض فيقضي عليهم قضاء مبرماً في لمح من البصر إن شاء الله ـ تعالى ـ، والصيحة الصاعقة التي دمر الله ﷻ بها قوم ثمود وجعلهم ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي أعواد النبات الجافة التي تبنى منها الحظيرة، (والمحتظِر هو بانيها)، هذه الصيحة الصاعقة التي لا ندري كنهها هي من جند الله يسخرها على الظالمين من عباده فيقضي فيهم أمراً كان مفعولاً..!!.

والحاصب (أي الريح التي تحمل الحصباء) والتي سخرها الله عقاباً لقوم لوط فقضى عليهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ هي من جند الله يسخرها على من يشاء من المفسدين في الأرض (والمرشحون لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية اليوم يتنافسون على من سيقر

زواج الشواذ أولاً ويقننه ويشرع له بعد أن أقروا هذا المسلك الشائن المعيب، المنحرف عن الفطرة وشرعوا له وبعد أن تبنَّته العديد من الدول الغربية وضمَّنته دساتيرها)، وفي ذلك تقول الآيات في سورة القمر:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ *﴾ «سورة القمر، الآيات: 33 ـ 40».

والأخذ الذي أخذ الله ـ تعالى ـ به قوم فرعون (أخذ عزيز مقتدر) هو من جند الله، والله قادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أن يأخذ به كل ظالم جبار في الأرض، مغتر بعدده وعدته، وسلاحه وماله، فالذي يقدر الله ـ تعالى ـ أخذه لا ينفعه عدد ولا عدة، ولا سلاح ولا مال، بل يجعل منه عبرة لمن لا يعتبر، ويرى الخلق فيه عجائب قدرته، والإشارة إلى عزة الله واقتداره في الأخذ فالذي أخذ به فرعون وملئه، فيه تأكيد على الفارق الهائل بين عزة الله واقتداره، وما يتظاهر به بعض الخلق من عزة مزيفة واقتدار هزيل..!!.

وبعد استعراض هذه النماذج الصارخة من عقاب المكذبين من الأمم السابقة في الدنيا تتوجَّه الآيات في الربع الأخير من سورة «القمر» بالحديث إلى كفار ومشركي قريش ـ وإلى جميع الكفار والمشركين من بعدهم إلى يوم القيامة ـ محذِّرة من أهوال الآخرة وعذابها وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ * بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ * إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ *﴾ «سورة القمر، الآيات: 43 ـ 48».

وكأن هذه الآيات الكريمة تقول للكفار والمشركين في كل مكان وزمان: تلك كانت مصارع أمثالكم في الأمم السابقة، فما الذي يمنعكم من نفس المصير؟ وأنتم لستم بخير منهم؟ فليس أمامكم إلا نفس المصير المشؤوم الذي لقيه أمثالكم، مهما غرتكم كثرتكم، وأطغتكم قوتكم، ودفعتكم إلى التجبر على غيركم من الخلق، وظلمهم، ومحاولة قهرهم وإذلالهم..!!

وكأنَّ المقصود بهذا الخطاب اليوم القوات الإنجلو/ أمريكية الظالمة على أرض كل من العراق وأفغانستان، والعصابات الصهيونية المجرمة الغاصبة والسارقة لأرض فلسطين، والمغرقة إياها في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار... فهل يعتبرون..!! ودماء الشهداء لا تزال تنزف في كل يوم أنهاراً متدفقة..، وهدم المنازل، وتجريف الأراضي الزراعية، وقطع الأشجار، ومصادرة الآلاف من الأفدنة، وإقامة المستعمرات بالعشرات على أرض مغصوبة ونصب الجدر المحصنة وغير ذلك من جرائم لا تزال تجري على قدم وساق منذ أكثر من نصف قرن...!!

وما تسرب إلى وسائل الإعلام من صور تعذيب المعتقلين في سجون الأمريكان والبريطانيين بوحشية منقطعة النظير ـ وهو غيض من فيض، وقليل من كثير ـ يدين هذه الحضارة الغربية المعاصرة بأقبح ما يمكن أن تدان به الحضارات، وتحذر العالم كله من خطر تفرد تلك العصابات بالاستحواذ على أسلحة الدمار الشامل التي تنوي أن تستذل بها غيرها من شعوب الأرض.. والقرآن الكريم يتحداهم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ «سورة القمر، الآية: 45».

ونحن مؤمنون بذلك وواثقون منه ولكننا نستعجل القصاص، ونلح على الله بالرجاء أن ينزله بهؤلاء الظلمة المتوحشين المفسدين في الأرض، والمتجبرين على الخلق بأسرع وقت ممكن.. اللهم آمين آمين آمين يا رب العالمين.

وتؤكِّد الآيات في سورة «القمر» حتمية القصاص الربّاني وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ * وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ *﴾
«سورة القمر، الآيات: 49 ـ 53».

فبأمر من الله ـ تعالى ـ بـ(كن) (فيكون) كان هلاك المكذبين من الكفار والمشركين على مر التاريخ، وهو تهديد من الله ـ تعالى ـ لأمثالهم في كل زمان ومكان، فهل يمكن لطغاة العصر ومفسديه أن يعتبروا، خاصة وأن حساب المفسدين في الأرض لا ينتهي بعقاب الدنيا لأن عقاب الآخرة أدهى وأمر....، وأفعال الناس وحركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وباقي أنشطتهم مسجلة عليهم ومسطورة في كتاب لا يضل ولا ينسى، وسوف يحاسبون على كل صغيرة وكبيرة من ذلك.

وتختتم سورة «القمر» بإقرار جزاء المتقين في الآخرة التي سوف يهان فيها الظالمون ويحاسبون على خطاياهم في الدنيا، ويجرمون عليها حتى يستبين الفارق بين مصائر أهل النار في النار ومصائر أهل الجنة في الجنة، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ *﴾

«سورة القمر، الآيتان: 54، 55».

وفي ذلك من التكريم لعباد الله المتقين في الآخرة ما لا يمكن أن يطاله أي تكريم في الدنيا مهما تعاظم شأنه، فليتنافس الكفار والمشركون في الدنيا كيفما يشاؤون، وليظلموا وليتجبروا، وليفسدوا كيفما يحلو لهم وتدفعهم إليه أطماعهم الحقيرة وشهواتهم الدنيئة، فأعمالهم محصية عليهم، وسوف يحاسبون عليها في الدنيا قبل الآخرة، وحسابهم في الدنيا على شدَّته لا يقارن بحساب الآخرة وعذابها، وهو حساب جدُّ عسير سوف يجعلهم يندمون ساعة لا ينفع الندم، ولذلك استعرضت سورة القمر بين مشهدين من مشاهد الآخرة عقاب المكذبين من كفار ومشركي الأمم السابقة في الدنيا، وتهدَّدتهم بأن عقاب الآخرة أدهى وأمر، وكان كل مشهد من مشاهد العقاب الدنيوي يتبع بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أو قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ حتى يعتبر الناس بما جاء في القرآن الكريم من سير الأولين فلا يكرروا أخطاءهم. وختمت السورة الكريمة ببشرى ثواب المتقين في الآخرة لتقول:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ *﴾

«سورة القمر، الآيتان: 54، 55».

من ركائز العقيدة في سورة «القمر»:

1 ـ التصديق بحادثة انشقاق القمر معجزة إلٰهية، وكرامة لرسول الله ﷺ.

2 ـ الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً واحداً أحداً بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد؛ والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالوحي المنزل من عنده ﷻ هداية لخلقه والذي أنزله على فترة من الأنبياء والمرسلين، وأتمه وأكمله وحفظه في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

3 ـ التصديق بحتمية البعث وضرورته، وبالآخرة وشواهدها وبالجنة والنار.

4 ـ التسليم بالقصص القرآني كله، والإقرار بضرورة الاستفادة به وأخذ العبرة منه.

5 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ قد خلق كل شيء بقدر، وأن أمره سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى الزمن، لأن الزمن من خلق الله، وعلى ذلك فهو يحد المخلوقين ولا يحد الخالق.

6 ـ الإيمان بأن كلام الإنسان وحركاته وسكناته، وجميع تفاصيل حياته مسطر في كتاب سوف يلقى إليه يوم القيامة ليكون بنفسه حسيباً على نفسه.

7 ـ التسليم بأن المجرمين من الكفار والمشركين ومن العصاة المارقين الظالمين المتجبرين على الخلق سوف يسحبون في النار على وجوههم في الآخرة والملائكة تقول لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ «سورة القمر، الآية: 48»، بينما عباد الله المتقون سوف يرفلون في نعيم الجنان التي تصفها سورة «القمر» بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ *﴾ «سورة القمر، الآيتان: 54، 55».

من الإشارات العلمية في سورة «القمر»:

1 ـ الإشارة إلى حادثة انشقاق القمر، والعلوم المكتسبة تؤيد ذلك.

2 ـ تشبيه بعث الخلائق من قبورهم يوم البعث بانتشار أسراب الجراد.

3 ـ التأكيد على أن السماء بناء محكم يحتاج الداخل إليه أو الخارج منه إلى فتح أبواب فيه.

4 ـ الإشارة إلى طوفان نوح عليه السلام وإلى ترك مركبته من بعده آية للناس لعلهم يذّكرون بها، ويتعلمون درساً من قصة هذا النبي الصالح، وقد اكتشفت سفينة نوح مؤخراً على قمة جبل الجودي في الجزء الجنوبي الغربي من تركيا.

5 ـ ذكر هلاك المكذبين من قوم عاد بريح صرصر عاتية في يوم نحس مستمر ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ ودراسات منطقة الربع الخالي تؤكد ذلك.

6 ـ الإشارة إلى هلاك العاصين من قوم ثمود بالصيحة الصاعقة، وآثارهم تشير إلى شيء من ذلك.

7 ـ وصف هلاك المفسدين من قوم لوط بالريح الحاصب، وبقلب قراهم وجعل عاليها سافلها، ودراسات تتابع الطبقات في المنطقة تؤكد ذلك.

8 ـ ذكر إهلاك قوم فرعون بالإغراق في اليم، وبقايا فرعون موسى تؤكد ذلك.

9 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ (خلق كل شيء بقدر) أي بتقدير محكم دقيق.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على تشبيه بعث الخلائق في الآخرة بالجراد المنتشر، وقبل البدء في ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذا التشبيه القرآني المعجز.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ «سورة القمر، الآية: 7».

- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي ذليلة أبصارهم، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي، جراد منتشر في الآفاق...».

- وجاء في ـ الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ما مختصره: «... هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول...».

- وذكر صاحب ـ صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحمه الله ما نصه: «﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ ذليلة خاضعة من شدة الهول ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، أي القبور، أذلة أبصارهم من شدة الهول. ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأقطار حين يتوجهون إلى المحشر».

- وجاء في بقية التفاسير شرح مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: مقدمة لازمة:

من ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي لكتاب الله ولسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ما يلي:

1 ـ تجنّب القضايا الغيبية غيبة مطلقة، وعدم الخوض فيها والبعد عنها، وذلك من

مثل الذات الإلٰهية، العرش، الكرسي، الروح، الملائكة، الجن، حياة البرزخ، حساب القبر، وقت قيام الساعة، البعث، السوق إلى المحشر، والعرض الأكبر أمام الله ﷻ، الحساب، الميزان، الصراط، الجنة، النار وغير ذلك من أمور الغيب المطلق التي يجب أن يتوقف فيها المسلم عند حدود ما أثبته القرآن الكريم، وفسرته السنة النبوية المطهرة.

2 ـ التأكيد على أن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا، فلا يجوز القياس على الآخرة بسنن الدنيا أبداً، وإن كان الله ـ تعالى ـ قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يؤكد حتمية فناء الكون، إلا أن الكون لن يفنى بهذه السنن، وإنما بأمر فجائي من الله ـ تعالى ـ لا يعلم وقته إلا هو ﷻ، ولذلك قال في محكم كتابه موجِّهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 187».

وعلى ذلك فإن العلماء الكونيين إذا استخدموا الشواهد الحسية الراهنة على حتمية فناء الكون للتأكيد على حتمية وقوع ذلك فإنهم يفعلون ما يفعلون من قبيل التدليل على حتمية وقوع الآخرة لا على وقت وقوعها؛ ولا على كيفية ذلك.

وعملية البعث وخروج الموتى من الأجداث كأنهم جراد منتشر عملية غيبية غيبة مطلقة لا يمكن للعلم المكتسب أن يقول فيها شيئاً، ولولا أن رسول الله ﷺ قد شرح لنا جانباً من هذه العملية ما كان لي أن أتطرق إليها على الإطلاق، ولكني أستعين هنا بهديه ﷺ لنفهم جانباً من هذا الغيب، ولحكمة التشبيه بالجراد المنتشر.

ثانياً: البعث في أحاديث رسول الله ﷺ:

في عدد من الأحاديث ذكر رسول الله ﷺ أن أصل الإنسان الذي يخلق منه في الدنيا هو عظمة تبقى في أسفل العمود الفقري من هيكله العظمي (العصعص أو عجب الذنب) وأن

هذه العظمة لا تبلى أبداً، ولا تأكلها الأرض التي يدفن فيها الميت، وأن الله تعالى في يوم البعث ينزل من السماء ماء فينبت كل فرد من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها (البخاري، مسلم، أبو داود، النسائي، أحمد، ابن ماجه، ابن حبان، مالك، وغيرهم). ومن هذه الأحاديث الكثيرة نختار ما يلي:

1 ـ «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**»[1].

2 ـ «**إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً فيه يركب يوم القيامة**» قالوا: أي عظم يا رسول الله؟ قال: «**عجب الذنب**»[2].

3 ـ وعنه ﷺ أنه قال: «**تحشرون حفاة، عراة، غرلاً**»[3].

ثالثاً: خلق الجنين:

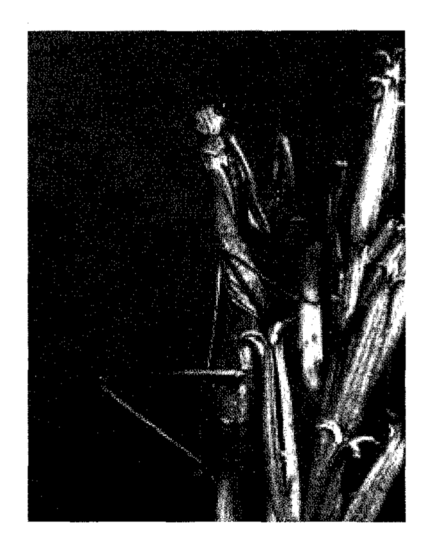
يخلق الله ـ تعالى ـ الجنين من النطفة الأمشاج؛ أي المختلطة من مني الزوج وبييضة الزوجة، وتعرف علمياً باسم اللقيحة (Zygote)، وتبدأ اللقيحة بالانغراس في بطانة الرحم في اليوم السادس من عمرها بعد أن تكون قد أخذت في الانقسام حتى تتحول إلى قرص مكون من طبقتين من الخلايا: علوية وسفلية (تحتية) لا تتميز فيه أية اتجاهات حتى يظهر في أحد أطراف طبقته العلوية في اليوم الخامس عشر من عمر الجنين خيط دقيق يحدد مؤخرة الجنين ويعرف باسم الخيط البدائي أو الأولي (The Primitive Or Primary Streak)، وهذا الخيط له بداية في وسط القرص صغيرة ومنتفخة قليلاً تعرف باسم العقدة البدائية أو الأولية (The Primitive Or Primary Node)، ومن هذا الخيط والعقدة البدائيين تتكون طبقات جسم الجنين الخارجية والوسطى والداخلية، ومن كل واحدة منها يتكون عدد من أعضاء الجسم بخلاياه وأنسجته المتخصصة في عملية تعرف باسم عملية تكون المُعَيدات (Gastrulation)،

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن (الحديث: 7341)، وأبو داود في كتاب: السنة (الحديث: 4743)، والنسائي في كتاب: الجنائز (الحديث: 2076).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن (الحديث: 7342).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق (الحديث: 6527)، ومسلم في كتاب: الجنة ونعيمها (الحديث: 7127)، والنسائي في كتاب: الجنائز: (الحديث: 2083) والترمذي في كتاب: تفسير القرآن (الحديث: 3332) عن ابن عباس رضي الله عنه.



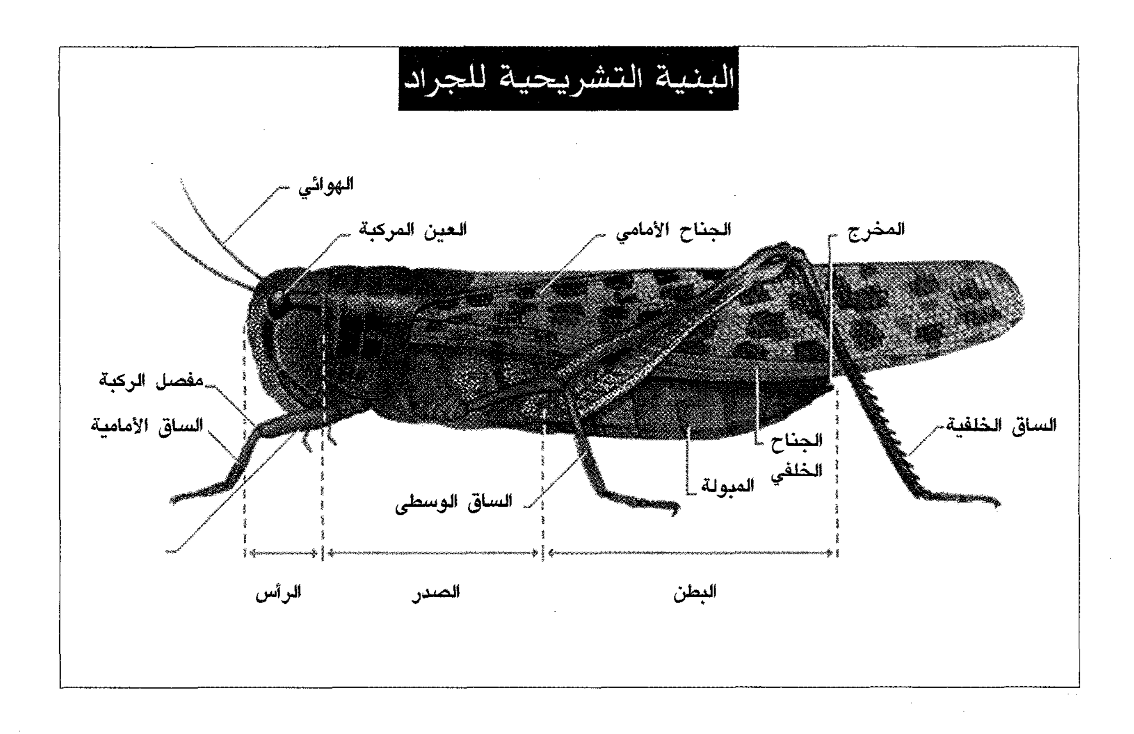
وأول هذه الأجهزة تكوناً هو محور الرأس العصعص، ويتكون فيه بدايات الجهاز العصبي المركزي بما في ذلك من بدايات المخ والجمجمة، والحبل العصبي الشوكي والعمود الفقري، وبذلك تتكون جميع أجهزة الجسم من الخيط والعقدة البدائيين، وتصدق نبوءة المصطفى ﷺ بقوله: «**منه خلق**». وبعد تمام تكوّن أجهزة الجسم المختلفة يتراجع هذا الخيط البدائي بالتدريج إلى مؤخرة جسم الجنين حتى يستقر في نهاية العمود الفقري في منطقة العصعص حيث يبقى على هيئة جنين كامن مثل جنين بذرة النبات يعاد تركيب جسم الإنسان منه يوم البعث بإنزال مطر خاص من السماء كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

رابعاً: كيفية البعث من عجب الذنب:

في رواية للإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون... ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل.. وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً، هو عجب الذنب، منه خُلق ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[1].

وفي تجارب مكررة أثبت العالم الألماني هانس سبيمان (Hans Spemann) ومدرسته العلمية (1931 ـ 1935) أن كلاً من الخيط والعقدة البدائيين (عجب الذنب) هما المسؤولان عن خلق جميع أجهزة الجنين؛ ولذلك سماهما باسم المنظم الأولي أو الأساسي (The Primary Organiser) وقام بقطع هذا المنظم الأولي (عجب الذنب) في عدد من الحيوانات البرمائية، وبزرعه في جنين آخر نما على هيئة جنين ثانوي في داخل الجنين المضيف، كما قام بسحق هذا المنظم الأولي وزرعه مرة أخرى في جنين آخر فنما وكون محوراً جنينياً ثانوياً رغم سحقه، مما أكد أن السحق لا يؤثر فيه، كما قام بغليه ثم زرعه في

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير (الحديث: 4935)، ومسلم في كتاب الفتن (الحديث: 7340).



جنين ثالث فنما وكون محوراً جنينياً جديداً مما يؤكد أن خلايا عجب الذنب لا تتأثر بالغليان، وقد منح سبيمان جائزة نوبل سنة 1935م على اكتشافه لدور عجب الذنب في تخليق جميع أجهزة الجسم، وفي أن خلاياه لا تبلى بالسحق ولا بالغليان، وهو لا يعلم بحديث رسول الله ﷺ.

وفي رمضان 1424هـ قام الدكتور عثمان جيلان بتجربة مماثلة في اليمن أحرق فيها خمساً من عصاعص الأغنام باستخدام مسدس غاز لمدة عشر دقائق حتى احمرت من شدة الحرارة وتفحمت، وبدراستها تبين أن خلايا عظمة العصعص لم تتأثر بالإحراق وبقيت حية تصديقاً لنبوءة المصطفى ﷺ إن عجب الذنب هو أصل الإنسان، والبذرة التي منها نشأ جسده، والتي تبقى بعد أن يموت ويتحلل هذا الجسد فيبعث منها يوم القيامة كما تنبت البقلة من بذرتها وذلك لأنها لا تبلى أبداً فقال: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**»[1].

(1) تقدم تخريجه.

خامساً: في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

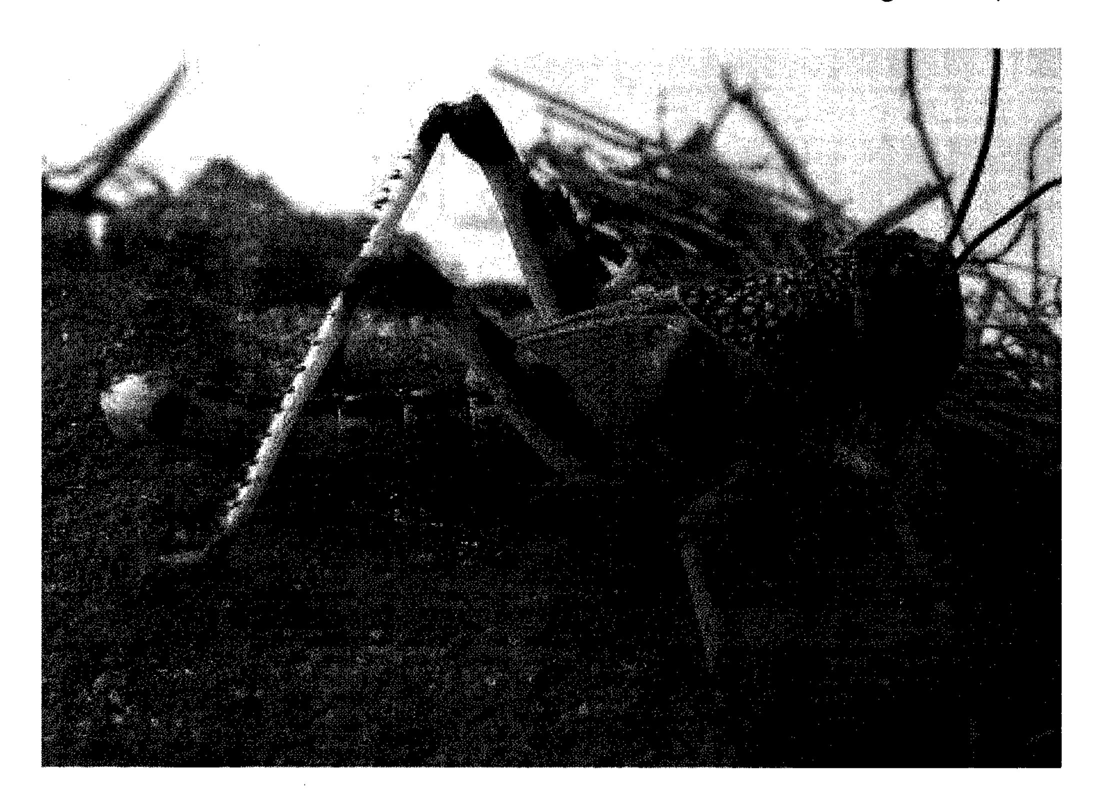
يشبّه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ خروج الناس من قبورهم في يوم البعث بهيئة الجراد المنتشر، وتبدأ دورة حياة الجراد بوضع البيض الملقح في أماكن محددة وتقوم الأم برعايته حتى يفقس في حدود شهر مايو (أيار) من كل سنة فتخرج منه الحوريات التي تقوم بعملية الانسلاخ من جلدها عدة مرات حتى تصل إلى حجم الحشرة البالغة التي تحيا في بادىء الأمر حياة فردية ثم تبدأ في تكوين جماعة تنتهي برحلة الهجرة الجماعية التي تقطع فيها أسراب الجراد مسافات شاسعة تمر خلالها بمناطق التكاثر الخريفي والشتوي والربيعي حين تعود إلى مناطق تكاثرها الأولى التي انطلقت منها.

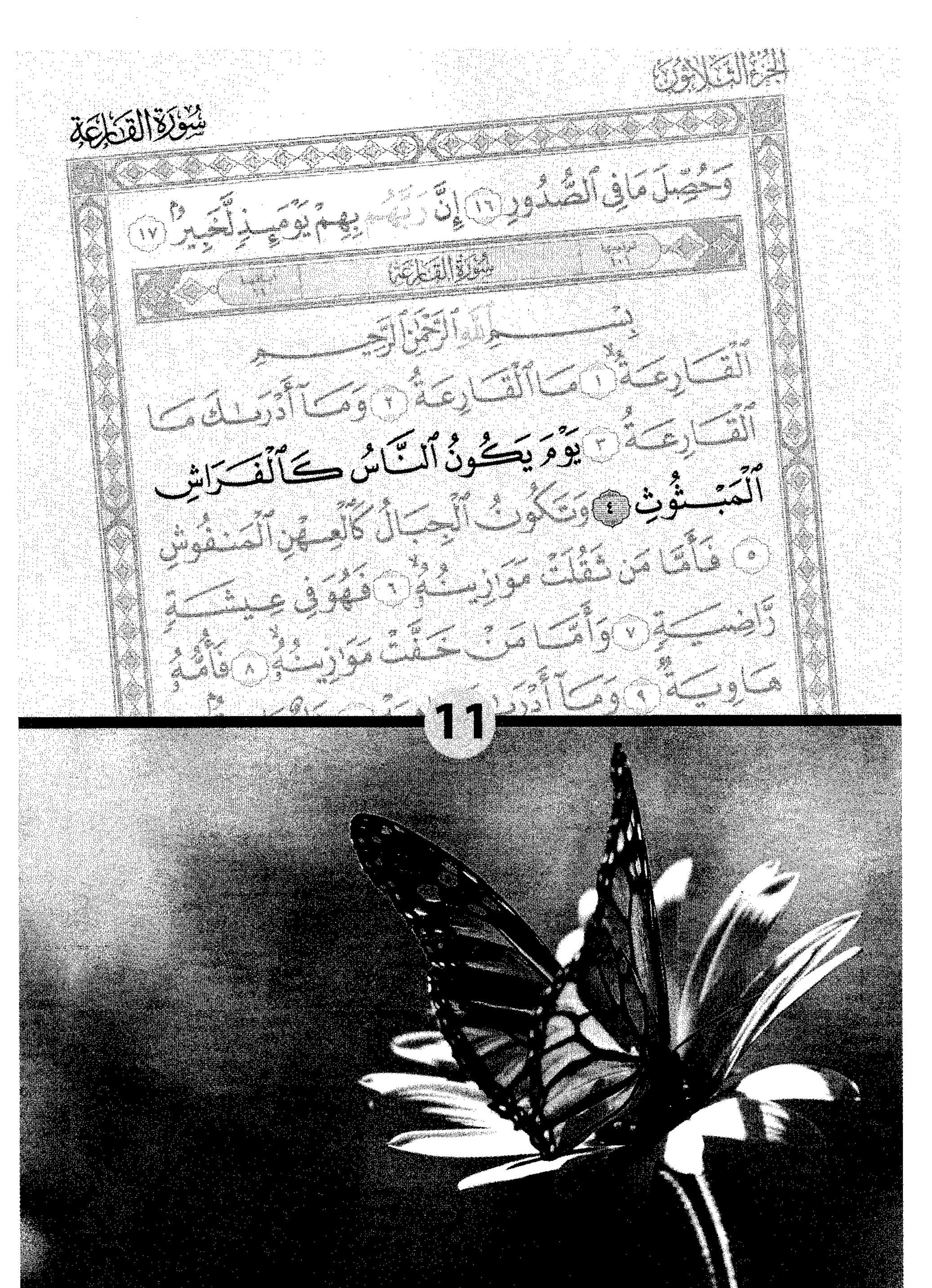
ويصل عدد الجراد المهاجر في السرب الواحد إلى عشرات البلايين ومن هنا كان تشبيه خروج الخلق الذين عمروا الأرض من أول وجودهم عليها إلى آخر لحظة من هذا الوجود والذين يصل عددهم إلى عشرات بل مئات البلايين بالجراد المنتشر وهو تشبيه في غاية الدقة العلمية. لأن سرب الجراد المهاجر يغطي مساحات من الأرض تقدر بأكثر من ألف كيلومتر مربع، ويتراص الجراد المهاجر على ارتفاعات قريبة من سطح الأرض بكثافات تتراوح بين المليون وعشرات الملايين جرادة في الكيلومتر المربع الواحد وتعرف باسم



الأسراب الطباقية وهكذا سوف يتزاحم الناس وهم يساقون إلى أرض المحشر، وتتحرك أسراب الجراد بانضباط شديد تحت قيادة صارمة في مقدمة السرب، وهكذا سيكون الخلق في ساعة الحشر ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ «سورة القمر، الآية: 8».

والجراد يطير عارياً تماماً إلا من رحمة الله ـ تعالى ـ الذي زوده بغطاء قرني رقيق، والناس يحشرون حفاة، عراة، غرلاً، كما قال خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: «**لايغطيهم إلا جلودهم**».. وبذلك فإن هذا التشبيه القرآني المعجز ﴿...يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ يبقى شاهداً للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد بحفظه فحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وسوف يستمر هذا العهد إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها ليبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى يوم الدين، وناطقاً بنبوة خاتم المرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.




الجزء الثلاثون

سورة القارعة

وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

سُورَةُ القَارِعَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ «سورة القارعة، الآية: 4»

11

هذه الآية الكريمة جاءت في مقدمات سورة «القارعة» وهي سورة مكية وعدد آياتها (11) بعد البسملة وقد سميت بهذا الاسم (القارعة) لأنها تتحدث عن عدد من مشاهد يوم القيامة، والقارعة اسم من أسمائها لأنها تقرع القلوب بأهوالها (من القرع وهو الضرب بشدة مما ينتج عنه أصوات عالية شديدة النبرة).

والمحور الرئيسي للسورة هو استعراض عدد من مشاهد يوم القيامة ومبدؤها النفخة الأولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق.

من معاني سورة «القارعة»:

1 ـ القارعة من أسماء يوم القيامة:

تبدأ السورة الكريمة بهذا الاسم المفزع من أسماء يوم القيامة: (القارعة) ومن أسمائها الأخرى في كتاب الله: (الواقعة)، (الطامة)، (الصاخة)، (الحاقة)، (الغاشية)، (الهاوية)، (يوم التناد)، (يوم الحسرة)، (يوم الآزفة)، (يوم البعث)، (يوم الفصل)، (يوم الدين)، (يوم الحساب)، (يوم التلاق)، (يوم الجمع)، (يوم الوعيد)، (يوم الخروج)، (يوم التغابن)، (يوم تبلى السرائر)، (يوم تقوم الساعة)، (يوم يقوم الأشهاد)، (يوم الوقت المعلوم)، (اليوم العظيم)، (اليوم العقيم)، (اليوم الآخر)، (اليوم الموعود)، وغير ذلك من أوصاف تضفي على الحدث الجلل ما يستحق من رهبة واعتبار وأخذ جاد في الحسبان.

تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة إذا وقع بهم أمر جلل خطير فظيع.وقيل في (القارعة) هي صوت النفخة يقرع الأسماع ويصكها ويرعب كل من يسمعه ويذهله.

وهذا الاستهلال المفزع الذي جاء كالقذيفة المدوية أعقبه سؤال لتعظيم الأمر ولإشعار السامع بخطورته: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: أي شيء هي القارعة وهي من الأمور الغيبية عن الإنسان غيبة مطلقة فلا يستطيع الوصول إليها بحسه المحدود ولا بقدرات عقله المحدودة، ولا يملك المسلم حيالها إلا الوقوف عند حدود ما أورده الله ـ تعالى ـ عنها في محكم كتابه أو فصّله لنا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ في حديث من أحاديثه الشريفة. ولذلك أتبع ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هذا السؤال التفخيمي التعظيمي التهويلي بسؤال آخر موجه إلى النبي الخاتم ـ عليه من الله السلام ـ وموجه كذلك لكل من يقرأ هذه السورة الكريمة من بعده ﷺ يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ «سورة القارعة، الآية: 3».

بمعنى أنها أكبر من أن يحيط بها إدراك الإنسان أو أن يلم بها تصوره ما دام محبوساً في هذا الجسد الطيني على هذه الأرض، فهي خارجة عن دائرة معلومات المخلوقين، تلك المعلومات المستمدة من عالم الشهادة، والقارعة غيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. ولذلك جاءت الآيات التالية شارحة لبعض مشاهد هذا اليوم الرهيب ومن هذه المشاهد ما يلي:

2 ـ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ «سورة القارعة، الآية: 4»:

أي يوم يكون الناس في بعثهم من قبورهم واندفاعهم في الخروج منها (حفاة عراة غرلاً) كما أخبر المصطفى ﷺ بأعداد تشمل جميع البشر من أول لحظة عمر فيها أبوانا آدم وحواء عليهما السلام الأرض وحتى قيام الساعة، ويقدرون بمئات البلايين شبهتهم سورة القارعة في اندفاعهم من القبور وفي كثرة أعدادهم وتزاحمهم وانتشارهم وذلتهم وانكسارهم من فجائية وهول الحدث ـ خاصة عند الذين كانوا ينكرون البعث منهم ـ وفي اضطرابهم وحيرتهم وتطايرهم إلى الداعي إذ يدعوهم إلى المحشر، شبهتهم بالفراش المبثوث أي المندفع من شرانقه المنتشر المتفرق هنا وهناك يتحرك على غير هدى في كل مكان جيئة وذهاباً دون ترتيب أو نظام. والمبعوثون من قبورهم يموج بعضهم في بعض من شدة الكرب والحيرة والهم والفزع لا يعرفون لهم هدفاً محدداً وليست لهم أدنى إرادة أو قدرة على الاختيار وكذلك الفراش إذا ثار فإنه لا يتجه إلى جهة واحدة بل تضطرب حركة أفراده كلّ إلى وجهة هو موليها دون تخطيط أو قصد أو اختيار؛ ولذلك شبه القرآن الكريم الخلق وقت البعث هنا بالفراش المبثوث، وفي سورة القمر شبههم بالجراد المنتشر.

وهذه التشبيهات كلها تتعاون في رسم صورة لهذا الحدث الرهيب الذي يهز القلوب ويدك النفوس ويرجف الأوصال من هول القارعة ومخاطرها، ويدعو أصحاب العقول والنهى إلى الاستعداد لملاقاتها بحسن التقرب إلى الله ـ تعالى ـ بالعبادة والطاعة والأعمال الصالحة.

3 ـ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ «سورة القارعة، الآية: 5»

أي تتحوَّل الجبال بصخورها الصلبة وببناياتها المعقدة وكتلها الهائلة وامتداداتها الكبيرة إلى هيئة الصوف المندوف المنتشر المتطاير في الهواء من قلة كثافته وخفة وزنه، وإذا حدث ذلك للجبال الراسخات من هول القارعة والجبال من مرسيات الأرض وهن من الخلق غير المكلف فما بال المكلفين من الإنس والجن؟ وكأن السورة الكريمة تشبه حال قلوبهم وتطايرها من صدورهم إلى عنان السماء من شدة الهلع والخوف والفزع بتطاير صخور الجبال في الهواء كالصوف المندوف، وهو وصف تتصاغر معه كل ماديات الحياة الدنيا وملذاتها وشهواتها وتتضاءل معه مظاهرها وأمجادها وكل حساباتها.

4 ـ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ *﴾ «سورة القارعة، الآيتان: 6، 7»

وهذا المشهد الثالث من مشاهد الآخرة هو الهدف الأسمى من أهداف الحياة الدنيا التي هي فسحة من الزمن يهبها الله ـ تعالى ـ لكل مخلوق ليثبت في نهايتها جدارته بالجنة أو استحقاقه للنار، و﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي رجحت موزوناته وهي أعماله الصالحة المرضية من الله ـ تعالى ـ. وهاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان عن السعداء من أهل الأرض المكلفين الذين ترجح موازين حسناتهم على موازين أخطائهم وهفواتهم يوم الحساب يوم العرض الأكبر أمام الله الخالق سبحانه وتعالى، فتبيضُّ وجوههم ويدخلون الجنة آمنين مطمئنين يرفلون في نعيمها راضية قلوبهم بتكريم الله ـ تعالى ـ لهم، وهو تكريم لا ينفد. والتعبير القرآني: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضا يرضاه أو: هي لكثرة نعيمها أعطت الرضا من نفسها فأصبح صاحبها راضياً عنها وأصبحت هي مرضية له، والعيشة الراضية هي العيشة الهنيئة السعيدة.

5 ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ *﴾ «سورة القارعة، الآيات: 8 ـ 11».

وهذا هو المشهد الرابع من مشاهد يوم القيامة: مشهد أهل النار وهم يُدَعُّون إليها دعًّا لكثرة سيئاتهم: من كفرٍ بالله ـ تعالى ـ أو شرك به أو تحريف لدينه وتزييف له إلى إفساد في الأرض واستعلاء على الخلق وإمعان في ظلمهم وتجبر على العباد ومحاولة لقهرهم وإذلالهم كالذي تفعله العصابات الصهيونية المحتلة لأرض فلسطين في أهل البلاد الأصليين اليوم وعلى مدى زاد على خمسين سنة من تهجير بالقوة، إلى القتل العمد بدم بارد للأطفال والنساء والشيوخ والشبان، إلى هدم المساكن وتفجيرها، وتجريف الأراضي الزراعية واقتلاع أشجارها، إلى تدمير المساجد والمدارس والمستشفيات وتخريب البنية الأساسية للبلاد، إلى اعتقال آلاف الشبان وتعريضهم لأقسى صنوف التعذيب حتى الموت، وكل ذلك يتم بدعم معلن من الدول الغربية ويتم زوراً باسم الدين.

وبالمثل فإن ما فعلته الإدارات الإنجلو ـ أمريكية والقوات المتضامنة معها ـ ولا تزال تفعله ـ بأراضي المسلمين في كل من أفغانستان والعراق من احتلال بالقوة وتدمير للمساجد والمنائر والمدارس والمستشفيات، ومن حصار للمدن وضربها بالطائرات والصواريخ والمدافع الثقيلة وبالذخائر والأسلحة المحرمة دولياً.. واعتقال عشرات الآلاف من أبنائها رجالاً ونساء وتعريضهم لأبشع صور التعذيب الوحشي غير الإنساني وغير الأخلاقي المعيب وصور إهدار الكرامة ومحاولات الإذلال بالاعتداء على الأعراض والأجساد، وفعل الفواحش المختلفة مع أسرى لا يملكون دفاعاً عن أنفسهم.. والذي يصم هذه الأمم بأحقر الصفات وبالخلو من كل وازع ديني، أو أخلاقي، أو إنساني، وبالكذب على الله وعلى الناس؛ لأنهم يدعون زوراً أنهم حماة الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، وفظائع جرائمهم في سجون أفغانستان و«جوانتانامو» والعراق من مثل سجن «أبو غريب» وغيره من سجون أرض الرافدين وفي بلدة الفلوجة التي ردتهم عن حياضها مذمومين مدحورين، وفي كل من البصرة والكوفة والنجف يشهد بكذب دعواهم وزيفها وتشهد لهم بالتجرد الكامل من أبسط القيم الأخلاقية والإنسانية والدينية...!!

ومن معاني ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾؛ أي فمسكنه ومصيره نار جهنم يهوي إلى قاعها. و﴿هَاوِيَةٌ﴾ اسم من أسماء جهنم سميت به لبعد مهواها وعظيم عمقها وأهل النار يهوون

فيها سبعين خريفاً. واعتبرت الآية الكريمة نار جهنم (الهاوية) أمًّا للكفار والمشركين وللطغاة المتجبرين لأنها سوف تأويهم وتضمهم في أحضانها كما تأوي الأم أولادها وتضمهم إليها وشتان ما بين الضمتين...!!

فنار جهنم سوف تأوي هؤلاء المجرمين، وسوف تكويهم بنيرانها جزاء جرائمهم التي اقترفوها في الدنيا. وهذه النيران تصفها الآيات في ختام سورة القارعة بأنها ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ لا تقوى عليها جلود هؤلاء الطغاة المتجبرين فكلما نضجت بدَّلهم الله ـ تعالى ـ جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب وما ذلك على الله بعزيز. وسبق وصف هذه النار الحامية استفهام عن (الهاوية) بصيغة التفخيم والتهويل والتعظيم: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ أي: وما أعلمك ما الهاوية؟ ويأتي جواب السؤال ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي شديدة الحرارة لدرجة أنها خرجت عن الحد المألوف للنار في الدنيا وقد وصفها المصطفى ﷺ بقوله الشريف: «**ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حرِّ جهنم..**»[1].

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: مقدمة لازمة:

كما أشرنا تحت الآية السابقة فإننا نكرر هنا أن من ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة ما يلي:

1 ـ عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة من مثل الذات الإلٰهية، الكرسي، العرش، الملائكة، الروح، الجن، حياة البرزخ، حساب القبر، وقت قيام الساعة، البعث، السوق إلى المحشر، العرض الأكبر أمام الله ﷻ، الحساب، الميزان، الصراط، الجنة، النار، وغيرها. وضرورة التوقف في ذلك عند حدود النصوص الواردة في كتاب الله أو في أحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ انطلاقاً من الإيمان الكامل بهما واعترافاً بعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيوب المطلقة بغير هداية ربانية.

2 ـ التأكيد على أن الآخرة بتفاصيلها المختلفة وأحداثها المتتابعة لها من السنن

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق (الحديث: 3265)، ومسلم في كتاب: الجنة ونعيمها (الحديث: 7094)، والترمذي في كتاب: صفة جهنم (الحديث: 2589) بألفاظ متقاربة.

والقوانين ما يغاير سنن الدنيا مغايرة كاملة، وعلى ذلك فإن وقوع الآخرة لا يحتاج إلى أي من سنن الدنيا البطيئة الرتيبة لأن الله ـ تعالى ـ يصف وقوعها بالفجائية الشديدة وذلك بقوله ـ عز من قائل ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 187».

وعلى ذلك فإن المشتغلين بعلوم الكون إذا استخدموا عدداً من الشواهد الحسية التي أبقاها الله ـ تعالى ـ لنا في صخور الأرض أو في صفحة السماء للتدليل على حتمية الآخرة من أجل البرهنة على تلك الحتمية وعلى ضرورتها، فإن ذلك لا يمكن أن يعني قدرتهم على استشراف زمن أو كيفية وقوعها الذي هو من صميم الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ.

وعلى ذلك فإن عملية البعث وخروج الموتى من الأجداث على هيئة الفراش المبثوث هي عملية غيبية غيبة مطلقة لا يمكن للعلم المكتسب أن يقول فيها شيئاً على الإطلاق. ولولا ما توافر لنا من هَدْي خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في وصف كيفيات خلق الإنسان وبعثه بعد موته ما كان ممكناً لنا أن نخوض في أمور غائبة عنا غيبة مطلقة كهذه الأمور.

ثانياً: البعث في القرآن الكريم:

جاء الفعل (**بعث**) بمشتقاته في سبعة وستين (67) موضعاً من كتاب الله الخالد، و(البعث) يحمل معنى الإرسال، أو الإيقاظ من المنام أو النهوض للخروج إلى القتال، أو إحياء الموتى ونشرهم من قبورهم بعد طول رقاد فيها وبعد تحلل الأجساد وبلاها.

وأصل (البعث) إثارة الشيء وتوجيهه أي إرساله إلى وجهة محددة و(الانبعاث) إثارة ذاتية للقيام بذلك، والبعث نوعان أساسيان:

أ ـ (بعث) بشري من مثل قولك (بعثت) فلاناً في أمر من الأمور (فانبعث) أو (بعثت) البعير بمعنى: أثرته وسيّرته إلى وجهة محددة، ولفظة (البعث) تطلق على الفرق الخارجة للجهاد في سبيل الله و (الانبعاث) عملها.

ب ـ (بعث) إلٰهي يختص به الله ﷻ وهو على ثلاثة أشكال:

1 ـ (بعث) بمعنى الإرسال كإرسال الرسالات السماوية وإرسال الرسل والأنبياء أو النهوض للخروج إلى القتال مثل (انبعاث) المجاهدين، وجاء ذلك في سبع وعشرين (27) آية قرآنية كريمة.

2 ـ (بعث) بمعنى الإيقاظ من النوم وجاء في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، والنوم من جنس الموت فجعل الله ـ تعالى ـ التوفي فيهما والبعث منهما سواء.

3 ـ (بعث) بمعنى الإحياء من بعد الموت وجاء هذا المعنى الكريم في سبع وثلاثين (37) آية قرآنية كريمة.

ثالثاً: البعث في أقوال رسول الله ﷺ:

على الرغم من مناقشتنا لهذه القضية تحت الآية السابقة إلا أني أرى ضرورة لعرضها مرة أخرى لأهميتها القصوى:

يروى عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً**» قالت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «**يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»[1].

وفي عدد من الأحاديث النبوية الشريفة ذكر المصطفى ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ أن في جسم الإنسان عظمة لا تبلى أبداً ولا تأكلها الأرض التي يدفن فيها الميت والتي تأكل بقية الجسد، وقد سمى رسول الله ﷺ تلك العظمة التي لا تبلى أبداً باسم «**عجب الذنب**» ووصفها بأنها مثل حبة الخردل وحدد مكانها بأنها في نهاية العصعص (آخر فقرات العمود الفقري). وأشارت الأحاديث النبوية الشريفة إلى أن الإنسان يخلق في الدنيا من هذه العظمة المتناهية الضآلة في الحجم وأنها تبقى بعد موته وتحلل جسده ليعاد إنشاؤه منها يوم البعث حين يُنزل الله ﷻ ماء خاصاً من السماء فينبت كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة في هذا المعنى قوله ﷺ:

---

(1) تقدم تخريجه.

1 ـ «**يبلى كل عظم من ابن آدم إلا عجب الذنب وفيه يركب الخلق يوم القيامة**».

2 ـ «**يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه**» قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**مثل حبة خردل منه تنشأون**».

«**وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً هو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة**».

3 ـ وفي رواية للإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون**» قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: ثم أضاف رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[1].

رابعاً: بداية الخلق من عجب الذنب

في أحدث الدراسات لمراحل الجنين المتتالية في خلق الإنسان ثبت أنه بعد إخصاب البييضة وتكوّن النطفة الأمشاج أو اللقيحة، فإن هذه اللقيحة تبدأ في الانقسام على التوالي حتى تتحول إلى ما يعرف باسم التويتة (Morula) ثم إلى ما يعرف باسم الكيسة الأريمية (Blastocyst) التي تبدأ في اليوم السادس من عمر الجنين (Embryo) بالانغراس في بطانة الرحم على هيئة قرص مكون من طبقتين من الخلايا (Bilamellar Embryo): علوية وسفلية (تحتية) وهذا القرص لا تتميز فيه الاتجاهات حتى يظهر في أحد أطراف طبقته العلوية في اليوم الخامس عشر من عمر الجنين خيط دقيق للغاية يحدد بموقعه مؤخرة الجنين وتكون مقدمة الجنين في الجهة المقابلة، ويعرف هذا الخيط باسم الخيط البدائي (The Primitive Streak) أو الخيط الأولي (The Primary Streak) وبعد يوم واحد أي في اليوم السادس عشر من عمر الجنين يخلق الله ـ تعالى ـ نقطة صغيرة ومنتفخة قليلاً في وسط القرص تعرف باسم العقدة البدائية أو الأولية (The Primitive or The Primary Node)

(1) تقدم تخريج هذه الأحاديث.

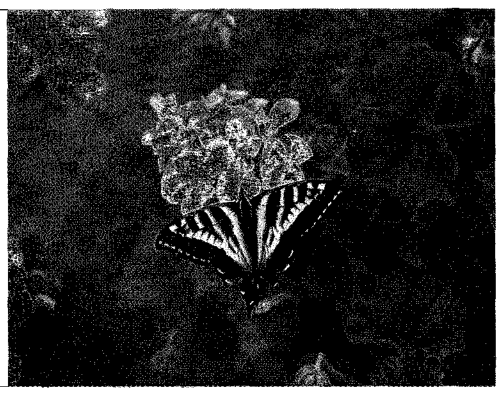
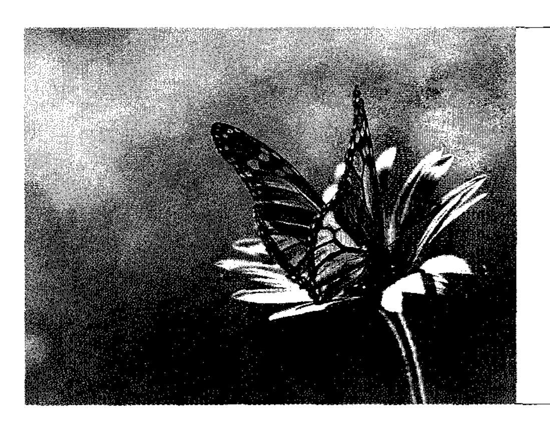
ويطلق عليها أحياناً اسم زائدة الحبل الظهري (The Notochordal Process) ثم تخلق للقرص المعلق بجدار الرحم (العلقة) طبقة وسطى بين الطبقتين العلوية والتحتية تعرف باسم الطبقة الوسطى للجنين (The Intra-embryonic Mesoderm) ويصبح الجنين ثلاثي الطبقات (Trilamellar Embryo) تعرف باسم الطبقة الخارجية والوسطى والداخلية، ومن كل واحدة من هذه الطبقات الثلاث يتكون عدد من أعضاء جسم الإنسان بخلاياه وأنسجته المتخصصة في عملية تعرف باسم عملية تكون المُعَيْدات (Gastrulation) وأول هذه الأجهزة تكوناً هو محور الرأس العصعص ويتكون فيه بدايات اللوح والانغماد العصبي والحبل الظهري والمخ والتجويف البطني وبذلك تتكون جميع أجهزة الجسم من الخيط والعقدة البدائيين، وتصدق نبوءة المصطفى ﷺ بقوله الشريف: «**منه خلق**».

وبعد تمام تكون أجهزة الجسم المختلفة يتراجع هذا الخيط البدائي بالتدريج إلى مؤخرة جسم الجنين حتى يستقر في نهايات فقرات العمود الفقري (في نهايات العصعص) حيث يبقى على هيئة جنين بذرة النبات الكامن بداخلها والذي ينتظر المكان والزمان المناسبين والري الكافي لينبت من جديد، ولكن هذا الجنين الإنساني سوف ينبت مرة واحدة فقط في يوم البعث حين ينزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ماء خاصاً من السماء فينبت به كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها حسب ما أخبر به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

خامساً: العلم المكتسب يثبت عدم فناء عجب الذنب:

في عدد من التجارب المكررة أثبت العالم الألماني هانز سبيمان (Hans Spemann) ورفاقه في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين (1931–1935) أن كلاً من الخيط البدائي ونهايته (العقدة البدائية) واللذان ينسحبان على هيئة عظمة متناهية الضآلة في الحجم بآخر فقرات العصعص (عجب الذنب) هما المسؤولان عن خلق جميع أجهزة الجنين؛ ولذلك أسموهما باسم المنظم الأولي أو الأساسي للجنين (The Primary Organizer). وقد أثبتت هذه المدرسة العلمية ذلك بقطع هذا المنظم الأولي (عجب الذنب) من أجساد عدد من الحيوانات البرمائية وزرعه في جنين من أجنتها، فنما على هيئة جنين إضافي في داخل الجنين المضيف.

كذلك قام فريق العمل نفسه بسحق عجب الذنب (المنظم الأولي) وزرعه مرة أخرى في جنين آخر فنما وكون محوراً جنينياً ثانوياً رغم سحقه مما أكد أن السحق لا يفني خلاياه

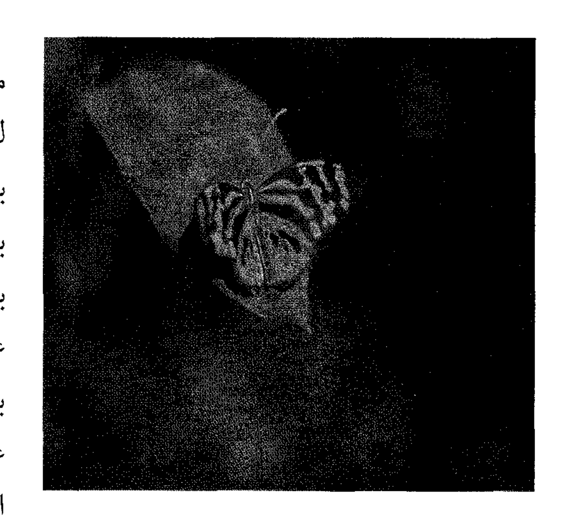
الحية، كما قاموا بغلي هذا المنظم الأولي (عجب الذنب) لعدة ساعات ثم زرعه في جنين ثالث فنما وكون محوراً جنينياً جديداً مما أكَّد أن خلاياه لا تتأثر بالغليان. وقد مُنِحَ سبيمان جائزة نوبل للعلوم الحياتية في سنة 1935م تقديراً لاكتشافه للدور العجيب الذي يقوم به هذا المنظم الأساسي (عجب الذنب)، ومنه تخليق جميع أجهزة الجنين، وفي إثبات أن خلايا هذا المنظم الأولي أو الأساسي لا تتأثر لا بالسحق ولا بالغلي.

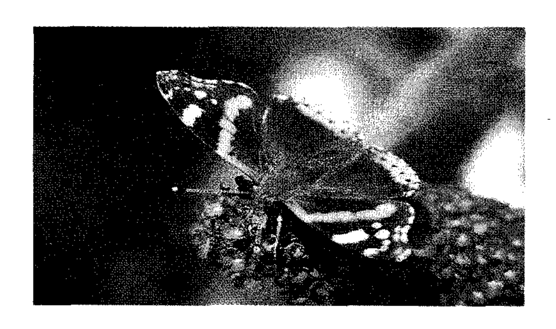
وبعد مضي ثمان وستين سنة قام الدكتور عثمان جيلان ورفاقه في رمضان سنة 1424هـ (نوفمبر2003 م) بإجراء تجربة مماثلة في اليمن أحرقوا فيها خمسة من عصاعص الغنم باستخدام مسدس غاز لمدة عشر دقائق متواصلة حتى احمرت وتفحَّمت وبدراسة ما تبقى منها تبين أن خلايا عجب الذنب (نهايات العصعص) بقيت حية رغم ما تعرضت له من شدة الحرارة. وفي هذه التجارب وأمثالها تصديق عملي لنبوءة المصطفى ﷺ الذي أكد في أحاديث كثيرة أن عجب الذنب هو البذرة التي ينشأ منها جسد جنين الإنسان (وجنين كل مخلوق) والتي تبقى لا تتحلل أبداً بعد أن يموت المخلوق ويتحلل جسده، ثم في يوم البعث يُنزل الله سبحانه وتعالى مطراً خاصاً من السماء فينبت به كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها فقال ـ وهو الصادق المصدوق ـ: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**».

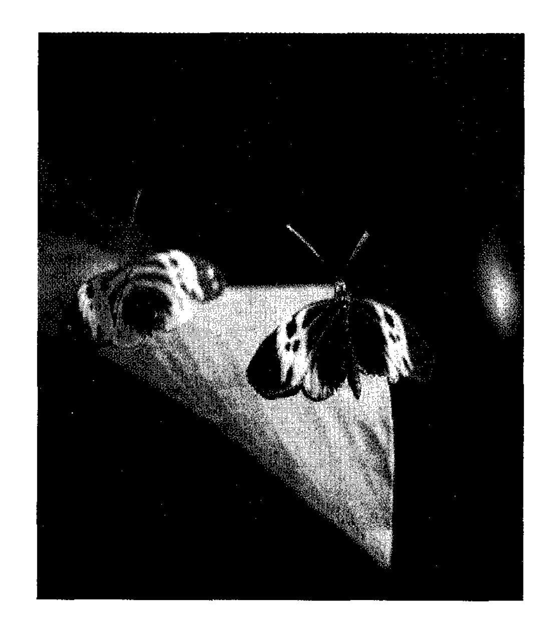
سادساً: في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾
«سورة القارعة، الآية: 4»

يعجب الإنسان من هذا الوصف القرآني المعجز للناس في لحظة البعث والاندفاع من القبور، وتشبيههم بالفراش المبثوث. والذي له أبسط دراية بالفراش ودورة حياته يلمح جانباً

من الإعجاز العلمي في هذا التشبيه يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد بذلك الحفظ إلى أن يرث الأرض ومن عليها حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الناس كافة إلى يوم الدين وناطقاً بالنبوة وبالرسالة للرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ على الرغم من تنكر الكفار والمشركين والمكذبين المارقين المفسدين في الأرض من الخلق لبعثته الشريفة خاصة في زمن الفتن الذي نعيشه.







والفراش (Butter flies) من الحشرات الحرشفية الأجنحة (Lepidoptera) والتي تتميز **بأربعة أجنحة مغطاة بحراشيف مفلطحة** تلتصق بالأصابع كالبودرة إذا لمسها الإنسان أو أمسك بها مما يمثل صورة من صور الضعف المدرك في الخلق (ومثل الفراش الحشرة المعروفة باسم أبو دقيق).

وذكر الفراش عادة ما يكون أصغر حجماً من الأنثى وأزهى ألوانا وهو دائماً مجنح بينما بعض إناثه غير مجنحة أو تحمل أجنحة ضامرة لا تعينها على الطيران. **ولذلك تعيش في علب تصنعها يرقاتها تشبه**

القبور. وتبدأ دورة حياة الفراش بالبيض المخصب وهو صغير جداً ويتخذ أشكالاً مختلفة وتضعه الأنثى بعد التزاوج فوق النبات المناسب كطعام ليرقاتها بعد الفقس مباشرة. ويفقس البيض بعد حوالي خمسة أيام وتخرج منه يرقة على هيئة الدود الصغير جداً في شكلها. واليرقات لها فكوك قوية وستة أرجل حقيقية بالإضافة إلى عدد من أشباه الأرجل، وتبدأ اليرقات فوراً في تناول الطعام الذي تلتهمه بكميات كبيرة وبشراهة ملحوظة فتنمو في الحجم بسرعة مما يضطرها إلى الانسلاخ عن جلدها لعدة مرات، **فتشبه في عريها خروج الموتى من الأجداث (حفاة عراة غرلاً)** كما وصفهم رسول الله ﷺ.

ثم تتشرنق اليرقات فيما يشبه الكفن أو القبر أو تربط نفسها برباط من حرير إلى النبات الذي تتغذى عليه استعداداً للمرور بمرحلة العذراء (الحورية) أو الخادرة (المستترة في خدرها). وفي هذه المرحلة يعاد خلق الحشرة بأكملها وكأنها عملية بعث لها حيث تذاب اليرقة ذوباناً كاملاً ثم يكون بعثها بعد أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع على هيئة الحشرة الكاملة، وهي تختلف تماماً عن اليرقة التي جاءت منها، وكذلك يبعث الناس في أواسط أعمارهم.
وبعض العذارى (الحوريات) قد تمضي فصل الشتاء كله في مرحلة الخادرة (المستترة)ولذلك تؤجل عملية التحول الكيميائي العجيب حتى مطلع الصيف وكأنها في عملية بيات شتوي أو في القبر وذلك لأن بعض يرقات الفراش تغزل لنفسها شرنقة حريرية كثيفة أو وسادة من الحرير تتدلى منها العذراء بواسطة خطافات دقيقة في مؤخرة جسمها.

وبعد تمام تخلق العذراء تستعد للخروج من خدرها (شرنقتها) تماماً كما يستعد الميت للخروج من قبره لحظة بعثه، فيتحوَّل جلد الخادرة إلى حالة نصف شفافة ثم ينشق كما تنشق القبور عن أصحابها والذي يصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ «سورة قٓ، الآية: 44».

وتخرج عذارى الفراش بالملايين في كل لحظة كما سيخرج البشر بمئات البلايين في لحظة البعث، تخرج عذارى الفراش من شرنقاتها ضعيفة هزيلة زاحفة ببطء في اضطراب وحيرة كما سيخرج الناس من قبورهم في ذهول واستغراب واضطراب وحيرة، وتبدأ الحشرة بأجنحة مهيضة تضخ فيها الدم بالتدريج حتى تنفرد وجسمها مبلل بسوائل مرحلة العذراء فتقف قليلاً في الشمس حتى تدفأ وتصبح مستعدة للطيران ولتكرار دورة حياتها من جديد.

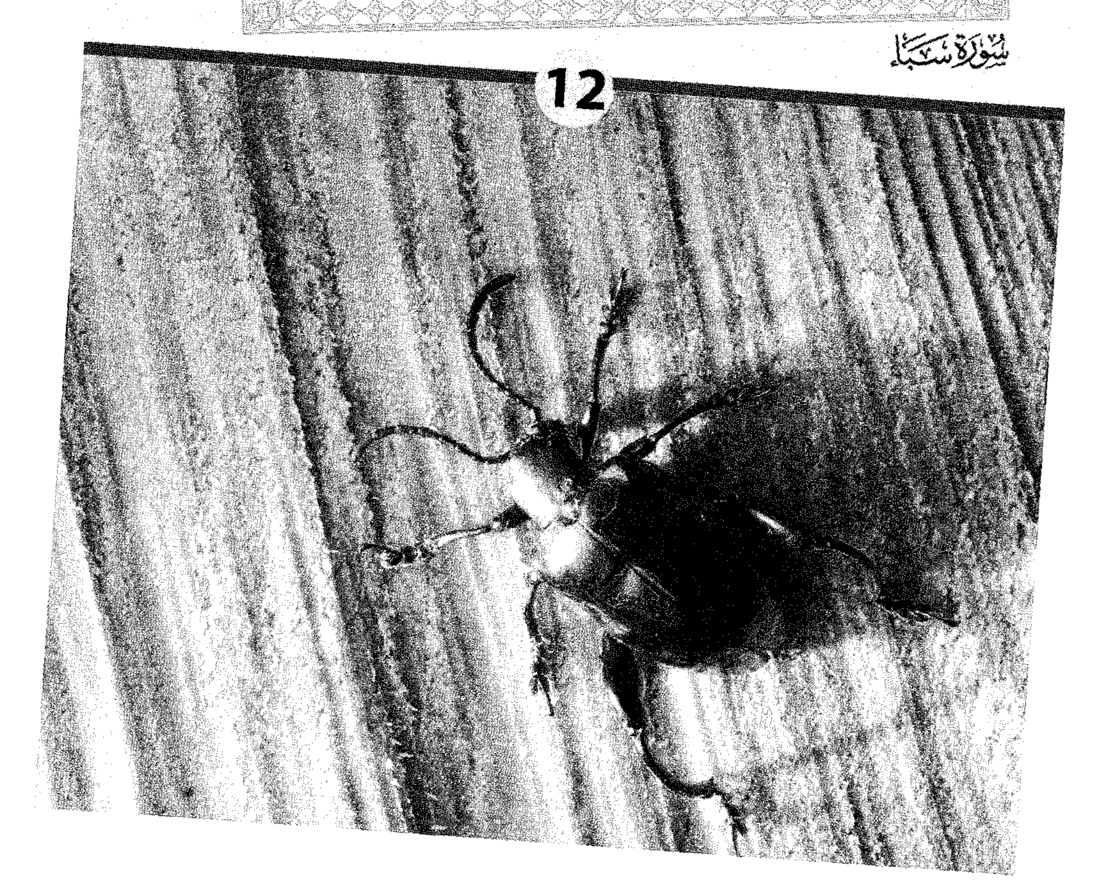
والتشبيه القرآني للناس في لحظة البعث بالفراش المبثوث تشبيه معجز لأن دورة حياة الفراش لم تعرف إلا في القرنين الماضيين.. وسبْقُ القرآن الكريم بهذا الوصف العلمي الدقيق الذي جاء به في مقام التشبيه لممّا يشهد لهذا الكتاب الخالد بالدقة والشمول والكمال وبأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وصدقه في كل ما جاء به، كما يشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ
سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ**
إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن
لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

سُورَةُ سَبَإ

12



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ...﴾ «سورة سبإ، الآية: 14»

12

هذا النص القرآني الكريم جاء في مطلع الربع الثاني من سورة «سبإ»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (54) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى قوم «سبإ»، وهم قبيلة من العرب سكنت اليمن وسميت باسم جدهم (سبإ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان).

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها: الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والتوحيد الخالص لجلاله ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد ـ، والإيمان بوحيه وبجميع أنبيائه ورسله، وبحتمية الآخرة والبعث والحساب، والجزاء إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وأنه ما من قوة يمكنها أن تعصم العبد من عقاب الله، وما من شفاعة عنده إلا بإذنه. وبأن الإيمان يصدقه العمل الصالح، وكلاهما قوام الحكم والجزاء عند الله الذي ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ «سورة سبإ، الآية: 3».

وترد السورة على المشركين في إنكارهم للآخرة، وعلى تكذيبهم بالبعث بعد الموت بعرض عدد من مشاهد القيامة، ومن صور العذاب الذي يكذبون به، ومن الأدلة على عجز شركائهم الذين يدعون من دون الله، كما ترد على المكذبين لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، والرافضين لرسالته الخاتمة. وتناولت هذه السورة الكريمة أيضاً قصص عدد من أنبياء الله الشاكرين لأنعمه، وعدد من الأمم التي أبطرتها النعم كقوم (سبإ) الذين عاقبهم الله ـ تعالى ـ على بطرهم بإقصاء نعمه عنهم، وتلك سنة الله في خلقه، وهي سنة لا تتوقف، ولا تتخلف أبداً فاعتبروا يا أولي الأبصار...!!

عرض موجز لسورة «سبإ»:

تبدأ سورة «سبإ» بثناء الله ـ تعالى ـ على ذاته العلية بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ *﴾ «سورة سبإ، الآيتان: 1، 2».

ثم انتقلت السورة إلى الرد على منكري البعث بالتأكيد على حتمية وقوعه، والرد على المناوئين لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ * وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ *﴾ «سورة سبإ، الآيتان: 5 ـ 6».

وتستشهد الآيات ببديع صنع الله في السماء والأرض، وتتهدد المكذبين ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ والمتطاولين على شخصه الكريم من الكفار والمشركين والمكذبين بالبعث في القديم والحديث وحتى قيام الساعة بأن الله ـ تعالى ـ لو يشاء لخسف بهم الأرض أو أسقط عليهم كسفاً من السماء.

ثم انتقلت السورة بالحديث إلى قصة كل من نبي الله داود وولده النبي سليمان ـ على نبينا وعليهما من الله السلام ـ، وأشارت إلى ما منّ الله ـ تعالى ـ به عليهما من أفضال جزاء شكرهما لأنعمه، وقارنت ذلك ببطر غالبية (قوم سبإ) الذين أعرضوا عن دين الله بعد أن كانت ملكتهم قد أسلمت لرب العالمين مع سليمان عليه السلام، فأزال الله نعمه عنهم، وجعلهم أحاديث، ومزقهم كلَّ ممزق، وجعلت من قصتهم آيات لكل معتبر ولكل صبار شكور.

ثم توجه الآيات الخطاب للمشركين بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ «سورة سبإ، الآية: 22».

والخطاب هنا للتوبيخ والتعجيز إذ يقرر أن كل معبود غير الله لا يملك مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض، لا على سبيل الملك، ولا حتى المشاركة، والله سبحانه وتعالى لا يستعين

بهم في شيء، فما هو في حاجة إلى معين، ولا يشفع عنده إلا من أذن له، وفي ذلك يقول: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ «سورة سبإ، الآية: 23».

وتؤكد الآيات أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يرزق خلقه من السمٰوات والأرض، وأن كل مخلوق مسؤول عن عمله، وأن الله ـ تعالى ـ هو الذي يفصل بين خلقه يوم القيامة، ويستنكر شرك المشركين وهو العزيز الحكيم.

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «سورة سبإ، الآية: 28».

وتعاود السورة الكريمة الرد على منكري البعث وعلى الذين يرفضون الإيمان بالقرآن الكريم ولا بما أنزل من قبله من كتب، وعلى المشركين بالله ما لم ينزل به سلطاناً فتقول الآيات:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۞﴾ «سورة سبإ، الآيات: 29 ـ 31».

وتفصل السورة الكريمة ضرباً من الحوار بين الذين استكبروا والذين استضعفوا من المشركين في يوم القيامة وتختتم بقول الحق ﷻ:

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «سورة سبإ، الآية: 33».

وتعرّج الآيات في سورة سبإ على غرور المترفين الذين أفسد الترف فطرتهم، وأغلظ قلوبهم، وأفقدها رقة الخضوع لله ـ تعالى ـ، وملأها بالكبر على الهداية، والإصرار على الباطل، والانغماس في الشهوات؛ والمترفون عادة ما تخدعهم النعمة ويغرهم ما أغدق الله ـ تعالى ـ عليهم من ثراء وقوة فيحسبون ذلك مانعهم من عذاب الله، وهو وهم كاذب لا ظل له

من واقع، ولذلك تقول الآيات فيهم:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ*﴾

«سورة سبإ، الآيات: 34 ـ 37».

وتشجع الآيات على الإنفاق في سبيل الله مؤكدة أن الرزق من الله ـ تعالى ـ فتنطق بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ «سورة سبإ، الآية: 39».

وتعاود السورة الكريمة توجيه الخطاب مرة أخرى إلى المشركين ومنهم من عبد الملائكة أو الجن من دون الله فتقول:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ * فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ*﴾

«سورة سبإ، الآيات: 40 ـ 42».

ويكرر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ إنذار المكذبين لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بعقاب مماثل لعقاب المكذبين من الأمم السابقة فيقول ـ عز من قائل ـ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ * وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ*﴾ «سورة سبإ، الآيات: 43 ـ 45».

والمتصفِّح للعديد من المواقع على شبكة المعلومات الدولية، والمستمع إلى العديد من

الإذاعات المحلية والأجنبية، والمشاهد للقنوات الفضائية، والمطلع على الكثير من غير ذلك من الوسائل الإعلامية يدرك أن هذا التطاول على خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ بهذا المنطق المعوج نفسه، وهذا الإسفاف في التعبير لا يزال سائداً، وكأنَّ هذه الآيات الكريمة قد نزلت لكفار ومشركي زماننا كما نزلت للكافرين والمشركين في زمن الوحي، وفي الفترات الفاصلة بين زماننا وزمانهم وحتى قيام الساعة.

ويأتي الرد من الله ـ تعالى ـ بالأمر إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار والمشركين في زمانه، وفي كل زمان من بعده ما نصه:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ *﴾ «سورة سبإ، الآيات: 46 ـ 49».

وتختتم السورة الكريمة بذكر مصير الكافرين في يوم القيامة وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ *﴾ «سورة سبإ، الآيات: 51 ـ 54».

والآيات تمثل الهول الذي يفاجأ به الكفار والمشركون في الآخرة ولقد فوجئوا بما أنذروا به فكذبوه، ورأوا العذاب الذي حذروا منه فاستهانوا به وأنكروه، رأوه رأي العين، وعلموا يومئذ أن لا نجاة ولا مهرب لهم منه، وأخذوا من موقف الحساب مباشرة إلى النار، وأنَّى لهم في الآخرة تناول كفرهم القديم بالإيمان، ومحو معاصيهم السابقة بالتوبة، وقد كان ذلك يعرض عليهم في الدنيا فرفضوه، ويقدم إليهم بين أيديهم فضيعوه، وكانوا يرجمون بالغيب، ويحكمون بالظن والهوى، ويتكلمون بما لم ينزل عليهم فيزعمون لله

ـ تعالى ـ الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وينكرون البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، وينكرون ربانية القرآن الكريم، مدعين بأنه من أساطير الأولين، وواصفين إياه بالشعر تارة، وبالسحر المبين تارة أخرى، وواصفين النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ بأوصاف لا تليق بمقامه الشريف، وبما هو بعيد عن الحق والصواب بعد المشرقين، ولذلك يحال بينهم وبين التوبة كما يحال بينهم وبين الإيمان بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله في الآخرة، وهو الأمر الذي يشتهون ويتمنون ولكن هيهات هيهات، وذلك تماماً ما فعل بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم السابقة عليهم، فقد كانوا جميعاً في شك مريب من أمر الدين الصحيح وهو الإسلام العظيم الذي علمه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأنزله على فترة من الرسل، وهدى به الخلق بواسطة نفر كثير من الأنبياء ثم أكمله وأتمه وحفظه في رسالته الخاتمة التي بعث بها النبي والرسول الخاتم ﷺ.

وهكذا ختمت سورة «سبأ» بهذا الختام الذي يصف مشهداً عنيفاً من مشاهد يوم القيامة، وهو مشهد لم يقع في حس الناس بعد، ولكن إذا علمنا أن كلاً من الزمان والمكان من خلق الله ـ تعالى ـ، وأن المخلوق لا يحد خالقه أبداً، لأدركنا أن كلاً من الماضي والحاضر والمستقبل حاضر عند الله ـ تعالى ـ، إذا تحدث ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عن أمر مستقبلي قادم تحدث عنه حديث المشاهد البصير، والخبير العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فتبارك الله رب العالمين.

من ركائز العقيدة في سورة «سبإ»:

تطالب سورة «سبإ» كل الخلق بأن يؤمنوا بالقواعد الأساسية التالية:

1 ـ إن الله ـ تعالى ـ هو رب السمٰوات والأرض وما فيهن، وأنه هو سبحانه وتعالى سوف يحمد في الآخرة من جميع خلقه لتحقق كل ما وعد به، وأنه هو العزيز الحكيم، والخبير العليم، والغفور الرحيم، والفتاح الرزاق ذو القوة المتين الذي يرزق عباده في السمٰوات والأرض، وأنه هو ـ سبحانه ـ علام الغيوب وعلى كل شيء شهيد.

2 ـ إن علم الله ـ تعالى ـ هو علم محيط... ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

3 ـ إن البعث حتمي، وأن الآخرة ضرورة لازمة، وإن كذَّب بهما المكذبون، وكفر بحتمية وقوعهما الكافرون.

4 ـ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم من الله ـ تعالى ـ مغفرة ورزق كريم، وإن الذين وقفوا في وجه الدعوة المحمدية المباركة وفي وجه آيات الله المنزلة في قرآنه الكريم معاجزين لهم عذاب من رجز أليم في الدنيا قبل الآخرة.

5 ـ إن المعجزات التي أجراها الله ـ تعالى ـ لعدد من أنبيائه من أمثال داود وسليمان ـ عليهما من الله السلام ـ هي حق مطلق لا جدال فيه، وكذلك ألوان العذاب التي أنزلها الله ﷻ بعدد من العصاة السابقين من أمثال قوم «سبإ» هي حق كذلك.

6 ـ إن كل معبود من دون الله لا يملك مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض، وليس له شرك في أيٍّ منهما، وليس له من دون الله من واق، ومن هنا كان الشرك ظلماً عظيماً للنفس، وكان كل من وقع في دنسه خاسراً خسراناً مبيناً.

7 ـ إن الشفاعة عند الله ـ تعالى ـ لا تنفع إلا لمن أذن له ﷻ.

8 ـ إن كل إنسان مسؤول عن أعماله، ولا يسأل عن أعمال غيره، وأن الله ـ تعالى ـ يفصل بين عباده بالعدل والقسطاس المستقيم.

9 ـ إن خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ قد أُرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وأن من لم يؤمن به وبرسالته فقد خسر خسراناً مبيناً.

10 ـ إن الله ـ تعالى ـ هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، وأنه ـ سبحانه ـ هو خير الرازقين، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك ولا يؤمنون به.

11 ـ إن... ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ وأن الذين يعارضون القرآن الكريم ويتحدونه سوف تجرهم زبانية جهنم إليها وهم فيها محضرون.

من الإشارات الكونية في سورة «سبإ»:

1 ـ تقرير أن الله ـ تعالى ـ هو خالق السمٰوات والأرض ومالكهما بكل من فيهما وما فيهما، وأنه هو القادر على أن يخسف الأرض أو أن يسقط السماء كسفاً على من يشاء.

2 ـ وصف الحركة في الأرض بالولوج والخروج، وفي السماء بالنزول والعروج وهي دقة علمية بالغة.

3 ـ التأكيد على حتمية النهاية لهذا الكون، وهو ما تدعمه كل المشاهدات الحسية فيه.

4 ـ الإشارة إلى ما هو أصغر من الذرة والذي لم يصل إليه علم الإنسان إلا في مطلع القرن العشرين.

5 ـ إن المخلوقات غير المكلَّفة من مثل الجبال والطير لها أقدار متفاوتة من الإدراك، والشعور، والإحساس، والعبادة، والتسبيح لله الخالق ﷻ وحده، وهو ما بدأت الدراسات العلمية في تلمّسه أخيراً.

6 ـ إن الريح قد سخِّرت لسليمان غدوُّها شهر ورواحها شهر، ومن ذلك يمكن الوصول إلى عدد من الحسابات العلمية الدقيقة.

7 ـ الإشارة إلى القطر وهو إما القطران (وهو الأرجح) أو النحاس المصهور.

8 ـ ذكر حقيقة أن من دواب الأرض ـ أي حشراتها ـ ما يأكل الخشب.

9 ـ ذكر ما كانت فيه قبيلة «سبإ» من نعيم مقيم، وسد للماء عظيم (سد مأرب)، ثم أبطرتها النعمة فعاقبها الله ﷻ بتسخير سيل العرم عليها فهدم السد، ودمر الزرع، وشتت الجمع، وجعلهم أحاديث في أفواه الناس من حولهم، وكل ذلك مما ثبت في دراسات متأخرة.

10 ـ الإشارة إلى عالمية الدعوة الإسلامية، وهو ما تحقَّق في الماضي القريب ولا يزال يتحقق إلى أن يشاء الله ﷻ.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معاملة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثامنة من القائمة السابقة التي جاءت في الآية الرابعة عشرة من سورة سبإ، وقبل الوصول إلى ذلك أرى لزاماً عَليَّ أن أستعرض أقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة قبل شرح دلالاتها العلمية.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ «سورة سبإ، الآية: 14».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ما مختصره: «يذكر تعالى كيفية موت سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكيف عَمَّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهي منسأته مدة طويلة... فلما أكلتها دابة الأرض وهي (الأرضة) ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه كان قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك...».

- وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة جزاء ما قدم ـ قوله: «... وقد روي أنه كان متكئاً على عصاه حين وافاه أجله؛ والجن تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد، فلم تدرك أنه مات حتى جاءت دابة الأرض ـ قيل إنها الأرضة ـ التي تتغذى بالأخشاب، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة، في الأماكن التي تعيش فيها. وفي صعيد مصر قرى تقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفاً من هذه الحشرة التي لا تبقي على المادة الخشبية ولا تذر. فلما نخرت عصا سليمان لم تحمله فخر على الأرض. وحينئذ فقط علمت الجن موته، وعندئذ ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس، هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله. وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب؛ وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد!».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى إعادته هنا، وإن كانت الإسرائيليات قد أفاضت في ذكر قصة وفاة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونحن معشر المسلمين علينا الالتزام بأوامر رسول الله ﷺ بقوله الشريف: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا**

تصدقوهم ولا تكذبوهم»[1] لأننا إذا: صدقناهم قد يصادف ذلك أمراً من الأمور التي حرفوها في دياناتهم، وإذا كذبناهم فقد يصادف تكذيبنا لهم أمراً من بقايا الحق القديم الذي بقي فيما توارثوه من ذكريات عن أخبار أنبيائهم، خاصة وأن الكتب الموجودة بين أيديهم اليوم مكتوبة بلغات غير لغات الوحي الذي أوحيت به، ومن هنا تعددت التراجم وكثرت المراجعات وتباينت الأخبار، وكثرت التناقضات مع ضياع الأصول وفقدان المرجعية، ومن هنا أيضاً كان واجب الالتزام بأوامر خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فلا نصدقهم ولا نكذبهم ولا ننقل عنهم، لأن النقل عنهم في تفصيل بعض الأخبار، أو التواريخ، أو الأحداث، أو الأشخاص قد يكون سجلاً من الأخطاء تجمع تحت مسمى «**الإسرائيليات**» التي يجب نبذها والاحتراز من ترديدها، وإدراك مخاطر ذلك وأخطائه العلمية، والتاريخية، والدينية، خاصة وأن اليهود قد برعوا عبر التاريخ في تزييف الحقائق، وطمس الوقائع التي تدينهم، وفي تزوير التاريخ جملة وتفصيلاً حتى يخفوا جرائمهم في حق الإنسانية كلها وهم أعداؤها الألدون لكثرة ما زيفوا من حقائق تصور لهم أنهم وحدهم شعب الله المختار، أبناؤه وأحباؤه، وغيرهم من الخلق حيوانات خلقت في هيئة الآدميين حتى يكونوا في خدمتهم، وانطلاقاً من هذا الوهم الخاطئ والكذب على الله ـ تعالى ـ ملأ الصهاينة الأرض ظلماً وجوراً وإفساداً ولا يزالون يفعلون ذلك على أرض فلسطين الجريحة والتي أغرقوها في بحار من الدماء والأشلاء والدمار والخراب ولا يزالون، والله لهم بالمرصاد، ووعده ـ تعالى ـ بتدميرهم في الدنيا قبل الآخرة لن يخلفه، وما ذلك على الله بعزيز.

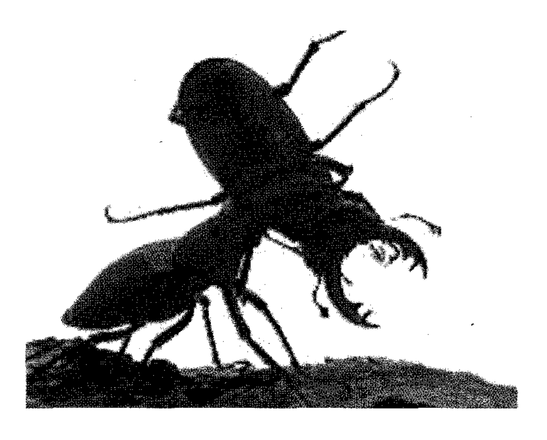
من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾:

ودابة الأرض التي جاء ذكرها في هذا النص القرآني الكريم هي إحدى الحشرات التي تأكل الخشب، وتحفر فيه لتتخذ منه مأوى وطعاماً في آن واحد ولذا تعرف باسم «**ناقرات**

---

(1) أخرجه الإمام أحمد عن أبي نملة رضي الله عنه، وأورده ابن حجر في «فتح الباري» تعليقاً.



الخشب» (Wood Borers) أو **«القادح»** ومنها **الأرضة (القرضة)، العتة، زنابير الخشب، ويرقات الفراشة الماعز، ويرقات الخنافس (من مثل الخنافس ذات القرون الطويلة، خنفساء المسك اللامعة، الخنفساء الزنبورية، خنفساء الحطاب، خنافس الأثاث، خنافس أعمدة التلغراف، خنفساء قلف الأشجار، والخنفسة المعروفة باسم نذير الموت**، وغيرها)، ومنها بعض سوس الأشجار (مثل **سوس شجرة الصنوبر**)، ومنها ما يعرف تجاوزاً باسم **نمل الخشب** أو **النمل الأبيض** (Termites) وقد جمع القرآن الكريم ذلك كله في تعبير علمي دقيق هو: **دابة الأرض.** وهو وصف معجز لأن أغلب هذه الحشرات تعيش تحت سطح الأرض أو في جذوع الأشجار، أو في داخل أخشاب الأثاث والبناء مختفية عن الضوء، لأنها لا تقوى على التعرض طويلاً لأشعة الشمس ولذا نجدها قبل غزو الخشب تتحرك في أنفاق طينية طويلة تصنعها الشغالات. ثم إن ناخرات الخشب تشكل أعداداً كبيرة من الحشرات توضع في مجموعات تصنيفية مختلفة ومتعددة، وتضمها صفة أنها كلها تعيش على أخشاب الأشجار طعاماً ومأوى، فالنمل الأبيض (نمل الخشب) على سبيل المثال ليس من النمل ولو أنه يعيش عيشة جماعية في مستعمرات شبيهة بمستعمرات النمل، تقوم على الملك والملكة، والشغالات والناسلات المتساوية العدد تماماً مع الذكور، والجنود الذين لا دور لهم إلا حراسة المستعمرة.

وأنواع **النمل الأبيض (Termites)** التي تم التعرف عليها في مختلف بقاع الأرض يصل عددها إلى قرابة ثلاثة آلاف نوع، ينتشر أغلبها في المناطق الاستوائية والمدارية وشبه المدارية والمعتدلة، وتتضاءل أعدادها في اتجاه القطبين.

وتحمل هذه الحشرات في جهازها الهضمي عدداً من الطفيليات من مثل البكتيريا والطلائعيات ـ الحيوانات الأولية وحيدة الخلية الحاملة لنواة محددة ـ التي تتعايش معها لتعينها على هضم المواد الخشبية من السيليلوز واللجنين وتحولها إلى مواد صالحة لطعام هذه الحشرة.

أما الخنافس ذات القرون الطويلة فإن أنثاها تضع حوالي خمسين بيضة في المرة الواحدة، وتضعها في أي كسور أو شقوق أو فتحات في الخشب سواء كان حياً (في جذوع وفروع الأشجار والشجيرات) أو كان ميتاً أي واقعاً منها، أو منشوراً عنها، وعندما يفقس هذا البيض تخرج منه اليرقات لتنخر في الخشب الذي تتغذى على ما تنخره منه بواسطة إنزيمات وخمائر خاصة تفرزها عليه، وتهيئ لها سكناً فيه وإن حاولت أن تبقى قريبة من السطح. وتعيش اليرقات في سراديبها التي حفرتها في داخل الخشب لفترات تتراوح بين السنة والثلاث سنوات إذا كان الخشب رطباً، أما إذا كان الخشب جافاً فقد تبقى اليرقات إلى فترات قد تصل إلى عشرين سنة يكتمل فيها نمو اليرقة إلى الحورية ثم إلى الحشرة الكاملة التي لا تخرج مباشرة لتعاود هذه العملية من جديد إلا في فترتي الربيع والصيف بعد أن تكون قد نخرت ثقوباً بيضاوية تتراوح أقطارها بين السنتيمتر وضعف ذلك، مما قد يؤدي إلى أضرار بليغة بالخشب الذي نخرته وعاشت بداخله. وعندما تخرج الحشرة الكاملة من الأنفاق التي حفرتها في الشجرة التي تطفلت عليها، أو الخشب الجاف الذي عاشت فيه، فإنها لا تبتعد كثيراً عنها فإما أن تعيش تحت قلفها، أو في التربة المحيطة بها، أو على الأزهار المتفتحة من حولها، فتتغذى على حبوب اللقاح التي تجمعها منها.

والأشجار التي تتطفل عليها يرقات الخنافس هي عادة من ذوات الأوراق العريضة مثل أشجار البلوط، والصفصاف، والحور وأشباهها. أما زنابير الخشب فإنها تركز على الأشجار المخروطية وتعرض عن الأشجار ذات الأوراق العريضة بصفة عامة. ومن النمل الأبيض ما يعيش في داخل الأخشاب الرطبة والجافة، وما يحيا في داخل تربة الأرض، مع بناء عدد من الأعشاش فوق سطح الأرض.

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾:

من حكمة الله البالغة أنه بعث خاتم أنبيائه ورسله ﷺ في أرض صحراوية يندر فيها النبات والحيوان إلا في بعض الواحات المحدودة، حتى تبقى آيات الأحياء في القرآن الكريم وفي أحاديثه النبوية الشريفة من المعجزات الشاهدة بصدق نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ والناطقة بصدق الوحي الموحى به إليه ـ القرآن الكريم ـ. ومن هذه الآيات قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن دابة الأرض أنها كانت تأكل منسأة سليمان عليه السلام أي عصاته التي كان يتوكأ عليها، وكانت من خشب. وسميت العصاة (منسأة) لأنها يزجر بها ويساق،

وتؤخر بها الغنم وتدفع إذا جاوزت حدود المرعى، والكلمة مستمدة من قولهم (نسأ) البعير أي زجره وساقه، أو أخره ودفعه، و(النسيء) تأخير في الوقت عن زمنه، ومثله (النسيئة) و(النِّساء)؛ و(المنسأ) و(المنسأة) عصا (ينسأ) بها الشيء أي يؤخر ويزجر. وعصاة سليمان كانت بالقطع من الخشب لأن الناس ـ في زمانه ـ لم يكونوا يعرفون مصدراً لصناعة العصي غير الخشب.



وربما لاحظ الناس منذ القدم نخر بعض الحشرات للخشب ـ خاصة في البلاد ذات الكساء الخضري الكثيف ـ أما حقيقة أن تلك الحشرات بالفعل تأكل الخشب وتحيا على مادته السيليلوزية واللجنينية الجافة بإفراز بعض الإنزيمات والخمائر الخاصة عليه فلم تدرك إلا بعد تطور علم الحشرات عبر العقود القليلة الماضية حين بدأ الإنسان يعير هذه المخلوقات الدقيقة اهتمامه حتى وصل عدد الأنواع المعروفة منها اليوم إلى قرابة المليون نوع.

وتقسم الحشرات اليوم ـ كما تقسم بقية المخلوقات الحية ـ حسب طرائق اغتذائها إلى **آكلات النبات، وآكلات اللحوم (اللواحم)**، وآكلات كل من النبات واللحوم (**الحشرات المتنوعة الأكل**) بالإضافة إلى ما يعرف باسم **الحشرات المرمرمة** التي تتغذى على المواد النباتية أو الحيوانية الميتة أو المتحللة مما يساعد على تنظيف البيئة من آثارها المدمرة، وذلك بإتمام تحلل تلك الجيف وتفكيكها إلى مواد تخصب التربة وتغذي النباتات.

ومن الحشرات آكلة النباتات ما يعيش على امتصاص العصارات الغذائية التي تجري في خلايا تلك النباتات، ومنها ما يعيش على أكل أوراق النباتات؛ وتعرف باسم الحشرات مجردة النباتات من أوراقها، ومنها ما يعيش داخل أوراق النباتات الحشرات صانعة الأنفاق في أوراق النباتات، ومنها ما يعيش داخل ثمار النباتات ومحاصيلها المختلفة مثل الحبوب وتعرف باسم آكلات الثمار، آكلات البذور، آكلات الفطر، آكلات الدرنات وغيرها. وهناك الحشرات التي تحيا على قلف الأشجار (حشرات القلف)، ومن الحشرات ما يحفر في الخشب ويتغذى على ما فيه من بقايا المواد السكرية والنشوية في الخلايا الخشبية، وعلى

مكونات تلك الخلايا من المواد السيليولوزية واللجنينية بعد تفكيكها إلى مركباتها الأساسية، وتعرف هذه الحشرات باسم **ناخرات الأخشاب** وهي تنخر في كل أخشاب الأشجار والأخشاب الجافة للحصول على كل من الغذاء والمأوى، ولذلك زودها الله ـ تعالى ـ بالأدوات اللازمة للنخر في الخشب، وبالقدرة الفائقة على هضم ما به من مواد سيليولوزية ولجنينية صعبة التحلل، وذلك بإفراز عدد من الإنزيمات والخمائر القادرة على ذلك، أو بالتعايش مع أعداد من البكتيريا والطلائعيات (الأوليات) التي تنتشر في القنوات الهضمية لتلك الحشرات والتي أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على تحليل المواد السيليولوزية واللجنينية وتحويلها إلى مواد صالحة لتغذية تلك الحشرات الناخرة. وأغلب ناخرات الأخشاب هي من اليرقات التي يتحول الكثير منها إلى الحوريات ثم إلى الحشرات البالغة، بعد فترات متباينة لنموها في داخل الخشب تتراوح بين السنة وأكثر من العشرين من الأعوام. وقد زود الله ـ تعالى ـ ناخرات الخشب بالأدوات اللازمة للنخر سواء كان ذلك من الزوائد الفمية أو آلة وضع البيض في أنثى الحشرة.

ففي حالة زنابير الخشب الكبيرة التي تنخر في الأشجار المخروطية نلاحظ أن الأنثى تستخدم آلة وضع بيضها القوية المسننة مثل المنشار في نشر ثقوب في الخشب الصلب لكي تضع بيضها فيه، وبعد فقس البيض تقوم اليرقات بالتغذية على الخشب فتحفر أنفاقاً يزيد طولها على الثلاثين سنتيمتراً في فترة نموها المتراوحة بين سنتين ونصف إلى ثلاث سنوات، وعند تحول اليرقة إلى عذراء تكون اليرقة قد حفرت لها طريقاً في الخشب يقترب من السطح بحوالي السنتيمتر الواحد فتقوم العذراء بنخره لتخرج على هيئة **زنبور الخشب** الذي تعاود أنثاه الكرة من جديد. ويلزم ليرقات ناخرات الأخشاب ابتلاع كميات كبيرة من الخشب لتحصل منها على الغذاء الكافي لنشاطها ولنموها.

ويرقات ناخرات الأخشاب تشكل جزءاً مهماً من غذاء الطيور المعروفة باسم نقار الخشب الذي ينقر في أخشاب الأشجار المصابة فقط لاحتوائها على يرقات غضة من يرقات الحشرات الناخرة للأخشاب، والتي تتعرف عليها مثل تلك الطيور بوجود الثقوب التي تحدثها، وتراب الخشب الذي تقذف به إلى خارج جحورها بعد أن تهضم ما فيه من مواد غذائية.

وإشارة القرآن الكريم في هذا النص المعجز الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿...إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾.. هي أول إشارة في تاريخ البشرية إلى حقيقة أن من

الحشرات ما يعيش على أكل الأخشاب، وهو سبق علمي يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، وحفظه حفظاً كاملاً، في نفس لغة وحيه، على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد بذلك إلى أن يشاء الله ـ تعالى ـ، في الوقت الذي تعرضت كل صور الوحي السابقة على تنزله للضياع التام ولأقدار من التحريف لما بقي منها من ذكريات نقلت شفاهاً على مدى قرون بعد موت الرسول ﷺ الذي جاء بها أو رفعه إلى الله ـ تعالى ـ وحينما دونت تم ذلك بأيدي مجهولين في أماكن متفرقة، وفي أزمنة متباعدة، وبلغات مغايرة للغات الوحي، وتعرض ما كتب ـ ولا يزال يتعرض ـ للتحريف والتبديل والتغيير، وللمراجعة والتحرير تلو التحرير مما أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها إلى الدين الحق.

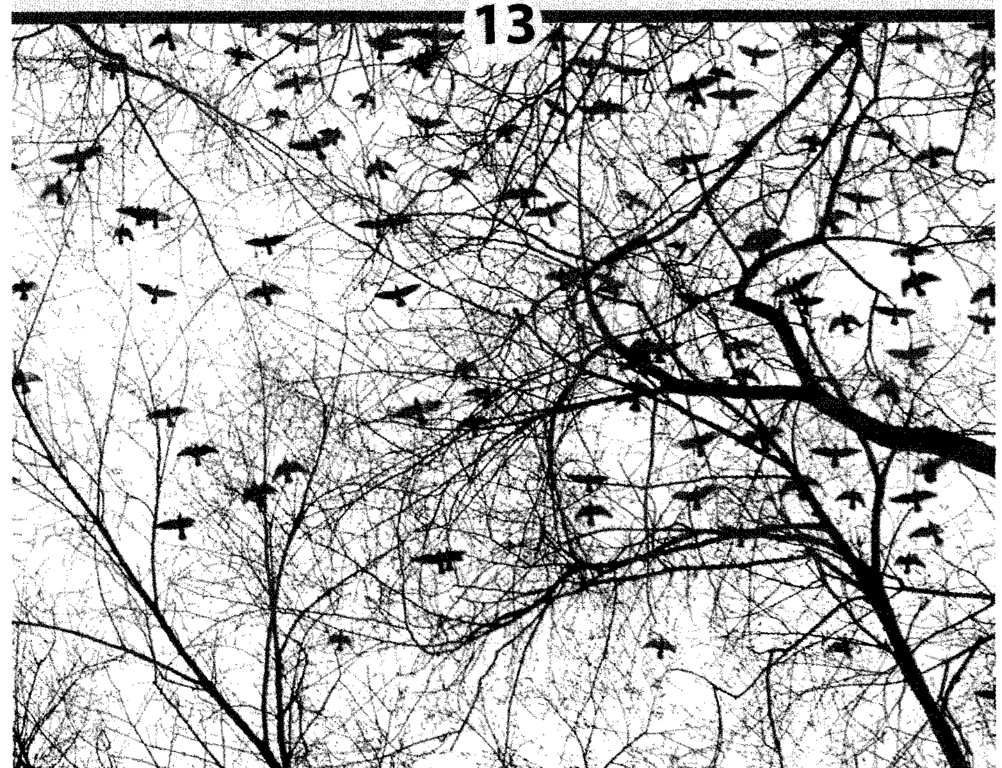
والحشرات ناخرة الخشب ومنها النمل الأبيض تعتبر أخطر الآفات الحشرية حيث تحدث خسائر فادحة بسبب تغذيتها على المواد السيليولوزية واللجنينية للأخشاب المكونة لجذوع الأشجار وجذورها، وأسقف وأبواب وشبابيك المنازل الخشبية، وأعمدة التليفونات، والأثاث، والمفروشات والملابس والورق ومنتجاته، والحبوب المخزونة، ومنها ما ينخر في الثمار والمحاصيل النباتية الحية، وهي في نفس الوقت تلعب دوراً مهماً في التخلص من أكداس النفايات التي تحولها إلى سماد للتربة التي تساعد أيضاً على تهويتها وتحسين كلٍّ من صفاتها الكيميائية والميكانيكية وإثرائها بالمواد العضوية.

وإن كان لفظ (الدابة) يدل على كل شيء يدب وهو جمع للفظة (دابّ) مثل (خائنة) جمع (خائن)، فإن (دابة) كلمة عامة في جميع الحيوانات، وتشمل جمع المذكر والمؤنث معاً، إلا أن تاء التأنيث في الفعل «تأكل منسأته» تدل على أن الذي يبدأ النخر في الخشب هي الإناث من تلك الحشرات الناخرة، وهو سبق علمي آخر لم يكن معروفاً في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية. فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة حفظه على مر الدهور والأعوام، والحمد لله على بعثة خير الأنام: سيدنا محمد بن عبد الله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم
بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ
جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ
وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

سُورَةُ ٱلْبَقَرَةِ

13



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ...﴾

«سورة البقرة، الآية: 57».

13

هذا النص القرآني الكريم جاء في أواخر الخمس الأوّل من سورة «البقرة»، وهي سورة مدنية، وآياتها (286) بعد البسملة، وهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التي أجراها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على يد نبيه موسى عليه السلام حين تعرض شخص من قومه للقتل، ولم يعرف قاتله، فأوحى الله ـ تعالى ـ إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله، ويخبرهم عن قاتله ثم يموت، وذلك إحقاقاً للحق، وشهادة عملية لله ـ تعالى ـ بالقدرة على إحياء الموتى.

وقد سبق لنا استعراض سورة «البقرة» وتلخيص ما حفلت به من قواعد العبادة، وتشريعات المعاملات ومكارم الأخلاق، وركائز العقيدة، وما حوته من قصص عدد من أنبياء الله السابقين وأممهم، وأوضحنا أن الهدف من هذا القصص هو إعطاء الدروس واستخلاص العبر، ولخصنا كذلك ما اشتملت عليه السورة من الإشارات الكونية المختلفة[1]، ولا أرى داعياً إلى تكرار ذلك في هذا المقام الذي يركز على قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ وما فيه من دلالات علمية، وقبل الوصول إلى ذلك أرى لزاماً عَليَّ استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح هذا النص القرآني الكريم.

(1) وذلك عند شرح الآية (26) من سورة البقرة، ص 164 ـ 173.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ «سورة البقرة، الآية: 57».

- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾، جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يغم السماء أي يواريها ويسترها، وهو السحاب الأبيض. ظللوا به في التيه ليقيهم حر الشمس. وقال الحسن وقتادة ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾: كان هذا في البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس.... ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو؟ فقال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا.... والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن. فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب، والظاهر والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد....، وأما السلوى فقال ابن عباس: السلوى طائر يشبه السماني كانوا يأكلون منه. وقال قتادة: السلوى كان من طير إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب.... وقوله ـ تعالى ـ : ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أمر إباحة وإرشاد وامتنان، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم، وأن يعبدوا.. فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم. هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات».

- وذكر بقية المفسرين كلاماً مشابهاً في تفسير هذه الآية الكريمة، وفي تفسير الآية رقم (160) من سورة الأعراف والآية رقم (80) من سورة طه وهما تحملان نفس المعنى. ولا أرى حاجة إلى تكرار ذلك هنا خاصة أن عدداً من هؤلاء المفسرين كان قد تأثر ببعض الإسرائيليات في شرحه.

من الدلالات اللغوية للنص الكريم:

أولاً: في قوله ــ تعالى ــ : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾

1 ـ **(الظل)** ضد الضح وجمعه (ظلال)، وهو أعم من الفيء، لأن (الظل) يقال لكل موضع لا تصل إليه الشمس، بينما يقال الفيء لما زالت عنه الشمس، ولذلك يقال «أفياء حول الظلال»؛ لأن الظل عام والفيء خاص؛ وهو من أساليب إضافة الشيء إلى جنسه لتوكيده و(الظلال): ما نتج من ظل عن السحاب ونحوه مما يحول دون وصول أشعة الشمس. ويوصف (الظل) بأنه (ظليل) إذا كان كثيراً وفائضاً عن الحد المطلوب، ويوصف المكان بأنه (ظليل) إذا كان دائم الظل لا تصله أشعة الشمس، وقد يكنى بذلك عن الرفاهية ورغد العيش.

و(الظلة) بالضم هي سحابة (تظل)، وجمعها (ظلل)، و(المظلة) بالكسر هي كل ما يستظل به من أشعة الشمس أو من وابل المطر، والمكان (المظلل) هو المغمور بالظل. ويقال: (استظل) بالشيء أي استدرى به واحتمى من أشعة الشمس، و(ظلني) الشجر و(أظلني) أي غمرني بظله، وكذلك (ظلتني) الشجرة و(أظلتني) أي غمرتني بظلها. وفي النص القرآني الكريم الذي نحن بصدده يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ أي حميناكم بظل الغمام من أشعة الشمس وحرارتها ووهجها.

ويستعار (الظل) للتعبير عن الحماية والمنعة، أو عن الأمن والرفاهية، فيقال: «أظللني فلان بظله» أي: أدخلني في حمايته وحراسته، ومنعته كأنه ألقى ظله عليّ، ويقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في وصف أصحاب اليمين وهم في جنات النعيم: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ *﴾ «سورة الواقعة، الآيات: 28 ـ 30». أي في نعيم مقيم ورفاهية وأمن دائمين.

ويقال لظلمة الليل على وجه الاستعارة: «ظل الليل» وهو في الحقيقة ظل نصف الأرض الذي يعمه نور النهار ملقى على النصف الآخر للأرض، ولكن بسبب انغماسه في ظلمة الكون يفضل تسميته باسم ظلمة الليل، حيث تلتقي ظلمة ليل الأرض بظلمة الكون. وكذلك يقال: (ظلَّ) يعمل كذا إذا عمله بالنهار دون الليل، وذلك لارتباط النهار بتكون الظل أكثر من الليل لشدة ضوء الشمس إذا قوبل بنور القمر، ويجري الفعل (ظل) و(ظللت) مجرى الفعل (صار) و(صرت) بالنهار.

2 ـ (**الغمام**) جمع (غمامة) وهي السحابة الساترة لضوء الشمس، وهي في الأصل خرقة تشد على أعين الحيوانات العاملة في دوائر محددة مثل البقرة أو الثور الذي يدور في تحريك الساقية، أو توضع على أنف الناقة لحمايتها من غبار الصحراء، ثم استعير لفظ (الغمامة) للسحابة الساترة لضوء الشمس.

ولذلك يقال: (أغمت) السماء و(تغيمت) إذا تلبدت بالغيوم، و(الغم) في الأصل هو ستر الشيء وجمعه (غموم) تقول: (غمه)؛ أي: غطاه (فانغم) أو (غمه) فاغتم، ثم استعير للتعبير عن الكرب فيقال: (غم) و(غمة) أي كرب، وكربة، كما استعير للتعبير عن أي مبهم ملتبس، فيقال: (غم) عليه الخبر؛ أي: أخفي عليه أو استعجم عليه، مثل (أغمي) عليه، ومجازه ضيق وظلمة وهم.

ويقال: (غم) يومنا و(أغم) فهو يوم (غم) إذا كان يأخذ بالنفس من شدة الرطوبة والحر، وليلة (غم) أو (غامة) مثله، ويقال فيها أيضاً ليلة (غمة) و(غمى).

كذلك يقال: (غم) الهلال على الناس إذا ستره عنهم غيم أو غيره فلم ير، وفي ذلك قيل: صمنا للغمى ـ بضم الغين وفتحها ـ إذا غم عليهم الهلال، وسميت الليلة باسم (ليلة الغمى).

ثانياً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿...وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ...﴾

(**المن**) لغة هو: كل ما يمن الله ـ تعالى ـ به على خلقه من نعمه التي لايبذلون جهداً في سبيل الحصول عليها ولا يصيبهم تعب ولا نصب ولا مشقة، وعلى ذلك فإن أصل (المن) هو وهب النعم، مِنْ (منَّ) الله ـ تعالى ـ عليه؛ أي: أنعم عليه، و(المنان) اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ وجميع أسمائه (حسنى). و(المنة) هي: النعمة الثقيلة، ولذلك يقال: (منَّ) الله ﷻ على فلان من خلقه أي أثقله بالنعمة، وهذا لا يكون لغير الله ـ تعالى ـ، ولا يكون إلا بالفعل أي تحقيق النعمة، لا مجرد الحديث عنها ويقال: (امتن) فلان من الخلق على فلان من إخوانه أو معارفه، (أو منّ عليه) أي تحدث بفضله عليه، وهو سلوك مستقبح بين الناس إلا عند كفران النعمة، ولقبح مثل هذا السلوك قيل: المنة تهدم الصنيعة، ولحسن ذكرها عند كفران النعمة قيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنة.

وفي قوله تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ...﴾ قيل: هو المن الذي كان يسقط على قوم نبي الله موسى عليه السلام سهلاً بلا علاج، على الرغم من كفرهم وعصيانهم وتمردهم على الله ـ تعالى ـ وعلى النبي المرسل إليهم.

وكذا الكمأة التي لا مؤونة فيها ببذر ولا سقي، ولذلك قال فيها المصطفى ﷺ: «**الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين**»[1] وقيل في (المن) الذي أنزل على قوم نبي الله موسى أنه شيء كالطل فيه حلاوة يسقط على الشجر، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وقيل في السلوى: إنها الطائر المعروف باسم السماني أو ما يشبهه، وقال بعض المفسرين في (المن والسلوى) إنهما شيء واحد يشير إلى ما أنعم الله ـ تعالى ـ به على هؤلاء القوم الجاحدين ابتلاء لهم، وسماه (مناً) ليمتن به عليهم، وسماه (سلوى)، لأنه كان لهم به التسلي عما كانوا فيه من مشاق، وهم في تيه شبه جزيرة سيناء.

المن والسلوى في كتب الأولين

جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر خروج (من العهد القديم) ما ترجمته: «وإذا مجد الرب قد ظهر في السحاب، فكلم الرب موسى قائلاً: سمعت تذمر بني إسرائيل كلمهم قائلاً: في العشية تأكلون لحماً، وفي الصباح تشبعون خبزاً. وتعلمون أني أنا الرب إلٰهكم».

«فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة، وفي الصباح كان سقيط الندى حوالى المحلة، ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور دقيق كالجليد على الأرض. فلما رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بعضهم لبعض ما هو؟ لأنهم لم يعرفوا ما هو، فقال لهم موسى هو: الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا. هذا هو الشيء الذي أمر به الرب، التقطوا منه كل واحد على حسب أكله. عمراً للرأس على عدد نفوسكم تأخذون كل واحد للذين في خيمته. ففعل بنو إسرائيل هكذا والتقطوا بين مكثر ومقلل (والصواب هو: ومُقِلٍّ). ولما كالوا (والصواب: إلتالوا) بالعمر لم يفضل المكثر، والمقلل (والصواب هو: المِقُلّ) لم ينقص. كانوا قد التقطوا كل واحد على حسب أكله. وقال لهم موسى: لا يبق أحد منه إلى الصباح. لكنهم لم يسمعوا لموسى بل أبقى منه أناس إلى الصباح فتولد فيه دود وأنتن. فسخط عليهم موسى. وكانوا يلتقطونه صباحاً فصباحاً كل واحد على حسب أكله. وإذا حميت الشمس كان يذوب».

هذا جزء مما جاء على ذكر هذا الأمر في الترجمة العربية للكتاب المقدس (طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط بيروت، 1985).

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: (الطب الحديث: 3453).

وقد سمى العالم الطبيعي الروماني بليني الكبير (Pliny the elder) الذي عاش في القرن الميلادي الأول (23 م ـ 79 م) تلك المادة الحلوة التي تتجمع على بعض النباتات أو التي تفرزها الحشرات التي تتغذى على العصارة الغذائية لبعض تلك النباتات بأسماء عجيبة مثل: عرق السمٰوات أو لعاب النجوم أو إسهال الهواء.

وكتب جلبرت هوايت (Gilbert White) الذي عاش في القرن الثامن عشر الميلادي (1720م ـ 1793م) في كتابه المعنون: (التاريخ الطبيعي لسيلبورن) ما ترجمته: «هذه المادة الحلوة اللزجة من نوع نباتي كما أمكننا أن نتعلم من النحل الذي ندين له بالشكر، ويمكننا أن نتأكد من أن هذه المادة تسقط بالليل لأنها تشاهد دائماً في الصباح الدافىء الساكن».

وذكر كل من كيربي وسبنس (Kirby & Spence) في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي (1815م) أن هذا السائل الحلو الذي سرعان ما يجف بمجرد تعرضه للجو، والذي ينافس كلاً من السكر وعسل النحل في طعمه الحلو وفي نقائه هو براز حشرة المن الذي يعرف باسم **البراز العسلي** أو **الندوة العسلية** ، والذي تفرزه كثير من الحشرات التي تتغذى على العصارة النباتية للعديد من الأشجار والشجيرات.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

في هذا النص القرآني الكريم يخاطب ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الضالين من قوم موسى عليه السلام وهم في التيه الذي عاقبهم به أربعين سنة في قلب شبه جزيرة سيناء لا يجدون لهم منها مخرجاً، يخاطبهم ربنا ـ سبحانه ـ ممتنًا عليهم بنعمه وهم العصاة المتمردون على أوامره وأوامر نبيه المرسل لهدايتهم، تلك النعم التي أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عليهم ابتلاء لهم واختباراً لقدر استجابتهم لأوامره سبحانه وتعالى فيقول لهم:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ «سورة البقرة، الآية: 57».

وكان من تلك النعم جعل الغمام ظلة لهم من أشعة الشمس ووهجها وحرها وهم في هذا التيه الذي استمر أربعين سنة في شعاب شبه جزيرة سيناء الوعرة القاحلة، الشديدة الحرارة في الصيف.

وكان من تلك النعم إنزال ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ عليهم رحمة من الله ـ تعالى ـ بهم وهم



الخارجون على دينه، العاصون لأوامر نبيه ورسوله، المتذمرون المتمردون، الجاحدون.. بعد كل ما أفاء الله ـ تعالى ـ عليهم من النعم وأكرمهم بالمعجزات منذ لحظة خروجهم من مصر حتى عبدوا العجل من دون الله.

و(**المن** = **Manna**) مادة صمغية حلوة لزجة كالعسل الذي يفرزه نحل العسل، تتجمع على الأشجار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ثم تجف فتتحول إلى مادة بيضاء كالدقيق أو رقائقه الصغيرة التي تكشط من فوق جذوع الشجر وفروعه وأوراقه وتؤكل مباشرة أو تذاب في الماء وتشرب على هيئة شراب حلو المذاق، عال في قيمته الغذائية.

أما (**السلوى**) أو الحجل فهي الطائر المعروف باسم السمان (أو السماني = **Quail** **Coturnix, coturnix**) وهو من طيور الصيد (القنص) التي تم استئناس بعضها كالدجاج والفراخ الرومية وإن كانت السلوى أصغر حجماً كثيراً، ولم يتم استئناسها بعد... وهي من الطيور المهاجرة التي تتحرك في مواسم محددة من السنة عبر مساحات كبيرة من الأرض. وقد سخر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هجرة أسراب منها للمرور على قوم موسى عليه السلام وهم في أرض التيه بشبه جزيرة سيناء حتى يصطادوا منها ويأكلوا، ولحمه من أطيب لحوم الطير على الإطلاق.



وكان ذلك من طيبات رزق الله الذي أفاء به عليهم ابتلاءً لهم، واختباراً لصدق إيمانهم، ولكن هؤلاء العصاة الجاحدين سقطوا في هذا الاختبار الإلٰهي لكفرهم بنعم الله ـ تعالى ـ عليهم، ورفضهم لها، ومطالبتهم لنبيهم باستبدال تلك النعم بما تعودوا عليه من محاصيل مصر ﴿... مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ...﴾ «سورة البقرة، الآية: 61».

وتؤكد الآية الكريمة أن هذا التمرد والعصيان والكفر لن يضير الله ـ تعالى ـ بشيء لأنه قادر على إفنائهم وإبادتهم وعلى الإتيان بخلق أفضل منهم، ولكنهم يظلمون أنفسهم؛ لأن عاقبة تمردهم وعصيانهم وكفرهم واقعة عليهم لا محالة تدميراً من الله ـ تعالى ـ في الدنيا، وعذاباً شديداً في الآخرة إن شاء الله لهم ولأمثالهم وأنسالهم من العصاة الفاجرين الذين يغرقون الأرض في بحار من الدم والأشلاء والدمار والخراب في كل عصر وفي كل حين، خاصة في زمن الفتن الذي نعيشه في أيامنا الراهنة الحزينة...!!!

ومع تسليمنا الكامل بأن الله ﷻ قادر على أن يقول للشيء كن فيكون، وأن إنزال ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ على العصاة من قوم موسى عليه السلام كان معجزة من معجزات الله القادر على كل شيء، وأن العلم المكتسب لا يستطيع تفسير المعجزات الإلٰهية لأنها تخرق السنن، وتقطع قوانين الأرض والسماء، إلا أن محاولة فهم النص القرآني الكريم الذي نحن

بصدده في إطار تلك السنن والنواميس الإلٰهية لا تشكل أدنى قدر من الحرج الشرعي، وكذلك إبراز جوانب الإعجاز العلمي في الجمع بين ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ كغذاء متكامل للإنسان في صحراء شبه جزيرة سيناء يشكل شهادة صدق على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، ولذلك فإن جميع الآيات فيه ـ وفي جملتها الآية التي نحن بصددها ـ تنطق بجلال الربوبية، وبكمال الحكمة الإلٰهية، وبشمول العلم الإلٰهي الذي يتَّضح بمقارنة هذه الآية الكريمة بكل إشارة سابقة أو لاحقة لرواية تلك الحادثة التاريخية التي لم يكن لسيدنا محمد ﷺ وسيلة لمعرفتها غير وحي السماء، وذلك لأن وصف هذه الحادثة في البقايا المتناثرة من الكتابات المنحولة عند أهل الكتاب قد شابها ما توصف به كل الكتابات البشرية من النقص والاضطراب والبعد عن الكمال.

(المن) في المعارف الإنسانية:

سبق أن أشرنا إلى أن ﴿ٱلْمَنَّ﴾ المعروف للإنسان هو مادة صمغية حلوة المذاق كعسل النحل، تتجمَّع في هيئة الدقيق أو الرقائق الدقيقة على الأجزاء المختلفة من بعض الأشجار مثل أشجار الأثل والطرفة المنتشرة في الصحارى العربية، أو على غير الأشجار من الشجيرات والنباتات المختلفة حتى العشبية منها.

وقد يتكون (المن) نتيجة لعملية نزِّ العصارة الغذائية للنبات إلى أسطحه الخارجية وجفافها بتبخر جزء كبير من محتواها المائي، وقد يكون هذا النزيف للعصارة الغذائية ذاتياً أو ناتجاً عن جروح في جسم النبات تحدثها مجموعات الحشرات التي تعيش على امتصاص العصارات الغذائية لتلك النباتات.

كذلك قد تتكون هذه المادة الصمغية الحلوة المذاق المعروفة باسم **(منّ السماء)** نتيجة إخراج بعض هذه الحشرات التي تعيش على امتصاص العصارات الغذائية لبعض النباتات، فتأخذ منها حاجتها وتفرز الباقي على هيئة ما يعرف باسم **(البراز العسلي)** أو **(براز حشرة المن)** أو **(الندوة العسلية)**، وبجفافه يتحول إلى هذه المادة الصمغية الحلوة المذاق والمعروفة باسم **(منّ السماء)** (Manna from Heaven) والتي سميت الحشرة باسمها.

وهناك أعداد كبيرة من الحشرات التي تتغذى على العصارات الغذائية للنباتات، وذلك

باختراق أنسجة تلك النباتات وامتصاص أقدار مختلفة من عصارتها الغذائية، وتتبع معظم هذه الحشرات رتبة تعرف باسم (نصفية الأجنحة) وعائلة تعرف باسم عائلة بق النبات (Family Aphididae) التي منها حشرة المن (Aphid)، وهي حشرة دقيقة الحجم طرية الملمس، تعيش في أسراب تقدر أعدادها بالآلاف، ويتراوح طول الحشرة البالغة منها بين3، 5 مليمترات، ويقدر عدد حشرات المن في المتر المربع من الأرض بنحو مائة ألف حشرة.

وقد زوَّد الله الخالق ﷻ هذه الحشرات التي تعيش على امتصاص العصارات الغذائية للنباتات بزوائد فمية ثاقبة/ ماصة تتناسب مع طريقة تغذيتها التي تعتمد أساساً على اختراق أنسجة النباتات وامتصاص قدر من عصاراتها الغذائية، وهذه الزوائد الفمية الثاقبة/ الماصة تتكون من أربعة فكوك مزودة بخناجر إبرية دقيقة جداً يستقر كل منها في ميزاب خاص به ولا يبرز منه إلا عند الاستعمال في ثقب أنسجة النباتات وامتصاص عصاراتها الغذائية.

وتعيش أسراب حشرة المنّ عادة على الأسطح السفلى لأوراق وأفرع النباتات التي تتطفل عليها، وتتركز عادة عند القمة النامية للنبات حيث تكون غضة وسهلة الاختراق، فترسل الإبر الثاقبة الدقيقة في فكيها العلويين للقيام بعملية الثقب والاختراق تلك، ثم ترسل الإبر الماصة الدقيقة في فكيها السفليين عبر الثقوب المتكونة للقيام بعملية الامتصاص من العصارة الغذائية للنبات.

وتنتقل الحشرة بعمليات الثقب والامتصاص من نقطة إلى أخرى على أسطح أوراق، وأفرع وسيقان النباتات مما قد يتسبب في أضرار بالغة لتلك النباتات خاصة إذا كانت من النباتات الصغيرة، فتسترخي أوراقها ثم تتجعد، ويتحول لونها إلى الاصفرار ثم إلى السواد، ومن بعد تبدأ بالتساقط، وقد تؤدي هذه العملية إلى ذبول النبتة، ووقف نموها بالكامل حتى تموت، ويحدث ذلك عادة في حالة النباتات الصغيرة، أما الأشجار فقد لا تتأثر بعملية التطفل تلك إلا في بعض الحالات الاستثنائية.

وموت النبات في حالة تعرضه لتطفل الحشرات الماصة لعصارته الغذائية ليس مقصوراً على سحب قدر من تلك العصارة، ولكن بسبب الفيروسات التي يمكن أن تنقلها تلك الحشرات من نبات إلى آخر أثناء قيامها بعملية التطفل على تلك النباتات، خاصة أن هذه الحشرات المتطفلة تنفث جزءاً من لعابها على العصارة الغذائية للنبات قبل امتصاصها وذلك بهدف هضمها، فإذا كانت قطرات اللعاب حاملة لعدد من فيروسات الأمراض فإنها تغرسها

في الحزم الوعائية الحاملة للعصارة الغذائية وتتحرك منها إلى جميع أجزاء النبات فتدمره.

وقد أدت هذه الفيروسات التي تحملها الحشرات الماصة للعصارات الغذائية للنبات - ولا تزال تؤدي - إلى تدمير العديد من المحاصيل الزراعية المهمة مثل قصب السكر، البنجر، البطاطس، وغيرها مما تتهم حشرة المن بنقل فيروسات الأمراض إليها.

وبعد سحب كميات كبيرة من العصارات الغذائية للنباتات المختلفة تقوم حشرة المن باستهلاك جزء مما مصته من تلك العصارات في توليد الطاقة اللازمة لنشاطها، وفي بناء خلايا جسدها وإعادة بناء ما يموت منها، ثم تقوم بإفراز ما يزيد على حاجتها على هيئة تلك المادة البيضاء اللزجة الحلوة المذاق والمعروفة باسم (**منّ السماء**) أو **الندوة العسلية**. وتقوم الحشرات بإسقاط إفرازاتها تلك على أوراق، وفروع وجذوع الأشجار والنباتات الأخرى التي تتطفل عليها بالليل على هيئة قطرات من سائل شمعي أو صمغي رائق سرعان ما يفقد ما به من ماء فيتجمد ويبدو في الصباح الدافئ الساكن على هيئة دقيق أو رقائق المن الجافة، وقد تتساقط قطرات من هذا السائل الحلو على الأرض المحيطة بالنبات الذي يتعرض لتطفل حشرة المنّ فتشكل مصدراً من مصادر الغذاء الميسر للعديد من الحشرات الأخرى مثل النمل والنحل والذباب، مما يجعل تلك الحشرات تتآخى مع حشرة المنّ لكي تنال جزءاً من إفرازها العسلي، كما يمكن أن ينمو على هذا السائل العسلي أيضاً عديد من الفطريات والطحالب فيتغير لونه إلى ظلال داكنة حتى السواد. كذلك قد يؤدي تقاطر العصارة الغذائية على الأرض إلى خصوبة التربة، كما قد تسيل تلك العصارة نتيجة للثقوب الدقيقة والعديدة التي تحدثها حشرات بق النبات (مثل المن) في أنسجة النباتات، وسرعان ما تتجمد تلك القطرات على هيئة رقائق بيضاء جافة نتيجة لفقد بعض محتواها من الماء، وهذه الرقائق الدقيقة التي عرفت تجاوزاً باسم منّ السماء حلوة المذاق لاحتوائها على نسب عالية من السكريات مثل سكر العنب (الجلوكوز)، وسكر الفواكه (الفركتوز) بالإضافة إلى سكر خاص يعرف باسم سكر المن (المانوز) وإلى عدد من الكربوهيدرات الأخرى، وكلها مستساغ الطعم وسهل الهضم والامتصاص، وله قيمة غذائية كبيرة ولذلك يصلح المن غذاءً جيداً للإنسان، كما يصلح لعدد من الأغراض الطبية العلاجية، أو لبعض الصناعات الغذائية الخاصة.

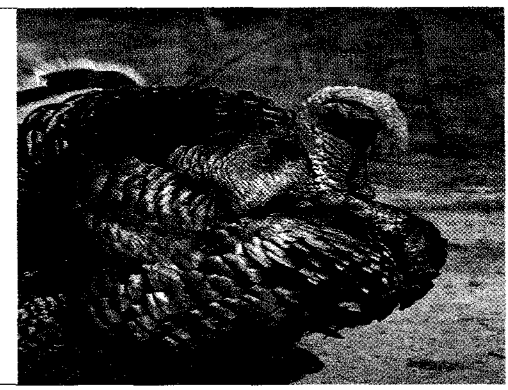
ولسنا ندري إن كان هذا هو المن الذي كان قوم نبي الله موسى عليه السلام يجمعونه من فوق

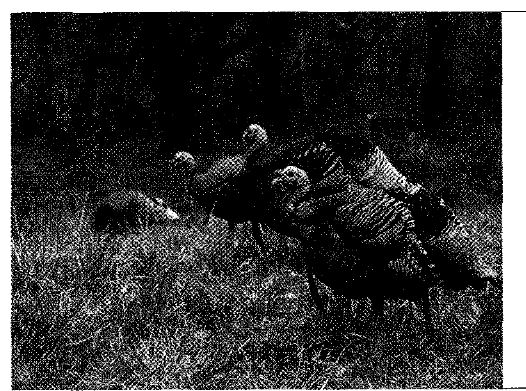
شجر الأثل المنتشر في شبه جزيرة سيناء أم غيره، خاصة أن رسول الله ﷺ وصف الكمأة في أحد أحاديثه الشريفة على أنها من المن فقال ﷺ: «**الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين**»[1] و(الكمأة) واحدها (كمء) وهي درنة من الفطريات الجذرية التي تنمو تحت الأرض بالتكافل مع جذور عدد من النباتات الخاصة التي تتعايش معها إلى عمق يصل إلى ثلاثين سنتيمتراً تحت سطح الأرض. وتنمو الكمأة في جماعات مكونة من عشر إلى عشرين درنة في الموقع الواحد من التربة، وهذه الدرنات كروية أو شبه كروية، لحمية الملمس، رخوة ويتدرج لونها من الأبيض إلى الأسود مروراً بألوان الرمادي والبني، وتتميز برائحتها النفاذة وقيمتها الغذائية العالية، وقد سميت بهذا الاسم لاستتارها بالتربة حتى تنفطر عنها، ومعناها «المكتومة» لأن العرب تقول: كمأ فلان الشهادة إذا كتمها. وتنمو (الكمأة) في صحارى الوطنين العربي والإسلامي من موريتانيا غرباً إلى أواسط آسيا شرقاً في بيئات تتراوح بين الرملية، والحصوية، والحجرية، ويزدهر نموها عادة بعد مواسم العواصف الرعدية، ومن هنا أطلق عليها البدو اسم نبات الرعد.

وللكمأة أنواعها المتعددة التي تختلف في أشكال وألوان درناتها، وفي طبيعة الأرض التي تنمو عليها، وأنواع جذور النباتات التي تتعايش معها، والأعماق التي تتواجد فيها. وأكثر أنواعها انتشاراً ينمو في الطبقة السطحية من التربة، ويدرك عن طريق تشققاتها في اتجاهين عموديين وقت نضج الدرنات، فيبادر أهل الصحراء بجمعها. ولكن إذا لم تجمع فإن هذه الدرنات سرعان ما يتكون بداخلها أبواغ ـ واحدها بوغ أو بوغاء ـ على هيئة الدقائق الترابية الناعمة جداً والتي تتطاير في الجو إذا مست لتناهي مكوناتها في الدقة، وبانفجار كيس الأبواغ تنتشر محتوياته في التربة وتكمن فيها إلى موسم المطر (في حدود أواخر شهر أكتوبر/ تشرين الأول الذي يتميز بالأمطار الرعدية المصاحبة للسحب الركامية)، وعند سقوط هذه الأمطار الرعدية الغنية بأكاسيد النيتروجين على التربة فإنها تكوّن العديد من المخصبات للتربة من النترات التي تتغذى عليها الأبواغ بعد أن تستيقظ من سباتها الطويل، وتتحول إلى خيوط فطرية دقيقة تتحرك إلى جذور النباتات الممتدة في داخل التربة التي تتواجد الأبواغ فيها، فتخترقها وتنفذ ـ بتقدير الله تعالى ـ إلى داخل أنسجة تلك الجذور النباتية متطفلة عليها في غذائها حتى يكتمل نموها على هيئة الدرنات الكاملة.

---

(1) تقدَّم تخريجه.





والكمأة مصدر مهم جداً للبروتينات النباتية بين جميع نباتات الصحراء، وتحتوي درناتها على 77٪ من وزنها ماء، 23٪ مواد صلبة منها 13.8٪ كربوهيدرات، 5.75٪ دهون ومواد بروتينية أخرى، والباقي (3.45٪) يبقى على هيئة رماد بعد حرق درنة الكمأة يحتوي على العديد من عناصر الأرض الفلزية واللافلزية. وقد تم التعرف على سبعة عشر حمضاً من الأحماض الأمينية المهمة في بروتينات الكمأة، وعلى عدد من الفيتامينات أهمها فيتامين أ.

وفي وصف رسول الله ﷺ للكمأة بأنها من المن تعبير عن أنها تنبت بفضل من الله ومنّه، لأنها لا تزرع، ولا تستزرع، ولا تحتاج إلى مؤونة بذور وبذرها أو سقي وعزق، ولا تحتاج من الإنسان إلى شيء من الرعاية أو التعب والنصب سوى ما يبذله في جمعها ثمرة غضة ناضجة، ومن هنا كان وصفها بالمن لأنها تنبت بفضل من الله ومنّه. وبالإضافة إلى قيمتها الغذائية العالية فإن رسول الله ﷺ أضاف في وصفها أن ماءها شفاء للعين، وانطلاقاً من هذا الحديث الشريف كان المسلمون يغلونها في الماء ثم يبردونه، ويكتحلون أو يتقطرون به. وقد قام أحد كبار أطباء العيون المسلمين المعاصرين؛ وهو الأخ الكريم الدكتور المعتز المرزوقي بإثبات أن ماء الكمأة يمنع حدوث التليف في حالات أمراض العيون المعروفة باسم التراكوما، والرمد الحبيبي، والرمد الربيعي وكلها قد يفضي إلى فقدان البصر بسبب تليف قرنية العين، ويقلل ماء الكمأة من حدوث مثل هذا التليف بشكل ملحوظ تصديقاً لنبوءة المصطفى ﷺ.

وسواء كان المقصود بالمن تلك الإفرازات الصمغية/ السكرية الحلوة المذاق التي تفرزها بعض النباتات الصحراوية مثل الأثل أو الطرفة، والتي تسيل منها على هيئة قطرات

من عصاراتها الغذائية بطريقة فطرية، أو نتيجة لثقبها بواسطة أنواع خاصة من الحشرات التي تعيش على امتصاص العصارات الغذائية لتلك النباتات، ثم تجف بعد سيلانها على أسطح الأجزاء النباتية المختلفة بسبب فقدها لمكوناتها المائية متحولة إلى تلك التجمعات الحلوة المعروفة باسم منّ السماء، أو كانت تلك التجمعات السكرية ناتجة عن إفرازات الحشرات التي تتغذى على العصارة النباتية من مثل حشرة المن (أو بق النباتات) فتستهلك جزءاً منها وتفرز ما يزيد على حاجتها على هيئة تلك المادة السكرية، أو أن المقصود بذلك (الكمأة) وما يشبهها من أنواع الرزق الذي يسوقه الله ﷻ إلى من يشاء من عباده على غير جهد منه سوى جمعه؛ لأن (المن) هو اسم للعطاء الرباني بصفة عامة، فإن الجمع بين (المن والسلوى) في النص القرآني الكريم الذي نحن بصدده يرجح المعنى الأول على أنه رزق نباتي ساقه الخالق ﷻ لقوم موسى وهم الجاحدون لنعمه المرتدون عن عبادته إلى عبادة العجل، والمنكرون لأفضاله وكراماته ومعجزاته، والمتمردون على رسوله إليهم ليجمعوه ويأكلوه وهم في التيه بشبه جزيرة سيناء أقرب إلى الهلاك والضياع من النجاة إلى بر الأمان.

والجمع بين ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ بهذا المعنى هو جمع بين الكربوهيدرات النباتية بما فيها من سكريات ونشويات وغيرها ممثلة في (المن) وبين البروتينات الحيوانية ممثلة في (السلوى)، وكلاهما لازم لإنتاج الطاقة ولبناء خلايا جسم الإنسان. هذا بالإضافة إلى أن البروتينات المستمدة من لحوم الطيور مثل السلوى (طير السمان أو السماني) هي أيسر في الهضم وأفضل لجسم الإنسان من تلك المستمدة من لحوم الأنعام، وهي أيضاً أفضل في ذلك من بروتينات البقول النباتية من حيث سهولة هضمها وتمثيلها واستفادة جسم الإنسان منها. ولذلك جاء قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ «سورة البقرة، الآية: 61».

وواضح المعنى أن الأدنى هو: البقل، والقثاء والفوم والعدس والبصل، وأن الذي هو

خير هو ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، والبقل يشمل عدداً من نباتات المحاصيل مثل الفول، البازلاء، الفاصوليا، اللوبيا، الحمص، الفول السوداني، فول الصويا، الحلبة، الترمس، وغيرها، والقثاء ثمرة من العائلة القرعية التي تشمل الخيار، الكوسة، القرع العسلي، البطيخ، الشمام، والقاوون، وغيرها. أما (الفوم) فقد قيل فيه أنه الحنطة (وتشمل غيرها من الحبوب التي تخبز من مثل الذرة والشعير أو أنه الثوم، والقول الأول أصح، والعدس من البقول وخصص بالاسم لقيمته الغذائية وأهميته الخصوصية، والبصل من العائلة الزنبقية وتشمل بالإضافة إلى البصل: الثوم، والكرات البلدي، والكرات أبوشوشة وغيرها.

وفضل البروتينات المستمدة من لحوم الطيور على تلك المستمدة من كل من لحوم الأنعام ومن البقول وكذلك فضل السكريات وغيرها من الكربوهيدرات المستمدة مِنْ منّ السماء على مثيلاتها في المحاصيل النباتية من الأمور التي لم تدرك إلا في القرن العشرين، والإشارة إليها في كتاب الله الذي أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرناً على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين يعتبر من الأدلة العلمية على صدق القرآن الكريم، وصدق الوحي الذي تلقاه خاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ وعلى صدق نبوته ورسالته، هذا فضلاً عن الإنباء بدقة بالغة عن حدث تاريخي لم يكن لأحد من الأميين ولا القادرين على القراءة والكتابة في الجزيرة العربية إلمام به، حتى من كان لديهم شيء من إلمام تضاربت أقوالهم في وصف هذه الواقعة تضارباً كبيراً ولا يزال هذا التضارب واضحاً فيما بقي من آثارهم إلى يومنا الراهن. فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على بعثة خير الأنام، وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله الذي أكمل الله سبحانه وتعالى ببعثته الدين، وأتم نعمه على خلقه والتي كان من أجلِّها تعهد الله الخالق بحفظ رسالته الخاتمة حفظاً كاملاً بنفس لغة وحيها حتى تكون شاهدة على الناس أجمعين إلى يوم الدين، وما ذلك على الله بعزيز، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ
يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ
ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ **فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ**
ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ
فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ
قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن
كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤ فَلَمَّا

14



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ...﴾

«سورة الأعراف، الآية: 133».

14

هذا النص القرآني الكريم جاء في أوائل الثلث الأخير من سورة الأعراف، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (206) بعد البسملة، وهي من طوال سور القرآن الكريم، وأطول السور المكية على الإطلاق، وأول سور القرآن الكريم تعرضاً بشيء من التفصيل لقصص عدد من الأنبياء والمرسلين السابقين لبعثة خاتمهم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ. وقد سميت السورة بهذا الاسم لوجود الإشارة فيها إلى الأعراف، وهي أسوار مضروبة بين الجنة والنار للحيلولة بين أهليهما، تكريماً لأهل الجنة وامتهاناً لأهل النار.

ويدور المحور الرئيسي للسورة الكريمة حول العقيدة الإسلامية القائمة على أساس من التوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولاصاحبة ولا ولد؛ والتسليم الكامل بعبودية جميع الخلق لله سبحانه وتعالى وحده، والإيمان الصادق بوحي السماء، والطاعة التامة لأوامر الله المنزلة على فترة من الرسل والتي تكاملت في القرآن الكريم وفي سنة النبي الخاتم ﷺ.

وهذه العقيدة الإسلامية التي تشكل صلب الدين الذي يرتضيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده ولا يرتضي منهم ديناً سواه علمها ربنا سبحانه وتعالى لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم أنزلها على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله (120،000 نبي وثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً)، وأكملها وأتمها وحفظها في الرسالة الخاتمة التي أنزلها على خاتم أنبيائه ورسله، ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ ولذلك بعثه شاهداً ومبشراً ونذيراً للناس أجمعين إلى يوم الدين، وتعهد بحفظ رسالته في نفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ فحفظت على مدى أربعة

عشر قرناً أو يزيد، وسوف تبقى محفوظة إلى قيام الساعة تحقيقاً لوعد الله الذي قطعه على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ «سورة الحجر، الآية: 9».

وأبرزت سورة «الأعراف» أزلية عقيدة التوحيد في ردود عدد من أنبياء الله ورسله على أقوامهم بالقول السديد: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾. والتي ترددت أربع مرات في هذه السورة الكريمة على لسان كلٍّ من نوح، وهود، وصالح، وشعيب ـ على نبينا وعليهم وعلى جميع أنبياء الله السلام ـ، وأتبعت هذه الدعوة المباركة في كل مرة بتحذير أو تقريع شديد، وذلك من مثل قول نوح عليه السلام لقومه:

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 59».

وإلى قول نبي الله هود لقومه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 65».

وإلى قول كلٍّ من صالح وشعيب عليهما السلام إلى قوميهما:... ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «سورة الأعراف: الآيتان: 73 و85».

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «الأعراف»:

1 ـ الإيمان بالقرآن الكريم وحياً خاتماً منزلاً من عند الله ـ تعالى ـ على خاتم أنبيائه ورسله، وضرورة الدعوة إلى الإيمان به، والإنذار من عاقبة التنكر له، أو محاولة إنكاره، وتحمل كل حرج في سبيل ذلك لأنه يمثل مواجهة كل صور الباطل المنتشرة في أرجاء الأرض بالحق الوحيد الذي لا يرتضي ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده ديناً سواه، ومقابلة كل صور الكفر، والشرك، والضلال، والظلم، والفساد، والطغيان، بالتوحيد الخالص لله، وخشيته وتقواه، واستبدال العديد من النظم الجائرة، والأوضاع الفاسدة، والانحرافات عن منهج الله في مجتمعات الناس بإقامة عدل الله في الأرض، وتأسيس القواعد لمراقبته وتقواه.

2 ـ التسليم بأن الله ـ تعالى ـ منزه عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

3 ـ اليقين بما أنزل الله ـ تعالى ـ بالعاصين من أفراد الأمم السابقة من مختلف صور العقاب المذكورة في محكم كتابه، والتسليم بحتمية مساءلة المرسلين والمرسَل إليهم.

4 ـ التصديق بحتمية البعث والحساب والجزاء في الآخرة، ثم الخلود فيها إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

5 ـ التسليم بأن الله ـ تعالى ـ مستحق للشكر الدائم على عظيم نعمائه، وأن من صور هذا الشكر الخضوع له بالطاعة وبالعبادة كما أمر.

6 ـ الإيمان بحقيقة الخلق، وبأن الله ـ تعالى ـ هو الخالق البارىء المصور، والتسليم بكرامة الإنسان ما دام مطيعاً لأوامر ربه، واليقين بعداوة الشيطان للإنسان ومحاولة غوايته كما فعل مع كل من أبينا آدم وأمنا حواء، وبأن آدم عليه السلام قد تاب وأناب، وكذلك أمنا حواء وأن الله ـ تعالى ـ قد قبل توبتهما، وبأن أحداً من ذريتهما لا يحمل شيئاً من وزرهما، على الرغم من تخرص المتخرصين، وزعم بعض الجهلة من المشركين، والتأكيد على أن الإنسان مطالب دوماً بمعصية الشيطان وبالحذر من غوايته.

7 ـ اليقين بأن الله سبحانه وتعالى قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، كما حرم الشرك به، وأن يقول العباد على الله ـ تعالى ـ ما لا يعلمون، وحرم الإسراف وغيره من صور الإفساد في الأرض.

8 ـ التسليم بأن الآجال محددة، وأنه لا يستطيع أحد من المخلوقين تغييرها.

9 ـ الإيمان بأنه من اتقى وأصلح من عباد الله المكلفين فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن من كذب منهم بآيات الله واستكبر عنها فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، لأن ذلك من أعظم صور الظلم للنفس.

10 ـ الإيمان بما جاء في كتاب الله الخاتم من وصف لأحوال كلٍّ من أهل الجنة وأهل النار.

11 ـ اليقين بأن دعاء الله ـ تعالى ـ تضرعاً وخفية من أعظم العبادات قبولاً من الله.

12 ـ الإيمان بجميع رسل الله ورسالاته دون أدنى تفريق أو تمييز، واليقين بوحدة كل تلك الرسالات التي دعت الخلق إلى توحيد الخالق ﷻ، وإلى الإيمان بأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأن العاقبة للمتقين.

13 ـ التسليم بأن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مرسل للناس جميعاً، وأن ذكره قد جاء في كتب الأولين من أهل الكتاب، وإن أنكره المنكرون، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *﴾ «سورة الأعراف، الآيتان: 157، 158».

14 ـ الإيمان بأن لله الأسماء الحسنى التي لا يجوز أن يدعى إلا بها، وأن الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون.

15 ـ اليقين بأن الساعة علمها عند الله ـ تعالى ـ وحده، لا يعلمه إلا هو، وأنها ثقلت في السمٰوات والأرض، وأنها لا تأتي الناس إلا بغتة.

16 ـ الإيمان بأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله، وأنهم يسبحونه وله يسجدون.

من الإشارات العلمية في النص الكريم:

جاء في سورة «الأعراف» عدد كبير من الآيات الكونية والتاريخية التي يمكن إيجاز دلالاتها فيما يلي:

1 ـ الإشارة إلى فجائية العقاب الإلٰهي (بأس الله) كما يتضح من قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 4».

ويتأكّد نفس المعنى في الآيات 97، 99 من نفس السورة.

2 ـ التأكيد على عملية التصوير بعد الخلق وفي ذلك يقول ربنا ـ عز من قائل ـ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 11».

3 ـ وصف خلق الجن من نار وخلق الإنس من طين:.. ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 12».

4 ـ تأكيد حقيقة العداوة بين كل من الشيطان والإنسان، وإلى مرحلية وجودهما على الأرض وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *﴾ «سورة الأعراف، الآيتان: 24، 25».

5 ـ الإشارة إلى السرعة الفائقة التي كانت الأرض تدور بها حول محورها أمام الشمس في بدء الخلق، وإلى أن جميع أجرام السماء من مثل الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله الذي له الخلق والأمر وفي ذلك يقول ـ عز من قائل ـ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 54».

6 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يرسل الرياح، ويكوّن السحب وينزل المطر، ويخرج النبت والشجر والثمر، وأنه ـ تعالى ـ سوف يخرج الموتى بنفس طريقة إخراج النبت من الأرض وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 57».

7 ـ الإشارة إلى أن البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، وأن الذي خبث لا يخرج إلا نكداً (الآية 58 من سورة الأعراف).

8 ـ ذكر عدد من الأنبياء والمرسلين السابقين على بعثة خاتمهم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وعرض خلاصة دعوتهم إلى أقوامهم، وتفاعل هؤلاء الأقوام مع تلك الدعوة، ووصف عدد من المعجزات التي أيد الله ـ تعالى ـ بها أنبيائه، ورسله، واستعراض عدد من صور العقاب الذي أنزله الله ـ تعالى ـ بالكفار والمشركين من تلك الأقوام، والكشوف الأثرية المتتالية تؤكِّد صدق القرآن الكريم في كل ما جاء به عن ذلك.

9 ـ التأكيد على أن الطبع على القلوب يوقف السمع.

10 ـ وصف العذاب الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فرعون مصر وآله وكان فيه الطوفان والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وهو عذاب لا يقوى أحد من الخلق على مقاومته إلا ما شاء الله ـ تعالى ـ.

11 ـ الإشارة إلى أن للأرض عدداً من المشارق والمغارب.

12 ـ ذكر تظليل قوم موسى بالغمام، وهم في التيه ضائعون في قلب شبه جزيرة سيناء، والإشارة إلى إنزال المن والسلوى عليهم.

13 ـ ذكر معجزة مسخ عدد من منافقي ومشركي وكفار بني إسرائيل إلى قردة وخنازير.

14 ـ الإشارة إلى إذلال عصاة بني إسرائيل عبر التاريخ ـ وإلى يوم القيامة ـ، بواسطة من يسومهم سوء العذاب عقاباً لهم على كفرهم وشركهم وإفسادهم في الأرض والله سريع العقاب وهو الغفور الرحيم لمن تاب وأناب.

15 ـ التأكيد على تحريف اليهود للتوراة التي جاءهم بها موسى عليه السلام وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 169».

16 ـ الإشارة إلى حقيقة من حقائق علم الوراثة وهي خلق جميع البشر من نفس واحدة. وجعل زوجها منها، وتكدس الشيفرات الوراثية للبشرية كلها في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأن الله ـ تعالى ـ قد أشهد تلك الذرية الآدمية وهي في عالم الذر بحقائق الربوبية والألوهية والوحدانية المنزهة عن كل وصف لا يليق بجلال الله.

17 ـ دعوة الناس جميعاً إلى النظر في ملكوت السمٰوات والأرض، والتعرف على خلق الله سبحانه وتعالى واستخلاص العبر من ذلك.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثانية عشرة والتي جاءت في الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة من سورة الأعراف، وقبل التعرض لما جاء فيها من دلالات علمية أرى ضرورة الاستعراض السريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ «سورة الأعراف، الآية: 133».

- ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ عن ابن عباس: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، وعنه: هو كثرة الموت، وقال مجاهد: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ الماء والطاعون، وأما الجراد فمعروف مشهور.. وأما القُمَّل فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة...».

وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره، خاصة وأن أغلبهم كان قد استند في تفسير هذا النص القرآني المعجز على شيء من الإسرائيليات ومن الروايات المنقولة عن أهل الكتاب والتي لا سند لها، ولا أصل ولا دليل يدعمها.

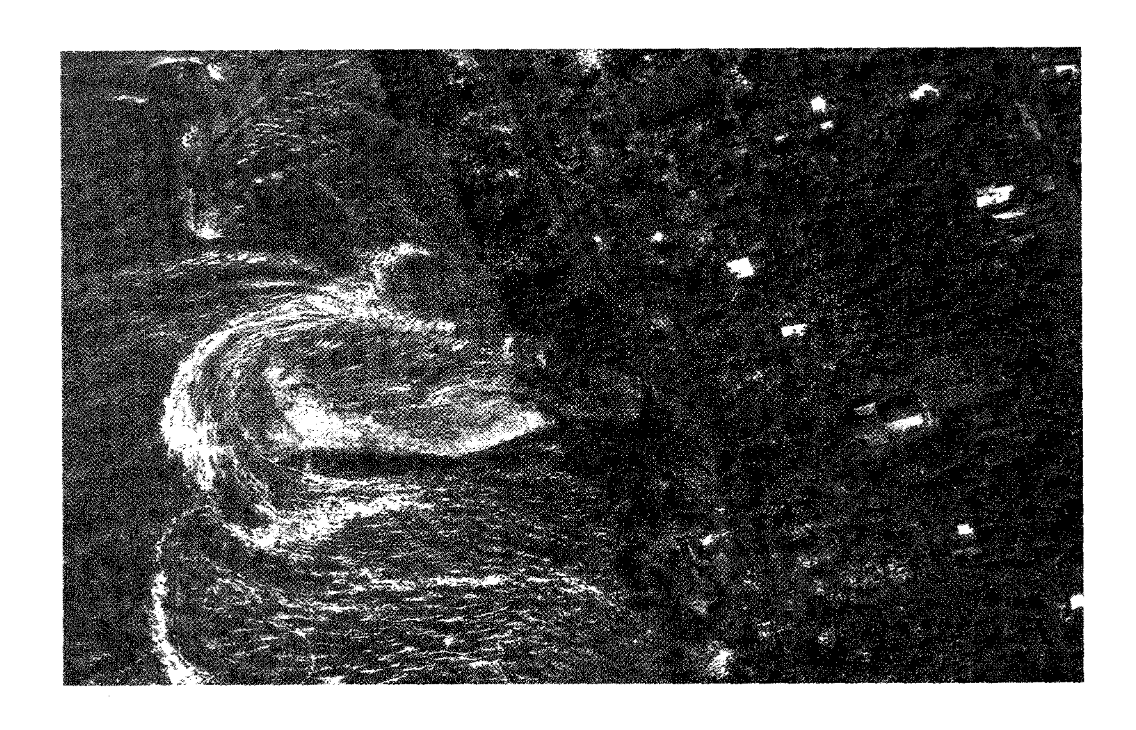
أولاً: الطوفان:

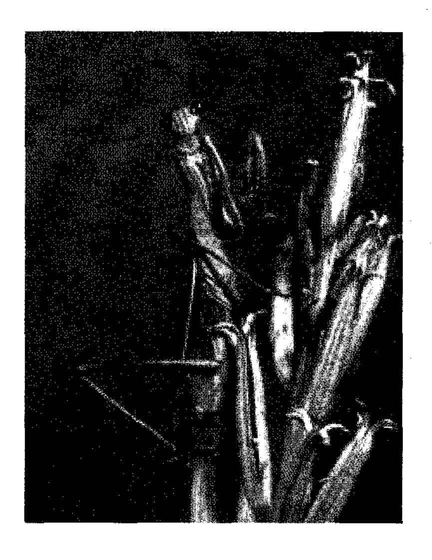
الطوفان كل حادثة تحيط بالإنسان وصار متعارفاً في الماء المتناهي في الكثرة سواء كان هذا الماء بسبب الماء الغالب الذي يغشى كل شيء فيدمره تدميراً كما يحدث في حالات السيول الجارفة أو فيضانات الأنهار المغرقة أو انصهار الجليد، أو تفجر الماء من تحت سطح الأرض أو طغيان البحار؛ وذلك لأن الطوفان الذي أصاب قوم نوح كان بسبب ماء كلٍّ من الأرض والسماء، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ «سورة العنكبوت، الآية: 14».

ويقول ـ عز من قائل ـ:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «سورة هود، الآية: 44».





ولسنا ندري على وجه التحديد أسباب الطوفان الذي أرسله الله ـ تعالى ـ على قوم فرعون، فلم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ﷺ شيئاً عنها، ونرى أن من الواجب الوقوف عند حدود النص القرآني ما دمنا لم نجد في السنة المطهرة تفسيراً له، وذلك تجنباً للوقوع في الإسرائيليات التي لا سند لها. وأغلب الظن هنا أن السبب في طوفان قوم فرعون كان كثرة الأمطار المغرقة، والسيول الجارفة التي أتلفت الزروع والأشجار ودمرت المساكن والمنشآت والطرقات، وأدت إلى فيضان النيل الذي ساعد في هذا الإتلاف والتدمير. وذلك لأنه لا يوجد دليل من الصخور الرسوبية أو الرسوبيات يشير إلى طغيان البحر الأبيض المتوسط في ذلك الزمن على أرض مصر، ولا يوجد أثر لتفجر الماء من تحت سطح الأرض، ولم تكن أرض مصر مكسوة بالجليد إلا في أزمنة غابرة تمتد إلى الفترة بين500 مليون سنة مضت، و400 مليون سنة مضت على وجه التقريب (في الفترة الزمنية الفاصلة بين العصرين الأوردوفيشي والسيليوري). وقد وردت روايات شتى في شأن النص القرآني الذي نحن بصدده رواها الإمام الطبري في تفسيره، وفي كتابه عن التاريخ، ولكن يبدو أنه على روعة الجهد الذي بذله قد اعتمد في ذلك على عدد غير قليل من الإسرائيليات.

ثانياً: الجراد (Locusts):

(الجراد) اسم جنس لمجموعة من الحشرات المستقيمة الأجنحة، والتي تجمع في رتبة بهذا الاسم: رتبة مستقيمات الأجنحة = (Orthoptera)، وتضم بالإضافة إلى الجراد مجموعة كبيرة من الحشرات منها **نطاط الحشائش، والحفار، والصرصار (الصرصور)** وغيرها.

وواحدة الجراد (الجرادة) وهو لفظ يطلق على كل من الأنثى والذكر، فيقال أنثى الجرادة، وذكر الجرادة، كما يقال ذكر الجراد وأنثى الجراد.

ويوضع **الجراد** مع **نطاط الحشائش** (Grass Hopper) في عائلة واحدة تعرف باسم **عائلة الجراديات** (**Family Acrididae**)، وتتميز الحشرات فيها بالفم القارض، والأجنحة

المستقيمة، وبالقدرة الفائقة للحشرة البالغة على التجمّع في أسراب كبيرة، والهجرة عبر مسافات طويلة.

ويتراوح طول الحشرة البالغة من الجراد بين السنتيمتر وعشرة السنتيمترات، ويصل عدد الجراد المهاجر في السرب الواحد إلى عشرات البلايين، مما يجعله يغطي مساحة تقدر بأكثر من ألف كيلومتر مربع، بكتلة تقدر بآلاف الأطنان، ويأكل مثل هذا السرب في اليوم الواحد قدر وزنه من المزروعات، ومن هنا كانت تسمية هذه الحشرة الخطيرة باسم (الجراد) وهو اسم مستمد من الفعل (جرد) بمعنى أزال وكشف، وعرى وقشر، يقال: (جرد الجراد الأرض جرداً) أي أكل جميع ما عليها من نبات حتى تجردت من غطائها الخضري كما يجرد المرء عن ثيابه، و(الجرادة) بضم الجيم ما قشر عن الشيء أي أزيل عنه، و(الجريد) هو السعف الذي (جرد) منه الخوص أي نزع عنه، و(التجريد) هو التعرية من الثياب،و(التجرد) هو التعري من الثياب أو من غيرها.

وتهاجر أسراب الجراد على ارتفاعات مختلفة من سطح الأرض، فمنها ما يطير على ارتفاعات منخفضة لا تتجاوز ثلاثمائة متر فوق مستوى سطح البحر في طبقات مستوية من الجراد المتراص بكثافات تتراوح بين مليون وعشرة ملايين جرادة في الكيلومتر المربع الواحد ـ الأسراب الطباقية ـ ومنها ما يصعد إلى ارتفاعات تصل إلى ألف متر فوق مستوى سطح البحر في هيئة تراكمية يأخذ فيها سرب الجراد شكل السحب الركامية فيسمى باسمها ـ الأسراب الركامية ـ يتوزع فيها الجراد في أكوام منها القمم السامقة، والسفوح الهابطة، والأودية الفاصلة، وبكثافات أقل من كثافة الأسراب الطباقية يتراوح فيها توزيع الجراد بين الألف ومائة الألف جرادة في الكيلومتر المربع، وتساعد تيارات الحمل في الغلاف الغازي للأرض ـ الهواء ـ على إعطاء أسراب الجراد المهاجرة على ارتفاعات عالية هذه الأشكال الركامية؛ ولذلك يختلف شكل سرب الجراد الركامي في هجرته من وقت إلى آخر باختلاف التيارات الهوائية التي تواجهه، وإن كان الجراد بفطرته يقود سربه مع الاتجاه الرئيسي للرياح السائدة أو في اتجاه ممرات الهواء التي يتحرك الريح الرئيسي صوبها. وغالباً ما تهاجر أسراب الجراد في النهار، وتحط في الليل على المزروعات والأشجار تلتهم منها كميات كبيرة تعينها على استئناف الهجرة في الصباح التالي.

وتتحرك أسراب الجراد بانضباط شديد تحت قيادة صارمة، فتتحرك مقدمة السرب قبل مؤخرته باستمرار، وتحط قبلها، حتى تحدد اتجاه السرب ومواقع الهبوط ولحظات الانطلاق في كل يوم. وتبدأ دورة حياة الجراد بوضع البيض في أماكن محددة، ورعايته حتى يفقس في حدود شهر مايو/أيّار من كل سنة لتخرج منه الحوريات التي تقوم بعملية الانسلاخ من جلدها عدة مرات حتى تصل إلى حجم الحشرة البالغة التي تحيا في بادىء الأمر حياة فردية، ثم تمر بمرحلة انتقالية لتكوين جماعة، ثم تنتهي بمرحلة الهجرة الجماعية التي تقطع فيها أسراب الجراد المهاجر مسافات شاسعة تمر خلالها بمناطق التكاثر الصيفي، والشتوي والربيعي حتى تعود إلى مناطق تكاثرها الأولى التي انطلقت منها. وهذه الحشرات تصل إلى مرحلة البلوغ عادة في الفترة من منتصف شهر يوليو/تموز إلى منتصف شهر سبتمبر/أيلول من كل سنة. وعلى الرغم من علمنا بدورة حياة الجراد إلا أن غاراته لا يمكن التنبؤ بها قبل بدئها، فقد يبقى الجراد في منابته الأصلية ويقوم بتكاثر محدود دون هجرة لفترات طويلة ودون الخروج من أسرابه المعتادة، ثم يعاود تسارع تكاثره بشكل ملحوظ وتنظيم أسرابه لمفاجأة البدء بالهجرة الجماعية، وهذا



مما يؤكد على أنه من جند الله التي يسخرها بعلمه وحكمته وإرادته للإغارة على من يشاء من عباده، وقتما يشاء وحيثما يشاء؛ عقاباً للعاصين وابتلاءً للصالحين وعبرة للناجين، شأنه في ذلك شأن العديد من ظواهر الكون وسنن الله فيه من أمثال الهزات الأرضية، والثورات البركانية، والعواصف، والأعاصير والسيول، والطوفانات النهرية والطغيانات البحرية، وموجات الجفاف القاتلة، والشهب والنيازك والأشعات الكونية المختلفة وغيرها.

ومنابت الجراد ليست دائمة باستمرار، بل تتغير من فترة إلى أخرى، وإن كانت هناك أحزمة معروفة لغزوات الجراد كما أن هناك أحزمة محددة تكثر فيها الهزات الأرضية.

وللجرادة قدرة فائقة على الطيران لمسافات طويلة تصل إلى مائة كيلومتر في اليوم، وذلك بما حباها الخالق ﷻ به من قوة عضلية فائقة بالنسبة إلى حجمها، وتمكنها هذه القوة العضلية غير العادية من خفق جناحيها لفترات متصلة تتراوح بين الست ساعات والست عشرة ساعة مما يعينها على اجتياز كل العوائق المائية والتضاريسية. والطاقة اللازمة لهذا الجهد الخارق للعادة تُستمد من تمثيل كل من المواد الكربوهيدراتية التي تحصل عليها مما تلتهمه من غذاء أولاً، ثم مما تختزنه في جسمها الناحل من دهون.

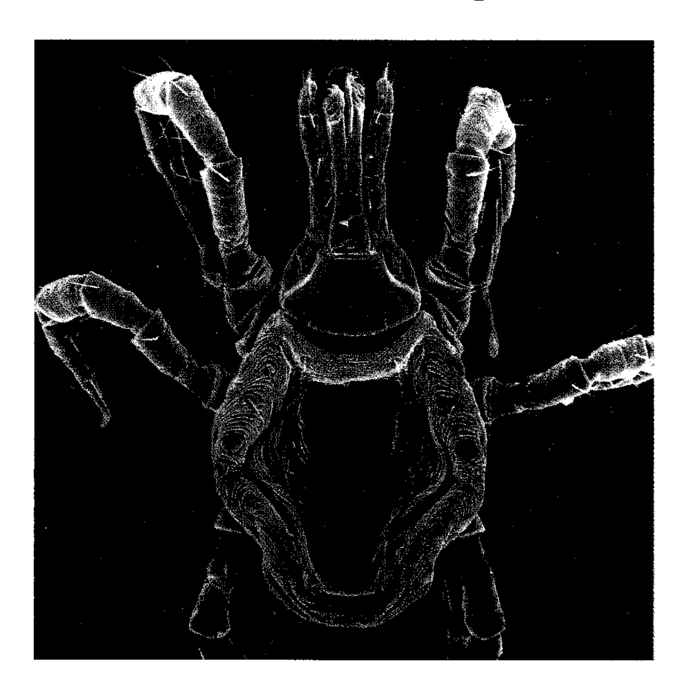
ويقوم الجراد بهضم المواد النباتية التي يقرضها من الزروع والأشجار بنهم شديد، ويستخلص ما بها من مواد سكرية ونشوية وسيليولوزية وزيتية ودهنية، ويحللها إلى مكوناتها الأساسية في عمليات من الهضم والتمثيل ـ الأيض ـ المعقدة، ومن أمثلة ذلك أن الله ـ تعالى ـ قد أعطى للجراد القدرة على استخراج غاز الأيدروجين من الدهون المختزنة في جسده، وعندما يصل ذلك إلى دمه وتتم عملية احتراقه بواسطة الأكسجين الجوي يتكون الماء في داخل جسم الجراد بالقدر الذي يحتاج إليه خلال رحلة طيرانه الطويلة دون الحاجة للنزول إلى الأرض من أجل الارتواء؛ وذلك لأنه يستهلك كميات كبيرة من الماء أثناء طيرانه لا يكفيه فيها ما يأخذه من النباتات الغضة التي يلتقمها بشراهة كبيرة.

ومن هذا الاستعراض الموجز للجراد يتضح أن هذه الحشرة من جند الله التي يسخرها ﷻ على من يشاء من عباده عقاباً للمجرمين من العصاة الفاجرين، وابتلاء للصالحين، وعبرة للناجين ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾

ثالثاً: القمل (Louse, pl. Lice):

القمل من الحشرات غير المجنحة التي تجمع في طويئفة (تصغير طائفة) تسمى باسم طويئفة الحشرات غير المجنحة، أو طويئفة غير المجنحات (Subclass Apterygota) وتضم هذه الطويئفة حشرات صغيرة الحجم، عديمة التحول؛ بمعنى أن الحشرة في مراحلها الأولية تشبه الحشرة البالغة إلى حد كبير على الرغم من ضآلة حجمها وعدم اكتمال أعضائها التناسلية، ويقع القمل من هذه الطويئفة في رتبة خاصة تتميز بعدم وجود قرون شرجية؛ ولذا تسمى باسم رتبة عديمة الذنب (Anoplura). وهذه الحشرات غير مجنحة، وذات قرون استشعار قصيرة وتضم أنواعاً كثيرة من القمل مثل: **قمل الإنسان (Pediculus humanus)**، **قمل الطيور** (Mallophaga)، **قمل النحل**، **قمل النبات**، **قمل الخشب**، **قمل الكتب**، وغيرها، وكلها حشرات ضئيلة الحجم، بنية غامقة أو مصفرة اللون، يصل طول الحشرة البالغة منها إلى ثلاثة مليمترات في المتوسط.

ومن القمل أنواع ماصة للدماء كالتي تحيا على أجساد الثدييات، وأنواع قارضة كالتي تحيا على أجساد الطيور،ولكل حيوان ثديي نوعه الخاص به من القمل الماص للدماء، ولقمل الإنسان ـ وهو من النوع الماص للدماء ـ سلالتان: قمل الرأس وقمل الجسم،



والأخير يمثل آفة شديدة الضراوة في إيذاء الإنسان وشديدة الضرر به لأنها تنقل إليه الجراثيم المسببة للعديد من الأمراض التي من أخطرها مرض التيفوس الوبائي. أما قمل الرأس فيكثر في الصغار عنه في البالغين، وفي رؤوس الفتيات عنه في رؤوس الفتيان.

ويلتصق بيض القمل القارض في الشعر الخاص بكل من الإنسان أو الحيوان، أو في ريش الطيور. ويموت القمل بسرعة إذا أزيل عن عائله، ولكن نظراً لجلده السميك وأرجله القوية، وفكوكه القارضة، ومخالبه الكبيرة التي يستخدمها في التعلق بجسد عائله أو بشعره فإن إزالته عن جسم العائل تستلزم جهداً غير قليل.

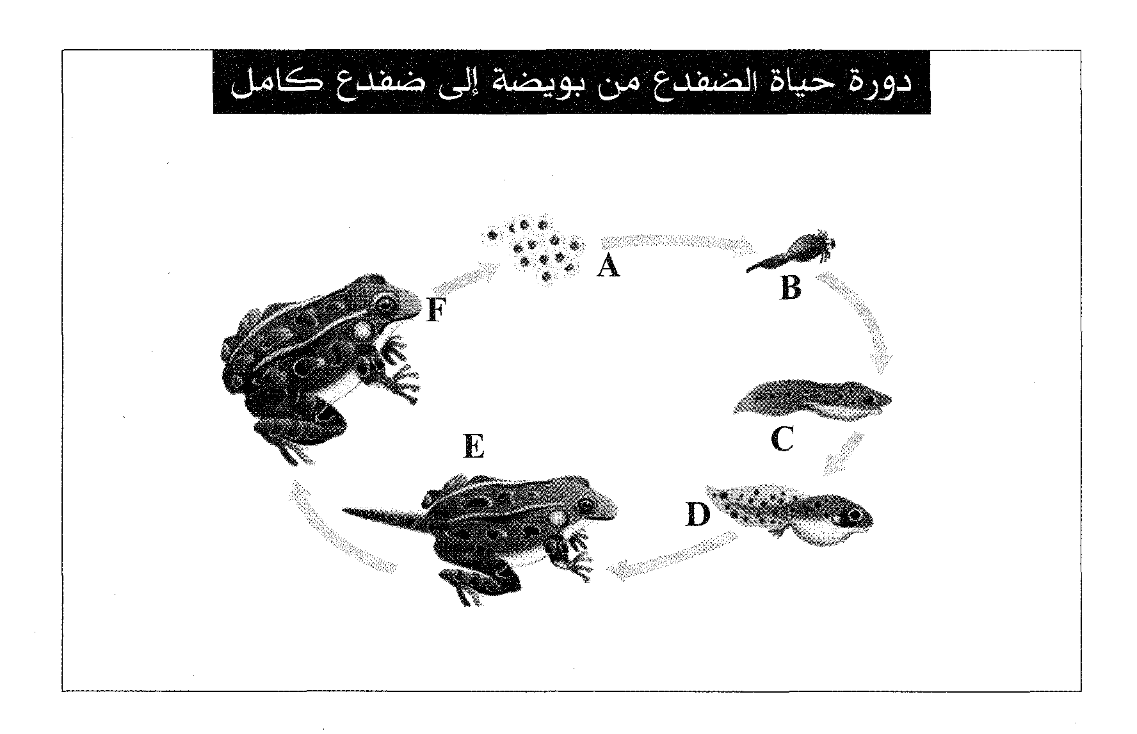
والقمل القارض (Mallophaga) لا يمتص الدم بل يتغذى من نتاج الجلد كالقشور، وأجزاء الشعر أو الريش، ونتيجة لاغتذائه بهذه الطريقة فإنه يسبب تهيجاً شديداً للعائل الذي يتعيش على جسده أو رأسه، وبفعل الاحتكاك الناشىء عن مخالبه فإنه يسقط بعض الريش عن جسم الطائر الذي يتطفل عليه.

والقمل الماص للدماء (Siphuncularta) يعيش على أجسام كلٍّ من الإنسان والحيوان؛ خاصة الحيوانات الثديية ولكل حيوان ثديي نوعه الخاص من القمل الماص.

والقمل كغيره من المخلوقات هو جند من جند الله، يسلطه على من يشاء من عباده، عقاباً للظالمين من الكفرة والمشركين، والغلاة المفسدين في الأرض، والمتجبرين على الخلق، وابتلاء للصالحين واختباراً لصبرهم ولرضائهم بقضاء الله وقدره، واعتباراً للناجين الذين رأوا ذلك رأي العين ولكن لم يصبهم من أذاه شيء.

رابعاً: الضفادع (Frog, Toad, Rana):

الضفادع من البرمائيات عديمة الذيل التي تجمع في طويئفة (تصغير طائفة) تحمل نفس الاسم: طويئفة البرمائيات عديمة الذيل أو للاختصار طويئفة عديمات الذيل (Subclass Anura = Salientia) وتتميز الضفادع بأرجلها الخلفية الطويلة القوية المهيأة للقفز، والأرجل الأمامية القصيرة، والأقدام الجلدية المعدة للسباحة. وبعض الضفادع تحيا حياة بحرية وإن استطاعت العيش على اليابسة والبعض الآخر يحيا أساساً على اليابسة مع إمكانية العيش في الماء والذي يعيش من الضفادع على اليابسة يحيا على الأشجار أو يدفن نفسه في أوحال الأرض. والضفدع له لسان طويل لزج، ومرتبط بمقدمة



الفم ليصطاد به فريسته من الحشرات والديدان وغيرها بمفاجأة وبسهولة مهما كانت بعيدة عنه، ومعظم الضفادع لها أسنان في فكها العلوي.

وتبدأ دورة حياة الضفدع بوضع البيض المخصب في الماء، ورعايته حتى يفقس. وتخرج اليرقات التي تتنفس أولاً بالخياشيم، وهذه اليرقات ليس لها أقدام، ومع نموها تأخذ شكل الضفدع الكامل، وتبدأ في التنفس بواسطة الرئتين وتحصل على الأكسجين اللازم لعملية التنفس عبر كل من الجلد الرطب وبطانة الفم الرطبة.

ونقيق الضفادع من الأصوات المزعجة للإنسان، لأنه يسمع عبر مسافات طويلة تقدر بالأميال، والكيس الصوتي المتضخم للذكر في بعض أنواع الضفادع قد يزيد في طوله على بقية الجسم مما يضاعف من شدة نبرات نقيقه. ليس هذا فقط بل إن بعض الضفادع قد يحمل للإنسان عدداً من الفيروسات التي تصيب كلاً من الكبد والكلى، ولذلك كان من الأخطار التي تهدد حياة الإنسان خاصة أن الضفادع تؤكل في بعض الدول مثل فرنسا!





خامساً: الدم (Blood):

الدم سائل أحمر اللون، غليظ القوام، سريع التخثر، يتكون أساساً من كرات الدم الحمراء والبيضاء بالإضافة إلى العديد من الصفيحات، والجسيمات الأخرى، ويعوم ذلك كله في سائل أصفر باهت يعرف باسم البلازما، ويقوم الدم بنقل كلٍّ من الغذاء والأكسجين والهرمونات إلى مختلف أجزاء الجسم، ويجمع منها الفضلات، كما يقوم بمحاربة كل الجراثيم التي تدخل إلى الجسم، ويساعد على اندمال الجروح وفي المحافظة على درجة حرارة الجسم.

والدم إذا سال خارج الجسم سرعان ما يتعفن وينتن بسبب ما يحمله من فضلات وجراثيم؛ ولذلك حرم طعامه؛ ولذلك أيضاً كان تسليطه كعقاب من الله ـ تعالى ـ على فرعون موسى وآله، الذين لم يؤمنوا برسالة الله ولا برسوله إليهم. ولسنا ندري ماهية هذا الدم الذي عوقبوا به، ولكن في رواية عن سعيد بن جبير جاء فيها: «... لما أتى موسى فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأبى عليه، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئاً، فخافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه حتى أوقف الطوفان،، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع. فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد نؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. فداسوا؛ أي درسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل ـ وهو السوس الذي يخرج من الحبوب المخزونة ـ فكان الرجل يخرج عشرة أجربة أي أربعين قفيزاً إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة، والجريب والقفيز مكيالان للحبوب،

والجريب أربعة أقفزة فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق الضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتثب الضفادع في فيه. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فكشف عنهم فلم يؤمنوا. فأرسل الله عليهم الدم، فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار، أو ما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً طرياً، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحركم! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً طرياً؟ فأتوه فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل».

ومع إيماننا الكامل بقدرة الله ـ تعالى ـ على كل شيء، تلك القدرة البالغة غير المحدودة بحدود، ومع وقوفنا أمام هذا الحديث بإجلال كبير إلا أننا لا نقول فيه شيئاً توقيراً لرسول الله ﷺ على الرغم من أن الحديث غير مرفوع إليه.

وهذه الآيات المشتملة على العقاب بالطوفان الذي يؤدي إلى الهدم والغرق، ثم بالجراد الذي يأكل الأخضر واليابس من النباتات والثمار والمحاصيل الغضة، ثم بالقمل الذي يقضي على المخزون من الحبوب والمحاصيل وينقل العديد من الأمراض، ثم بالضفادع التي تزيل النوم من الجفون بنقيقها المزعج وقدرتها على نقل العديد من الأمراض كذلك، وبعد ذلك كله بالدم النتن المليء بالنفايات الجسدية والفيروسات والجراثيم التي تجعل الحياة حقاً مستحيلة هي صورة من صور العذاب الإلهي الشامل لمجموعة من الكفرة والمشركين، والغلاة المتجبرين في الأرض فيها من التسلسل المنطقي، والشمول والإحاطة بأحداث تاريخية وقعت قبل بعثة المصطفى ﷺ بأكثر من ألفي سنة ما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وفيها ما يشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقى القرآن الكريم بالنبوة وبالرسالة فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧
15

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝﴾ «سورة الغاشية، الآية: 17».

15

هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية الثلث الثاني من سورة «الغاشية»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها ست وعشرون (26) بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسي حول عدد من مشاهد الآخرة، ومآل كلٍّ من الكفار والمشركين، والطغاة المتجبرين فيها من جهة، ومصير عباد الله الصالحين في جنات النعيم من جهة أخرى.

وللتأكيد على حتمية ذلك أوردت السورة الكريمة عدداً من الآيات الكونية الدالة على حقيقة الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة للخالق العظيم الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، وخلق كلاً من الجن والإنس لعبادته بما أمر به ﷻ مع حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها.

وتطالب السورة الكريمة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ بتذكير الخلق أجمعين وتبصيرهم بحقيقة الدين، ومن أصوله فهم رسالة الإنسان في هذه الحياة، والتصديق بحتمية الموت والبعث والحساب، ثم الخلود في حياة قادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وأن يتم هذا التذكير ـ كما تم على عهد السابقين من أنبياء الله ورسله بغير ضغط ولا إكراه، لأن أصلاً من أصول الإسلام العظيم هو قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ «سورة البقرة، الآية: 256».

وقوله ـ تعالى ـ على لسان خاتم أنبيائه ورسله ﷺ موجِّهاً الخطاب للكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝﴾ «سورة الكافرون، الآية: 6».

عرض موجز لسورة «الغاشية»

تبدأ السورة الكريمة بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ له: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ «سورة الغاشية، الآية: 1».

و﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ اسم من أسماء القيامة التي تغشي الناس بأهوالها فتنسيهم كل شيء، وتجللهم بأفزاعها فتعميهم وتصرف أنظارهم عن أي شيء آخر، وكان المصطفى ﷺ إذا سمع هذه الآية الكريمة يجيب بقوله الشريف: «**نعم قد جاءني**» مما يؤكد أن الخطاب موجّه في الأصل إلى هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، ومن ثم فهو خطاب إلى الناس جميعاً، فالتحذير من القيامة ـ التي وصفها القرآن الكريم بأسماء عديدة منها: **الغاشية والقارعة، والطامة، والصاخة** ـ هو جزء رئيسي من رسالة القرآن الكريم إلى الخلق أجمعين، وقد كان كذلك في كل رسالة سماوية نزلت قبل نزول القرآن الكريم إنذاراً للناس، وتحذيراً لهم من هول تلك المفاجأة، وإحياء لها في قلوب وعقول وضمائر الناس حتى لا يغفلوا عنها، ويعملوا لها قبل أن يفاجأوا بوقوعها.

ثم تعرض الآيات لمشهد من مشاهد العذاب لأهل النار من الكفار والمشركين، والطغاة المتجبرين، والفسقة المفسدين في الأرض فتقول:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ *﴾ «سورة الغاشية، الآيات: 2 ـ 7».

وفي هذه الآيات الست التي عجلت السورة فيها بمشهد العذاب اتساقاً مع جو الغاشية، تصف وجوه المعذبين بأنها سوف تكون خاشعة من الذل، والإرهاق، والتعب، والخزي، والهوان؛ لأن الخشوع فيه تذلل وانكسار وتنكيس للرأس وتخفيض للصوت، سواء كان هذا الخشوع تقرباً إلى الله ـ تعالى ـ أو خشية من سوء العاقبة عنده؛ خاصة عند مواجهة الحق في يوم القيامة. والعمل والنصب اللذان توصف بهما وجوه المعذبين من خلق الله يوم الغاشية قد يكون في الدنيا كما قد يكون في الآخرة، ففي الدنيا يتعب غير الموفقين من الخلق في الجري وراء الدنيا ومادياتها وشهواتها، ناسين أو متناسين الآخرة، فتشقيهم وتشقى بهم... ثم تشقيهم أكثر في الآخرة حين يواجهون بعذاب الله فيقفون فيه موقف الخاسر الذليل، الذي خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وعذاب النار فيه من مشاقّ العمل ما

فيه من حمل الأغلال، وجر السلاسل، والاكتواء بالنار الحامية، والخوض في ظلماتها، وما يصاحب ذلك كله من عمل ونصب، والشرب من عين شديدة الحرارة بلغت «أناها» أي غاية حرها، والأكل من الضريع الذي ليس لهم في النار غيره، وهو من نبت جهنم؛ وهو من الغيوب المطلقة التي لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ وإن قربوها في التشبيه بنوع من الشوك اللاطئ بالأرض ترعاه الإبل وهو أخضر غض، ويسمى «الشبرق» فإذا تم جمعه ويبسه صار اسمه «الضريع» وهو مادة سامة، وذلك تقريباً للمعنى في أذهان أهل الدنيا؛ لأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا مغايرة كاملة، وعلى ذلك فإن أطعمة أهل النار من مثل الضريع، والغسلين، والزقوم والغساق وغيرها من صفاتها أن الأكل منها ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ إمعاناً في تقريب لون من ألوان عذاب الآخرة إلى عقول وأذهان أهل الدنيا فيحذرونه قدر الجهد والطاقة.

وفي مقابلة هذا الذل والهوان والعذاب والشقاء لأهل النار تعرض الآيات لشيء من جزاء أهل الإيمان والتوحيد والتقى والصلاح فتقول:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ *﴾

«سورة الغاشية، الآيات: 8 ـ 16».

وفي هذه الآيات التسع تصف سورة الغاشية جانباً من نعيم أهل الجنة فتصف وجوههم بأنها ذات حسن وبهجة من النعومة وذات رضى عن النعيم الذي أكرمها الله ﷻ به في الجنة من التكريم والتنعيم فليس أرضى للعبد من أن يستشعر رضى الله ـ تعالى ـ عنه بمعيته في الدنيا، وبإسباغ نعمه عليه في الآخرة، ومن ثم فإن هذه الآيات الكريمة من سورة «الغاشية» تقدم هذا اللون من السعادة الروحية على النعيم المادي في الآخرة، فتقدم الرضى الروحي والنفسي والقلبي للعبد الصالح عن سعيه في الدنيا على نعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن من قبيل تقريب هذا النعيم إلى تصورات أهل الأرض، تصفه الآيات بعلو الجنة في ذاتها، وفي قدرها، وفي تعدد درجاتها ومقاماتها، كما تصفه بهذا القدر الهائل من الشعور بالسلام والاطمئنان، والسكون والهدوء الذي ينعم به أهل الجنة، وفيها من التنزه عن كل لغو مما لا فائدة منه ولا خير فيه من الأقوال والأفعال،

وعن كل باطل وقبيح منهما، مما يجعل العيش فيها من صور النعيم المقيم الذي يفيء الله ـ تعالى ـ به على عباده الصالحين في الجنة، بعد صخب الدنيا وضجيجها، وبعد ما امتلأت به من صور اللغو الباطل القبيح والجدل العقيم العابث، واللجاجة الفارغة، والصراع الدائم، والزحام، والخصام. وفي ذلك من الدعوة لأهل الله في الأرض أن يتشبهوا فيها بأهل الجنة فينأون بأنفسهم عن كل ما لا خير فيه من الأقوال والأفعال حتى يتميزوا على أهل الباطل بمختلف أشكاله وألوانه في الدنيا قبل الآخرة.

ثم تأتي الآيات بعد ذلك بعدد من صور التنعيم الحسي لأهل الجنة في الجنة؛ فتصفها بأن فيها **من العيون والينابيع** المتدفقة الجارية التي تنبض بالحياة، وبالعديد من المتع الحسية والمعنوية ما تحمله المياه لأهل الصحارى الجافة القاحلة وفيها من **السرر المرفوعة** ما يوحي بالنظافة والطهارة، وبرفعة القدر عند الله، ومن **الأكواب الموضوعة** ما يشي بالتكريم والتعظيم لأنها مهيأة لشرابهم، موضوعة بين أيديهم، لا يحتاجون إليها في طلب أو إعداد، وفيها من **النمارق المصفوفة** ـ وهي الوسائد والحشايا التي تصف بعضها إلى جانب بعض للاتكاء والارتياح عليها ـ **والزرابي المبثوثة** ـ وهي الطنافس العراض السميكة الفاخرة أي: السجاجيد والبسط، ذات الخمل أي الهدب الرقيقة التي تبقى فوق النسيج للمزيد من راحة الجالس عليها، وهي مبسوطة أو مفرقة في المجالس للراحة وللزينة سواء، وواحدة «الزرابي» هي «الزربي» أو «الزربية» ـ.

وهذه الأوصاف والنعوت من قبيل تقريب ما في الجنة إلى أذهان أهل الأرض، وإلا فإن للجنة من الصفات والنعوت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وللنار من النعوت أيضاً ما لا تقوى عقول أهل الأرض على إدراكه.

ثم تنتقل الآيات في سورة «الغاشية» من وصف أحوال كل من أهل النار، وأهل الجنة في الآخرة إلى الاستشهاد بعدد من آيات الله ـ تعالى ـ في خلقه للتأكيد على حتمية الآخرة وما فيها من البعث والرجوع إلى الله الخالق ﷻ، والعرض الأكبر، والحساب والجزاء، ثم الخلود في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ *﴾ «سورة الغاشية، الآيات: 17 ـ 20».

وفي هذه الآيات الأربع من الأدلة المادية الملموسة ما ينطق بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة، ويشهد للإله الخالق ﷻ بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، كما يشهد له ـ تبارك وتعالى ـ بالقدرة المطلقة على إفناء خلقه وعلى بعثه كما وعد بذلك ﷻ، وكانت قضية البعث عبر التاريخ هي حجة الكافرين والمتشككين الذين أضلهم عن الحق الوقوع في جريمة القياس بمعايير البشر المحدودة على قدرات الله المطلقة، انطلاقاً من تشويه معنى الألوهية في معتقداتهم الفاسدة، وحصره في صنم ينحتونه بأيديهم، أو وثن يتخذونه لعبادتهم، أو بقرة أو كوكب أو نجم أو نار يعبدون أياً منها أو يشركونها في عبادة الله الخالق، أو طفل رضيع يبكي ويضحك، وينام ويصحو، ويأكل ويشرب، وله من باقي صفات البشر ما له، والله ﷻ منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «سورة الشورى، الآية: 11».

وانطلاقاً من الكفر أو الشرك بالله أنكر المنكرون البعث أو تشككوا في إمكانية وقوعه. ولذلك أورد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة «الغاشية» ـ كما أورد في العديد من آيات القرآن الكريم ـ الإشارة إلى إتقان الخلق في كل أمر من أمور الكون ومكوناته مما يشهد لله ـ تعالى ـ بأنه كما أتقن كل شيء خلقه، فهو ـ سبحانه ـ قادر على إفنائه وعلى بعثه.

وهذه الآيات الكونية الأربع التي تعرضها سورة «الغاشية» كانت متوافرة في بيئة الصحراء العربية حيث أُنْزِل القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، ولا يزال ما فيها من إبداع الخلق، وإتقان الصنعة، ومن الإعجاز وطلاقة القدرة شاخصاً أمام أعين أهل العلوم والتقنية في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، وأمام بقية حواسهم وعقولهم، إذا أحسنوا توظيفها في دراسة خلق الله بشيء من الموضوعية والحيدة.

فالإبل كانت ـ ولا تزال ـ من الحيوانات الأساسية في البيئة الصحراوية لأن الله ـ تعالى ـ قد زوّدها بقدر من الصفات التي تميزها عن غيرها من الحيوانات الثديية المشيمية (Placental Mammals)، وعن كلٍّ من الأبقار والغزلان والزرافات التي يضعها علماء تصنيف الحيوان مع الجمال في مجموعة واحدة تعرف باسم مجموعة الحيوانات الثديية المشيمية المجترة (Ruminant Placental Mammals) أو ما يسمى باسم ذوات الحافر مزدوج الأصابع (Even - Toed Ungulates = Artiodactyla) كذلك فإن في رفع السماء

بغير عمد مرئية، أو بعمد غير مرئية ـ قد شغل بال الناس منذ القدم ـ، خاصة أهل الصحارى الذين تساءلوا دوماً عن رفعها، وعن ضرورة أن يكون لها رافع مبدع له من العلم والحكمة والقدرة ما مكنه من تحقيق ذلك، وأن الذي رفعها قادر على هدمها وعلى إعادة بنائها من جديد.

كذلك فإن للجبال في شموخها، وارتفاعها، وانتصابها فوق سطح الأرض ما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة؛ لأن جذورها تطفو في نطاق الضعف الأرضي الموجود تحت الغلاف الصخري للأرض مباشرة، وتحكمها في ذلك قوانين الطفو، فكلما أخذت عوامل التعرية من قممها ارتفعت جذور الجبال إلى أعلى حتى تخرج من نطاق الضعف الأرضي بالكامل فيتوقف الجبل عن الحركة حتى تبريه عوامل التعرية بالكامل وتسويه بسطح الأرض.

وفي هذه العملية من الضوابط المحكمة ما يشهد لله الخالق ﷻ بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق.

ثم تأتي الإشارة إلى كيفية تسطيح الأرض ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، والعلوم المكتسبة تؤكد أن الأرض في مرحلة من مراحل بدء خلقها كانت معقدة التضاريس، وذات وعورة شديدة، لا تسمح للحياة أن تزدهر على سطحها، ثم سخر الله ـ تعالى ـ مختلف عوامل التعرية من المياة الجارية، والرياح السافية، والجاذبية الأرضية الحاكمة ما ساعد على شق الفجاج والسبل، وتسوية القمم السامقة إلى السهول المنبسطة، وتشكيل التلال والهضاب، وتكوين التربة، وخزن المياه في صخور الأرض، وتركيز الخامات، وتدفق الأنهار، وغيرها من المجاري المائية إلى البحار والمحيطات، وتكوين الشواطئ والسفوح والمنحدرات، وكلها من وسائل تسوية سطح الأرض؛ أي: تسطيحها، وهي من العمليات اللازمة لجعل الأرض صالحة للعمران، والشاهدة لله الخالق ﷻ بطلاقة القدرة على إبداع الخلق، وعلى إفنائه، وإعادة خلقه من جديد؛ أي بعثه.

وبعد هاتين الجولتين في كل من عالمي الآخرة والدنيا، تختتم سورة «الغاشية» بتوجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ له:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم*﴾

«سورة الغاشية، الآيات: 21 ـ 26».

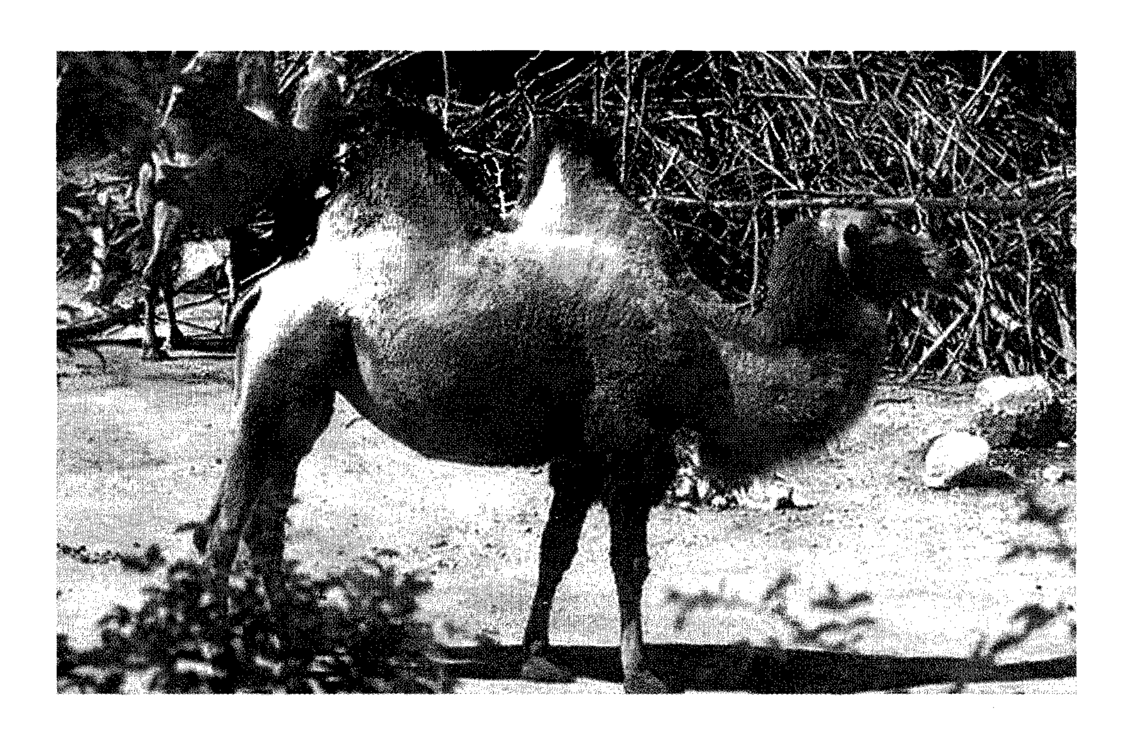
وفي ذلك تحديد لدور الرسول الخاتم ﷺ ـ وهو دور كل نبي وكل رسول جاء قبله ـ ألا وهو التذكير بالله الخالق سبحانه وتعالى وبضرورة الخضوع له بالطاعة والعبادة، والتأكيد على حقيقة الآخرة وما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب، وجنة ونار، والتذكير ببديع صنع الله ـ تعالى ـ في خلقه، والاستدلال بما في عالم الشهادة من آيات الإحكام والإبداع في الخلق على ما في عالم الغيب من حق أنزله الله ـ تعالى ـ في محكم كتابه..

وبذلك يتحدَّد دور أنبياء الله ورسله في تبليغ الخلق بحقيقة الدين الذي يقرر القرآن الكريم بأنه لا إكراه فيه وذلك بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ «سورة البقرة، الآية: 256».

ومن هنا جاء الخطاب إلى رسول الله ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾؛ أي أنك لا تملك من أمر القلوب شيئاً فتقهرها على الإيمان بالله، فليس عليك إلا البلاغ المبين، والهداية نعمة من رب العالمين يمنّ بها على من يشاء من عباده بناء على ما يعلمه بعلمه المحيط من خير أو شر في كل عبد من عباده.

وهنا يخلط كثير من الناس بين حقيقة أن الدين لا بد وأن ينبع عن قناعة قلبية وعقلية كاملة دون أدنى إكراه أو إجبار، وبين الجهاد في سبيل الله الذي فرض لرفع الظلم عن المظلومين، ولدفع العدوان على بلاد المسلمين، ولإزالة العقبات من وجه الدعاة إلى الله من أجل تبليغ الناس بدين الله دون إكراه أو إجبار، وبذلك يتحدد دور الأنبياء والمرسلين، ودور خاتمهم أجمعين ـ عليه وعليهم من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ ودور كل داعية إلى دين الله من وبعده ﷺ إلى يوم الدين، ولكن من تولى عن الإيمان دون إعلان الحرب على المسلمين فله ما أراد، وكل من رفض التسليم بأن القرآن الكريم هو وحي الله الخاتم، وبأن النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه هو آخر أنبياء الله ورسله، وأنه ليس من بعده ﷺ من نبي ولا من رسول، وأن عدم الإيمان به وببعثته الشريفة، وبرسالته الخاتمة هو كفر بكل رسالات السماء، وبالله الذي أرسلها على فترة من الأنبياء والمرسلين، وأتمّها وأكملها وختمها في رسالته الخاتمة ممثلة في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، كل من كفر بذلك فحسابه



على رب العالمين يعذِّبه العذاب الأصغر في الدنيا، ثم العذاب الأكبر في الآخرة، لأن الرجوع إلى الله ـ تعالى ـ أمر حتمي، لا مفر منه، ولا حيود عنه، وكذلك حساب الله ـ تعالى ـ لخلقه بعد البعث، وجزاؤه لهم بالخلود في الجنة أبداً أو في النار أبداً كما أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ، وبذلك تختتم سورة الغاشية بحقيقة من أعظم حقائق الوجود يقررها الله ـ تعالى ـ بقوله الحق:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم *﴾ «سورة الغاشية، الآيتان: 25، 26».

من الإشارات الكونية في سورة «الغاشية»:

1 ـ الإشارة إلى التميز في خلق الإبل.

2 ـ التنبيه إلى رفع السماء وكيفيات ذلك.

3 ـ الاستشهاد بكيفية انتصاب الجبال فوق سطح الأرض.

4 ـ التذكير بتسوية سطح الأرض حتى يسهل عمرانها.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي

هنا على التميز في خلق الإبل والذي جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ «سورة الغاشية، الآية: 17».

وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ «سورة الغاشية، الآية: 17».

- ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؟ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب، فهي في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، ويشرب لبنها، وينتفع بوبرها، ونُبِّهوا إلى ذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل...».

- وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما يلي: «... والإبل حيوان العربي الأول، عليها يسافر ويحمل، ومنها يشرب ويأكل ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل. فهي مورده الأول للحياة، ثم إن لها خصائص تفردها من بين الحيوان، فهي على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول يقودها الصغير فتنقاد، وهي على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف. مرعاها ميسر، وكلفتها ضئيلة، وهي أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال... لهذا كله يوجه القرآن أنظار المخاطبين إلى تدبر خلق الإبل، وهي بين أيديهم، لا تحتاج منهم إلى نقلة ولا علم جديد.. أفلا ينظرون إلى خلقتها وتكوينها؟ ثم يتدبرون: كيف خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها، المحقق لغاية خلقها، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعاً!! إنهم لم يخلقوها، وهي لم تخلق نفسها، فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المبدع المتفرد بصنعته التي تدل عليه، وتقطع بوجوده، كما تشي بتدبيره وتقديره».

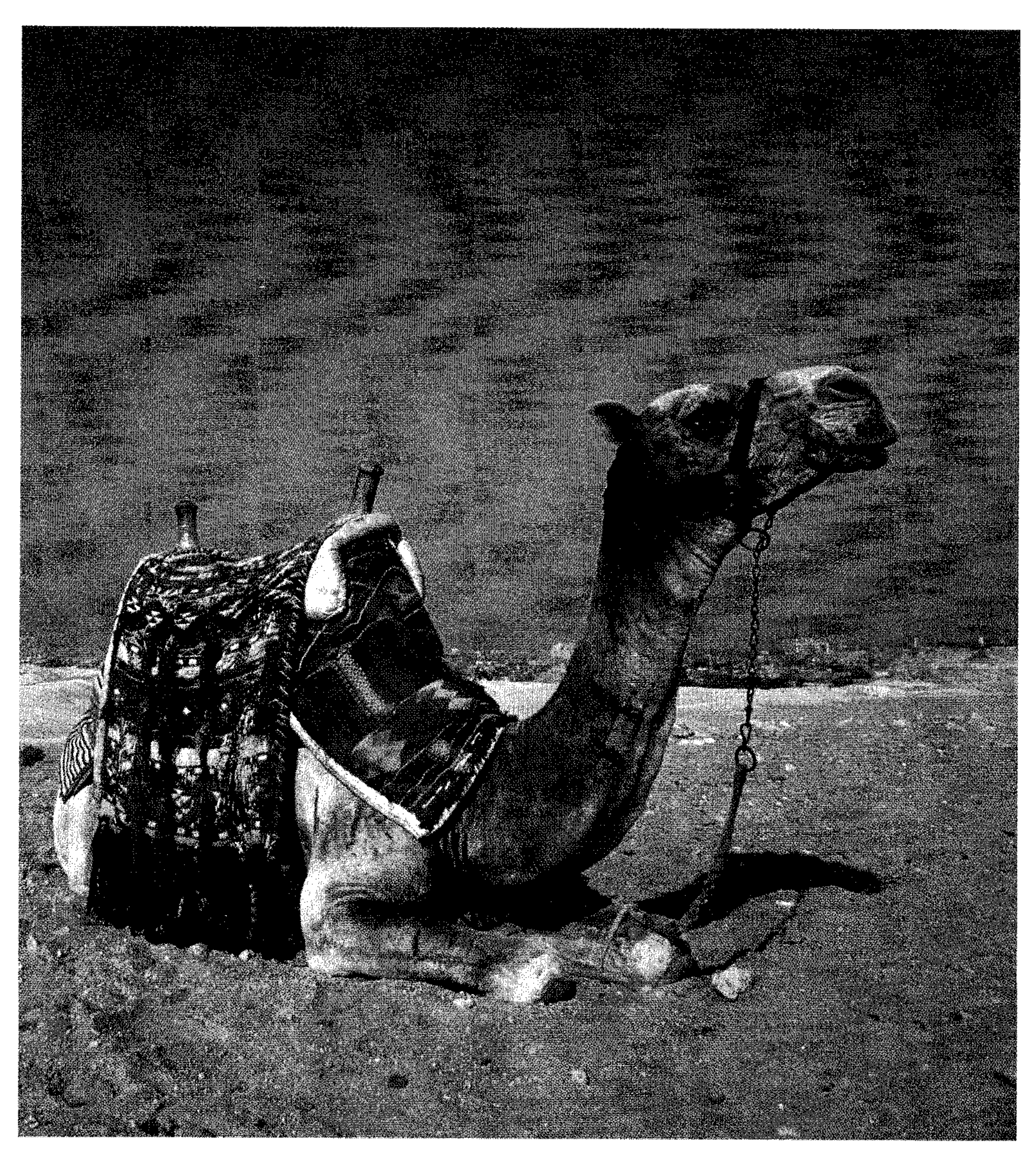
- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره هنا.

- غير أن أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ قد ذكروا ما نصه: «أيهملون التدبر في الآيات، فلا ينظرون إلى الإبل، كيف خلقت خلقاً بديعاً يدل على قدرة الله؟!»

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما نصه: «في خلق الإبل آيات معجزات دالة على قدرة الله ليتدبر في ذلك المتدبرون، فمن المعروف أن من صفاتها الظاهرة ما يمكنها من أن تكون سفن الصحراء بحق، فالعينان ترتفعان فوق الرأس وترتدان إلى الخلف فضلاً عن طبقتين من الأهداب تقيانها الرمال والقذى، وكذلك المنخران والأذنان يكتنفها الشعر للغرض نفسه، فإذا ما هبت العواصف الرملية انقفل (أي: انغلق) المنخران، وانثنت الأذن ـ على صغرها وقلة بروزها ـ نحو الجسم، أما القوائم فطوال تساعد على سرعة الحركة، مع ما يناسب ذلك من طول العنق، وأما الأقدام فمنبسطة في صورة خفاف تمكن الإبل من السير فوق الرمال الناعمة، وللجمل كلكل تحت صدره، ووسائد قرنية على مفاصل أرجله تمكنه من الرقود فوق الأرض الخشنة الساخنة، كما أن على جانبي ذيله الطويل شعراً يحمي الأجزاء الخلفية الرقيقة من الأذى. أما مواهب الجمل الوظيفية فأبلغ وأبدع، فهو في الشتاء لا يطلب الماء، بل قد يعرض عنه شهرين متتاليين إذا كان الغذاء غضاً رطباً أو أسبوعين إن كان جافاً. كما أنه قد يتحمل العطش الكامل في قيظ الصيف أسبوعاً أو أسبوعين، يفقد في أثنائهما أكثر من ثلث وزن جسمه، فإذا ما وجد الماء تجرع منه كمية هائلة يستعيد بها وزنه المعتاد في دقائق معدودات. والجمل لا يختزن الماء في كرشه كما كان يظن، بل إنه يحتفظ به في أنسجة جسمه ويقتصد في استهلاكه غاية الاقتصاد، فمن ذلك أنه لا يلهث أبداً ولا يتنفس من فمه ولا يصدر من جلده إلا أدنى العرق؛ وذلك لأن حرارة جسمه تكون شديدة الانخفاض في الصباح المبكر، ثم تأخذ في الارتفاع التدريجي أكثر من ست درجات قبل أن تدعو الحاجة إلى تلطيفها بالعرق والتبخر، وعلى الرغم من كمية الماء الهائلة التي يفقدها الجسم بعد العطش الطويل فإن كثافة دمه لا تتأثر إلا في الحدود المقبولة، ومن ثم لا يقضي العطش عليه. وقد ثبت أن دهن السنام مخزن للطاقة يكفيه غوائل الجوع، ولكنه لا يفيد كثيراً في تدبير الماء اللازم لجسمه. وما زال العلماء يجدون في الجمل كلما بحثوا مصداقاً لحض الله تعالى لهم على النظر في خلقه المعجز».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

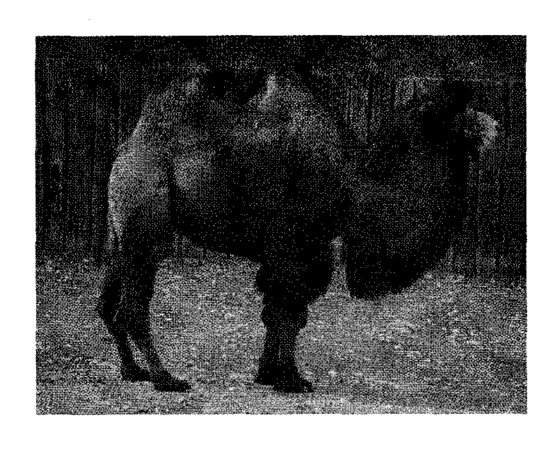
تشير هذه الآية القرآنية الكريمة إلى ما في خلق الإبل من إعجاز يشهد للخالق ﷻ بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، كما يشهد له ـ سبحانه ـ بالقدرة على إفناء ما قد خلق وعلى إعادة خلقه من جديد (أي بعثه) والإبل تنتمي إلى مجموعة من الحيوانات الثديية المشيمية المجترّة (Ruminant Placental Mammals).





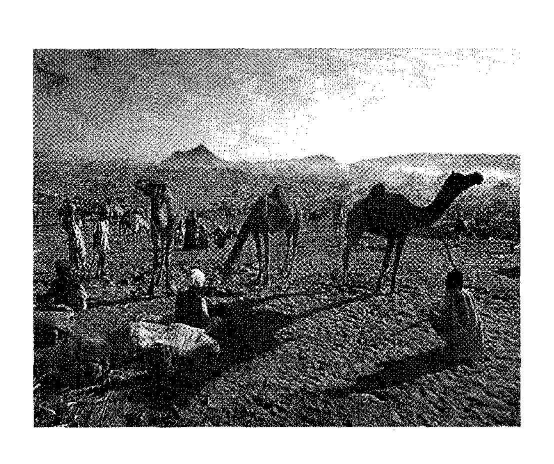
وإلى قسم خاص منها يعرف باسم ذوات الحافر (الخف) مزدوج الأصابع (Even-Toed Ungulates = Artiodactyla).

وهي من آكلات العشب التي يجمعها القرآن الكريم تحت مسمى الأنعام لما فيها من نعم الله العظيمة على الإنسان، وتشمل كلاً من الإبل، والبقر، والضأن، والمعز (الماعز)، وتضم الإبل بالإضافة إلى الجمال مجموعة الغزلان وكلاهما يصنف في عائلة واحدة تعرف باسم عائلة الإبليات أو الجمليات، وبها نوعان متميزان هما: نوع الجمل **(Camelus)** **(Camelides)** ونوع اللاما **(Lama glama)** الذي يشبه الجمل ولكن لا سنام له، ومن الجمال ما له سنام واحد وهو الجمل العربي **(Camelus dromedarius)** وما له سنامان وهو الجمل الآسيوي **(Camelus bactrianus)**. وينتشر في آسيا الوسطى وصولاً إلى منشوريا في بلاد الصين.



والإبل بأنواعها تتميز عن جميع الأنعام بميزات بدنية، وتشريحية، ووظائفية عجيبة ألمح إليها القرآن الكريم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ «سورة الغاشية، الآية: 17».



فالإبل عَمرت الأرض قبل خلق الإنسان بحوالي خمسين مليون سنة، وازدهرت

ازدهاراً هائلاً في عهد «الإيوسين» (The Eocene Epoch) المعروف باسم فجر الحياة الحديثة. والجمل العربي الذي يعيش في المناطق الصحراوية الجافة القاحلة الشديدة الحرارة في نهار الصيف، والشديدة البرودة في ليل الشتاء قد تم استئناسه من قبل خمسة آلاف سنة في شبه الجزيرة العربية من مجموعة برية كانت تعيش فوق هضاب حضرموت.

ومن الجزيرة العربية انتشرت الجمال العربية إلى كل من إفريقيا وآسيا وجنوب أوروبا عبر الوجود الإسلامي في تلك البلاد والذي عمر شبه الجزيرة الأيبيرية (بلاد الأندلس) لأكثر من ثمانية قرون كاملة.

وقد ثبت للدارسين والمراقبين أن الجمل العربي هو بحق سفينة الصحراء، وأنه أصلح الوسائل الفطرية للسفر والحمل والتنقل في الأراضي الصحراوية الجافة، فهو يستطيع قطع مسافة تصل إلى الخمسين ميلاً في اليوم، متحملاً الجوع والعطش لعدة أيام متتالية في شدة حرارة نهار صيف الصحراء، ويستطيع حمل أكثر من نصف طن من المؤن والركاب والسير بهم وبها لأكثر من عشرين ميلاً في اليوم دون طعام أو شراب وذلك لعدة أيام متتالية، بما خصه الله ـ تعالى ـ من ميزات جسدية، وتشريحية، ووظائفية لا تتوافر لغيره من الحيوانات، ومن هذه الميزات ما يمكن إيجازه في النقاط التالية:

أولاً: من الصفات الجسدية للجمل العربي:

1 ـ ضخامة الجسم، وارتفاع القوائم، وطول العنق في تناسق عجيب يمكن الجمل العربي من سرعة الحركة، واتساع مجال الرؤية، ومن اختزان كميات كبيرة من الماء والغذاء والدهون والطاقة تعينه على احتمال الجوع والعطش لفترات لا يقوى عليها حيوان آخر.

2 ـ لرأس الجمل أنف ذو منخارين أعطاهما الله ـ تعالى ـ القدرة على الانغلاق كلياً تحاشياً لرمال الصحراء العاصفة، ومنعاً لجفاف القصبة الهوائية، وله زوج من العيون الحادة الإبصار، ترتفعان فوق رأسه المحمول على عنقه الطويل، وجسده المرتفع عن الأرض مما يوسع مجال الرؤية، ولكل واحدة من هاتين العينين المندفعتين إلى الخلف طبقة من الأهداب تقيانهما من هبوب العواصف الرملية في الصحراء وما تحمله من أذى وقذى. ولفم الجمل شفتان عريضتان، السفلى منهما مشقوقة حتى تمكنه من تناول الأعشاب الشوكية دون أن تؤذيه.

3 ـ وعلى جانبي رأس الجمل أذنان صغيرتان يكتنف كلاً منهما شعر كثيف لوقايتهما من الرمال العاصفة، خاصة وأن الله ـ تعالى ـ قد أعطاهما القدرة على الانثناء إلى الخلف، والالتصاق بجانبي الرأس لمنع دخول الرمال فيهما.

4 ـ أقدام الجمل منبسطة على هيئة الخف المكون من نسيج دهني سميك، يعين الجمل على السير فوق الرمال الناعمة، وفوق غير ذلك من أنواع التربة الخشنة والصخور الناتئة.

5 ـ ذيل الجمل محاط بشعر كثيف يحمي أجزاء جسده الخلفية من كل أذى، خاصة من الرياح العاصفة المحملة بالرمال.

6 ـ طول سيقان الجمل تبعده عن التأثر بحرارة الأرض، وارتفاع سنامه يبعد غالبية جسده عن التأثر بحرارة الشمس؛ لأن تكتل كمية كبيرة من الدهون في منطقة السنام يحول دون انتشار حرارة الشمس إلى داخل بقية الجسم، خاصة أن الخالق العظيم قد ألهم الجمل بالوقوف متعامداً مع أشعة الشمس قدر الاستطاعة حتى لا يتعرض لها من جسده إلا أقل مساحة ممكنه.

7 ـ خلق الله ـ تعالى ـ للجمل وسادة حرشفية/ قرنية أسفل صدره تعرف باسم «الكلكل»، ووسائد مشابهة فوق كل ركبة من ركبه، وهذه الوسائد تمكن الجمل من الرقود على الأرض مهما كانت قاسية وخشنة دون أذى، كما تعينه على رفع جسده عن الأرض لعزله عن حرارتها وللسماح لتيار من الهواء أن يتحرك بين جسمه وبين الأرض لتهويته وتلطيف درجة حرارته.

8 ـ جعل الله ﷻ للجمل جلداً غليظاً جداً، يجعله قادراً على تحمل العواصف الحارة المحملة بالرمال عند هبوبها، وعلى مقاومة لسعات الحشرات وقرصات غيرها من الحيوانات، خاصة وأن هذا الجلد قليل المرونة يغطيه وبر سميك يدفئ جسم الجمل في الشتاء، ويحفظ حرارته من التصرف إلى الخارج، ويحميه من حرارة الشمس الحارقة في الصيف، خاصة وأنه يعكس أشعتها بلونه الفاتح، كذلك يمتاز جلد الجمل بقلة انتشار الغدد العرقية فيه مما يقلل من فقدان مخزونه المائي عن طريق العرق.

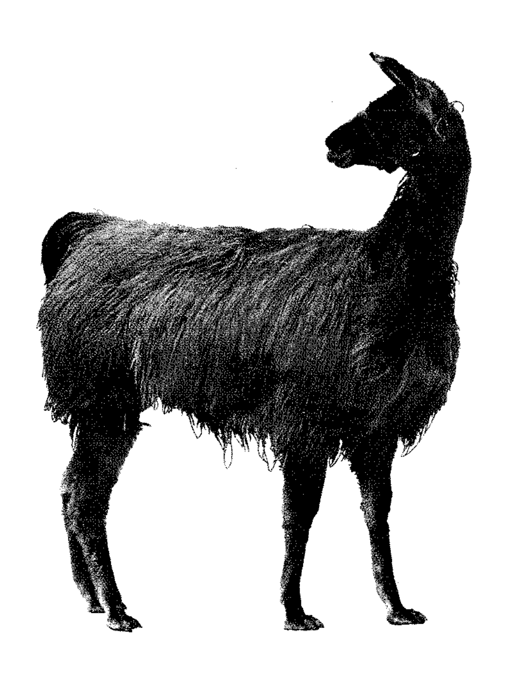
9 ـ يساعد طول عنق الجمل وارتفاع أقدامه على تمكينه من تناول أوراق الأشجار العالية، وتساعد شفته السفلى المشقوقة على تناول الأعشاب الشوكية دون أن تؤذيه، خاصة وأن الله ـ تعالى ـ قد جعل للجمل ميلاً فطرياً للأعشاب المالحة التي تكثر في الصحارى الجافة، وذلك مثل أنواع الحلفاء (**Halophytes**)، وللجمل قدرة فائقة على استيعاب كميات كبيرة من أملاح هذه الأعشاب دون التأثير على درجة ارتوائه أو شعوره بالعطش، وذلك من مثل أملاح الصوديوم، والكالسيوم، والسلينيوم، والفوسفور، والنحاس، وغيرها. وكل واحد من هذه الأملاح يلعب دوراً مهماً في حياة الجمل، وفي تخليق أعداد من الإنزيمات اللازمة لنشاطه الحيوي. والجمل يستهلك من هذه الأملاح ما يحتاجه، ويختزن الباقي في الكبد لاسترجاعه عند الحاجة إليه.

ثانياً: من الصفات التشريحية للجمل:

1 ـ الجمل من الثدييات المشيمية المجترة، ولكنه يختلف عن كثير منها بتضاؤل المعدة الثالثة، وبوجود ما يسمى مجازاً باسم الأكياس المائية في المعدة الأولى، وهذه الأكياس عبارة عن انثناءات تضم الملايين من الخلايا الغددية التي تلعب دوراً رئيسياً في تفعيل عملية الهضم وإنتاج كمٍّ كبير من السوائل.

2 ـ كذلك فإن البلعوم الطويل للجمل يحتوي على عدد هائل من الغدد التي تعمل على ترطيب الوجبة الغذائية الجافة مما يعين على سهولة تحركها إلى باقي أجزاء الجهاز الهضمي، خاصة وأن الجمل يعتمد في غذائه أساساً على الأعشاب الجافة، وأوراق الأشجار الشمعية القاسية.

3 ـ زود الله ﷻ الجهاز الهضمي للجمل بالعديد من الإنزيمات المنتجة فيه، والكائنات الدقيقة المتعايشة معه لتقوم بتحليل المواد السيليولوزية القاسية في معدة الاجترار إلى عدد من المركبات النيتروجينية مثل: الأمونيا واليوريا، ثم بناء عدد من الأحماض الأمينية، والبروتينات والدهون، وفي تجهيز عدد من الفيتامينات اللازمة لحياة الجمل، ومن العجيب أن يصل تركيز أحد الفيتامينات المهمة مثل «فيتامين د» في جسم الجمل إلى خمسة عشر ضعفاً لما هو موجود في أجساد



باقي الحيوانات المجترة، على الرغم من فقر غذاء الجمل بصفة عامة، وذلك لأن هذا الفيتامين يلعب دوراً مهماً في تركيز الكالسيوم في العظام وهو أمر يحتاجه الجمل بهيكله العظمي الضخم.

ثالثاً: من الصفات الوظائفية لأعضاء جسم الجمل:

1 ـ الجمل من ذوات الدم الحار، ولكن الله ـ تعالى ـ قد وهبه القدرة على تغيير حرارة جسده ليتوافق مع درجات الحَرارة المحيطة به صيفاً وشتاءً، ونهاراً وليلاً، دون أن يصاب بأذى، ويتراوح المدى الحراري لدماء الجمل بين 34°م، 42°م، وهو مدى يعتبر قاتلاً للعديد من الأحياء.

2 ـ يؤدي نقصان كمية الماء في أجسام معظم الحيوانات إلى زيادة لزوجة دمائها، مما يؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة الجسم وينتهي بالكائن إلى الوفاة. أما الجمل فتبقى لزوجة دمه ثابتة مهما نقص الماء في جسمه، مما يسمح لعملية النقل الحراري أن تتم بين القلب والأطراف بسهولة ويسر.

3 ـ الارتفاع في درجة حرارة جسم الجمل يعين على نقص استخدام الأكسجين، ممّا يبطّئ من عملية التمثيل الغذائي في داخل جسمه، وبالتالي يحدّ من ارتفاع درجة حرارته، وهذا بعكس المعروف عند الحيوانات الأخرى.

4 ـ يستطيع الجمل العيش دون شرب الماء لعدة أسابيع، وكمية الماء التي يتناولها ترتبط بنوعية الأكل الذي يأكله، وعلى درجة الحرارة الخارجية حوله، وقدر الماء الذي سبق له تناوله. وفي الجو البارد يستطيع الجمل العيش على كمية الماء الموجودة فيما يتناوله من طعام إذا كان غضاً طرياً، وفي هذه الحالة يمكنه الاستغناء عن شرب الماء لمدة تصل إلى الشهر الكامل، أما في الأجواء الحارة ومع تناول الطعام اليابس فإن الجمل بإمكانه الاستغناء عن شرب الماء لمدة تصل إلى الأسبوع. ولذلك وهب الله ـ تعالى ـ الجمل القدرة على تحمل ندرة كلٍّ من الماء ومصادر الغذاء في الصحراء، وقلة تنوع تلك المصادر، وضعف محتواها الغذائي، كما أعطاه القدرة على شرب كميات كبيرة من الماء عند توافره دون أن يؤذيه ذلك، وأعطاه القدرة كذلك على تحمل إنقاص وزنه بمعدل الثلث، وزيادته بنفس المعدل دون التعرض لأية مخاطر صحية، علماً بأن ذلك قد يودي بحياة غيره من الحيوانات.

هذه الصفات قليل من كثير مما وهب الخالق ﷻ الجمل، وهي لم تدرك إلا في القرن العشرين، والتلميح إليها في الآية التي نحن بصددها لممّا يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ
كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ
أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا
عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ
وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ
لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى

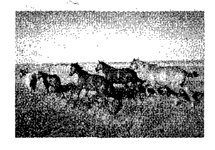
16



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ *﴾ «سورة ص، الآيات: 31 ـ 33».

16



هذه الآيات القرآنية الكريمة جاءت في بداية الثلث الثاني من سورة «ص» وهي سورة مكية، وعدد آياتها (88) بعد البسملة، وكطبيعة السور المكية يدور محورها الرئيسي حول ركائز العقيدة الإسلامية، وفي مقدمتها: توحيد الله الخالق ﷻ توحيداً كاملاً لا تداخله أدنى شبهة من شبهات الشرك، وتنزيهه ـ جل شأنه ـ عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

ومن ركائز العقيدة الإسلامية: الإيمان بالوحي إلى سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين بدءاً بآدم عليه السلام وانتهاء بخاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ والذي كمل في بعثته الدين، وتمت نعمة رب العالمين على عباده بحفظ هذا الدين في القرآن الكريم، وفي سنة سيد المرسلين ﷺ.

ومن ركائز العقيدة في الإسلام: الإيمان بالآخرة، وما فيها من بعث، وحساب، وجزاء، وخلود أبدي إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً.

وتبدأ السورة الكريمة بالحرف الهجائي المفرد ﴿صٓ﴾، وهذه الفواتح الهجائية التي جاءت في مطلع تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم بصيغ شتى مكررة (19 مرة) وغير مكررة (10 مرات) قيل فيها: إنها إما رموز إلى كلمات أو معان أو أعداد في صلب السورة، أو أنها أسماء للسور التي جاءت في مطالعها، أو هي أسلوب من أساليب تحدي العرب ـ وهم في قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحسن البيان ـ أن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثل سور القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم، واستخدم نفس الحروف التي يستخدمونها،

ولكن هيهات هيهات...، أو أنها وسيلة من وسائل قرع الأسماع، وتنبيه القلوب لتلقي كلام الله ﷻ، أو أنها من الأدلة القاطعة على صدق رسول الله ﷺ لنطقه بأسماء الحروف ـ وهو الأمي ـ والأمي ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها، أو هي تشمل ذلك كله وغيره مما لا يعلمه إلا الله ﷻ.

وبعد هذا الاستفتاح يقسم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وهو الغني عن القسم لعباده ـ بـ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي ذي الشرف والمكانة، والتذكير والموعظة، والمذكور فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان من أمور الدين: أنّ الذين كفروا هم دوماً في استكبار عن اتباع الحق، ودوماً في محاربة لأهله دون أدنى اعتبار بهلاك الأمم الكافرة والباغية من قبلهم.

وفي قراءة أخرى أن جواب القسم محذوف وتقديره صدق ما تضمنه سياق السورة بكاملها، أو أن تقديره هو خطاب موجه من الله ﷻ إلى سيدنا محمد ﷺ يقول له فيه: (إنك بحق لخاتم الأنبياء والمرسلين) وذلك بدليل قوله ـ تعالى ـ بعد آيتين اثنتين من إطلاق هذا القسم الإلهي العظيم: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

ثم تناقش الآيات في سورة «صٓ» قضية استغراب مشركي قريش ـ ومن بعدهم استغراب كل مشرك وكافر في كل زمان ومكان ـ لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، واستنكار دعوته إلى توحيد الله، وإلى تنزيهه ﷻ عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وإصرارهم على الكفر بالله أو الشرك به، أو على إنكارهم لقضية البعث، واستهزائهم بها إلى حد استعجال عذاب الآخرة في الدنيا قبل يوم الحساب، وهي صورة من صور فجر الكافرين وغفلتهم وتعنتهم.

وفي سياق استعراض سير بعض الكافرين والمكذبين من الأمم السابقة جاء ذكر عدد من الأقوام منهم: قوم نوح، وعاد، وفرعون، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وتمت الإشارة إلى ما نزل بهم من عقاب الله في الدنيا وإلى ما ينتظرهم من عذاب في الآخرة.

كذلك جاء ذكر عدد من أنبياء الله هم: آدم، وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وإسماعيل، واليسع، وذو الكفل، وداود، وسليمان، وأيوب ـ على نبينا وعليهم من الله السلام ـ.

وفي استعراض جانب مما أغدق الله ـ تعالى ـ به من فضل على عبديه: داود وسليمان من النبوة، والملك، والسلطان، وتسخير كلٍّ من الجن، والريح، والجبال، والطير، قضى

ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أن يدرك كلاً منهما شيء من الضعف البشري، ثم تتداركهما رحمة الله فيتوبان إليه، ويقبل الله سبحانه وتعالى توبة كل منهما وإنابته إليه، وتتضح حكمة الله البالغة من إظهار ضعفهما البشري حتى لا يفتن أحد من الخلق بما وهبهما الله ـ تعالى ـ من نعم غير عادية فيعبدهما من دون الله، أو يشرك بهما معه كما فعل أتباع عيسى من بعده، ثم جاءت قصة نبي الله داود (على نبينا وعليه من الله السلام) تجسيداً لابتلاء الله سبحانه وتعالى للصالحين من عباده وتطهيراً لهم، وتكفيراً عن خطاياهم مهما قلّت، وتزكية لنفوسهم، ورفعاً لدرجاتهم عند ربهم، وتجسيداً أيضاً لصبر نبي الله داود على البلاء حتى كشفه عنه رب العالمين برحمته.

وجاء هذا القصص توجيهاً لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به في كل زمان وفي كل مكان بضرورة الصبر على ما يلقاه ويلقونه من تكذيب الكفار والمشركين، ومن عنتهم واضطهادهم وظلمهم، وتأكيداً له ولهم أن التوفيق، والفضل، والرعاية، والهداية، والنصر، والتأييد، والتمكين في الأرض كله من الله ـ تعالى ـ الذي تعهد بنصرة عباده المؤمنين.

وتعاود الآيات تعظيم القرآن الكريم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ «سورة صٓ، الآية: 29».

وتعرض سورة «صٓ» لمشهد من مشاهد الآخرة يصور ما ينتظر المتقين من نعيم مقيم، وما ينتظر الكفار والمشركين من عذاب مهين وتخاصمٌ في النار أياً كانت مكانتهم في الدنيا، ومهما استكبروا وعلوا فيها، وتجبروا على المستضعفين من خلق الله.

وتأييداً لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ تورد سورة «صٓ» جانباً من قصة أبينا آدم عليه السلام مما يشهد بالنبوة وبالرسالة لسيدنا محمد ﷺ، لأنه لا يمكن له أن يكون قد تلقى هذه المعلومات الدقيقة عن غير الله الخالق سبحانه وتعالى. وفي ثنايا تلك القصة ما يؤكد عداوة إبليس اللعين لبني الإنسان أجمعين، وحسده لأبيهم آدم، ومعصيته لرب العالمين مما كان سبباً في طرده من الجنة ولعنته إلى يوم الدين، ولذلك تعهد بمحاولة غواية أبناء آدم أجمعين، إلا عباد الله المخلصين.

وتختتم سورة «صٓ» بأمر من الله ـ تعالى ـ لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ أن يقول لقومه من أهل الجزيرة العربية، وللبشرية كلها من بعده إلى يوم الدين أنه لا يسأل أحداً الأجر على

دعوته التي لم يتكلفها من عنده، بل هو وحي الله الخالق الذي أنزله بعلمه، وأمره بتبليغه، وحفظه بعهده لكي يكون ذكراً للعالمين إلى يوم الدين، وأن كل ما في القرآن الكريم من حروف، وكلمات، وآيات، وسور، وأوصاف، وتشبيهات وأمثال، وأحكام، وأوامر، ونواه، وقصص هي حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن هذا الحق سوف يتجلى للناس بعد زمن المصطفى ﷺ، كما تجلى لهم بوجوده بينهم، وكما يتجلى لنا في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، ولغيرنا من بعد ذلك إلى يوم الدين بكيفيات ووسائل يعلمها رب العالمين ولذلك اختتمت سورة «صٓ» بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ آمراً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۞ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۞﴾ «سورة صٓ، الآيات: 86 ـ 88».

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «صٓ»:

1 ـ الإيمان بأنه ما من إلٰه إلا الله الواحد القهار، العزيز الغفار، وأن خزائن رحمته لا تنتهي، وأنه هو الوهاب، وأن توحيده ﷻ حق له على جميع خلقه توحيداً خالصاً، وتنزيهاً كاملاً بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد.

2 ـ التسليم بأن القرآن الكريم هو وحي الله الخاتم الذي أكمل به الدين، وأتم النعمة بتعهده ـ جل شأنه ـ بحفظه إلى يوم البعث، وأنه كتاب مبارك لا يدرك قدره إلا أولو الألباب.

3 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ أنزل هدايته للبشرية بالوحي إلى سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين الذين ختمهم ببعثة سيدنا محمد ﷺ، وأن الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله بغير تمييز ولا تفريق هو من صلب الدين، وأن تكذيب أيٍّ من رسل الله هو تكذيب بهم جميعاً يستوجب العقاب في الدنيا قبل الآخرة.

4 ـ التصديق بأنه ما على الرسول من رسل الله إلا البلاغ المبين، ولذلك وصف الله ـ تعالى ـ خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بأنه (نذير مبين).

5 ـ التسليم بما أصاب الكفار والمشركين من الأمم السابقة من عذاب وصفه القرآن الكريم.

6 ـ الإيمان بالآخرة وبما فيها من بعث للخلائق، وعرضهم أمام الخالق ﷻ، وحسابهم على ما قدموا في الدنيا من أعمال، ومجازاتهم عليها إما بدخول الجنة أو بدخول النار، وبأنها جنة أبداً أو نار أبداً؛ أي: خلود بلا موت.

7 ـ اليقين بأن الله ـ تعالى ـ سوف يملأ جهنم بإبليس وبجميع من تبعه من خلق الله الذين سوف يتخاصمون في النار بغير طائل ولا جدوى.

8 ـ التصديق بكل المعجزات التي أجراها الله ﷻ على أيدي أنبيائه ورسله، كما جاء وصفها في القرآن الكريم، والتصديق كذلك بكل ما أورده هذا الكتاب الحكيم من قصص.

9 ـ التسليم بوصف القرآن الكريم لكل من نعيم الجنة، وجحيم النار، وبجميع الأحداث المستقبلية التي أوردها في ذلك الوصف، انطلاقاً من اليقين بأن الله ـ تعالى ـ يرى الماضي والحاضر والمستقبل في وقت واحد؛ لأنه خالق كلٍّ من المكان والزمان الذي يحد بهما حركات الخلائق وسكناتهم، وهما لا يحدان الذات الإلٰهية أبداً؛ لأن المخلوق لا يحد خالقه.

10 ـ اليقين بأن رزق الله ـ تعالى ـ لا ينفد أبداً، وأنه ﷻ هو الرزاق ذو القوة المتين.

11 ـ الإيمان الكامل بقصة الخلق كما أوردها القرآن الكريم، على الرغم من كل تخرصات المتخرصين من القدامى والمعاصرين.

من الإشارات الكونية في سورة «صٓ»:

1 ـ الإشارة إلى وجود حيز فاصل بين السمٰوات والأرض، والعلوم المكتسبة تؤكد أن الغلاف الغازي للأرض مكوّن جزئياً من غازات أطلقها الله ـ تعالى ـ من داخل الأرض، فاختلطت بالمادة بين أجرام السماء اختلاطاً كاملاً حتى أصبحت تركيباً مغايراً لكل من الأرض والسماء، ولعل ذلك هو المقصود بتعبير: ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ والذي جاء ذكره مرتين في هذه السورة المباركة، وعشرين مرة في القرآن الكريم كله.

2 ـ تأكيد خلق السمٰوات والأرض وما بينهما بالحق أي: بعدد من القوانين المنضبطة،

والسنن الصحيحة التي تعكس شيئاً من صفات الخالق العظيم، وتنفي الادعاءات الباطلة بالعشوائية أو الصدفة.

3 - الإشارة إلى خلق الإنسان من طين، والتركيب الكيميائي لجسم الإنسان ونماء جسده بتناول الغذاء المستمد من طين الأرض يؤكد هذه الحقيقة.

4 - ذكر تسبيح كلٍّ من الجبال والطير، والعلوم المكتسبة تؤكد أن كل خلق من خلق الله من الجمادات والأحياء له قدر من الإدراك الخاص به، والذي يعينه في قضية التعرف على خالقه سبحانه وتعالى والمداومة على ذكره، والتسبيح بحمده بلغة لا يدركها إلا ذوو القلوب الطاهرة، والنفوس الشفافة، والأرواح العارفة بخالقها.

5 - وصف الخيل بوصف ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾، والإشارة إلى أن من أفضل وسائل التآلف معها وترويضها هو المسح بكل من سيقانها وأعناقها، وهذه من مواطن الإحساس المرهف فيها كما أثبتت دراسات سلوك الحيوان.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولكني سوف أركز هنا على النقطة الأخيرة من القائمة السابقة والتي عرضتها الآيات (31-33) من سورة «صَ»، ولكن قبل البدء في ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآيات الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله - تعالى -:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝﴾ «سورة صَ، الآيات: 31-33».

- ذكر ابن كثير رحمه الله، ما مختصره: «يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود «سليمان» أي نبياً، كما قال عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره... وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ثناء على سليمان بأنه كان كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾



أي إذ عرض على سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حال مملكته وسلطانه الخيلُ الصافنات، قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع... وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين: أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يُقْطَعُ به أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والأول أقرب لأنه قال بعده: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ قال الحسن البصري: كأنه قال: لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت، وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف، ولهذا عوضه الله عز وجل ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل».

وأغلب الظن أن هذا التفسير الأخير من الإسرائيليات التي تسربت إلى عدد من كتب التفسير.





- وذكر الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدَّم ـ كلاماً رائعاً نوجزه فيما يلي: «.... والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وهي الخيل الكريمة، وعن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان.. كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسي لأي تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما، فهي إما إسرائيليات منكرة، وإما تأويلات لا سند لها... أما قصة الخيل فقيل: إن سليمان عليه السلام استعرض خيلاً له بالعشي، ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب، فقال: رُدُّوها عليَّ، فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه. ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها لأنها كانت خيلاً في سبيل الله.. وكلتا الروايتين لا دليل عليها، ويصعب الجزم بشيء عنها. ومن ثم لا يستطيع متثبت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما في القرآن الكريم. وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان عليه السلام في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان كما يبتلي الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم، ويبعد خطاهم عن الزلل. وإن سليمان أناب إلى ربه ورجع، وطلب المغفرة، واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ وأقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان عليه السلام أنه لم يُرِدْ به أثرة، إنما أراد الاختصاص الذي يتجلَّى في صورة معجزة، فقد أراد به النوع، أراد به ملكاً ذا خصوصية تميزه عن كل ملك آخر يأتي بعده، وذا طبيعة معينة، ليست مكررة ولا معهودة في الملك الذي يعرفه الناس. وقد استجاب له ربه، فأعطاه فوق الملك، ملكاً خاصاً لا يتكرر، وصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ *﴾ «سورة صَ، الآيات: 36 ـ 40»».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لما ذكره ابن كثير، وإن تميز بعض المفسرين عن بعض في إيراد عدد من التفاصيل التي لم يذكرها غيره، وبعض الاستنتاجات الخاصة به، وقد ردَّ الشهيد سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك وفنَّده.

من الدلالات اللغوية لألفاظ الآيات القرآنية الثلاث:

﴿إِذْ عُرِضَ﴾: بمعنى أُبْرِزَت له حتى نظر إليها من (عرض) (يعرض) (عرضاً) أي أظهر يظهر ظهوراً، والفعل في الآية الكريمة مبني للمجهول.

﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾: العشي = الفترة الزمنية من زوال الشمس إلى غروبها، وصلاتا العشي هما الظهر والعصر، فإذا غابت الشمس فهو العشاء الأول والآخر وإن قال بعض اللغويين إن (العشي) و (العشية) من صلاة المغرب إلى العتمة، و (العشاء) مثل (العشي) (والعشاءان) المغرب والعتمة. وزعم البعض الآخر أن العشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وهو تعريف مبالغ فيه. و(العشا) مقصور مصدر (الأعشى) وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار، والمرأة (عشواء)، ويقال: (أعشاه) الله (فعشي)، (يعشى) (عشاً).

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾: (الصافن) من الخيل هو القائم على ثلاث قوائم، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر. ويقال: (صفن) الفرس (يصفن) (صفوناً) فهو (صافن) أي صفّ أقدامه، وجمعه (صفون) وذلك لأن (الصفن) هو الجمع بين الشيئين ضاماً بعضهما إلى بعض، و(الصفون) صفة دالة على فضيلة في الفرس.

﴿ٱلْجِيَادُ﴾: جمع (جواد)، وهو الفرس السريع الجري، الجيد الركض، السابق في العدو (ذكراً كان أو أنثى)، يقال: فرس (جواد) أي يجود بمدخر عدوه، ويقال: (جاد) الفرس (يجود) (جودة) فهو (جواد) إذا أسرع في جريه وعدوه، والجمع (جياد). و(الجواد) في الأصل منسوب إلى (الجود) وهو بذل الكثير من المقتنيات مالاً كان أو علماً أو جهداً،

ولذلك يقال: رجل جواد، وفرس جواد، كما يقال فرس (حصان) لكونه حصناً لراكبه، ويطلق على كل ذكر من الخيل، وجمع الحصان (أحصنة). واسم (الخيل) مستمد من الخيلاء لأن (الخيل) تتخايل في سكونها، وفي حركاتها لما تستشعره من فضل الله ـ تعالى ـ عليها من الجمال، والقوة والذكاء، والقدرة على إدراك ما لا يدركه كثير غيرها من الحيوانات. ولفظ (الخيل) كما يطلق على الأفراس فإنه يطلق مجازاً على الفرسان كذلك، تأولاً لما قيل إنه لا يركب أحد فرساً إلا وجد في نفسه شيئاً من الخيلاء والزهو والشجاعة والنخوة وذلك من نحو ما قيل: يا خيل الله اركبي، والخطاب هنا للفرسان، وقول المصطفى ﷺ: «**عفوت لكم عن صدقة الخيل**» يعني الأفراس، و(الخيالة) هم أصحاب الخيول. ويقول ـ عز من قائل ـ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 8». وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ «سورة الأنفال، الآية: 60». أي الخيل التي تربط في سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ استعداداً للجهاد دفعاً لعدوان المعتدين ولظلم الظالمين، وتأميناً لعباد الله من المسلمين الذين اختاروا عقيدة التوحيد الخالص لرب العالمين حتى لا يفتنوا عنها، ولا يجبروا على الخروج منها.



من الدلالات العلمية للآيات الكريمة الثلاث:

أولاً: الإشارة إلى فضيلة الخيل في السكون والحركة:

في هذه الآيات القرآنية الكريمة وصفت خيل نبي الله سليمان ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ بوصفين هما ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ وهو مدح لها: واقفة ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾، وجارية ﴿ٱلْجِيَادُ﴾، فإذا وقفت كان ذلك على ثلاثة قوائم وعلى طرف حافر القائم الرابع، وذلك من علامات السكون، والاطمئنان، والثقة، والخيلاء بما أفاء الله ـ تعالى ـ عليها من قوة في البنية، وجمال في المظهر، وقدرات على الحس والإدراك، وإذا جرت كانت في عدوها سباقة راكضة كأحسن ما تكون الجياد، ولذلك فإن نبي الله سليمان من شدة إعجابه بها، وانبهاره بجمالها وحسن مظهرها، لم يدرك مرور الوقت طيلة استعراضه لها حتى فات عليه ذكر خاص له كان يؤديه في ذلك الوقت ولم يتذكره حتى غابت الشمس، واختفت الخيل عن الأنظار، فتأسَّف على ذلك أسفاً شديداً يرويه القرآن الكريم على لسانه فيقول: ﴿...إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ «سورة ص، الآية: 32».

أي آثرت حب الخيل حتى شغلتني عن ذكر الله، ولم أتذكره حتى توارت الخيل عني باحتجابها، أو توارت الشمس بغروبها، أو حتى حدث الأمران معاً.

والخيل من الحيوانات الثديية المشيمية ذات الحافر (Ungulate Placental Mammals) وتجمع في رتبة خاصة بها تعرف باسم رتبة فردية أصابع الحافر:
(Odd-toed Ungulates = Order **Perissodactyla**) وذلك لتميزها بإصبع واحد كبير عامل في كل قدم، وهو مغطى بالحافر الواقي له من الصدمات من أجل حمايته. والحيوان الحافري إما أن يكون فردي الأصابع من مثل الخيل، والبغال، والحمير، والحمير الوحشية وأشباهها، وإما أن يكون زوجي الأصابع:
(Even-toed Ungulates = Order **Artiodactyla**) من مثل مختلف الأنعام (الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، والغزلان، والزرافات، وأشباهها).

والخيل من الحيوانات آكلة الأعشاب والحبوب النباتية (Herbivorous) ولذلك تتميز بأسنانها الكبيرة، ذات السطوح العريضة، المزودة بعدد من البروزات المناسبة لجرش وطحن هذا النوع من الغذاء (مثل الحشائش، التبن، الدريس، الردة، الفول، الشعير،

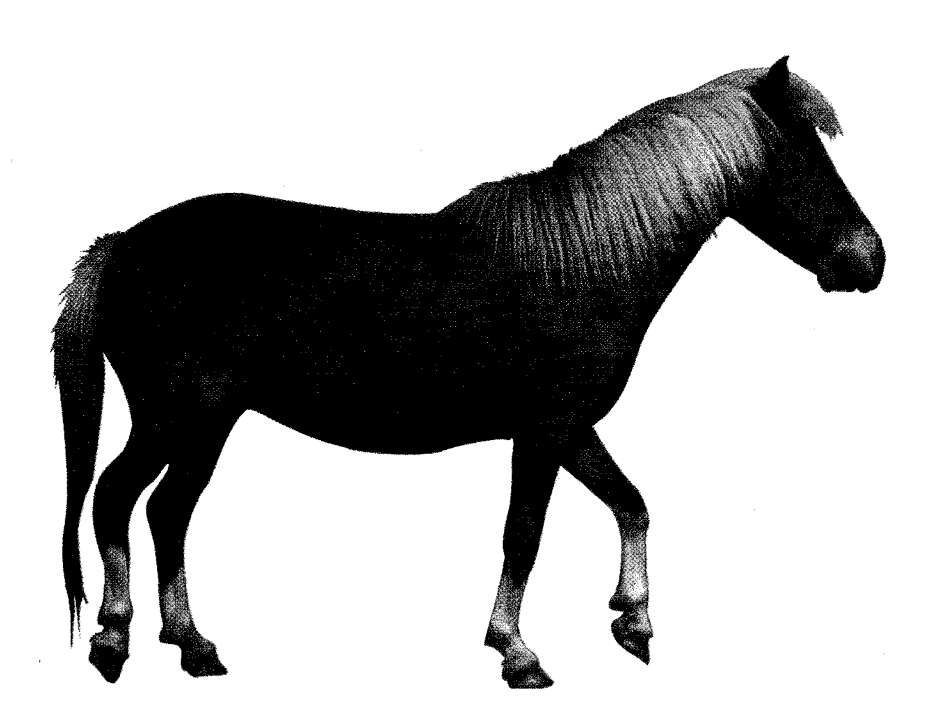
الشوفان وغيرها من الحبوب) وتكثر هذه البروزات على أسطح تيجان طواحين الخيل. ويتبع الحصان (**Equus horse**) فصيلة الأحصنة وأشباهها (Family **Equidae**) التي تشمل كلاً من الحصان، والحمار، والحمار الوحشي (المخطط)، وهي جزء من رتيبة (تصغير رتبة) الأفراس المعروفة باسم (Suborder **Hippomorpha**) والتي تشمل بالإضافة إلى فصيلة الأحصنة عدداً من الفصائل المنقرضة التي عمرت الأرض منذ حوالي خمسين مليون سنة مضت في (عهد الإيوسين)، أما الحصان الذي نعرفه اليوم فلم يعرف قبل المليونين الأخيرين من عمر الأرض المقدر بحوالي خمسة آلاف مليون سنة على أقل تقدير، وهو يحيا عادة في قطعان وذلك من قبل استئناسه، وقد تم استئناس الأحصنة منذ حوالي خمسة آلاف سنة مضت، وذلك لاستخدامها في الركوب، وحمل الأثقال، وجر العربات، وفي غير ذلك من أعمال الانتقال، والزراعة، والحروب، والرياضة، وغيرها.

والحصان حيوان قوي البنية، شديد الذكاء، نبيل الطباع، قوي الذاكرة، له قدرة التعرف على الأشخاص، والحكم على المواقف، كما أن له قدرات فائقة على الشم، والسمع، وعلى معرفة الاتجاهات والطرق والأماكن وتذكرها حتى بالليل وبعد فترات زمنية طويلة من مغادرتها.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحصان حيوان هادىء ورصين، ليست له طبيعة عدوانية إلا إذا هوجم بشيء من القسوة، وهو يهرب عادة من المواجهة التي يخافها، ويقلق لأقل سبب لما له من طبيعة رقيقة، ويظهر ذلك عليه بشيء من الوجوم وعدم الحركة، ولكن إذا جوبه بالخطر أو إذا أسيئت معاملته فإنه يستطيع ضرب عدوه برجليه الأماميتين وبرقبته حتى يطرحه أرضاً. والحصان له رأس مستطيل، يحمل أكبر عينين لحيوان معاصر مقارنة إلى حجمه؛ ولذلك فإن الذاكرة البصرية عنده عالية جداً مما يجعله يجفل عند رؤيته لمكان أو لشيء أفزعه من قبل، وكذلك فإن ذاكرته السمعية لا تقل حدة عن ذاكرته البصرية، مما يدفع بالمدربين للجياد إلى استخدام نفس الجمل، ونفس نبرات الصوت في توجيهها، بل إن بعض الجياد يمكنها استقراء رغبات كل من مدربيها وراكبيها قبل أن ينطقوا بها. والجواد فوق ذلك يستشعر الحالة النفسية لراكبه من قلق واضطراب، أو ثقة واطمئنان، ويتصرف على أساس من ذلك، فإذا أساء الراكب معاملته فإن الجواد يستطيع الانتقام منه بطرق متعددة، كما يمكن له أن يعبر عن طاعته لصاحبه، وعن وفائه له وثقته فيه وعاطفته تجاهه

وذلك بتعبيرات وجهه، وحركات أذنيه، وإيماءات رأسه، أو إظهار أسنانه، أو العض عليها، وبصوته ومختلف نبرات صهيله، أو بالركل بأرجله الخلفية في تناغم جميل كما يمكنه الإتيان بالعديد من الأعمال التي تعبر عن ذكائه، من مثل فتح غطاء صندوق العلف المغلق أمامه، أو فتح باب الإصطبل الذي يحتجز فيه إذا أراد الخروج منه. وتتفاوت قدرات الخيل في ذلك تفاوتاً كبيراً حتى ليكاد أن يكون لكل فرد منها شخصيته الخاصة، وصفاته المميزة له. وللخيل قدرات فائقة على التلقي والإدراك، وعلى التعاطف مع من يعتنون بها، أو مع أفراد معينين من أسرة مالكيها، كما أن لها القدرة على كراهية أفراد آخرين والنفور منهم دون سبب واضح. ولشدة الحاسة السمعية عند الخيل فإنها تستشعر الهزات الأرضية عند بدء انبثاقها فتهرب منها، وذلك قبل أن يدركها الإنسان بعدة ساعات. وللحصان ثماني عشرة عضلة لتحريك الأذن في (180) درجة، ولذلك فهو شديد الانتباه إلا في حالات النوم العميق، وهذا لا يحدث إلا على فترات قصيرة جداً في كل يوم.

وبالإضافة إلى ذاكرتيها البصرية والسمعية فإن للخيل حاسة شم قوية يتعرف بها على رفاقه، وعلى أصحابه، كما يمايز بها بين طعام صالح أو فاسد، وماء عذب أو آسن، ووسط



نظيف أو قذر، وذلك لأن الخيل تأنف من الروائح الكريهة، وهذه الصفات كلها (وغيرها كثير) تشير إلى فضائل الخيل بصفة عامة، وإلى خيل سليمان ﷺ، بصفة خاصة.

ثانياً: الإشارة إلى أن اللمس يلعب دوراً مهماً في حياة الخيل:

تقول الآيات القرآنية الكريمة التي نحن بصددها في وصف تعامل نبي الله سليمان ﷺ مع خيله ما نصه: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ «سورة صَ، الآية: 33».

والدراسات المتأخرة في علم سلوك الحيوان تؤكد أن المسح لسيقان الخيل وأعناقها يلعب دوراً مهماً في تطمينها وإشعارها بالود والمحبة، فجلد الخيل من أكثر أجزاء جسده حساسية للمس، لدرجة أنها تشعر بالذبابة تحط عليه، وتعمل على طردها بحركة عضلاتها القوية التي تنقبض وتنبسط بسرعة فائقة فتهش الذبابة عن جسمها. وأكثر مناطق جسم الحصان حساسية للمس هي سيقانه وعنقه وما حول رأسه، لأن لكل حصان نقطة توازن في مركز رأسه وخلف كتفيه، ومن هنا كانت الإشارة القرآنية إلى فعل سليمان بخيله والتي يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:.... ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾. سبقاً علمياً ومعجزة حقيقية لأن هذه المعلومات لم تدرك إلا في خلال القرن العشرين بعد تبلور علم سلوك الحيوان (Animal Behaviour).

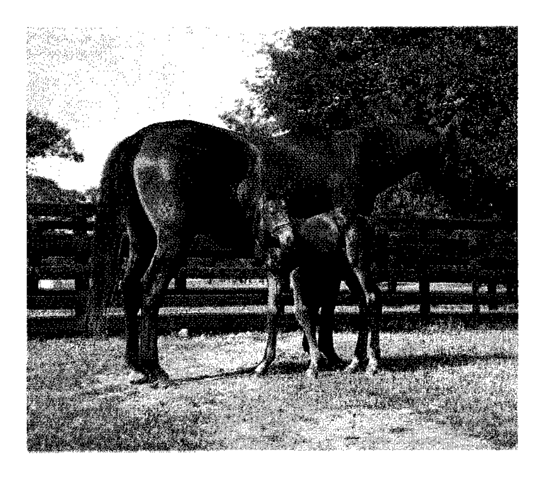
ومن مناطق الحس المرهف في جسم الحصان كذلك: العين والأذن، فهو لا يحب أن تشد أذنه، ولا يحب أن ينظر إلى عينه مباشرة أحد غير صاحبه، لأنه يشعر أن في ذلك نوعاً من التهديد له، لأن لكل عين من عيني الحصان جهازاً خاصاً لتضخيم كم الضوء الواصل إليها بإعادة عكسه لعدة مرات على شبكية العين مما يعينها على وضوح الرؤية مهما كان الضوء ضعيفاً، وإن كانت الخيل تنزعج من العتمة الكاملة ولذلك تنشط الخيل في الفجر وعند الغسق، وتقلق لرؤية أي عارض ولو من بعيد. والخيل تدرك أبسط الحركات من حولها، لأنها تستطيع الرؤية بكل عين منفردة، كما أن لها رؤية مزدوجة بالعينين معاً في حدود (60) إلى (70) درجة من الأفق أمامها، وبذلك تكاد تغطي الأفق كاملاً بالعينين معاً وبكل عين منفردة في جهتها.

ويمكن لراكب الفرس أن يعبر له أو لها بما يشاء عن طريق اللمس، كذلك يمكن للفرس أن يتفاهم مع غيره من الأفراس عن طريق الأصوات أو عن طريق لمس جسديهما ببعض.

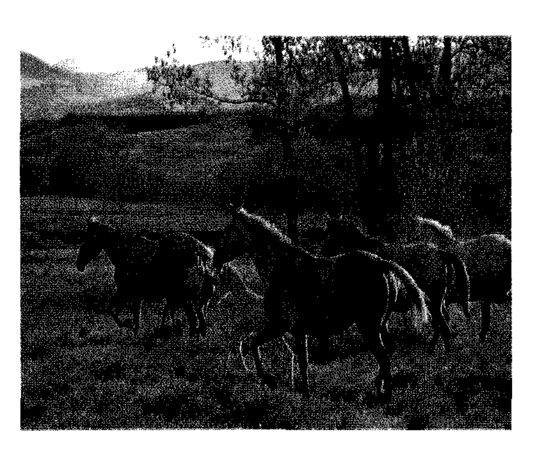


ثالثاً: الإشارة إلى دور أنثى الخيل في تدبير أمر جماعتها:

تثبت الدراسات المتأخرة في علم سلوك الحيوان أن الخيل هي حيوانات اجتماعية بطبيعتها الفطرية، تحيا منطلقة في البراري في قطعان من أربعة إلى عشرة أفراد في المتوسط، وإن كانت بعض قطعانها قد يصل إلى أكثر من ذلك بأضعاف عديدة. وتعتمد كل واحدة من هذه الجماعات على العائلة التي تضم مهرة واحدة أو مهرتين وأنسالهما حتى أعمار سنتين إلى ثلاث سنوات، وعلى مهر واحد أو على أكثر من مهر في المجموعة.



والإناث في جماعة الخيل هي الآمرة، الحاكمة، صاحبة القرار على باقي أفراد القطيع، والمهر الذي يصحبه (أو المهران أو الأمهار إذا كانوا أكثر من اثنين) دوره حراسة القطيع، دون أن يكون له دور في القيادة، ومن هنا كانت الإشارة في الآيات القرآنية المستشهد بها هنا إلى الجياد بالتأنيث (الصافنات الجياد) سبقاً علمياً حقيقياً جاء قبل توصل العلوم المكتسبة في فرع سلوك الحيوان بأكثر من اثني عشر قرناً. ومن العجيب أن تتبادل الإناث في القطيع الواحد قيادة القطيع، الواحدة تلو الأخرى حتى لا تكون السيادة مطلقة لواحدة منهن، بينما في عالم الأناسي من وصل إلى كرسي السلطة لا يريد أن يغادره أبداً إلا بالموت أو الانقلاب العسكري.





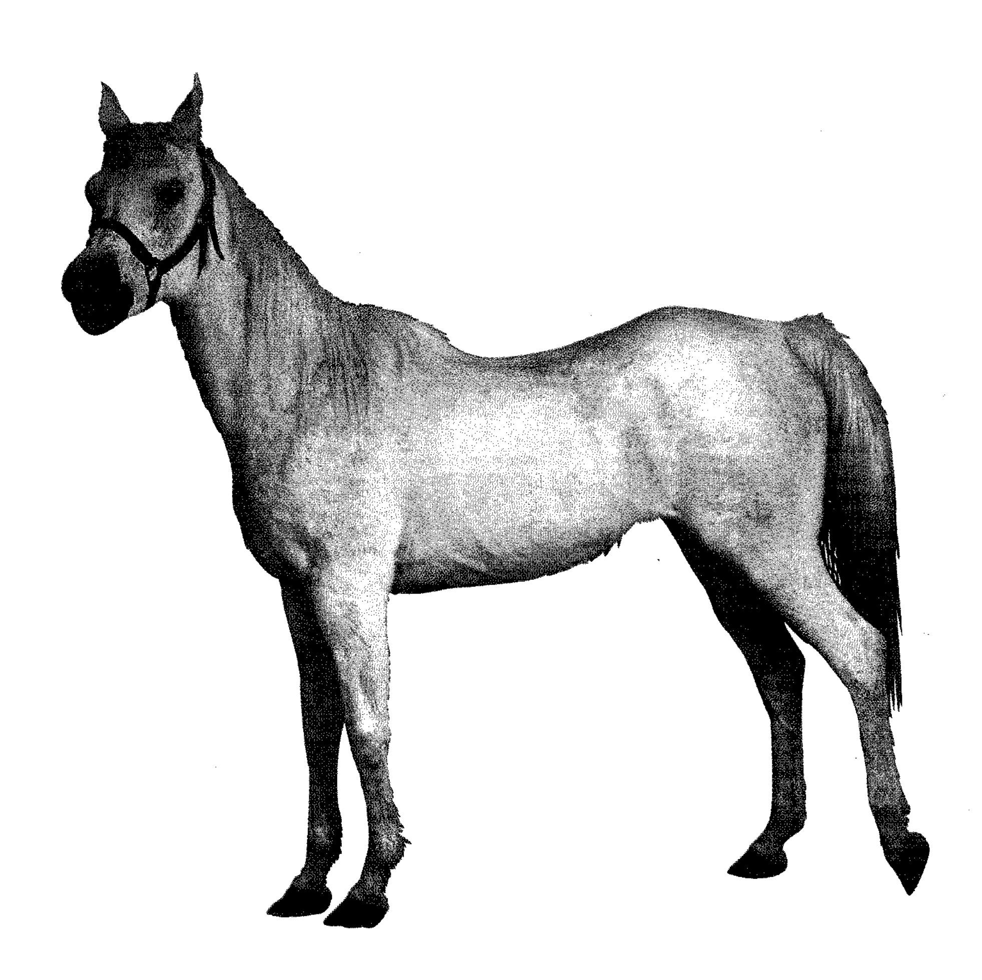
وأنثى الخيل هي الموجهة الفعلية والمربية الحقيقية لصغارها، فإذا أخطأ أحدهم نهرته وعاقبته، ويصل العقاب إلى حد الطرد من مرافقة القطيع لفترات تطول بنسبة تتوافق مع حجم الجرم المقترف، فإذا انتهت مدة العقاب عاد إلى حدود أرض القطيع مستأذناً بعودة الانضمام إليه، فإذا واجهته رئيسة القطيع بأنفها كان في ذلك إذن بعودته للانضمام إلى القطيع، وإن قابلته بمؤخرتها كان ذلك رمزاً لرفض طلبه، واستمراراً للعقوبة عليه فعاد من حيث أتى.

هذه الإشارات إلى فضائل الخيل في كل من السكون والحركة، وإلى خيلائها بما حباها الله ـ تعالى ـ من الذكاء والفطنة والجمال والقدرة على الإدراك، وإلى إحساسها المرهف للمس خاصة حول رأسها وعنقها وسيقانها، وإلى دور الأنثى القيادي في قطعانها، هذه كلها من الحقائق التي لم تصل إلى علم الإنسان إلا بعد اهتمامه بسلوك الحيوان في القرنين الماضيين على أحسن تقدير، ومن هنا كان ورود تلك الحقائق بهذه الدقة والوضوح في القرآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمِمَّا يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة

بشرية، بل هو كلام الله الخالق ﷻ، ويشهد للنبي الخاتم الذي تلقَّاه بالنبوة وبالرسالة، ولذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في محكم كتابه:

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ «سورة الأحزاب، الآية: 4».

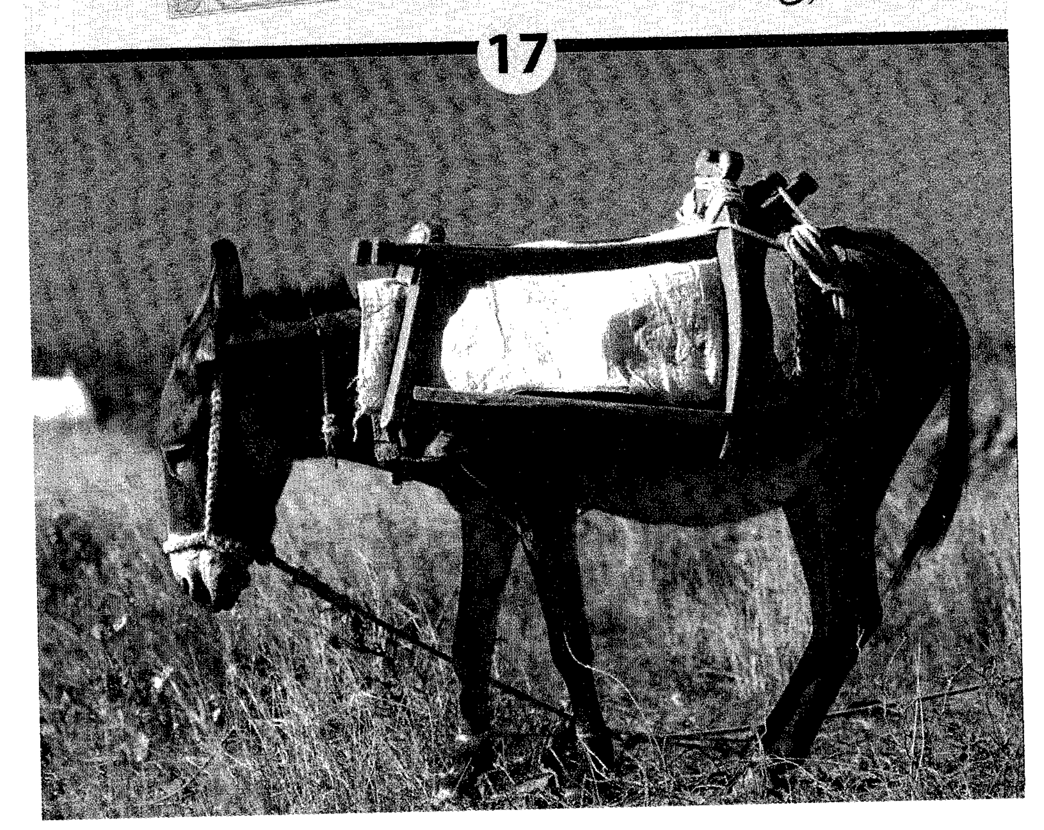
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



... ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ
عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ
فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا
ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ
ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ
مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

سورة لقمان

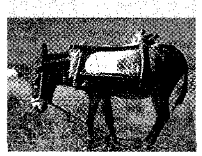
17



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ «سورة لقمان، الآية: 19».

17



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في بدايات النصف الثاني من سورة «لقمان»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها أربع وثلاثون (34) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى لقمان الحكيم، وهو شخصية لا يعرف المؤرخون كثيراً عنها، فقد قيل إنه نوبي، أو سوداني أو حبشي أو عبري، وجمهور الذين ذكروه مجمعون على أنه لم يكن نبياً، وإن كان قليل منهم يرجح نبوته لذكر القرآن الكريم له بالاسم، وإطلاق اسمه على هذه السورة الكريمة، وإن كانوا يجمعون على أنه كان من الأحناف الذين دانوا أنفسهم بالحنيفية السمحة، وذلك لما اشتهر به من التوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ، ونبذ الشرك، والحكمة، والدعوة إلى مكارم الأخلاق التي روت سورة «لقمان» طرفاً منها في مقام نصيحة لقمان الحكيم لابنه.

ويدور المحور الرئيسي للسورة الكريمة حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها: التوحيد الخالص لله تعالى ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وتنزيهه ﷻ عن كل وصف لا يليق بجلاله، والإيمان بحقيقة الوحي، والنبوة، والرسالة، واليقين بضرورة البعث، والحساب، والجزاء، والجنة، والنار، والتسليم بملكية الله الخالصة للسمٰوات والأرض وما فيهما، وبشمول علمه ﷻ لكل شيء، وبضرورة الخضوع لأوامره، واجتناب نواهيه في عبودية خاضعة، وعبادة خالصة له وحده ـ سبحانه ـ، والالتزام بمكارم الأخلاق، ومن ألزمِها: بر الوالدين، ومنها النهي عن الغرور الكاذب، والتكبر على الخلق، والاختيال بالجاه والسلطان، والعجب بالنفس، والتفاخر بالمكاسب المادية الزائلة، وكلها من مداخل الشيطان الذي أمرنا بمعصيته ومعاداته، ومنها الاقتصاد في المشي، والغض من الصوت تواضعاً لله ـ تعالى ـ، وشكراً له على نعمه الظاهرة والباطنة، ومنها

إسلام الوجه لله الخالق البارئ المصور، مع الإحسان إلى الخلق، والاستمساك بالعروة الوثقى، واليقين بأن الله ﷻ هو الحق، وأن ما يدعو المشركون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير.

وبشَّرت السورة المحسنين بالنعيم المقيم، وأنذرت الكافرين بالعذاب الأليم، وختمت بما استأثر الله ـ تعالى ـ بعلمه من أمور الغيب التي لا سبيل للإنسان في الوصول إلى علم شيء منها إلا عن طريق وحي السماء، وفي ذلك تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ «سورة لقمان، الآية: 34».

هذا، وقد استشهدت السورة الكريمة في سياق ذلك بعدد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، والشاهدة للخالق ﷻ بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، والشاهدة له ـ تبارك اسمه ـ بأنه كما خلق فإنه قادر على إفناء خلقه، وعلى بعثه وحسابه وجزائه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

عرض موجز لسورة «لقمان»:

تبدأ سورة «لقمان» بثلاثة من الحروف الهجائية المقطعة هي ﴿الٓمٓ﴾ التي تكررت في مطلع ست من سور القرآن الكريم هي: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، والسجدة، وجاءت هذه الحروف الثلاثة بإضافة الحرف (ص) في مطلع سورة الأعراف ﴿الٓمٓصٓ﴾، وبإضافة الحرف (ر) في مطلع سورة الرعد ﴿الٓمٓر﴾.

وقد قيل في هذه المقطعات أنها قد تكون رموزاً إلى كلمات أو معان أو أعداد معينة، أو أنها أسماء للسور التي جاءت في أوائلها، أو هي من قبيل التحدي للعرب بالقرآن الكريم الذي لم تتجاوز حروفه حروف لغتهم، وعلى الرغم من ذلك فقد عجزوا ـ وسوف يظلون عاجزين ـ عن الإتيان بشيء من مثله. وقيل فيها إنها من وسائل قرع الأسماع والقلوب كي تتنبه لتلقي القرآن الكريم، وقيل إنها من قبيل استهلالات العرب؛ أي إنها مجرد فواتح للسور، أو أن كل حرف منها يدل على كلمة محددة المعنى الذي يستخرج من مضمون السورة، أو إنها من دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ وصدق رسالته، بسبب نطقه بأسماء الحروف ـ وهو الأمي ـ، والأمي ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها. وقد تجمع

بين كل هذه الأقوال وغيرها، أو إنها من أسرار القرآن الكريم التي لم يأذن الله ـ تعالى ـ بعد بالكشف عن مدلولاتها والله سبحانه وتعالى أعلم بمضمونها.

وبعد هذا الاستهلال مباشرة جاء الثناء على القرآن الكريم وعلى المؤمنين به وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ *﴾ «سورة لقمان، الآيات: 1 ـ 5».

ثم عرجت الآيات إلى استنكار عمل من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هزواً ليضل الناس عن طاعة الله ويصرفهم عن التمسك بآداب دينه.

وقد قيل في لهو الحديث أنه كل ما كان ملهياً عن طاعة الله من وسائل الترفيه الحرام، كالتمثيل الفاضح الذي تكشف فيه العورات، والغناء الماجن الذي تتجاوز فيه حدود الأدب، ومشاهدته أو الاستماع إليه، وما تمتلىء به وسائل الإعلام في أيامنا هذه من أعمال وأقوال تخدش الحياء وتنحط بالذوق السليم، وتصرف الناس عن كل جاد وهادف ومفيد في هذه الحياة، وتدعو إلى الفواحش من القول والرذائل من السلوك والأعمال وقدرت السورة الكريمة أن الواقعين في ذلك لهم عذاب مهين في الدنيا قبل الآخرة.

وفي النهي عن ذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**لا تبيعوا القينات، ولا تشتروهنّ، ولا تعلموهنّ، ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام**»[1] والقينات هنّ المغنيات.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية الكريمة كانت قد نزلت في رجل من كفار قريش اشترى جارية مغنية، وكان حريصاً على أن يصرف أوقات الناس في الاستماع إليها، وكان إذا تليت عليه آيات القرآن الكريم انصرف عنها مستكبراً متعالياً، ومتغطرساً مجافياً كأن أذنيه قد أصيبتا بالصمم الثقيل فلم يسمعها تماماً كما يفعل العديد من الضالين ومن أهل الإعلام الفاسد في زماننا. وتطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ـ كما تطالب كل

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 1282) و(الحديث: 3195)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2168).

متبع لهديه من بعده ـ أن يبشر هؤلاء اللاهين وأشباههم بالعذاب الأليم في الدنيا وبالعذاب المهين في الآخرة.

وفي المقابل تؤكد الآيات الكريمة في سورة «لقمان» أن الذين آمنوا ببعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ وبرسالته، وعملوا الصالحات فإن لهم جنات النعيم خالدين فيها أبداً، وأن هذا هو وعد الله الحق الذي لا يخلف، والله هو العزيز الحكيم.

واستشهدت السورة الكريمة بعدد من آيات الله الكونية الدالة على طلاقة قدرته المبدعة في الخلق، ثم تخاطب الناس جميعاً بقوله (عز من قائل):

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «سورة لقمان، الآية: 11».

ثم أثنت الآيات على عبدٍ من عباد الله آتاه الله الحكمة هو لقمان فعرف باسم لقمان الحكيم، والحكمة تقتضي الوضاءة في الفهم، والفقه في الدين، والإصابة في الحكم، ومن صميمها أن يكون العبد شاكراً لأنعم الله، فبالشكر تدوم النعم، ويُجْزَلُ الثواب من الله ـ تعالى ـ وبالكفر يستحقّ العبد النقم ولذلك يقول ربنا وهو أحكم القائلين:

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ «سورة لقمان، الآية: 12».

ومن سمات حكمة لقمان نهي ابنه ـ وهو يعظه ـ عن الشرك بالله الذي وصفه بأنه من أبلغ صور ظلم الإنسان لنفسه.

وتوصي الآيات الأبناء ببر الوالدين؛ مستشهدة بحمل الأم لجنينها وهناً على وهن لفترة تتراوح بين الستة والتسعة شهور؛ أي: ضعفاً على ضعف طوال فترة الحمل، ثم رعايته حتى يفطم بعد ذلك بعامين، وهذا مما يستوجب الشكر أولاً لله ـ تعالى ـ على الخلقة والرعاية الإلٰهية طيلة مدة الحمل حتى يخرج الحميل حياً من بطن أمه، والشكر للوالدين ثانياً على تحملهما ما رافق ذلك الحمل والوضع والرضاع من مشاق، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ «سورة لقمان، الآية: 14».

وحتى في حالة إيمان الابن وكفر الوالدين أو شركهما بالله ـ تعالى ـ فإن الآيات توصي الابن بعدم طاعتهما في أمر الدين، وبطاعتهما فيما سواه من أمور الدنيا التي لا تُحَمِّله تبعة أو مسؤولية أمام الله ﷻ، وأن يتبع سبيل من تطهر من أدران الكفر والشرك، وقيل إن المقصود بهذا الوصف القرآني هو أبو بكر الصديق ﷺ، وقد عاد إلى ربه في توبة صادقة، وبراءة كاملة من شرك قومه حين آمن بخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وصدقه، وإن كانت العبرة في القرآن الكريم هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

«سورة لقمان، الآية: 15».

وقيل إن هذه الآية الكريمة نزلت في الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص ﷺ، وذلك لأنه لما أسلم قالت له أمه «جميلة»، وكان أحب ولدها إليها لأنه كان باراً بها: «يا سعد، ما هذا الدين الذي أحدثت؟ فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح، ولا آكل ولا أشرب حتى تدع دينك هذا وترجع إلى ما كنت عليه، أو أموت فتُعيَّر بي، ويقال: يا قاتل أمه» فقال لها: «لا تفعلي يا أماه فإني لا أدع ديني هذا لشيء»، وأبى سعد أن يوافقها، وصبرت هي ثلاثة أيام لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل بظل حتى غشي عليها، فلما رأى منها ذلك قال لها: «تعلمين والله يا أماه، لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، إن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي»، فلما رأت ذلك منه أكلت، فأنزلت هذه الآية الكريمة في سعد وأمه، وتمام الآية نزل في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، وقد كان سبباً في هداية سعد بن أبي وقاص إلى الإسلام.

ثم تعاود الآيات استكمال وصايا لقمان الحكيم لابنه ـ وهو يعظه ـ مؤكداً إحاطة علم الله بكل شيء، وأنه هو اللطيف الخبير، ويوصيه بإقامة الصلاة، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالصبر على المكاره، وبعدم التكبر على الخلق أو الاستعلاء عليهم، أو الزهو والتباهي والافتخار، والخيلاء، والعجب بالذات لأن الله تعالى لا يحب ذلك، ويوصيه بالاقتصاد في المشي، وبغض الصوت، وفي ذلك تقول الآيات على لسانه:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۞ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۞ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۞ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ۞﴾ «سورة لقمان، الآيات: 16 ـ 19».

وتعاود الآيات إلى تذكير الناس بأن الله ـ تعالى ـ قد سخر لهم ما في السمٰوات وما في الأرض، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وعلى الرغم من ذلك فإن منهم من يجادل في وحدانية الله الخالق سبحانه وتعالى، وفي ضرورة الخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة، من غير علم من الله، ولا برهان منطقي على ما يدعيه من أقوال، وفي ذلك يقول الله ـ وهو أحكم القائلين ـ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۞﴾ «سورة لقمان، الآيتان: 20، 21».

وتؤكد الآيات أن الناجي حقاً من عذاب الله هو الذي يسلم وجهه لربه، مقراً لجلاله بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، متقرباً إليه بالإيمان الكامل، والطاعة التامة، منفذاً لأوامره، ومجتنباً لنواهيه، ومتذللاً إليه بالعبودية الكاملة، مؤمناً بأن نهاية كل شيء إليه، ومصير كل الخلائق إليه وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ «سورة لقمان، الآية: 22».

ثم تتوجَّه الآيات بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يحزن لكفر الكافرين؛ لأن الخلق جميعهم راجعون إلى الله ـ تعالى ـ وهو العليم بذات الصدور، وتتوعَّد الآيات الكفار والمشركين والطغاة المتجبرين على خلق الله بأن إمهالهم في الدنيا بمتاعها القليل سوف يتبعه العذاب الشديد في الآخرة، والخطاب موصول لأتباع هذا النبي الخاتم إلى يوم الدين: ألا يحزنوا لكفر الكافرين، ولتطاول خفافيش الظلام الذين يتستَّرون خلف شاشات شبكة المعلومات الدولية (الشبكة العنكبوتية) أو التلفاز، أو ميكروفونات الإذاعات لينفثوا

سمومهم الحاقدة، وجهلهم الفاضح، وشركهم الكريه، وحقدهم على الإسلام وكتابه، وعلى خاتم أنبياء الله ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، فعقاب الله يتهددهم بوعده ووعيده ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وتؤكِّد الآيات لرسول الله ﷺ أنه لو سئل الكافرون عن خالق السمٰوات والأرض لأجابوا بالقطع بأنه هو الله ـ تعالى ـ، وتأمره بحمد الله ـ تعالى ـ على نعمة الإسلام الذي لا يرتضي ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده ديناً سواه، خاصة أن أكثر الناس لا يدركون فضل هذا الدين على غيره من الأديان، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *﴾

«سورة لقمان، الآيات: 23 ـ 25».

وتؤكد الآيات مرة أخرى أن جميع ما في السمٰوات والأرض هو ملك لله ـ تعالى ـ الغني عن جميع خلقه، المحمود في السمٰوات والأرض. وتعظيماً للقرآن الكريم تؤكد الآيات أن كلمات الله فيه لا تنفد أبداً مهما حاول المفسرون، واجتهد الكاتبون، وتقرر أن خلق الناس وموتهم ثم بعثهم من اليسر على الله ـ تعالى ـ كخلق نفس واحدة، وأن من صفات الله ـ تعالى ـ أنه السميع البصير.

وعاودت الآيات الاستشهاد بعدد آخر من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق والإفناء والبعث، وعلى أن الله ـ تعالى ـ خبير بما يعمل كل واحد من خلقه، وأنه ـ تبارك اسمه ـ هو الحق،وأنه هو العلي الكبير، وأن كل ما يدعون من دونه هو الباطل.

وتستعرض الآيات جانباً من طبائع النفس البشرية غير المؤمنة، ومن ذلك أنها عادة ما تلجأ إلى الله ـ تعالى ـ في ساعات الضيق والشدة، وتلهو عن طاعته في أوقات الرخاء والسعة، وضربت لذلك مثلاً بمن يقلعون في المياه المتلاطمة للبحار والمحيطات فتارة ينجون برحمة من الله وفضل، وتارة تغشاهم تلك الأمواج المتلاطمة فيلجأون إلى الله ـ تعالى ـ وحده،

وينسون كل من أشركوهم في عبادته، حتى إذا أنجاهم الله ﷻ إلى البر برحمته وفضله فمنهم من يقر بالفضل لله ـ تعالى ـ، ومنهم من يجحد ذلك كفراً بنعمة الله عليه.

وتختتم سورة «لقمان» بآيتين كريمتين تدعوان الناس جميعاً إلى تقوى الله، وإلى خشية أهوال يوم القيامة حيث لا يغني والد عن ولده، ولا مولود عن والده شيئاً، ووعد الله ـ سبحانه ـ بذلك هو الحق، وعليه فلا يجوز لعاقل أن يغتر بالدنيا الفانية، أو أن يستهويه الشيطان بالانصراف عن طاعة الله الذي عنده علم الغيب كله، ولا يعلمه سواه لأنه ـ تعالى ـ هو العليم بكل شيء، والخبير في كل أمر، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ *﴾

«سورة لقمان، الآيتان: 33، 34».

من ركائز العقيدة في سورة «لقمان»:

1 ـ الإيمان بأن القرآن الكريم هو كلام الله الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وأنه هو الكتاب الحكيم الذي جعله الله ـ تعالى ـ هدى ورحمة للمحسنين؛ وأن كلماته لا تنفد أبداً مهما حاول تفسيرها المفسرون، وكتب عنها الكاتبون.

2 ـ اليقين بأن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على القيام بذلك والدعوة إليه هو من عزائم الأمور، ومن الهداية الربانية التي تقود صاحبها إلى الفلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة، وإلى الاستمساك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

3 ـ التصديق بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم، خالدين فيها أبداً، كما وعد رب العالمين، ووعده الحق، وهو العزيز الحكيم، وأن من كفر فعليه كفره، وأن مآله إلى جهنم وبئس المصير، حتى لو تمتع بشيء من زينة الحياة

الدنيا، ومتاعها القليل، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ سوف يضطره إلى عذاب غليظ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾

«سورة الشعراء، الآيتان: 88، 89».

4 ـ التسليم بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، بما في ذلك السمٰوات القائمة بغير عمد مرئية، والأرض التي ألقى فيها رواسي كي لا تميد بما عليها من الخلق، وبث فيها من كل دابة، وأنزل من السماء ماء فأنبت فيها من كل زوج كريم؛ وأن من هم غير الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلَقُون؛ وأن الله ـ تعالى ـ هو الذي سخر للناس ما في السمٰوات وما في الأرض جميعاً منه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأنه هو الغني الحميد، واللطيف الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السمٰوات، ومن هنا كان الشكر لله ـ تعالى ـ واجباً على المخلوقين جميعاً.

5 ـ التصديق بأن الشرك بالله ـ تعالى ـ هو من أخطر درجات ظلم النفس لأن مآله وخيم، وأن الشيطان للإنسان عدو مبين، يدعوه دوماً إلى عذاب السعير.

6 ـ اليقين بحتمية الآخرة، بل بضرورتها، وبما فيها من بعث وحساب وخلود إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وأن فيها لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً.

7 ـ اليقين بالغيبيات المطلقة التي لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ، ومنها علم الساعة، ونزول الغيث، وعلم ما في الأرحام، وما تكسب كل نفس في مستقبل عمرها، وبأي أرض تموت.

من مكارم الأخلاق في سورة «لقمان»:

1 ـ تحريم كل صور اللهو الماجن الذي تتجاوز فيه حدود الأدب، والاحتشام، والذوق السليم، فيخدش الحياء، ويدمر الأخلاق، ويفسد سلوكيات الناس، ويضل عن سبيل الله، ويجعل من الناس من يتخذ الحياة لهواً ولعباً، والأصل فيها أن تؤخذ مأخذ الجد.

2 ـ بر الوالدين، وإن كانا كافرين أو مشركين.

3 ـ التأسّي بالصالحين، والحرص على مصاحبتهم.

4 ـ النهي عن التكبر على الخلق، وعن الاستعلاء في الأرض لأن الله ـ تعالى ـ لا يحب كل

مختال فخور، ومن هنا كانت الدعوة إلى القصد في المشي، والغض من الصوت، والتذكير بأن أنكر الأصوات هي تلك الأصوات الحادة، المرتفعة النبرة كصوت الحمير.

5 ـ التأكيد على قيمة العقل في الحكم على الدين، وهو من الأمور التي لا يجدي فيها مجرد الميراث، واستنكار الخوض في المعاصي في أوقات الرخاء والسعة، واللجوء إلى الله ـ تعالى ـ في ساعات الأزمات والضيق.

من الإشارات الكونية في سورة «لقمان»:

1 ـ الإشارة إلى خلق السمٰوات بغير عمد مرئية.

2 ـ ذكر إلقاء الجبال في الأرض رواسي لها كي لا تميد وتضطرب بما عليها من الخلائق.

3 ـ بث الحياة في الأرض من كل دابة.

4 ـ إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض بواسطته حتى تنبت من كل زوج بهيج.

5 ـ تأكيد حقيقة أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وأن غيره لا يخلق شيئاً.

6 ـ التوصية بضرورة الاقتصاد في المشي، والغض من الصوت، والإشارة إلى أن أنكر الأصوات هو صوت الحمير، وفي ذلك من القيم البيئية ما فيه للتحذير من التلوث البيئي بالضوضاء والضجيج.

7 ـ الإشارة إلى أن خلق البشر جميعهم، ثم موتهم وبعثهم هو بالنسبة إلى الله ـ تعالى ـ كخلق نفس واحدة وإفنائها ثم بعثها.

8 ـ الإشارة إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس بولوج كل من الليل في النهار، والنهار في الليل.

9 ـ الإشارة إلى حتمية فناء الكون بالتأكيد على أن تسخير كل من الشمس والقمر هو إلى أجل مسمى.

10 ـ التأكيد على أن جريان الفلك في البحر هو نعمة من نعم الله، وآية من آياته.

11 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ هو وحده الذي عنده علم الساعة الأخيرة من عمر الكون، وهو وحده الذي ينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، ويعلم ماذا تكسب كل نفس في غدها وبأي أرض تموت، والأحداث من حولنا تؤكد صدق ذلك وحقيقته.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة السادسة من القائمة السابقة والتي تشير إلى أن أنكر الأصوات هو صوت الحمير.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

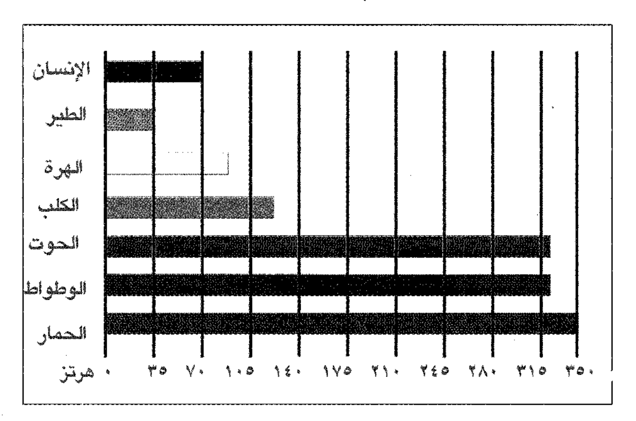
تقول الآية الكريمة التي نحن بصددها على لسان لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه:

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾

«سورة لقمان، الآية: 19».

و«**القصد**» هنا من الاقتصاد أي عدم الإسراف، أو الاتزان بين الإسراف والتقتير، ومدلوله هنا هو التوسط في المشي بين البطء والإسراع في شيء من السكينة والوقار الذي لا يشوبه التبختر والاختيال والعجب بالذات.

و«**الغض**» من الصوت هو خفضه إلى مستوى الحاجة، وكفه عن إيذاء مسامع الآخرين، وفي ذلك من الأدب، والثقة بالنفس، والاطمئنان إلى صدق الحديث ما يجعل غض الصوت من مكارم الأخلاق، ويجعل أعلاها أقبحها كصوت الحمير أي نهيقها لما فيه من العلو المفرط بين الزفير والشهيق، من الفزع الذي ينتابها عند رؤية الشياطين، وذلك لقول المصطفى ﷺ: «**إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم فإنه رأى شيطاناً**»(1).

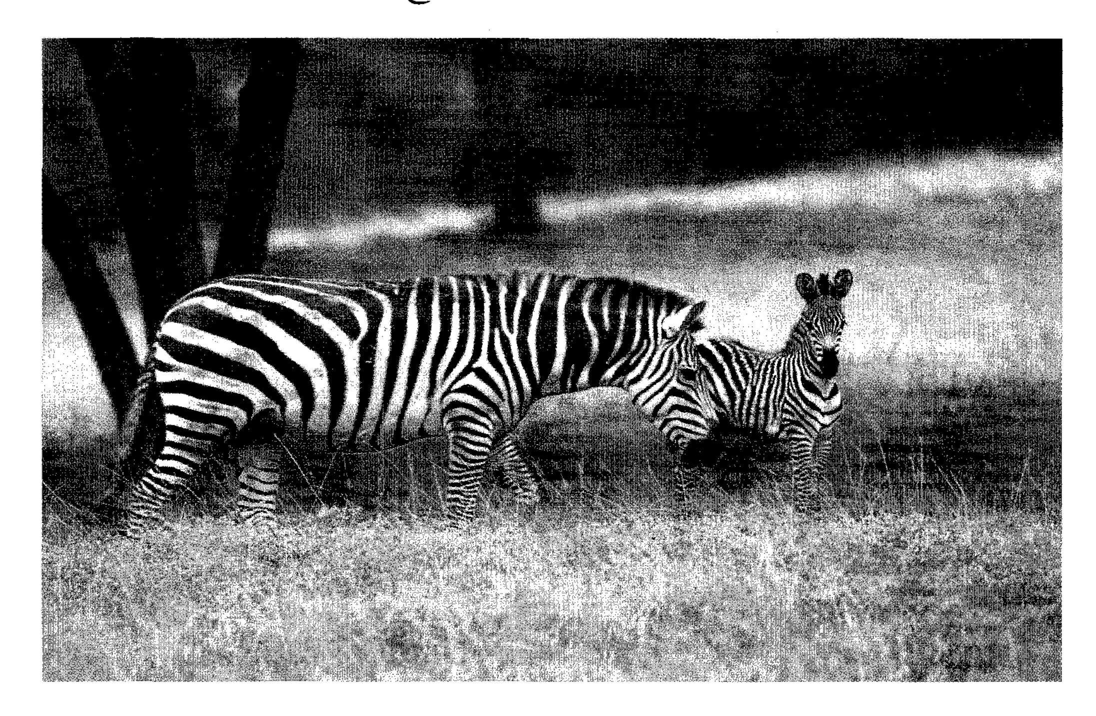


شدة الصوت (مقدرة بـ الهيرتز أي بعدد الذبذبات في الثانية)

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3303)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6857)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 3459).

والآية الكريمة فيها نهي واضح عن رفع الأصوات دون ضرورة، والدراسات الحديثة تؤكد أن الضوضاء صورة من صور تلوث البيئة، وإن هناك علاقة وثيقة بين الاستقرار البدني والنفسي للكائن الحي - بل وللجمادات - في وسط ما، وبين مستوى الضجيج السائد في ذلك الوسط. فالضوضاء الصاخبة تؤدي إلى خلل واضح في أنشطة ووظائف الأجهزة المختلفة في جسم الإنسان من مثل زيادة إفراز مادة الأدرينالين مما يؤدي إلى توتره العصبي، ويقظته الزائدة، وشدة انتباهه فوق الطاقة مما يزيد من إرهاقه، وشعوره بالإعياء الفائق عن الحد. فجسم الإنسان - كجسم أي كائن آخر - يستقبل الموجات الصوتية كما يستقبل غيرها من صور الطاقة بدرجات متفاوتة، وينتج عن ذلك فيه قدر من ردود الأفعال المتباينة في مختلف أجهزته خاصة في كلٍّ من جهازه العصبي المركزي، وجهازه الدوري، وجهازه السمعي، وفي أنظمة غدده وإفرازاتها الداخلية؛ وذلك لأن الأصوات تحدث تغيرات في ضغط الهواء بالزيادة (التضاغط) والنقصان (التخلخل) وتندفع هذه التغيرات على هيئة موجات من الذبذبات المنتشرة في كل الاتجاهات من مصدر الصوت بسرعات تقدر بنحو 330 متراً في الثانية في المتوسط. وتعتمد طبقة الصوت على عدد الذبذبات في الثانية التي تؤثر في طبقة الهواء، دون أن تتأثر سرعة الصوت، أما شدة الصوت فتعتمد أساساً على سعة الذبذبة، وتتناقص بالتدريج بالبعد عن مصدر الصوت. وأقل



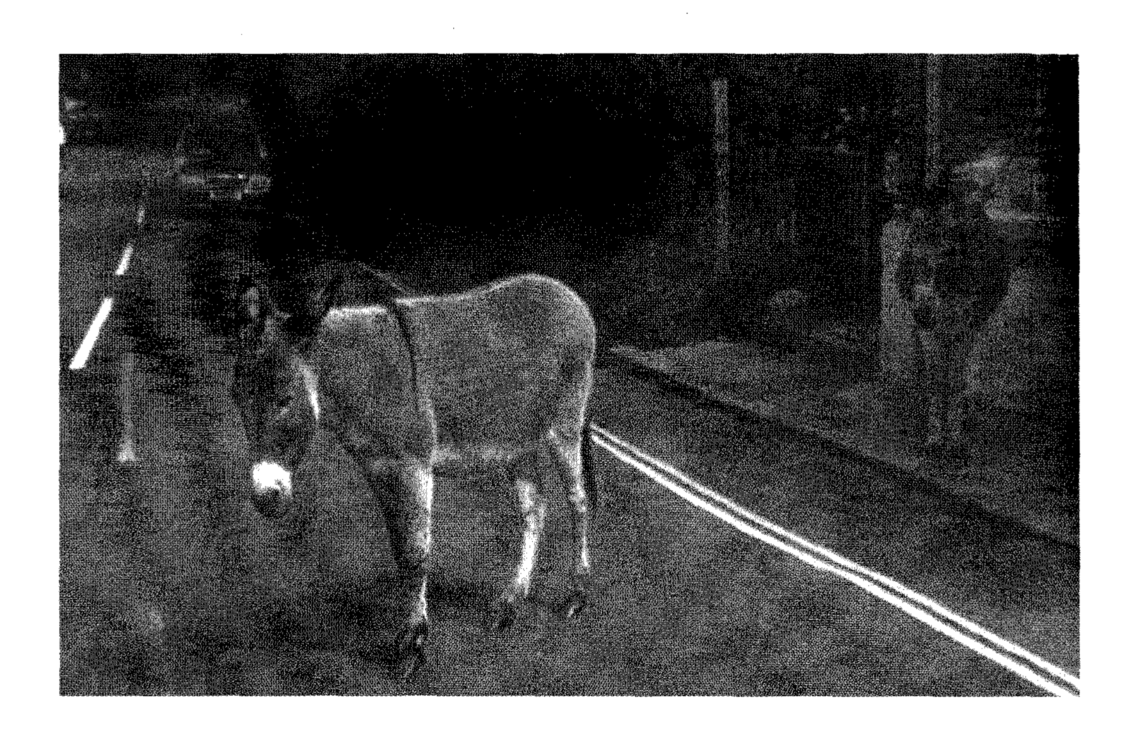
تردد للموجات الصوتية تسمعه أذن الإنسان هو (20) هيرتز (أي عشرين ذبذبة في الثانية) وأعلاه هو (15000 إلى 20000) هيرتز أي15,000 إلى20,000 ذبذبة في الثانية. والموجات الصوتية تنقل الطاقة من المصدر إلى أذن المستمع أو إلى أجهزة الاستقبال. ومن الثابت أن بعض الحيوانات من أمثال الخفافيش، والحيتان الزرقاء، والدلافين وبعض الحشرات لها قدرة استماع فوق صوتية تتراوح بين (30)، (100) كيلو هيرتز. والموجات الصوتية لا تتحرك في الفراغ، فهي تحتاج إلى وسط من الهواء أو السوائل كالماء، أو الجوامد كي تتحرك فيه. وتتحرك الموجات الصوتية في الهواء بسرعة تقدر بنحو (1200) كيلو متر في الساعة عند مستوى سطح البحر، ومع زيادة كثافة الوسط الذي تتحرك فيه الموجات الصوتية فإن سرعتها تزداد بصورة مطردة حتى تصل إلى (4800) كم في الساعة في الأوساط المائية، وإلى أضعاف تلك السرعة في الجوامد.

وعند ارتطامها بأسطح صلدة ملساء كبيرة فإن جزءاً من هذه الموجات الصوتية يرتد محدثاً **الصدى**، بينما ينفذ الجزء الباقي من خلال هذه الأسطح. وفي داخل المباني المغلقة يتكرر انعكاس الموجات الصوتية مرات عديدة بواسطة الأسطح الداخلية لتلك المباني فيزداد الصدى.

وللمقارنة بين شدة موجتين صوتيتين تستخدم وحدة خاصة تسمى البل (Bel) نسبة إلى جراهام بل (Graham Bell) مخترع التليفون، وهذه الوحدة تستخدم كذلك كوحدة لقياس كل من شدة الصوت والقدرة على السمع. ولما كانت هذه الوحدة كبيرة نسبياً فقد اقترح قسمتها على عشرة واستخدام هذه الوحدة العشرية التي عرفت باسم عشر البل أو الديسيبل (Decibel) في المقارنة بين شدة صوتين من الأصوات. أما تردد الصوت فيقاس بوحدة أخرى تسمى الهيرتز (Hertz (Hz وتعبر عن دورة واحدة في الثانية.

وأقل تردد يمكن لأذن الإنسان أن تسمعه وهو (20) هيرتز وأعلى تردد تسمعه هو (70) هيرتز أي سبعين ذبذبة في الثانية الواحدة عندما يصيح الإنسان بأعلى صوته، وإذا تجاوز تردد الصوت هذا الحد فإن أذن الإنسان لا تتحمله. وإذا زادت شدة الصوت عن (160) ديسيبل يمكن أن تتمزق طبلة الأذن بالكامل.

ومن الأضرار التي تنشأ عن الضوضاء الصاخبة حدوث اضطرابات في وظائف الأذن، والأنف والحنجرة، وإمكان فقد حاستي السمع والشم جزئياً أو كلياً، والإصابة بالعديد من أمراض كل من القلب والأوعية الدموية من مثل زيادة نسبة الكوليسترول في الدم، وحدوث الجلطات، وتصلب الشرايين، وارتفاع ضغط الدم، واضطراب إفرازات الغدد الصماء،



واختلال أنشطة بعض وظائف المخ خاصة في حالات التوتر الشديد من الضوضاء الصاخبة، التي قد تؤدي إلى عدم انضباط معدلات إفراز بعض الهرمونات، وما يصاحب ذلك من اضطرابات في وظائف مختلف أعضاء الجسم، وغير ذلك من الاضطرابات العصبية والنفسية المصاحبة بالشعور بالصداع المزمن، والضيق، والشعور بالإجهاد. وقد ينعكس ذلك على كلٍّ من الجهاز العصبي المركزي والجهاز الهضمي فيؤدي إلى عسر الهضم وحدوث القرح المختلفة؛ ولذلك وضعت العديد من دول العالم قوانين صارمة لمكافحة الضوضاء الناتجة عن ضجيج محركات الطائرات خاصة تلك التي تفوق حاجز سرعة الصوت، والضجيج الناتج عن كثافة مختلف وسائل المواصلات، وعن حركة آلات المصانع، وآلات الحفر وغيرها، وعن الموسيقى الصاخبة، وضجيج الناس في مناطق الزحام، وأصوات الحيوانات المستأنسة وغير المستأنسة وأصوات الصواريخ، والمتفجرات، والقنابل وغيرها من وسائل الاقتتال، وكل ذلك يؤثر في الغلاف الغازي للأرض، ويرتد تأثيره على كل شيء من الإنسان، والحيوان، والنبات، والجمادات.

ولذلك وضعت جداول لتحديد أقصى مدة يمكن أن يتعرض لها الإنسان تحت شدة معينة من الضوضاء، فتحْتَ شدة في حدود 45 ديسيبل لا يستطيع الفرد العادي أن ينام في هدوء

واسترخاء، وعند (85) ديسيبل تبدأ آلام الآذان، فإذا وصلت شدة الصوت إلى (90) ديسيبل لا يجوز أن يبقى الإنسان لأكثر من ثماني ساعات، وإذا زادت الضوضاء إلى (100) ديسيبل لا يجوز أن يبقى الإنسان لأكثر من ساعتين، وتحت شدة للصوت تصل إلى (110) ديسيبل لا يمكن التعرض لها بأمان لمدة تزيد على نصف الساعة، فإذا وصلت شدة الصوت إلى (120) ديسيبل تسبب ذلك في آلام شديدة لأذني الإنسان، وإذا وصلت تلك الشدة إلى (160) ديسيبل حدث للإنسان صمم تام، وذلك لأن شدة صوت الطائرة النفاثة لا يتجاوز (140) ديسيبل.

وأثناء استخدام أجهزة فوق صوتية مثل السونار (Sonar) التي تصل شدتها إلى (200) ديسيبل في الأوساط المائية فإنها تؤدي إلى القضاء التام على العديد من الحيوانات البحرية بتمزيق أنسجة جسدها.

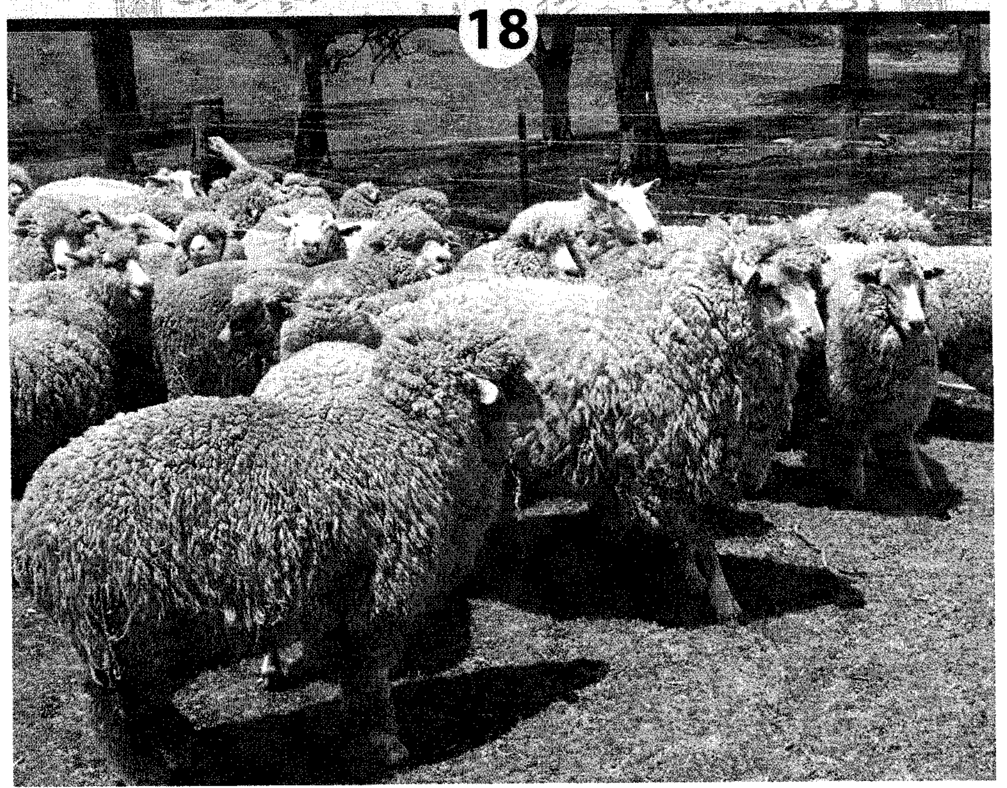
وقد ثبت بالقياس أن شدة صوت نهيق الحمار تتجاوز المائة ديسيبل، وأن كثرة التعرض لهذا الصوت قد يصيب الإنسان بالعديد من الأمراض.

ومن الحيوانات المستأنسة ذات النبرة العالية في الصوت أيضاً الكلاب، والأغنام، ولذلك يجب أن تخصص لها أماكن بعيدة عن سكنى الإنسان وسكنى غيرها من الحيوانات المستأنسة. وأعلى شدة لصوت كائن حي هو صوت الحوت الأزرق حيث تصل شدة صوته إلى 188 ديسيبل، ولكن لعيشه في الماء فإن أغلب هذه الشدة في الصوت يمتصها الماء فلا يكاد الإنسان أن يشعر به ولو أنه يسمع على بعد مئات من الأميال.

والإشارة القرآنية التي تقول: ﴿...إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ فيها من السبق العلمي ما لم يكن معروفاً في زمن الوحي بالقرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها في كتاب أنزل على نبي أمي ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، من قبل أربعة عشر قرناً، وإلماحاتها إلى أخطار التلوث البيئي بالضجيج ـ وهي حقائق لم تعرف إلا في أواخر القرن العشرين ـ كل ذلك مما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ حتى يكون حجة على الخلق إلى قيام الساعة.

ومثل هذه الإشارات العلمية في كتاب الله يشهد كذلك للنبي الخاتم الذي تلقى القرآن العظيم بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ **وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ
نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾** وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ
سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ
رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ
مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ «سورة النحل، الآية: 66».

18



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في بداية النصف الثاني من سورة النحل وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى النحل، ذلك التجمع لنوع خاص من الحشرات التي تحيا حياة تكافلية رائعة في مستعمرات منظمة تنظيماً دقيقاً، وقد وهب الله ـ تعالى ـ الشغالات من إناثها القدرة على إنتاج عسل النحل وما يصاحبه من منتجات أخرى جعل فيها شفاء للناس.

وفي فصل سابق قمنا باستعراض مفصّل لسورة النحل ولركائز العقيدة ومكارم الأخلاق والإشارات الكونية الواردة فيها ولذلك لا أرى حاجة إلى تكرار ذلك هنا، ولكن قبل استعراض الدلالة العلمية للآية (66) منها لا بدّ من الرجوع إلى كلام عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ «سورة النحل، الآية: 66».

- ذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «وإن لكم أيها الناس في الإبل والبقر والغنم لموعظة تعتبرون بها، وتنتقلون في هداها من الجهل إلى العلم بالصانع المبدع الحكيم، ونسقيكم من بعض ما في بطونها من بين فضلات الطعام والدم لبناً صافياً لذيذاً سهل التناول للشاربين».

- وذكر بقية المفسرين كلاماً مشابهاً لا أرى ضرورة لتكراره هنا. إلا أن تعليق الخبراء بهامش المنتخب جاء فيه النص التالي: «توجد في ضروع الماشية غدد خاصة لإفراز اللبن تمدها الأوعية الشريانية بخلاصة مكونة من الدم، والكيلوز، وهو خلاصة الغذاء المهضوم، وكلاهما غير مستساغ طعماً، ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتكوين اللبن من هذين السائلين: الدم والكيلوز، وتفرز عليهما عصارات خاصة تحيلهما إلى لبن يختلف في لونه ومذاقه اختلافاً تاماً عن كلٍّ منهما».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: ماهية الأنعام:

يطلق العرب لفظة (**الأنعام**) أساساً على الإبل، وإن شملت بالإضافة إلى الإبل كلاً من البقر، والغنم، والماعز، ولذا **تعرف بالمال الراعية**، وواحد (الأنعام) (النَّعم) قال الفراء: هو ذكر لا يؤنث لأنهم يقولون: هذا نَعَمٌ وارد، وجمعه (نِعْمان) كحمل وحملان، وجمع الجمع (أنعام) و(أناعيم).

واسم (الأنعام) مستمد من (النعمة) وهي اليد والصنيعة والمنة لأنها من أجلِّ ما (أنعم) الله به على الإنسان من خلائق. و(النعمى) و(النعماء) و(النعيم) مستمدة كذلك من (النعمة). يقال: فلان واسع النعمة أي واسع الرزق ومنه المال.

والأنعام من الحيوانات الثديية (اللبونة)، والثدييات هي طائفة من طوائف الحيوانات اختصها الله ـ تعالى ـ بالقدرة على إفراز اللبن من بين فرث ودم لإرضاع صغارها حتى تكبر، ولذلك ميزها الخالق ﷻ بعدد من الغدد الخارجية القادرة على إفراز اللبن تعرف باسم الأثداء أو الضروع.

وعلى الرغم من قلة عدد أنواع الثدييات المعروفة (حوالي أربعة آلاف نوع فقط) إلا أنها تشكل طائفة خاصة من طوائف الحيوان تتوزع توزعاً فاعلاً في جميع بيئات الأرض، وتلعب دوراً مهماً في تبادل المادة والطاقة بينها وبين تربة الأرض، قل أن تشاركها فيه مجموعة أخرى من مجموعات الحياة الأكثر عدداً مثل الحشرات أو الطيور.



فمن الثدييات ما يعيش على اليابسة مثل الجمال، والأبقار، والغنم، والماعز، والزراف، والغزلان، والأحصنة، والبغال، والحمير، والفيلة، والكلاب، والقطط، والنمور، والأسود، وغيرها. **ومنها ما يعيش في الماء** كالحيتان والدلافين، **ومنها ما يطير في الهواء** كالخفافيش.

وطائفة الثدييات (Class Mammalia) من ذوات الدم الحار التي تتميز بوجود غطاء من الشعر أو الصوف يغطي أجسادها في أغلب الأحوال، كما تتميز بأعداد من الغدد العرقية التي تعمل على حفظ درجة حرارة الجسم في حدود مناسبة، وبأجهزة عصبية معقدة، وبوجود الضلوع في الجزء الصدري فقط حتى تتلاءم مع أجهزتها التنفسية، حيث توجد الرئتان في فراغ خاص بهما مفصول عن فراغ كل من القلب والبطن.

ومعظم الثدييات من الحيوانات الولودة، التي تلد صغارها كاملة النمو، وترضعها الأم من لبنها حتى تفطم.

ويمتد تاريخ الثدييات على الأرض إلى حوالي (185) مليون سنة مضت (من العهد الجوري المبكر) (The Early Jurassic Epoch) وإن كانت أغلب الأنواع المعروفة لنا

اليوم لا يتعدَّى وجودها على الأرض (90) مليون سنة (منذ بدايات العهد الطباشيري المتأخر (The Late Cretaceous Epoch)، ولم يزدهر انتشارها على الأرض إلا منذ حوالي (50) مليون سنة فقط في عهد الأيوسين (The Eocene Period) أو فجر الحياة الحديثة.

ومن الثدييات ما يأكل الأعشاب، ومنها ما يأكل الحشرات، ومنها آكلات اللحوم، ومنها آكلات اللحوم والأعشاب، ولذلك تتمايز أسنانها إلى قواطع وأنياب وضروس.

والأنعام من الثدييات آكلات الأعشاب ذات الحافر مزدوج الأصابع، والتي ميزها الله ـ تعالى ـ بالاجترار، وهيأ لها جهازاً هضمياً خاصاً قادراً على هضم كلٍّ من الأعشاب، وأوراق الأشجار، وغير ذلك من الأعلاف الخشنة، وزودها بقدر من الكائنات الحية المجهرية الدقيقة مثل الميكروبات التي تتعايش معها لتعينها على هضم المواد السيليولوزية المعقدة في معدة الاجترار، وتزيد من القيمة الغذائية لتلك المواد بتحويل النيتروجين العضوي الناتج عن عملية تخمر الطعام إلى عدد من الأحماض الأمينية، كما تقوم على تجهيز أعداد من الفيتامينات المهمة.

أما الثدييات ذات الحافر أحادي الأصابع فتشمل الأحصنة وأشباهها، والفيلة وأشباهها، ولذلك كان في فصل الخيل والبغال والحمير عن الأنعام في مطلع سورة «النحل» إشارة ضمنية لتلك الفوارق، وإلى التشابه التشريحي والوظيفي بينها حيث إن كلها من الثدييات اللبونة.

ثانياً: تكوّن اللبن من بين فرث ودم في ضروع الأنعام:

يتكون اللبن أساساً من الماء والبروتينات، والكربوهيدرات، والدهون، والعديد من العناصر، والفيتامينات. وكل ذلك يستمد من غذاء الحيوان وشرابه ومن دمه ولذلك وصفته هذه الآية الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾، و(الفرث) هو: الأشياء المأكولة والمنهضمة بعض الانهضام في الكرش، ولذا يطلق عليه أحياناً تعبير (ثقل الكرش)، فإذا خرجت من الكرش سميت (روثاً).

ولقد صمم الخالق ﷻ ضروع الأنعام وضروع غيرها من الحيوانات الثديية (اللبونة)

بحكمة بالغة كي يمكنها من إنتاج اللبن لإرضاع صغارها، ولاستفادة الإنسان منه، فضروع الأنعام رباعية التركيب، وتتدلى بأربطة خاصة من الحوض لرفعها عن الأرض، ولامتصاص ما قد تتعرض له من صدمات خاصة عندما تمتلئ باللبن، ويثقل وزنها.

وكل ربع من الضرع يعمل مستقلاً في إنتاج وتخزين اللبن، ويتكون كل ربع من أرباع الضرع من العديد من الغدد اللبنية المبطنة لجداره والمتصلة مع بعضها البعض بالشعيرات الدموية المغذية لها، وينتهي الضرع بالحلمة التي تمثل نهاية قناة اللبن ويحكم شكلها، ووضعها، وطولها، وزاوية ميلها، والعضلات المتحكمة فيها ضوابط وراثية في غاية من الدقة تحكم تدفق اللبن فيها، وتمنع تسربه منها إلا عند الضرورة، كما تضبط إحكام غلقها حتى لا تتسرب إليه البكتيريا وغيرها من الملوثات الحيوية وغير الحية.

والغدد اللبنية المبطنة لضروع الأنعام هي غدد ذات فراغات كبيرة (أسناخ) يتكون فيها اللبن باستخلاصه من الشرايين الحاملة للدم المؤكسد، والأوعية اللمفاوية الحاملة لسوائلها العديمة اللون (الليمف) وما بها من مواد غذائية مستمدة من الفرث المهضوم هضماً جزئياً في معدة الحيوان.



وفي اللبن العديد من المركبات التي تنتج عن تخمر العلف في معدة الاجترار لتكوين عدد من الأحماض الدهنية المتطايرة التي تذهب إلى الكبد لإنتاج سكر العنب (الجلوكوز) الذي يحمله الدم إلى الخلايا المفرزة للبن في الضروع فينتج منه سكر اللبن (اللاكتوز).

أما المواد البروتينية فتنتج في الخلايا المفرزة للبن من الأحماض الأمينية التي يحملها إليها الدم من معدة الاجترار (الفرث)، هذا باستثناء كل من المواد الزلالية، والجلوبينات المناعية (Immunoglobulins) التي ينقلها الدم مباشرة إلى الخلايا المفرزة للبن وكذلك اللبا (Colostrum) الذي يتكون في الفترات المتأخرة من الحمل في أماكن أخرى من جسم الحيوان وينقله الدم مباشرة إلى ضروعه، وغالبية الدهون في اللبن تنتج أصلاً من الزيوت والدهون النباتية المستمدة من العلف والمهضومة هضماً جزئياً في معدة الاجترار (الفرث) حيث تجهز تلك الدهون ثم ينقلها الدم إلى الغدد المفرزة للبن في الضرع، وهنا تتكسر إلى رقائق صغيرة حتى تتمكن من اختراق جدر خلايا تلك الغدد. وعلى ذلك فإن تمام عملية اجترار الأعلاف التي تتناولها الأنعام بكفاءة، وعملية تخمرها في معدة الاجترار بكفاءة كذلك مسؤولان عن زيادة أو نقص كمية الدهون في اللبن.

وفي اللبن العديد من آثار العناصر التي من أهمها: الكالسيوم، والفوسفور، والبوتاسيوم، والمغنيسيوم، ويليها في الأهمية كل من الصوديوم، والكلور وكلها مستخلصة من غذاء الحيوان (العلف) بعد تخمره في معدة الاجترار (**الفرث**)، وتوجد هذه العناصر مرتبطة بالأحماض الأمينية المتولدة من تخمر الطعام، وتنتقل إلى اللبن في المادة المسببة لعمليات تجبن اللبن والمعروفة باسم الجبنين أو الكازين (Casein).

وعند تنشيط خلايا إفراز اللبن فإنه يتدفق منها إلى فراغات الأنساخ التي تتضاغط بواسطة طبقة عضلية محيطة بها فتدفع اللبن إلى عدد من القنوات الرئيسية التي تنتهي إلى قناة الحلمة ومنها إلى الخارج أثناء أي من عمليتي الرضاع أو الحلب.

وحركة الدم بين معدة الاجترار الحاوية على الفرث، وبين باقي أجزاء الجسم حتى يصل اللبن إلى الضرع وهي عملية أساسية في إنتاج اللبن **حيث يتم ضخ حوالي خمسمائة لتر من الدم إلى الغدد اللبنية في ضرع الحيوان من الأنعام الكبيرة، كالإبل والبقر لتوفير المواد**

اللازمة من البروتينات، والكربوهيدرات، والدهون، والعناصر الفلزية وغير الفلزية، والفيتامينات، والهرمونات اللازمة لرضعة أو حلبة واحدة كاملة.

ويستمر تدفق اللبن إلى ضرع الحيوان ما دامت الظروف الصحية له، والبيئية المحيطة به ملائمة من حيث توافر التغذية المناسبة، والماء العذب، والهدوء النسبي، وما دامت عمليتا الحلب والرضاع تتمان بانتظام، وفي غيبة ذلك فإن الغدد المفرزة للبن تبدأ في الانكماش والالتفاف على ذاتها، وتجف تدريجياً حتى يتوقف تدفق اللبن منها.

وهذه الغدد المفرزة للبن والتي تبطن فراغات أسناخ الضرع تتكون من خلايا متخصصة على أعلى درجات التخصص حيث إنها تتحكم بمشيئة الله في كمية اللبن المفرز وتركيبه، وهي في نفس الوقت محكومة بسنن وراثية منضبطة ومن هذه السنن أنه:

عند اقتراب وقت المخاض بالنسبة لأنثى الأنعام الحامل فإن جسمها يفرز عدداً من الهرمونات الخاصة التي تضعف من ارتباط الجنين بجسم الأم عن طريق المشيمة بالتدريج، وتثير في الجسم كله تحرك المركبات اللازمة لإنتاج اللبن، وتصل الإشارة الهرمونية من جسم الجنين إلى الغدة النخامية للأم، وعلى الفور يبدأ في جسدها سلسلة من التغيرات الهرمونية التي تعين في إتمام عملية المخاض والولادة، وتنبه الضرع لإنتاج اللبن.

وكمية اللبن المتدفق في الحالين (الرضاعة أو الحلب) تتأثر بالعديد من التفاعلات العصبية والهرمونية التي يثيرها في جسم الحيوان عدد من حواسه كالنظر، والسمع، واللمس، وهذه تصل إلى الغدة النخامية فتطلق هرموناً خاصاً يعرف باسم هرمون الأكسيتوسين (Oxytocin) في الدم الذي يحمله بدوره إلى الخلايا العضلية المبطنة لجدر أسناخ الضرع فتنقبض حتى يفيض اللبن إلى فراغ كل واحد من أثداء الضرع، وعلى النقيض من ذلك فإن المؤثرات السلبية على الحيوان مثل الضجيج المزعج، واضطراب الظروف البيئية المحيطة، والآلام التي يعانيها قد تشجع على إفراز هرمون الأدرينالين الذي ينقص من نزول اللبن بشكل ملحوظ أو يوقفه تماماً.

ثالثاً: الإشارة إلى الأنعام بالتذكير والتأنيث:

والإشارة القرآنية بالتذكير في لفظة ﴿بُطُونِهِۦ﴾ في الآية الكريمة التي نحن بصددها،

والإشارة إلى نفس اللفظة بالتأنيث في سورة المؤمنون ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ جاءت باعتبار أن الأنعام يذكر ويؤنث.

وذكر بعض المتأخرين أن الضمير في الآية التي نحن بصددها جاء مذكراً ومفرداً للإشارة إلى أن اللبن يتكون بأمر من مورثات الذكورة؛ وذلك لأن الأنثى لا تفرز اللبن إلا إذا تسببت نطفة الذكر في إخصاب البييضة، وتكوّن الجنين، وما يصاحب ذلك من إفراز هرمونات خاصة تعمل على تنشيط الغدد اللبنية حتى تكتمل قدرتها على إفراز اللبن بمجرد الولادة، ومن هنا جاءت الإشارة في التعبير القرآني الكريم هنا بالإفراد والتذكير ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ لتأكيد تلك الحقيقة، وجاءت بالجمع والتأنيث في سورة المؤمنون ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ للإشارة إلى الأنعام بصفة عامة، وإلى إناثها بصفة خاصة حيث يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ*﴾ «سورة المؤمنون، الآيتان: 21، 22».

وهذه الحقائق العلمية عن إخراج اللبن في ضروع الأنعام من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها بهذه الإشارات البالغة الدقة والكمال والشمول والإيجاز في كتاب أنزل على نبي أمي ﷺ من قبل أربعة عشر قرناً، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً، وتعهَّد بذلك إلى أن يشاء الله حتى يبقى القرآن الكريم حجة على جميع خلقه إلى قيام الساعة، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله في كل وقت وآن. والصلاة والسلام على خاتم أنبياء الله ورسله أجمعين الذي تلقى هذا القرآن العظيم فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فنسأل الله ـ تعالى ـ أن يجزيه خير ما جازى به نبياً عن أمته، ورسولاً على حسن تبليغ رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة من الجنة إن ربي لا يخلف الميعاد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم
مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا
يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ
مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ

19



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝﴾ «سورة النور، الآية: 45».

19

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في بدايات الثلث الأخير من سورة «النور»، وهي سورة مدنية، وآياتها أربع وستون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أن الله ـ تعالى ـ هو نور السمٰوات والأرض، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يهدي لنوره من يشاء من عباده، وأن كل مخلوق في هذا الوجود لا يهتدي بنور الله فإنه لن يهتدي أبداً.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «النور» حول عدد من التشريعات الإلٰهية الضابطة لسلوك المسلم في كل من حياته الخاصة والعامة، والحاكمة لعلاقاته في داخل أسرته ومع غيره من الخلق صوناً لحرمات الناس وكراماتهم، والله يقول الحق، وهو يهدي إلى سواء السبيل.

وتبدأ سورة «النور» بالتأكيد على أنها من جوامع سور القرآن الكريم لأن الله ـ تعالى ـ فرض فيها على عباده فرائض ألزمهم بها، وفي مقدمة ذلك **تحريم الزنا، وتشريع الحدود الرادعة للواقعين فيه،** ووصفه بأنه من أكبر الجرائم في حقوق الناس، ولذلك بشَّعها إلى كل صاحب ضمير حيّ وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ «سورة النور، الآية: 3».

وكما حرمت سورة «النور» الزنا بكل مقدماته فإن هذه السورة الكريمة **تنهى عن الخوض في أعراض الناس،** مؤكدة أن الخائضين في هذا الأمر بغير دليل قاطع هم من الفاسقين الذين يستحقون العقوبات الرادعة، وتعتبرهم من الخارجين على دين الله:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «سورة النور، الآية: 5».

وتُشَرِّع سورة النور للملاعنة كوسيلة من وسائل درء الشبهات بين الأزواج، وتشير إلى فرية حديث الإفك، وتبرئ المظلومين من دنسه، وتغلظ العقوبة للذين افتروه، وتحذر من العودة إلى افتراء مثله أبداً، كما تحذر من اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وتحض على الإنفاق لذي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وتكرر النهي عن رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، وتغلظ العقوبة على ذلك.

وتنهى سورة النور عن دخول البيوت دون استئذان وسلام على أهلها، وتضع الضوابط الشرعية لذلك، كما تأمر بغض البصر، وحفظ الفرج، وستر العورات، وبالاحتشام في الملبس والمظهر، كما تنهى عن التبرج بزينة، وتضع ضوابط حجاب المرأة المسلمة، وضوابط الزواج الإسلامي، وتحرم البغاء بكل صوره وأشكاله، وتعتبره من أبشع الجرائم المهدرة لكرامة الإنسان.

وتؤكِّد السورة الكريمة أن الله تعالى هو نور السمٰوات والأرض، وأنه يهدي لنوره من يشاء، وتدعو إلى عتق رقاب الأرقاء، وإلى بناء المساجد والقيام على عمارتها وتطهيرها طمعاً في مرضاة الله ﷻ، وتجنباً لأهوال يوم القيامة.

وتبشِّر سورة «النور» أهل المساجد بأن الله تعالى سوف يجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، وفي المقابل تحذِّر الكفار بأن أعمالهم المفيدة سوف يجزون عليها في الدنيا، ولا رصيد لهم عنها عند الله ﷻ في الآخرة، وتشبه أعمالهم السيئة بأحلك الظلمات المتراكبة فوق قيعان البحار العميقة، مؤكدة أن الذي لا يهتدي بنور الهداية الربانية فلا يصل إلى الهداية أبداً وفي ذلك تقول:

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ «سورة النور، الآية: 40».

وتؤكِّد السورة الكريمة أن جميع من في السمٰوات والأرض يسبح لله الذي له ملك كل شيء وإليه المصير، وتحذر من النفاق والمنافقين، وتفصح عن شيء من دخائل نفوسهم، وتقارن بين مواقفهم الكافرة، ومواقف المؤمنين الصادقين، وتأمر بطاعة الله ورسوله، جازمة أن ما على الرسول إلا البلاغ المبين، ومؤكدة أن وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات قائم لا يزول ولا يحول.

وتعاود سورة «النور» الأمر بإقامة الصلاه، وإيتاء الزكاة، وطاعة رسول الله ﷺ، كما تعاود الأمر بمزيد من ضوابط السلوك في البيت المسلم خاصة في حضرة رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ومن بعده في حضرة كل مسؤول عن العمل الإسلامي، وتحذر من مخالفة ذلك درءاً للفتن في الدنيا وللعذاب في الآخرة.

وتختتم السورة الكريمة بالتأكيد مرة أخرى أن لله ما في السمٰوات والأرض، وأنه تعالى عليم بخلقه الذين سوف يرجعون جميعاً إليه فينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه.

هذا وقد استعرضت سورة «النور» العديد من الآيات الكونية للتدليل على صدق كل قضية غيبية جاءت فيها، ومن هذه الآيات ما يمكن إيجازه فيما يلي:

من الإشارات الكونية في سورة «النور»:

1 - التأكيد على حقيقة أن الله - تعالى - هو نور السمٰوات والأرض، وأنه - سبحانه - هو الذي يهدي لنوره من يشاء، وأن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، والعلوم المكتسبة تؤكد على أن الظلمة هي الأصل في الكون، وأن الاحياء في أعماق البحار قد زودها الله - تعالى - بوسائل إنارة ذاتية ولولا ذلك ما كان بها من نور.

2 - تشبيه أعمال الكافرين السيئة في الدنيا بأنها سوف تكون عليهم في الآخرة كالظلمات المتراكبة فوق أعماق البحار والمحيطات والتي يشارك في إحداثها كل من السحاب، والأمواج السطحية، والأمواج الداخلية التي لم تكتشف إلا في القرن العشرين.

أما أعمالهم غير السيئة فسوف يجزون عليها في الدنيا، ولا رصيد لها في الآخرة، ولذا شبهت بالسراب الخادع وهو تشبيه علمي دقيق.

3 - الإشارة إلى أن كل ما في السمٰوات والأرض يسبح بحمد الله - تعالى - في عبادة إرادية أو تسخيرية، والعلوم المكتسبة تثبت وجود لغات لمختلف الكائنات وحتى للجمادات.

4 - وصف تكون السحب الركامية على هيئة السلاسل الجبلية، وذلك بإزجاء السحب، ثم التأليف بينها، ثم ركمها، وإنزال كل من المطر والبرد منها، وتكون ظاهرتي البرق والرعد المصاحبتين لتكون البرد، وكل ذلك من الحقائق التي لم تتوصل العلوم المكتسبة إلى كشفها إلا في القرن العشرين.





5 ـ التأكيد على قدرة الله البالغة في تقليب الليل والنهار، وما في ذلك من إشارة ضمنية إلى كروية الارض ودورانها حول محورها أمام الشمس.

6 ـ الجزم بخلق كل دابة من ماء، وهي حقيقة أثبتتها الدراسات العلمية.

7 ـ الإشارة الضمنية إلى إمكانية تصنيف الدواب على أساس من طريقة مشيتها.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك سوف أقصر الحديث هنا على النقطة الأخيرة في القائمة السابقة والمتعلّقة بإمكانية تصنيف الدواب على أساس من طريقة مشيتها كما جاء في الآية الخامسة والأربعين من سورة النور، وقبل البدء في ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ «سورة النور، الآية: 45».

● ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: «يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا

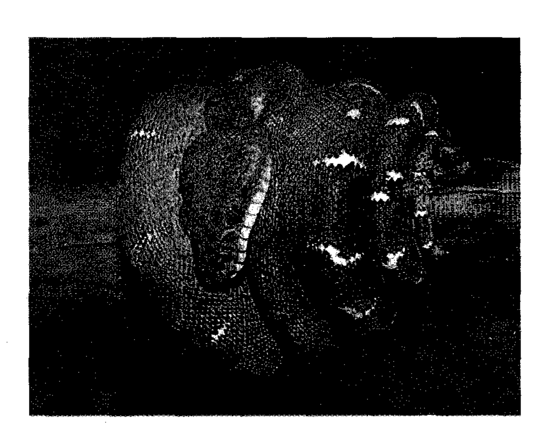
قال: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي بقدرته، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾».

- وجاء في الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما مختصره: «وهذه الحقيقة الضخمة التي يعرضها القرآن بهذه البساطة، حقيقة أن كل دابة خلقت من ماء، قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعاً، وهو الماء،.. فهي ذات أصل واحد. ثم هي كما ترى العين متنوعة الأشكال. منها الزواحف تمشي على بطنها، ومنها الإنسان والطير يمشي على قدمين، ومنها الحيوان يدب على أربع. كل أولئك وفق سنة الله ومشيئته، لا عن فلتة ولا مصادفة: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ غير مقيد بشكل ولا هيئة. فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئته الطليقة وارتضتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾».

- وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «الله خالق كل شيء، وأبدع الأشياء بإرادته، وخلق كل حي يدب من أصل مشترك هو الماء، لذلك لا يخلو الحي منه، ثم خالف بينها في الأنواع والاستعدادات ووجوه الاختلاف الأخرى، فمن الدواب نوع يزحف على بطنه كالأسماك والزواحف، ومنها نوع يمشي على رجليه كالإنسان والطير، ومنها نوع يمشي على أربع كالبهائم، يخلق الله ما يشاء من خلقه على أية كيفية تكون للدلالة على قدرته وعلمه، فهو المريد المختار، وهو القادر على كل شيء».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما نصه: «الماء في الآية الكريمة هو ماء التناسل....، والآية الكريمة لم تسبق ركب العلم فقط في بيان نشوء الإنسان من النطفة..بل سبقته كذلك في بيان أن كل دابة تدب على الأرض خلقت كذلك بطريق التناسل....، ومما تحتمله الآية من معان علمية أن الماء قوام تكوين كل كائن حي، فمثلاً يحتوي جسم الإنسان على نحو 70٪ من وزنه ماء... ولم يكن تكوين الجسم واحتواءه هذه الكمية الكبيرة من الماء معروفاً مطلقاً قبل نزول القرآن. والماء أكثر ضرورة للإنسان من الغذاء.. فبينما الإنسان يمكنه أن يعيش (60 يوماً) بدون غذاء، فإنه لا يمكنه أن يعيش بدون الماء إلا لفترة قصيرة تتراوح بين3 و10 أيام على أقصى تقدير. والماء أساس تكوين الدم والسائل





اللمفاوي والسائل النخاعي، وإفرازات الجسم كالبول والعرق والدموع واللعاب والصفراء واللبن والمخاط والسوائل الموجودة في المفاصل، وهو سبب رخاوة الجسم وليونته، ولو فقد الجسم 20٪ من مائه فإن الإنسان يكون معرضاً للموت. والماء يذيب المواد الغذائية بعد هضمها فيمكن امتصاصها، وهو كذلك يذيب الفضلات من عضوية ومعدنية في البول والعرق. وهكذا يكوّن الماء الجزء الأكبر والأهم من الجسم، وعلى ذلك يمكن القول بأن كل كائن حي مخلوق من الماء».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لما ذكره السابقون من المفسرين ولا حاجة إلى تكراره هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ :

(الدابة) في اللغة هي كل ما يدب على الأرض أي يمشي عليها بخفة، وجمعها (دواب)، وإن كان من اللغويين من يعتبر لفظة (دابة) جمعاً لكل شيء يدب على الأرض قياساً على خائنة جمع خائن. ولذلك يقال: (دب)، (يدب) (دباً) و(دبيباً) لكل من مشى بخفة على الأرض. وقد قيل إن الفعل يستعمل للتعبير عن حركة الحيوان أكثر من استعماله للإنسان، وللحيوان الذي يحيا على اليابسة بالذات دون الحيوان الذي يحيا في الماء، ولكن الأولى إطلاقه على عموم من مشى على الأرض وذلك لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ «سورة النحل، الآية: 61».

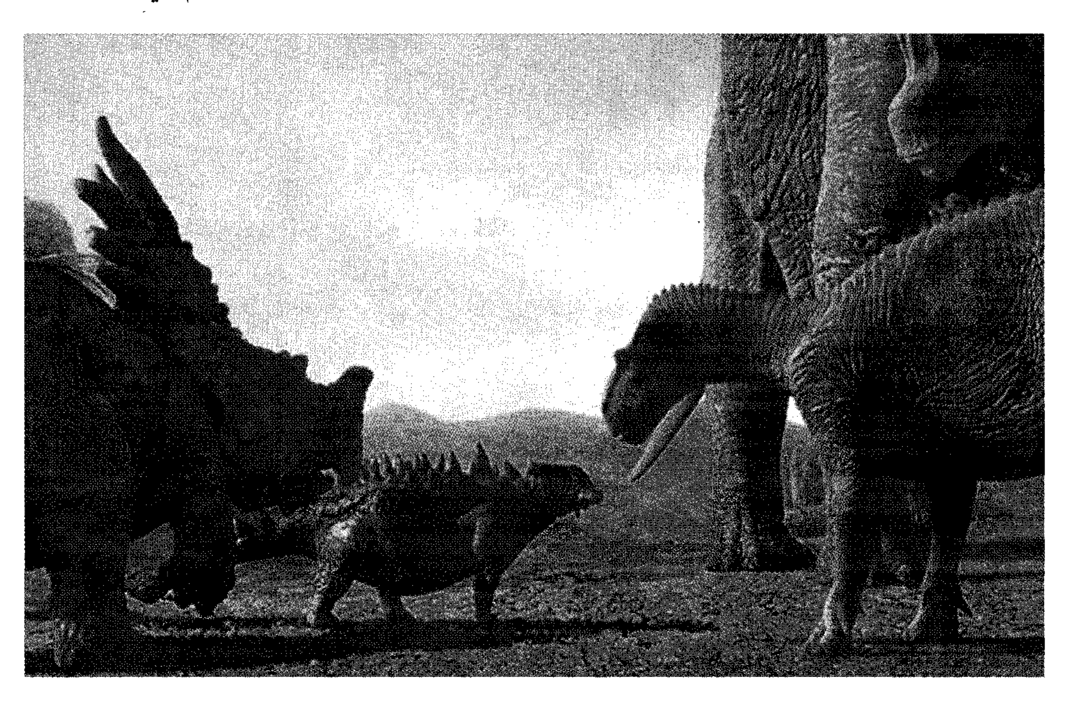
ومن الدلالات العلمية لقول الحق ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ﴾ «سورة النور، الآية: 45».

ما يلي:

1 ـ إن خلق الماء سابق لخلق جميع الأحياء، وهو ما أثبتته الدراسات الأرضية.

2 ـ إن الله ـ تعالى ـ خلق كل صور الحياة الباكرة في الماء، والدراسات لبقايا الحياة في صخور قشرة الأرض تشير إلى أن الحياة ظلت مقصورة على الماء لمدة تصل إلى نحو3400 مليون سنة (من3800 مليون سنة مضت إلى نحو400 مليون سنة مضت حين خلقت أول نباتات أرضية على اليابسة)، وأن خلق النبات كان سابقاً لخلق الحيوان في الوسطين المائي واليابس، لأن الحياة الحيوانية على اليابسة لم تعرف قبل365 مليون سنة مضت (في نهاية العصر الديفوني).

3 ـ إن كل صور الحياة (الإنسية، والحيوانية، والنباتية) لا يمكن لها أن تقوم في غيبة الماء



لأنه أعظم مذيب معروف على الأرض، وبذلك يشكِّل الوسيط الناقل لعناصر ومركبات الأرض إلى مختلف أجزاء النبات، ومنها إلى أجساد كلٍّ من الإنسان والحيوان، وذلك بما للماء من صفات طبيعية وكيميائية خاصة من مثل اللزوجة العالية، والتوتر السطحي الشديد، والخاصية الشعرية الفائقة، والقطبية الكهربية المزدوجة.

4 ـ إن الماء يشكِّل العنصر الأساسي في بناء أجساد جميع الأحياء، فيكوِّن ما بين 71٪ من جسم الإنسان البالغ، و93٪ من جسم الجنين ذي الأشهر المعدودة، ويكوّن أكثر من 80٪ من تركيب دم الإنسان، وأكثر من90٪ من تركيب أجساد العديد من النباتات والحيوانات.

5 ـ إن جميع الأنشطة الحياتية وتفاعلاتها المتعددة لا تتم في غيبة الماء، من التغذية، إلى الهضم، إلى التمثيل الغذائي، ثم الإخراج والتخلص من سموم الجسم وفضلات الغذاء، ومن التنفس إلى التعرق والنتح، إلى التمثيل الضوئي في النباتات الخضراء، ومن النمو إلى التكاثر، وإلى غير ذلك من الأنشطة الحياتية ومن أهمها حفظ درجتي حرارة الجسم ورطوبته.

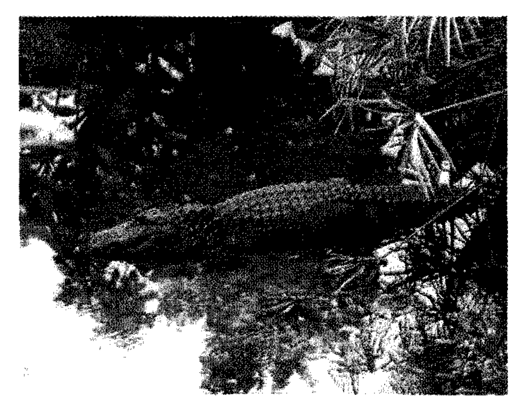
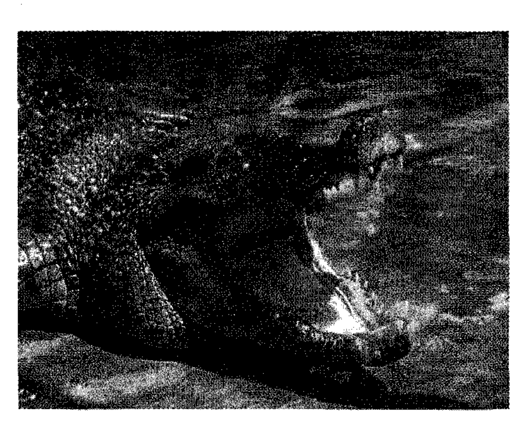
6 ـ إن وحدة مادة خلق الأحياء وهي هنا الماء تؤكد وحدانية الخالق ﷻ، الذي كفر أو أشرك به كثير من الجهال الضالّين في القديم والحديث.

7 ـ إن في البناء المعقَّد لأجساد الكائنات الحية من الماء شهادة لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة المبدعة في الخلق، وشهادة بقدرته ﷻ على إفناء خلقه وعلى بعثه.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿... فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾.

يوضح هذا النص الكريم أن طرائق تحرك الدواب هي وسيلة من وسائل تصنيفها الجيدة، وحركة الدابة هي انتقالها من مكان إلى آخر سعياً وراء طلب الطعام والشراب، أو للهرب من الأعداء، أو للارتحال عند التغيرات البيئية إلى مكان أنسب.

والطريقة الأولى التي حدَّدتها الآية الكريمة في حركة الدواب هي **المشي على البطن** كما هو شائع في **الديدان (Worms)** وهي من اللافقاريات عديمة الأطراف التي تتبع قبائل عدة، وفي العديد من طائفة **الزواحف (Class Reptilia)**، وهذه الطائفة الزاحفة زودها الله ﷻ بجلد سميك، خال من الغدد، ومغطى عادة بالعديد من القشور والحراشيف القرنية الجافة،

الصلبة، والتي تحمي جسمها من المؤثرات الخارجية، وتحفظه من الجفاف. وتنتشر هذه الحراشيف على جميع أجزاء جسم الزاحف بما في ذلك الأطراف والذنب.

وتختلف هذه الحراشيف والقشور في أشكالها وأحجامها من نوع إلى آخر فقد تكون صغيرة الحجم ومحببة كالدرنات، أو كبيرة الحجم بيضية الشكل، أو مربعة، أو مستطيلة، أو مثلثة كما هو الحال في **السحالي**، أو على هيئة صندوق يحيط بجميع الجسم كما هو الحال في **السلاحف**. والزواحف عامة من ذوات الدم البارد؛ أي المتغير في درجة حرارته، وغالبيتها تبيض بيضاً ذا قشور صلبة، يلقح في بطن الأنثى، وينمو الجنين في داخل البيضة على اليابسة أو في داخل جسم الأنثى حتى تفقس البيضة ويخرج منها.

والجنين في داخل البيضة يعيش وسط سائل خاص موجود داخل غشاءين، ويتصل الجنين في منطقته البطنية بكيس محي أي: مكون من مح البيضة وبه الغذاء اللازم للجنين أثناء مراحل نموه حتى تكتمل، كما أنه مرتبط بكيس آخر لتخزين المواد الإخراجية. وعلى الرغم من سمك قشرة البيضة إلا أنه يسمح بمرور الغازات اللازمة لتنفس الجنين وهو بداخلها، ولكنه لا يسمح بدخول الماء.

وتاريخ الزواحف على الأرض يرجع إلى ثلاثمائة مليون سنة مضت؛ أي إلى نهايات العصر الفحمي أو الكربوني (The Late Carboniferous Epoch)، وقد سادت حقب الحياة المتوسطة (The Mesozoic Era) سيادة واضحة (من 245 مليون سنة مضت إلى 65 مليون سنة مضت) والذي عرف باسم حقب الزواحف العملاقة، ثم دالت دولة تلك الزواحف العملاقة بانتهاء حقب الحياة المتوسطة، وإن استمرت الطائفة ممثلة بأفراد أقل عدداً وأصغر حجماً من مثل **السحالي أو**

(العظاءات) ومنها: **الضب، والبرص والحرباء والورل**، ومنها رتب **الثعابين والسلاحف والتماسيح** وجنس واحد هو **جنس سفينودون (Sphenodon)** أو **تواتارا (Tuatara)** من رتبة مندثرة من رتب الزواحف القديمة التي وجدت آثارها في صخور نيوزيلنده وتميزت بصف من الأشواك على ظهرها وتعرف باسم (Order Rhynchocephalia)، وجنس تواتارا لا تزال له أفراد حية تعيش على عدد من الجزر الصغيرة في المياه الإقليمية لنيوزيلانده.

والزواحف تضم حيوانات بطيئة الحركة بصفة عامة، لأنها تزحف ببطنها على سطح الأرض، ويعرف منها قرابة ستة آلاف نوع منتشرة في مختلف أرجاء الأرض.

والأرجل في الزواحف إما غائبة تماماً أو موجودة ولكنها ذات أثر ضعيف لا يكاد يدرك كما هو الحال في الثعابين بمختلف أنواعها، وفي بعض أنواع السحالي، وقد تكون الأرجل موجودة ولكنها ضعيفة لا تكاد تقوى على حمل الجسم بعيداً عن سطح الأرض كما هو الحال في رتبتي السلاحف والتماسيح بصفة عامة، أو موجودة وقوية كما هو الحال في بعض السحالي.

وفي الزواحف عديمة الأطراف يرتكز الحيوان ببطنه على الأرض ارتكازاً كاملاً، ويتحرك بالزحف على بطنه فوق مستوى سطح الأرض مستخدماً في ذلك عضلات جسمه القوية التي تدفعه إلى الأمام في حركات متعرجة.

ومن الزواحف ما تدفن جسدها في أنفاق تحفرها تحت سطح التربة، وتعرف باسم **الزواحف الحفارة**.

أما الزواحف ذات الأرجل الأربعة من مثل بعض السحالي (العظاءات) فإنها تستطيع أن تدب على سطح الأرض بأطرافها الأربعة، سيراً أو عدواً، وقد تتحور هذه الأطراف إلى ما يسمى الأطراف القابضة كما هو الحال في **الحرباء** كي تساعدها على تسلق الأشجار، كما قد تتحور إلى زعانف كما هو الحال في **السلاحف المائية** لتساعدها على السباحة في الماء، وقد تتحور إلى أجنحة في بعض أنواع **الزواحف الطائرة**، وهي قليلة في زماننا الراهن ومنها السحالي (العظاءات) المسماة باسم دراكو (Draco).

والزواحف ذات الأرجل الأربعة لها زوج عند مقدمة الجذع، وآخر عند مؤخرته، والزوج الأمامي قد يختصر كثيراً على هيئة زوج من الأيدي القصيرة نسبياً، ويبقى الزوج الخلفي قوياً يحمل الزاحف مهما كان وزنه كما هو الحال في بعض الزواحف العملاقة المنقرضة من رتبة الديناصورات (Dinosauria).

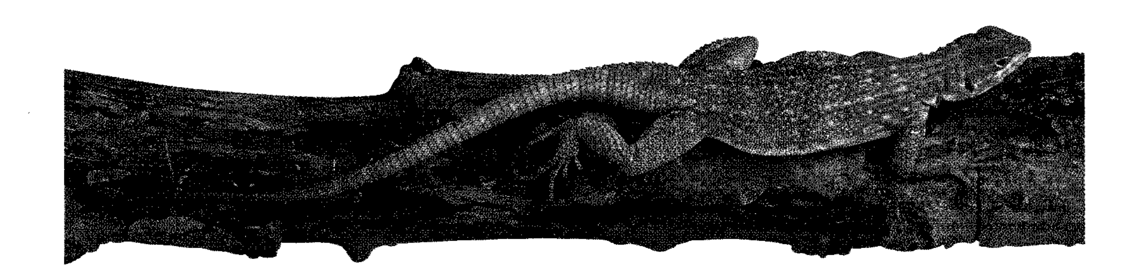
والزواحف من الفقاريات التي قد يصل عدد الفقار في عمودها الفقاري إلى أربعمائة فقرة كما هو الحال في **بعض الثعابين الطويلة**، وتترتب تلك الفقار من خلف الرأس مباشرة إلى نهاية الذنب في تناسق عجيب باتصالات مفصلية متعددة، ودقيقة وشديدة المرونة، وعالية الإتقان تمكن الزاحف من التحرك بسرعة كبيرة وبكفاءة عالية في حركات تموجية عنيفة دون أن تنفصل تلك الفقرات عن بعضها البعض.

وحسب طريقة الحركة يمكن تصنيف الزواحف إلى المجموعات التالية:

أ ـ زواحف تمشي على بطنها:

1 ـ **رتبة الثعابين (Order Ophidia)** ويعرف منها قرابة ثلاثة آلاف نوع، تنتشر في مختلف بيئات الأرض، ولبعضها أجسام مفرطة في الطول (إلى حوالي عشرة أمتار)، وهي عديمة الأرجل، ولذلك تتلوى أجسامها في حركات تموجية متناسقة عند انتقالها ولا تعرف هذه الطريقة في الحركة عند أي حيوان آخر إلا في بعض السحالي (العظاءات) الثعبانية الشكل، وفي بعض الديدان.

وبالإضافة إلى هذه الحركات البطنية التي تدب بها الثعابين على سطح الأرض فإن الله ـ تعالى ـ قد أعطاها القدرة على تسلق كلٍّ من الجدران والأشجار، وعلى القفز من المرتفعات، وعلى السباحة في الماء، فللثعبان القدرة على لف جسمه في لفات عديدة متقاربة بعضها فوق بعض، ثم يندفع بقوة عضلاته الجسدية في قفزة كبيرة يقطع فيها



العديد من الأمتار لينقض على فريسته، أو للهرب من خطر محدق به، وقد يكرر تلك القفزات في نفس الوقت لمرات عديدة. ولحمايته من شدة الاحتكاك بجسده مع الأرض يغطى جسم الثعبان بقشور قرنية صلبة مرتبة على سطح الجسم بأكمله في صفوف منتظمة، ناعمة الملمس في معظم الأحوال.

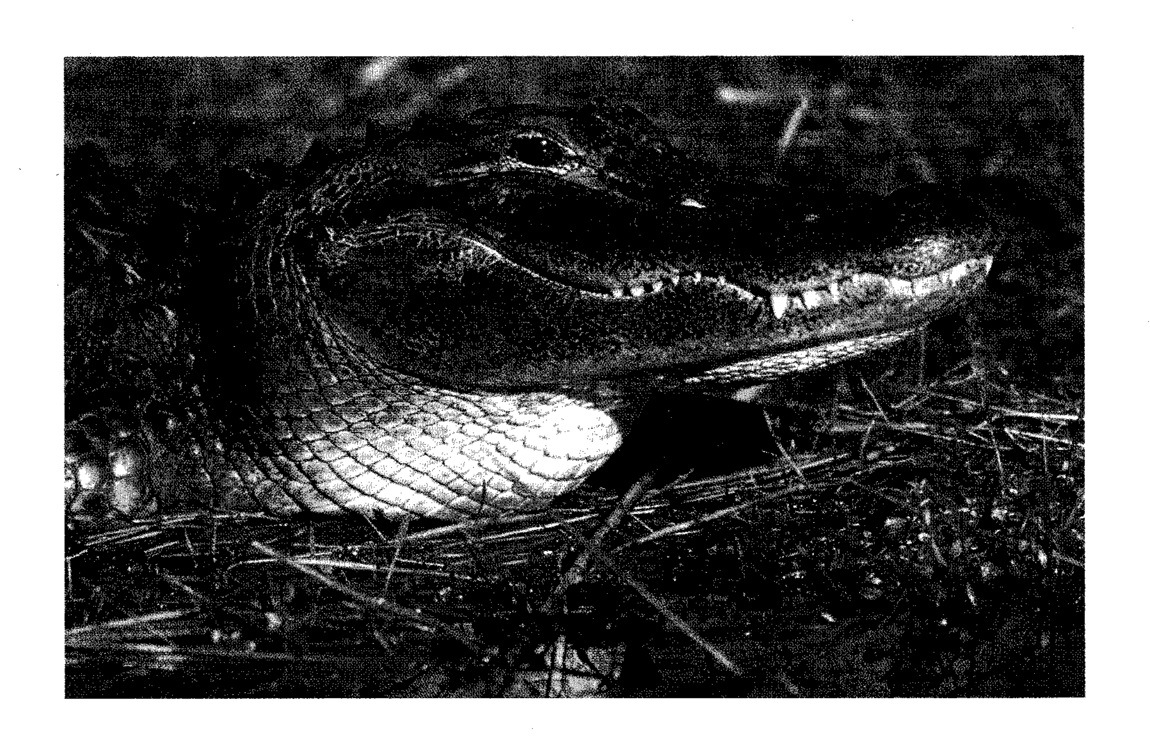
2 ـ **السحالي الثعبانية**: من السحالي ما يعيش تحت الأرض بصورة مستديمة وهذه تضعف أرجلها إلى حد الاختفاء الكامل.

ب ـ زواحف تمشي على أربع أرجل:

1 ـ **رتبة السحالي أو العظاءات (Order Lacertilia):**

هذه الرتبة هي أكثر الزواحف المعاصرة انتشاراً، حيث يعرف منها أكثر من 2500 نوع في مختلف بيئات الأرض، وإن كان أغلبها يدب على سطح اليابسة، ولكل منها أربع أرجل قوية نسبياً، كاملة التكوين، ولبعضها القدرة على تسلق الأشجار كالحرابي (جمع حرباية) التي هيأ الله ـ تعالى ـ أرجلها بقدرات قابضة، والسحالي الطائرة من جنس دراكو (Draco) التي زودها الله ﷻ بثنيتين على جانبي الجسم تشبهان الأجنحة يعينانها على الطيران لمسافات قصيرة. ويوجد في مصر حوالي أربعين نوعاً من السحالي (Lizards) أكثرها انتشاراً: **البرص، والضب، والحرباء. وللحرباء** زوجان من الأرجل الطويلة خماسية الأصابع في مجموعتين متقابلتين تتكون المجموعة الأولى من ثلاث أصابع يحيط بها غشاء جلدي، وتتكون المجموعة الثانية من إصبعين يحيط بهما غشاء جلدي آخر مما يجعل من الأطراف الأربعة أعضاء قابضة كالكماشة تمسك بفروع الأشجار، كما تستخدم ذنبها عضواً قابضاً كذلك. وتحتوي فصيلة الحرباء على ما يقرب من ثمانين نوعاً، يوجد منهما نوعان فقط في مصر، وهي تتغذى على الحشرات الصغيرة.

أما **البرص** فيوجد منه في مصر ما يقرب من ثلاثة عشر نوعاً، ويحمل جسم البرص أربع أرجل، خماسية الأصابع، وينتهي كل أصبع بوسادة لاصقة تمكِّنه من ارتقاء الجدران بسرعة فائقة، ومن السير على أسقف الحجرات مقلوباً دون أن يقع، ومعظم الأبراص ليلية في طبائعها الغذائية، وقد وهبها الله ـ تعالى ـ القدرة على البقاء حية دون تناول أي شيء من الطعام لفترات طويلة، ومعظم الأبراص من آكلات الحشرات.



أما **الضب** (**Uromastycs**) فأرجله الأربع قصيرة وغليظة مما يساعده على سرعة الجري، ويعرف منه أحد عشر نوعاً منها أربعة في مصر، وهو من آكلي الأعشاب.

2 ـ **رتبة السلاحف** (**Order Chelonia**):

للسلاحف أرجل ضعيفة لا تكاد تقوى على حملها بعيداً عن سطح الأرض، ولذلك تمشي بحركة بطيئة يضرب بها المثل في البطء نظراً لثقل جسمها وضعف أقدامها، وهناك ما يقرب من 250 نوعاً من السلاحف منها **السلاحف الأرضية** (**Tortoises**)، **والسلاحف البحرية** (**Turtles**)، **وسلاحف الماء العذب** (**Terrapins**).

ومن مميزات السلاحف: وجود الصندوق العظمي الذي يحيط بجسمها إحاطة كاملة على هيئة غطاءين: ظهري وبطني يتركب كلٌّ منهما من عدة ألواح ملتحمة مع بعضها البعض التحاماً وثيقاً، ومغلفة من الخارج بعدد من القشور القرنية الكبيرة (صدف السلاحف). ولهذا الصندوق العظمي فتحتان إحداهما أمامية يطل منها كل من الرأس والأرجل الأمامية، والثانية خلفية يخرج منها الذنب والأرجل الخلفية.

3 ـ **التماسيح (Order Crocodilia):**

وتضم أكبر الزواحف المعاصرة، ويعرف منها واحد وعشرون نوعاً تعيش كلها في الماء العذب، ولا تخرج منه إلى اليابسة إلا نادراً لوضع البيض على الشواطىء الرملية للأنهار في مواسم التكاثر. وللتماسيح أرجل قوية معدة للمشي على اليابسة، وتُجذب هذه الأرجل إلى جوار جسم التمساح أثناء سباحته في الماء بواسطة ضربات ذنبه القوية التي يضرب بها يمنة ويسرة. وتحيط بجسم التمساح درع عظمية قوية، تغطى بالأصادف القرنية الخارجية، وهذه الدرع العظمية مكونة من درقة ظهرية وأخرى باطنية متصلتين من الجانبين بنسيج لين، ويغطي ذنب التمساح بحلقات دائرية من الأصداف القشرية.

ج ـ زواحف تمشي على رجلين:

من الزواحف العملاقة المندثرة ما مشى على الرجلين الخلفيتين فقط (Bipedal) لقصر الطرفين الأماميين قصراً شديداً، وتحولهما إلى ما يشبه اليدين، وقد سادت هذه الأجناس حقب الحياة المتوسطة (The Mesozoic Era) الذي امتدّ من 245 مليون سنة مضت إلى65 مليون سنة مضت حين اندثرت هذه الزواحف العملاقة (Gigantic Reptiles) اندثاراً كاملاً.

د ـ طرق مشي الكائنات الأخرى:

1 ـ **البرمائيات (Class Amphibia)**: وقد تميزت بأطراف متطورة أمامية وخلفية بكل منها خمسة أصابع، وتتميز حركتها بأنها تتم على شكل مشي بطيء، أو جري على الأرجل الخلفية مستخدمة الذيل لحفظ توازن الجسم.

3 ـ **أما الطيور (Birds) فكلها ثنائية الأرجل** لتحول طرفيها الأماميين إلى جناحين، وتجمع الطيور في طائفة واحدة (Class Aves) تضم 27 رتبة، وأكثر من 8600 نوع تنتشر في مختلف بيئات الأرض، ولها في كل قدم من قدميها ثلاثة أصابع فقط. والطيور من الفقاريات ذات الدم الحار، التي تتغطى أجسادها بالريش وتحولت فيها الفكوك إلى مناقير خالية من الأسنان، وكلها تبيض، وتحتضن الأنثى بيضها حتى يفقس: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

3 ـ وأما **الثدييات (Class Mammalia)** فلأغلب أفرادها أربعة أطراف تتدلى تحت

الجسم تماماً، ويمكنها أن تتحرك من الأمام إلى الخلف، لأن مفصل الركبة متجه إلى الأمام، ومفصل الكتف متجه إلى الخلف مما يجعل معظم طاقة الحركة موظفاً توظيفاً صحيحاً، وتظهر أهمية ذلك في حيوان كالنمر الذي تصل سرعته إلى 115 كيلومتراً في الساعة، ويستطيع أن يصل في سرعته إلى 75 كيلومتراً في الساعة خلال ثانيتين فقط من انطلاقه في الجري، وهو ما يفوق تسارع أية سيارة سباق صنعها الإنسان.

ومن الثدييات مجموعة الحافريات (Ungulata) التي بلغت الأطراف فيها أحجاماً ضخمة لتساعدها على الجري السريع، وتحولت المخالب إلى حوافر، ويمشي الحيوان الحافري عادة على عدد مفرد قليل من الأصابع، فأصبح منها ما هو فردي الأصابع (Odd-Toed Ungulates) من مثل الخيول، والفيلة ووحيد القرن، والتابير (Tapirs) والتي تناقص عدد الأصابع في حافرها إلى إصبع واحد، ومنها ما هو زوجي الأصابع (Even-Toed Ungulates) وتعرف أيضاً باسم مشقوقات الحافر مثل البقر والغزال.

ومن الثدييات ما يمشي على رجلين فقط مثل **حيوان الكنغر** و**بعض القردة العليا** وذلك لقصر الطرفين الأماميين بشكل ملحوظ، ولذلك يدب الحيوان على سطح الأرض بواسطة طرفيه الخلفيين القويين والذي يقفز أو يدب عليهما باستمرار.



ومن الثدييات ما تقلصت فيه الأقدام تقلصاً ملحوظاً مثل رتبة دقيقة الأقدام (Pinnipedia) ومنها الفقمة (Seal) وحيوان الفظ (Walrus). ومنها ما اقتصرت أطرافه على عدد من الزعانف مثل رتبة الحيتان والدلافين (Whales and Dolphihs = Order Citacea)؛ وذلك لاقتصارها على العيش في مياه البحار.

ومن الثدييات ما يطير في جو السماء مثل **الخفافيش** التي تحولت أطرافها الأمامية إلى أجنحة جلدية لتساعدها على الطيران.

4 - ويأتي **الإنسان** ذلك المخلوق المكرم في قمة ما خلق الله - تعالى - الذي أكرمه بانتصاب القامة، وبالسير على ساقين، وبتناسق أبعاد الجسم، وأطوال الأطراف. وحجم الجمجمة، وبمهارة في اليدين، ونماء في العقل، وقدرة على الاختيار، وعلى إدراك الذات، وعلى الانفعال والشعور، وعلى اكتساب المعارف والمهارات وتعليمهما، وبغير ذلك من الصفات التي ميزه الله - تعالى - بها، وكرَّمه على بقية خلقه، وصدق الله العظيم القائل:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۞﴾ «سورة الإسراء، الآية: 70».

ثالثاً: في معنى قوله تعالى: .. ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

من أكبر مجموعات الحياة الحيوانية ما يجمع تحت شعبة خاصة تعرف باسم شعبة مفصليات الأقدام (Phylum Arthropoda) والتي تضم أكبر عدد من أفراد وأنواع الحيوانات البحرية والأرضية والطائرة حيث يصل عدد أنواع هذه الشعبة إلى حوالي مليون نوع تمثل طائفة الحشرات (Class Insecta) حوالي 90٪ منها، وتتوزع باقي أنواع هذه الشعبة على طوائف العنكبيات أو العنكبوتيات (Class Arachnida)، والقشريات (Class Crustacea) ومزدوجة الأقدام (Class Diplopoda) وغيرها.. وتتميز الأفراد في شعبة مفصليات الأقدام بأجسامها المقسمة إلى عدد من الحلقات المرتبطة ببعضها البعض بمفاصل تسمح لكل منها بالحركة، وبهياكلها الكيتينية الممفصلة أيضاً، وبأطرافها المقسمة والمفصلية والموجودة في هيئة زوجية على كل حلقة من حلقات الجسم، وهنا تتعدد الأرجل إلى العشرات بل إلى المئات حتى الآلاف ولذلك ختمت الآية الكريمة التي نحن

بصددها بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:.. ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تأكيداً على طلاقة القدرة الإلٰهية في الخلق، وقدرته ﷻ على البعث، وتأكيداً على وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه من الأحياء وقد خلقهم في الأصل جميعاً من الماء، وجعل حياتهم قائمة عليه بعلمه وحكمته وإرادته، حتى يكون في تنوع الخلق من منشأ واحد وفي زوجية كاملة ما يشهد له ﷻ بالوحدانية الكاملة فوق جميع خلقه بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، وكلها من صفات المخلوقين والله ـ تعالى ـ منزَّه تنزيهاً كاملاً عن جميع صفات خلقه.

ومن شعبة مفصليات الأقدام ما يلي:

1 ـ تحت شعبة الكلابيات (Subphylum Chelicerata): وتشمل العقارب (Scorpions)، والعناكب (Spiders)، والفاش (Mites)، والقراد (Ticks) والتي تنطوي تحت طائفة العنكبيات أو العنكبوتيات (Arachnids).

2 ـ تحت شعبة الفكيات (Subphylum Mandibulata):

وتشمل كلاً من طائفة القشريات (Crustacea) والحشرات (Insecta) ومن القشريات ذات الأقدام العشرة (Decapoda) الجمبري وسرطان البحر، ومنها طائفة عديدات الأقدام (Myriapoda) وتحتوي كلاً من ذوات المائة قدم (Centipedes)، وذوات الألف قدم (Millipedes).

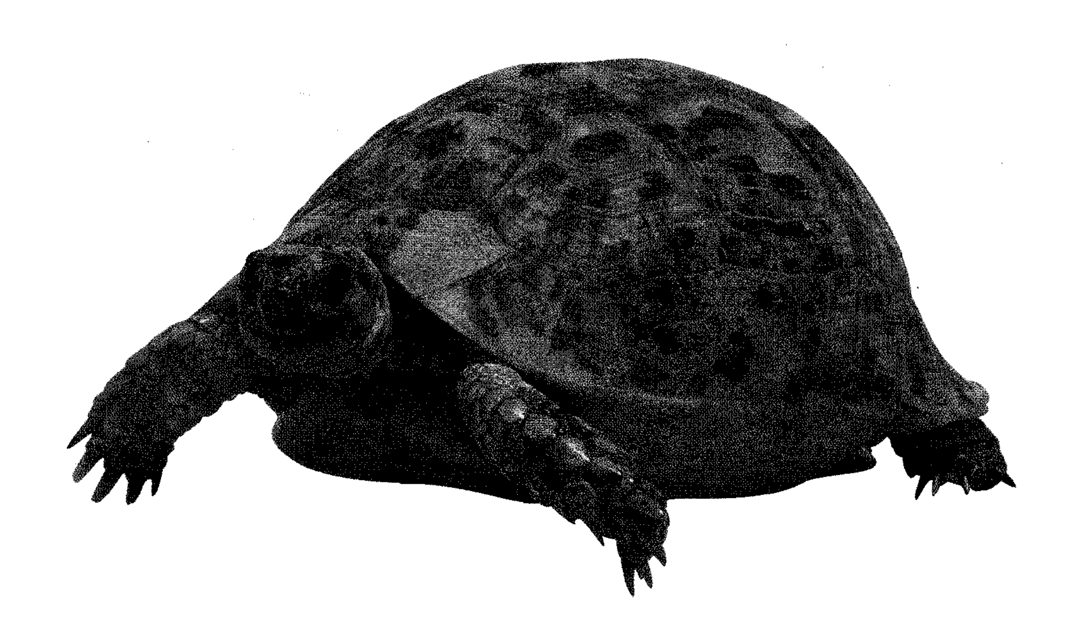
هذه الحقائق التي مؤداها: أن الله تعالى خلق كل دابة من ماء، وأنه يمكن تقسيم دواب الأرض على أساس من طرائق حركتها، ووسائل تلك الحركة لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها في هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها كافٍ للشهادة للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد ﷻ بهذا الحفظ إلى ما شاء الله حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى قيام الساعة.

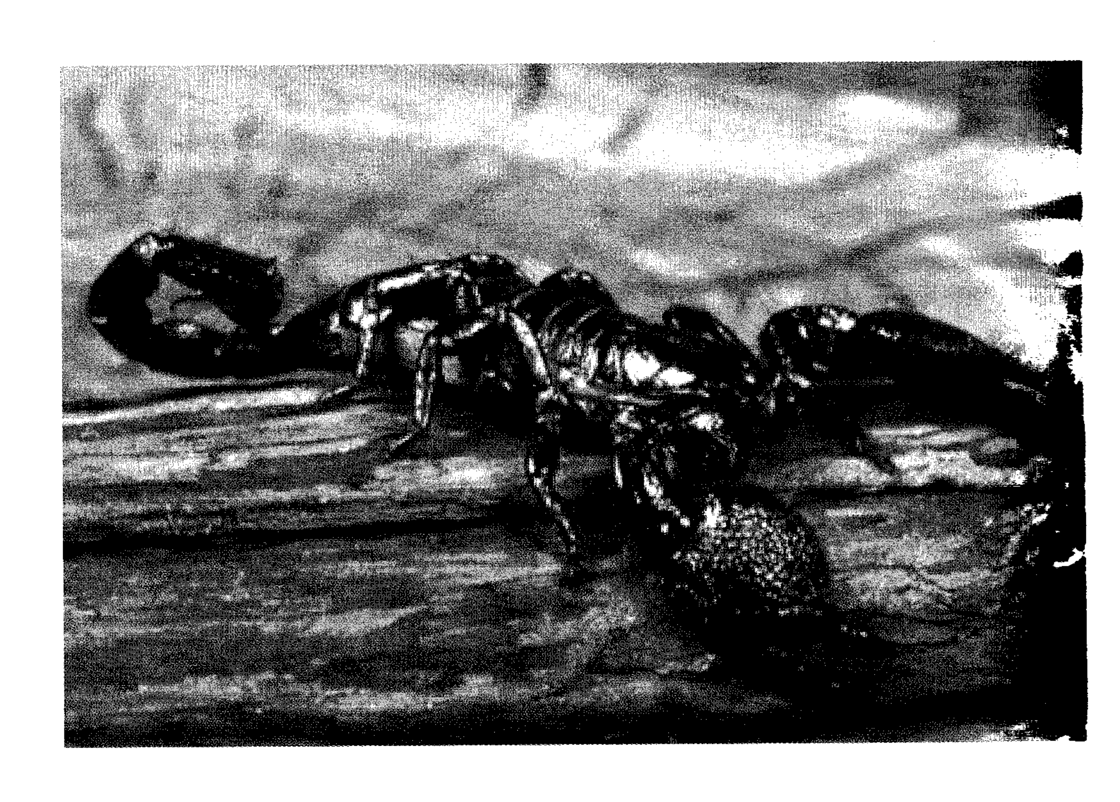
وهذه الحقائق كافية للشهادة بالنبوة وبالرسالة لسيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى

آله وصحبه، وعلى كل من تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ وتبقى هذه الحقائق مؤكِّدة أنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض فلا يمكن للكلام الموحى إليه إلا أن يكون حقاً كاملاً، لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على جميع أفضاله ونعمه التي لا يحصيها عد ولا يجحدها إلا جاحد أو كافر أو مشرك، ونحن نبرأ إلى الله ـ تعالى ـ من أوصافهم أجمعين. والحمد لله الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ «سورة النور، الآية: 45».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ
١٧٤ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا
فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ
بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ **فَمَثَلُهُۥ**
كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ
ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ
ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨

20

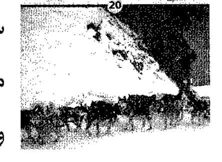


بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿...فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ... ﴾

«سورة الأعراف، الآية: 176»

20



هذا النص القرآني الكريم جاء في بدايات الخمس الأخير من سورة «الأعراف»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (206) بعد البسملة، وهي من طوال سور القرآن الكريم، وأطول السور المكية على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى (الأعراف) وهي أسوار مضروبة بين الجنة والنار للحيلولة بين أهليهما تكريماً لأهل الجنة، وإذلالاً وامتهاناً لأهل النار.

وكطبيعة السور المكية، يدور المحور الرئيسي لسورة «الأعراف» حول العقيدة الإسلامية القائمة على أساس من التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، وعبادته وحده بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، والإيمان الكامل بوحي السماء، والطاعة التامة لأوامر الله المنزلة على فترة من الأنبياء والمرسلين، ثم تكاملت وتمت وحفظت في القرآن العظيم وفي سنة النبي والرسول الخاتم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

ولقد أبرزت سورة «الأعراف» عقيدة التوحيد الخالص لله في ردود عدد من أنبياء الله ورسله على أقوامهم وذلك بالقول السديد الذي سجله القرآن العظيم لهم حيث قالوا:

﴿...يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ...﴾.

وقد تردد هذا القول الرشيد أربع مرات في هذه السورة المباركة على لسان كل من أنبياء الله: نوح، وهود، وصالح، وشعيب ـ على نبينا وعليهم وعلى جميع أنبياء الله السلام ـ، وأتبعت هذه الدعوة المباركة في كل مرة بتحذير شديد، أو تقريع صاعق وذلك من مثل قول نبي الله نوح عليه السلام لقومه: ... ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ...﴾ «سورة الأعراف: 59»، وقول نبي الله هود عليه السلام لقومه: ﴿...أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ «سورة الأعراف: 65». ومن مثل قول كل

من نبي الله صالح، ونبي الله شعيب ـ عليهما من الله السلام ـ كل إلى قومه: ... ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «سورة الأعراف، الآيتان: 73، 85».

هذا وقد سبق لنا تلخيص سورة الأعراف، ولذلك فسوف أكتفي هنا باستعراض أقوال المفسرين والدلالات العلمية للنص الكريم الذي اخترناه منها عنواناً لهذا المقال.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

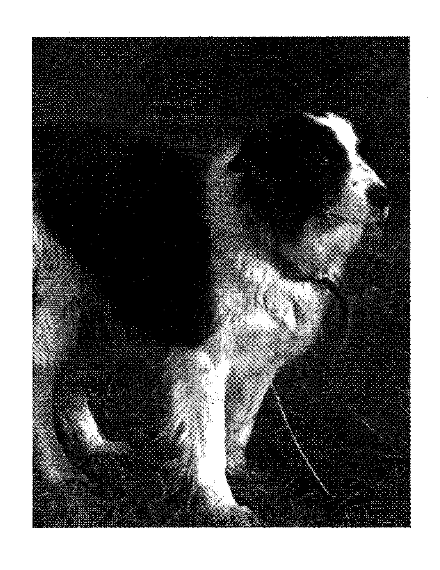
﴿...فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ...*﴾

«سورة الأعراف، الآية: 176».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «.. أي فمثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث..».

- وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره: «.. ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ صفته ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ بالطرد والزجر ﴿يَلْهَثْ﴾ يدلع لسانه ﴿أَوْ﴾ إن ﴿تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ﴾ وليس غيره من الحيوان كذلك، وجملتا الشرط حال، أي: لاهثاً ذليلاً بكل حال، والقصد التشبيه في الوضع والخسة، بقرينة (الفاء) المشعرة بترتيب ما بعدها على ما قبلها من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى، وبقرينة قوله ﴿ذَّٰلِكَ﴾ المثل ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ على اليهود وعلى غيرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتدبرون فيها فيؤمنون».

- وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما مختصره: «.. ذلك مثلهم! فقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم، ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخاً.. ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان، هابطون من مكان الإنسان إلى مكان الحيوان.. مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين.. وكان لهم من الإيمان جناح يرقون به إلى عليين، وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين!!.. وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى مثلاً؟ وهل أسوأ



من اللصوق بالأرض واتباع الهوى مثلاً؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يعريها من الغطاء الواقي والدرع الحامية، ويدعها غرضاً للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض الحائر القلق، اللهّاث لهاث الكلب أبداً!!.. وبعد.. فهل هو نبأ يتلى؟ أم أنه مثل يضرب في صورة النبأ لأنه يقع كثيراً فهو من هذا الجانب خبر يروى؟ تذكر بعض الروايات أنه نبأ رجل كان صالحاً في فلسطين وتروى بالتفصيل الطويل قصة انحرافه وانهياره، على نحو لا يأمنه الذي تمرس بالإسرائيليات الكثيرة المدسوسة في كتب التفاسير أن يكون هذا الخبر واحدة منها، ولا يطمئن على الأقل لكل تفصيلاته التي ورد فيها، ثم إن في هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب ما يدعو إلى زيادة الحذر...».

ورحم الله صاحب الظلال برحمته الواسعة على هذا الحس النوراني الشفاف، فلقد وجدتُ القصة بتفاصيلها في سفر الأعداد من العهد القديم، وقد أمرنا رسول الله ﷺ ألا نصدق أهل الكتاب، ولا نكذبهم.

وأضاف صاحب الظلال ـ أجزل الله له المثوبة جزاء ما قدم ـ ليقول: «لذلك رأينا ـ على منهجنا في ظلال القرآن ـ ألا ندخل في شيء من هذا كله بما أنه ليس في النص القرآني منه شيء ولم يرد من المرفوع إلى رسول الله ﷺ عنه شيء وأن نأخذ من النبأ ما وراءه فهو يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها.. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر، ما أكثر الذين يعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى به.. هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم في وهمهم عرض الحياة الدنيا.. وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة،

والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل!! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً!!».

ويضيف صاحب الظلال ـ أكرمه الله في مثواه جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين ـ ما نصه: .. إنه مثل لكلّ من آتاه الله من علم الله، فلم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان، وانسلخ من نعمة الله، ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان، ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان! ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟ إنه ـ في حسّنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده في القرآن ـ ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها، ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبداً، والذي لا يترك صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبداً..».

- وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه: «﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ أي إن شددت عليه وأجهدته لهث، وإن تركته على حاله لهث، فهو دائم اللهث في الحالين، لأن اللهث طبيعة فيه، فكذلك حال الحريص على الدنيا، إن وعظته فهو لحرصه لا يقبل الوعظ، وإن تركت وعظه فهو حريص لأن الحرص طبيعة فيه، كما أن اللهث طبيعة في الكلب. واللهث: إدلاع اللسان بالنفس الشديد..».

- وذكر كلٌّ من أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير ـ جزاهم الله خيراً ـ كلاماً مشابهاً، إلا أن الخبراء أضافوا ما يلي على هامش المنتخب: «أوردت هذه الآية ظاهرة مشاهدة وهي أن الكلب يلهث سواء حملت عليه أو لم تحمل، وقد أثبت العلم أن الكلب لا توجد فيه غدد عرقية إلا القليل في باطن أقدامه، والتي لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه، ولذلك فإنه يستعيض عن نقص وسائل تنظيم الحرارة باللهث وهو ازدياد عدد مرات تنفسه زيادة كبيرة عن الحالة العادية مع تعريض مساحة أكبر من داخل الجهاز التنفسي كاللسان والسطح الخارجي من فمه للهواء الخارجي».



من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

الكلب (Dog = **Canis familiaris**) من الثدييات المشيمية آكلة اللحم (Carnivorous Placental Mammals) التي تتبع رتبة خاصة من رتب طائفة الثدييات (Class Mammalia) تعرف باسم رتبة آكلة اللحوم (Order Carnivora) وتضم ثدييات من آكلة اللحوم مثل الكلب (Dog)، والذئب (Wolf)، والثعلب (Fox)، وابن آوى (Jackal)، والقط (Cat)، والنمر (Tiger)، والأسد (Lion)، والدب (Bear) والفقمة أو عجل البحر (Seal)، وحيوان الفظ (Walrus) وكلها تأكل اللحوم، وإن كان بعضها مثل الدببة تأكل الخضراوات أيضاً.

وتقسم رتبة الثدييات آكلة اللحم إلى عدد من الفصائل التي تشمل فيما تشمل ما يلي:

1 ـ فصيلة الكلاب وأشباهها (Family Canidae)

2 ـ فصيلة الدببة وأشباهها (Family Ursidae)

3 ـ فصيلة القطط وأشباهها (Family Felidae)

4 ـ فصيلة الضباع وأشباهها (Family Hyaenidae)



5 ـ فصيلة الراكون وأشباهه (Family Procyonidae)

وتتميز الثدييات المشيمية آكلة اللحم بأحجامها الكبيرة نسبياً، وبعضلاتها المفتولة القوية، وبتحور أسنانها لتناسب طبيعة الغذاء الذي تعيش عليه، وأغلبه اللحوم والغضاريف والعظام، ولذلك تخصصت أسنانها في القطع والتمزيق، وبالقدرة على الإمساك بالفريسة وحملها إلى مسافات بعيدة، فالقواطع الأمامية تقطع، والأنياب تمزق، والمخالب القوية تمسك بالفريسة وتعين على تمزيقها. وآكلات اللحوم في مجموعها حيوانات لها القدرة على الجري السريع.

والكلاب في الطبيعة تميل إلى العيش في جماعات منظمة، وإلى الخروج إلى الصيد في جماعات منظمة كذلك. وتتميز الكلاب بالفكوك القوية، والعضلات النامية، وبجهاز هضمي مهيأ للتعامل مع اللحوم، وبعدد من الحواس القوية مثل حاستي الشم والسمع، وبغريزة اجتماعية واضحة تنظم حياة وجهود القطيع. وعلى الرغم من الفوارق السطحية الكثيرة فإن الكلاب التي يوجد منها اليوم أكثر من مائة سلالة تنتمي كلها إلى نوع واحد يعرف باسم الكلب المعروف أو المستأنس (Canis familiaris) الذي يتبع كلاً من تحت العائلة الكلبية (Subfamily Canidae)، والعائلة الكلبية (Family Canidae) وفوق العائلة الكلبية التي تعرف باسم (Superfamily Canidae).

وأبرز حواس الكلب نماء هي حاسة الشم التي تحلل الروائح المميزة مثل روائح العرق، الدم، والإفرازات الإنسانية والحيوانية الأخرى، وروائح الأنواع المختلفة من التربة، والحشائش، والمنتجات الزراعية، والمركبات الكيميائية وغيرها. وتنتقل الرائحة من الأنف، والممرات الأنفية المصممة بدقة بالغة إلى مركز الشم في مخ الكلب وهو من أكبر المراكز المخية عنده حجماً ونمواً، حيث تحلل الروائح وتسجل في برمجة محكمة.

وتلي حاسة الشم في الكلب حاسة السمع إذ يمكن لأذن الكلب أن تتلقَّى أصواتاً تصل في سرعاتها إلى 35000 ذبذبة في الثانية، مقارنة بحوالي 25000 ذبذبة في الثانية لأذن القط، وأضعف حواس الكلب هي البصر حيث لا تتمكن عين الكلب من تمييز الألوان على الإطلاق.

ويرجع أقدم أثر للكلاب المستأنسة على سطح الأرض إلى الفترة من 12000، إلى 14000 ألف سنة مضت حين بدأ الإنسان في استئناسها، ومنذ ذلك التاريخ لعب الكلب أدواراً مختلفة في عديد من الحضارات القديمة.

لماذا يلهث الكلب؟

يقال: (**لهث**) الكلب (يلهث) (لهاثاً) بضم اللام وفتحها إذا أخرج لسانه من الحر والعطش، أو من التعب والإعياء والإجهاد والمرض، و (اللهثان) بفتح الهاء: العطش، وبسكونها: العطشان، والأنثى: (لهثى).

ويعرف (لهث) الكلب و (لهاثه) (Panting) بأنه الأنفاس السريعة الضحلة التي يأخذها الكلب عن طريق فمه المفتوح، ولسانه المتدلي إلى الخارج، وذلك من أجل تزويد جسمه بقدر كافٍ من الأكسجين، وضبط كل من كمية الماء ودرجة الحرارة فيه، وتهويته في حالات الحر الشديد، والسبب في ذلك هو أن جسم الكلب لا يحمل غدداً عَرَقِيَّة إلا في باطن أقدامه فقط، وهذه لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه، ولذلك فإن الكلب يستعين بعملية (اللهاث) لتعويض غيبة الغدد العرقية في غالبية جسمه، ولوجود الشعر الكثيف الذي يغطي أغلب الجسم فيرفع من درجة حرارته خاصة في غيبة الغدد العرقية التي تقوم بتنظيم درجة حرارة أجساد أغلب الكائنات الحية الأرضية.

واللهث هو زيادة في عدد مرات التنفس السريع والقصير المدى زيادة ملحوظة عن معدلات التنفس العادي مع تعريض مساحة أكبر من داخل الجسم كاللسان والفم ومن الجهاز التنفسي بدءاً من المنخار إلى فراغات كل من الأنف والفم إلى كل من البلعوم والحنجرة، والمريء، والقصبات الهوائية أو الرغامي (Trachea) لتيار مستمر من الهواء يزيد من كم الأكسجين الداخل إلى الجهاز التنفسي، وفي نفس الوقت يقوم بتبخير جزء من الماء الموجود في الأنسجة التي يمر بها فيؤدي إلى تبريد الجسم وخفض درجة حرارته، ويساعد على ذلك ما يقوم به الكلب أحياناً من لحس الأطراف، ولحس بقية ما يطول لسانه من جسمه وتبليله بلعابه حتى يتبخر ذلك ويساعد على خفض درجة حرارة جسمه.

ومن بديع صنع الخالق سُبحانه وتعالى أن لهاث الكلب يؤثر فقط على مقدمات الجهاز التنفسي ولا يقتضي الانتفاخ الكامل للرئتين وأسناخهما (Full Alveolar Inflation)، لإتمام عملية التبادل الكامل بين أكسجين الهواء الداخل وثاني أكسيد الكربون بالرئتين، وذلك لأن أغلب الهواء الداخل بعملية اللهث لا تتجاوز حركته ما يسمى باسم الفراغ الميت من الجهاز التنفسي الذي يمتد من كل من الأنف والفم وفراغاتهما إلى كل من البلعوم، والحنجرة، والمريء، والقصبة الهوائية بتفرعاتها، ولكنه لا يكاد يصل إلى الرئتين، حتى لا يؤدي ذلك إلى زيادة فقد ثاني أكسيد الكربون من الرئتين مما قد يتسبب في مرض يعرف باسم مرض القلاء (Alkalosis).

ومن إحكام الخلق في بناء جسم الكلب أن عملية اللهاث تتم بأقل قدر ممكن من حركة العضلات، وهي أكثر أجزاء جسم الكلب نمواً، ومن أبرزها عضلة اللسان وبحركتها ترتفع درجة حرارة الجسم، ولذلك جعل الله ـ تعالى ـ الجهاز التنفسي للكلب جهازاً شديد المرونة ينتفخ بأقل جهد ممكن أثناء عملية الشهيق، ويعود إلى حجمه الطبيعي دون أي تدخل عضلي أثناء عملية الزفير وذلك في مصاحبة عملية اللهثان. فعندما يبدأ الكلب في هذه العملية تنتقل



سرعة تنفسه فجأة من30، 40 نفساً بالدقيقة إلى عشرة أضعاف ذلك (أي إلى 300، 400 نفس بالدقيقة). فإذا عطش الكلب أو ارتفعت درجة حرارة جسمه أو حدث الأمران معاً فإنه يبدأ في اللهث بمعدلات سريعة، ثم يعود لتنفسه العادي، ثم يلهث سريعاً، ثم يعود إلى التنفس البطيء حتى يحقق تبريد جسمه وضبط درجة حرارته، ويعين على ذلك قدر الهواء الداخل إلى مقدمات الجهاز التنفسي والخارج منه وما يحمله معه تيار الهواء الخارج من بخار الماء الذي يتصاعد من الأنسجة التي يمر عليها وهو خارج إلى الجو مع عملية الزفير خاصة أن الممرات الأنفية والفمية للكلب مصممة بنظام يسمح بمرور كمية كبيرة من الهواء مع كل نفس. ويعين على تبريد جسم الكلب المرونة الزائدة للجهاز التنفسي الذي يمتد مع الشهيق باستهلاك جزء يسير جداً من طاقة العضلات ويرتد بذاته مع عملية الزفير دون أدنى تدخل عضلي.. وقد قدر أنه لو لم يكن للجهاز التنفسي للكلب هذا القدر من المرونة العالية لكانت الحرارة الناتجة من عملية اللهاث أكبر بكثير من الحرارة المفقودة بتبخير جزء من ماء الأنسجة المبطنة لمقدمات جهازه التنفسي بواسطة تيار الهواء المار بها أثناء عملية الزفير؛ وذلك لأن الطاقة اللازمة لتحريك عضلات الجهاز التنفسي عند غير الكلب من الثدييات آكلة اللحم (اللاحمة) هي طاقة كبيرة، والحرارة الناتجة عنها هي حرارة ذات قيم مرتفعة.

والكلب يلهث عادة عند ارتفاع درجة حرارة جسده بسبب ارتفاع درجة حرارة البيئة التي يحيا فيها، أو بسبب العطش، أو بسببهما معاً، أو عند الإجهاد الشديد، أو الإعياء والمرض العضوي أو النفسي، أو عند الاستثارة والمفاجأة، أو عند الفرح والرضا بصفة عامة.

والكلب له أصوات عدة غير اللهاث (Panting) منها ما يلي:

نباح الكلب (Barking or Yelping)، وعواء الكلب (Howling) وهمهمات الكلب (Growling) وأنين وهرير الكلب (Whining)، وهبهبة الكلب (Hubbubing)، وزمجرة الكلب (Snarling)، وغير ذلك من الأصوات التي لكل منها دلالته وتعبيره، لأن الكلب كغيره من الحيوانات له لغة تخاطب يتفاهم بها مع أفراد قطيعه ومع أمثاله من الحيوانات، وله قدر من الذكاء والانفعال والقدرة على التعبير.

ولكن حقيقة اضطرار الكلب إلى اللهاث المستمر تقريباً من أجل خفض درجة حرارة جسده، أو للتعبير عن شدة عطشه، أو عن الإجهاد الشديد الذي تعرض له، أو عن عارض



عرض له، أو مرض عضوي أو نفسي ألمَّ به، أو فرح انتابه، أو حزن لمس قلبه أو غير ذلك من الانفعالات ووسائل التعبير عنها، وما أكثرها عند هذه العجماوات، كل ذلك لم يعرف إلا في دراسات علم السلوك الحيواني (Animal Behaviour)، وهي دراسات مستحدثة لم تتبلور إلا في القرن العشرين أو في العقود المتأخرة منه على أحسن تقدير، وتشبيه القرآن الكريم من انصرف عن الهداية الربانية إلى الانشغال التام بالدنيا والجري المتواصل من أجل تحصيلها دون التقاط للأنفاس أو توقف للتأمل والمدارسة بحال الكلب اللاهث في أغلب أحواله لتبريد جسده أو إطفاء ظمئه، أو للتعبير عن رغبة عنده. وكل ذلك يعتبر سبقاً علمياً رائعاً يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بهذا الحفظ إلى أن يشاء الله، ولم يتعهد بحفظ رسالة سابقة أبداً، وذلك لأن القرآن الكريم هو آخر الرسالات السماوية، وأتمها وأكملها، وأن سيدنا محمد بن عبد الله هو خاتم الأنبياء والمرسلين فليس من بعده نبي ولا رسول، والله ـ تعالى ـ من عدله المطلق يقول: ﴿...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 15».

وحفظ القرآن الكريم بعهد من الله ـ تعالى ـ يمثل قيام خاتم الأنبياء والمرسلين على ظهر الأرض إلى يوم الدين يدعو الخلق أجمعين إلى الهداية الربانية التي تكاملت في بعثته وحفظت في القرآن الكريم، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله ربّ العالمين.



۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ
ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ
رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ
فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ** ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ

21



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

«سورة النحل، الآية: 115».

21



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في أوائل العشر الأخير من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم «النحل» لأن الله ـ تعالى ـ قد نحل الشغالات من إناثها القدرة على جمع رحائق الأزهار، وما بها من غبار الطلع (حبوب اللقاح) من العديد من النباتات المزهرة، وهضمه، وتحويله في بطونها إلى ذلك الشراب المختلف الألوان الذي جعل الله ﷻ فيه شفاء للناس والمعروف إجمالاً باسم عسل النحل.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «النحل» حول قضيتي العقيدة الإسلامية، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وكلتاهما من ركائز الدين الإسلامي العظيم الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على فترة من الأنبياء والمرسلين ثم أكمله وأتمه في بعثة النبي والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ. وفي خلال تأسيسها لقواعد العقيدة الإسلامية استشهدت سورة النحل بالعديد من آيات الله في الكون بصياغة علمية رصينة تتَّسم بالكمال والشمول والإيجاز. وقد سبق لنا استعراض ركائز العقيدة ومكارم الأخلاق والإشارات الكونية التي جاءت في سورة النحل، وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك سوف أقصر الحديث هنا على الدلالات العلمية للآية (115) من هذه السورة المباركة والتي جاء فيها تحريم أكل كلٍّ من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في تحريم أكل الميتة:

إن موت الحيوان قبل تذكيته قد يكون بسبب مرض من الأمراض العضوية أو الفيروسية التي ألمَّت به، أو بسبب شيخوخة أصابته، وهذا سبب كافٍ لتحريم أكل لحمه، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يؤدي إليه الموت دون تذكية؛ أي دون إراقة دمه إلى احتباس كل دمه في جسده اتضحت لنا حكمة تحريم أكل لحم الميتة وذلك لأن الدم هو حامل فضلات الجسم المختلفة من مثل ثاني أكسيد الكربون، واليوريا، وحمض اليوريك، وجراثيم الجسم وطفيلياته، ونواتج عمليات تمثيل الطعام في جسم الحيوان (عمليات الأيض) والتي تنقل عبر الأوردة وتفرعاتها المختلفة، في جسم الحيوان، وأغلبها مواد قابلة للتعفن والتحلل إذا حبست في الجسد الميت للحيوان، خاصة إذا كان قد انقضى على موته وقت يسمح ببدء تحلل جسده وفساد لحمه. ومن هنا تتَّضح الحكمة الإلٰهية من تحريم أكل لحوم الميتة.

ثانياً: في تحريم أكل الدم المسفوح كطعام:

الدم هو هذا السائل الأحمر القاني الذي يتكون من أخلاط عديدة منها الخلايا الحمراء الممتلئة بمادة الهيموجلوبين التي تقوم بنقل الأكسجين إلى مختلف خلايا الجسم، والخلايا البيضاء التي تدافع عن الجسم ضد غزو حاملات الأمراض من الجراثيم والڤيروسات والطفيليات، والصفائح التي تتحطم حول نزيف الدم من أجل تجلطه. وتشكل خلايا الدم الحمراء نحو45٪ من الحجم الكلي للدم (4 إلى 6 ملايين خلية في كل مليمتر مكعب)، ولا يشكل كلٌّ من خلايا الدم البيضاء وصفائحه أكثر من1٪، وباقي الدم (54٪) يتكون من البلازما التي يغلب على تركيبها الماء وبه نحو 7٪ من حجم الدم بروتينات (من مثل الألبيومين، والجلوبيولين، والأجسام المضادة، والبروتينات الناقلة، والدهون، وأيونات مختلفة للصوديوم، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والحديد، والنحاس، والكلور والبيكربونات، وغيرها، والفيتامينات، والهرمونات، والفضلات النيتروجينية التي تفرزها الخلايا مثل الأمونيا، واليوريا، وحمض اليوريك وهي سموم قاتلة يحملها الدم عادة إلى الكلى للتخلص منها إلى خارج الجسم عن طريق البول. هذا بالإضافة إلى العديد من الغازات الحرة والمذابة في بلازما الدم، والفيروسات، والجراثيم، والطفيليات الحية والميتة، وخلايا

متكسرة من خلايا الدم ذاته، وغير ذلك من الخلاصات المفيدة للأغذية والأكسجين التي يدفع بها القلب مرة أخرى، إلى مختلف خلايا الجسم. ومن ذلك يتضح أن الدم سائل ناقل للأمراض الخطيرة مثل مرض نقص المناعة، وهو مرض قاتل، لا علاج له ولا حيلة فيه، وبالإضافة إلى الدم هناك سوائل الجهاز الليمفاوي الذي ينتشر بين الأوعية الدموية أو في أوعية خاصة به بتفرعاتها المختلفة، وتفيض إلى الأوردة الدموية الكبيرة بالقرب من القلب.

والسائل الليمفاوي يتكون أساساً من البلازما وبعض المواد المذابة فيها، والعالقة بها من مثل الخلايا البيضاء، والليمفاويات (Lymphocytes) التي تعتبر من أهم أجهزة الجسم الدفاعية ضد حاملات الأمراض. وبالإضافة إلى ذلك هناك العقد الليمفاوية (Lymph Nodes) وهي كتل من النسيج الليمفاوي توجد على طول الأوعية الليمفاوية بتفرعاتها المختلفة، كما توجد مستقلة عنها في كل من اللوزتين (Tonsils)، وعقد البلعوم الليمفاوية، والغدد الليمفاوية بالقناة الهضمية، والغدد التوتية أو الزعترية (Thymus)، والطحال. وتقوم السوائل الليمفاوية بامتصاص البروتينات المتسربة من كل من الأوعية الدموية والأنسجة البينية، وإعادتها إلى مجرى الدم في الوقت المناسب لتساعد على الاتزان الكيميائي في داخل جسد الكائن الحي وإلا هلك. ويعتبر ذلك من أهم وظائف الجهاز الليمفاوي.

والوظيفة الأساسية للغدد الليمفاوية هي الدفاع عن الجسم وذلك لاحتوائها على مجاميع كبيرة من الخلايا الليمفاوية (الليمفاويات)، وتقوم هذه الخلايا المتجمعة على هيئة الغدد بالعمل كمرشحات للغازات والسوائل التي تدخل الجسم تلتقط منها الملوثات من مثل ذرات الغبار والفيروسات والبكتيريا وغيرها من حاملات الأمراض ويتم خزنها فيها حتى يتم إفراز الأجسام المضادة للقضاء عليها.

ومن العمليات التي يقوم بها الدم في الكبد: نزع مجموعة الأمين (NH_2) من الأحماض الأمينية فينتج عن ذلك فضلات نيتروجينية كالتي سبق ذكرها يحملها دم الأوردة إلى الكلى للتخلص منها. كذلك تقوم الكلى وملحقاتها بتحقيق التوازن الكيميائي للجسم، والتخلص من الفضلات الناتجة عن عمليات التمثيل الغذائي، ويلعب الدم الدور الرئيسي في ذلك.

وانطلاقاً مما سبق نرى أن الدم المسفوح بمكوناته الأساسية، وبما يحمله من نواتج عملية التمثيل الغذائي ومن عوادم وفضلات متجمعة فيه إذا حبس بداخل جسم الحيوان

الميت، أي: الذي لم يذك بالذبح الشرعي فإنه سرعان ما يبدأ في التجلط على ما فيه من سموم كانت في طريقها إلى الأجهزة المختلفة التي تخلص الجسم منها، ثم في التحلل والتعفن مما ينتج كمًّا من السموم المعقدة، والمركبات الكيميائية الأخرى الضارة بصحة الإنسان؛ فإذا أضفنا إلى ذلك أن الدم عادة ما يحمل كمًّا آخر من الفيروسات والجراثيم والطفيليات، وما تفرزه من سموم ونفايات علمنا أن الدم هو حامل فضلات الجسم وجراثيمه وطفيلياته، ومن هنا كانت الحكمة الإلٰهية في تحريم أكل الدم المسفوح كغذاء. أما أكل كل من الكبد والطحال من الحيوان المذكى فهو حلال وذلك لقول رسول الله ﷺ:

«أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»[1].

ثالثاً: في تحريم أكل لحم الخنزير وشحمه:

الخنزير وصفه القرآن الكريم في أكثر من مقام بأنه رجس، (البقره: 173؛ المائده: 3؛ الأنعام: 145؛ والنحل: 115) وهذه كلمة جامعة لكل معاني القذارة والقبح، والنجاسة، والإثم، وذلك لأن الخنزير حيوان كسول، جشع، قذر، رمام، يأكل النبات والحيوان والجيف، والقمامة، كما يأكل فضلاته هو وفضلات غيره من الحيوانات، وهذا من أسباب قيامه بدور كبير في نقل العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان.

والخنزير من الحيوانات الثديية السرية (Placental Mammals) ذات الحافر المشقوق الذي يحمل عدداً زوجياً من الأصابع (أربعة أصابع في حالة الخنازير) ولذلك تعرف باسم الحافريات زوجية الأصابع (Even-Toed Ungulates = Artiodactyla)وهذه الحافريات زوجية الأصابع قد عمرت الأرض خلال خمسين مليون سنة قبل الوقت الحاضر أي: من بدايات عهد فجر الحياة الحديثة إلى اليوم (Early Eocene- Holocene).

والخنازير تنفصل عن بقية هذه المجموعة بكونها رمامة وغير مجترة.

وتضم الخنازير عدداً من الأنواع البرية والمستأنسة والتي تجمع كلها في عائلة واحدة تعرف باسم عائلة الخنازير (Family Suidae)، ويسمى الذكر منها باسم العفر (Boar)،

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأطعمة (الحديث: 3314)، والإمام أحمد في مسنده والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً وموقوفاً.

وتسمى الأنثى باسم الخنزيرة (Sow) وهي من النوع الولود. والخنزير المخصي يعرف باسم الحلوف (Hog)، ويستعار اللفظ وصفاً لكل قذر، شره، أناني من البشر، وتستخدم لفظة (Swine) للتعبير عن الخنزير بصفة عامة سواء كان ذكراً أو أنثى، مخصياً أو غير مخصي، مستأنساً أو غير مستأنس وتستعار كذلك لكل حقير النفس، بخيل اليد، قذر المظهر والملبس، متَّصف بأحقر الصفات، أو للمرأة الساقطة المجردة من كل فضيلة.

والخنزير حيوان كريه المنظر، ضخم الجثة، كتلي الشكل، مكتنز اللحم، قصير الأرجل، له جلد سميك، عليه شعر خشن، وله بوز طويل وأنياب قوية، تم استئناسه منذ حوالي11000 سنة مضت، ويعرف منه اليوم أكثر من أربعمائة سلالة.

ونظراً لطبيعته الرمامة، وقذارته الواضحة، وأكله كلاً من النباتات واللحوم والجيف والنفايات وغير ذلك من المستقذرات فإن الخنزير معرض للإصابة بالعديد من الأمراض من أمثال حمرة الخنازير (Swine Erysipelas) التي تتسبب فيها أنواع خاصة من البكتيريا وتنتقل إلى الإنسان، وحمى الخنازير (Swine Fever) وتعرف أحياناً باسم كوليرا الحلاليف (Hog cholera) ويتسبب في هذا المرض فيروس خاص يوجد في الجيف، ومن مثل مرض



حويصلات الخنازير (Swine Vesicular Disease) وهو يشبه مرض الحمى القلاعية (Foot and Mouth Disease) ويمكن انتقاله إلى الإنسان عن طريق أكل لحوم الخنزير ودهونه، ومن مسبباته فيروسات القمامة والجيف والجراثيم المصاحبة لها. هذا بالإضافة إلى العديد من المواد المسببة للسرطان والطفيليات والجراثيم التي تعشش في لحم الخنزير وبعضها يتسبب في أمراض معدية للإنسان وقاتلة له في كثير من الأحيان وذلك لعدم وجود طريقة للتخلص منها على الإطلاق. ومن أخطر مسببات الأمراض في الخنزير ما يلي:

1 ـ **ديدان التريخينا Trichina Worms**: وهي من الديدان الأسطوانية (Nematoda = Round Worms) من أمثال الدودة الشعرية الحلزونية **(Trichinella spiralis)** وهي من أخطر الطفيليات على الإنسان وتتسبب في أمراض روماتيزمية عديدة والتهابات عضلية مؤلمة تؤدي إلى انتفاخ الأنسجة العضلية وتصلبها وتعرف باسم **داء الشعرينات (Trichinellosis)** الذي ينتج عن انتشار يرقات هذه الدودة في عضلات الجسم مما قد يؤدي إلى إقعاد المريض إقعاداً كاملاً ومعاناته من الآلام المبرحة حتى وفاته بعد أن يصاب بالتهاب المخ والنخاع الشوكي والسحايا المحيطة بهما، وبالعديد من الأمراض العصبية والعقلية المترتبة على ذلك. ويصاب حالياً بهذا المرض نحو 47 مليون شخص في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، ونسبة الوفاة بين المصابين به تبلغ نحو 30٪، والخنزير هو المصدر الوحيد لإصابة الإنسان بهذا المرض الخطير.

2 ـ **الدودة الشريطية الوحيدة للخنزير (Pork Tape Worm = Taenia Solium)**: وتتسبب في العديد من الأمراض للإنسان من مثل فقر الدم، واضطرابات الجهاز الهضمي، والمغص، والإسهال، والقيء، والاكتئاب الشديد، والسوداوية، وقد يصل ذلك إلى النوبات الصرعية، والتشنجات العصبية الشديدة. وأخطر ما في هذه الدودة هو دخول يرقاتها إلى مجرى الدم الذي قد يحملها إلى أحد الأعضاء الحيوية في الجسم من مثل المخ، القلب، الكبد، الرئتين أو الحبل العصبي المركزي حيث تنمو وتتحوصل محدثة ضغوطاً كبيرة على الأنظمة من حولها ومسببة عدداً من الأمراض الخطيرة التي تنتهي بوفاة المريض بعد معاناة طويلة.

3 ـ **الديدان الحلقية (Round Worms)**: من مثل دودة الأسكارس (Ascaris)، والديدان

الخطافية (Hook Worms)، والديدان المنشقة اليابانية (Schistosoma japonicum) والتي تؤدي إلى نزيف دموي حاد، يعقبه فقر دم، وإذا وصلت بويضاتها إلى أيٍّ من المخ أو العمود الفقري فإنها تسبب شللاً كاملاً ثم الوفاة. هذا بالإضافة إلى سلسلة طويلة من الديدان والجراثيم والبكتيريا التي تدمر جسد الإنسان تدميراً كاملاً منها التهاب القصبة الهوائية، والسل، والكوليرا، والتيفوئيد، ونزيف الرئتين، وتضخّم الكبد، وتعفن الأقدام، وداء البروسيللات (Brucellosis)، والحمرة (Erysipelas) والأمراض الثلاثة الأخيرة تنقلها بكتيريا الجيف والقاذورات التي تتغذّى عليها الخنازير.

4 ـ **الحيوان الأولي الهدبي المعروف باسم القربية القولونية (Balantidium coli)**: الذي يسبب مرض الزحار الشديد وبعض أمراض عضلة القلب ومصدره الوحيد للإنسان هو الخنزير، وهو مرض معدي ينتشر بين كل من له علاقة بتربية الخنزير أو ذبحه وسلخه.

5 ـ **الديدان المفلطحة (المثقُوبيات أو الوشائع)**: ومنها ما يصيب الأمعاء، أو المعدة، أو الرئة، أو الكبد، ويعمل الخنزير على نشر هذه الديدان في البيئة وعلى نقلها لمن يأكل لحمه من بني الإنسان.

هذا بالإضافة إلى أن لحم الخنزير صعب الهضم لاحتوائه على نسبة من الدهون أعلى من لحم أي حيوان آخر، وكذلك فإن دهن الخنزير عالي التشبع بدرجة تفوق درجة تشبع أي دهن حيواني آخر، ولذلك يصاب آكلوه بأمراض حصى المرارة، وانسداد قنواتها وبتصلب الشرايين، وبالعديد من أمراض القلب والدورة الدموية.

ودهون الخنزير عالية التشبع لا تقوى عصارة البنكرياس في الإنسان على تحويلها إلى مستحلبات دهنية قابلة للامتصاص، ولذلك فهي تبقى على حالتها وتترسب في جسم الإنسان على هيئتها الخنزيرية الضارة ضرراً بليغاً بجسم الإنسان. ومعظم الفقهاء المسلمون يعتبر لفظة لحم الخنزير شاملة كلّاً من لحمه ودهنه.

ولحم الخنزير يفسد بسرعة عن أي لحم آخر، وله رائحة كريهة، ومن عجائب وساوس الشيطان أنه لم يكتف بإغراء غير المسلمين بأكل لحم الخنزير على دنسه، وامتلائه بمسببات الأمراض، بل أغراهم بأكل دمه ودهنه فيما يعرف باسم النقانق السوداء (Black Sausages) وهي

عبارة عن أمعاء الخنزير المملوءة بدمه ودهنه حتى تجمع بين أكثر من مُحَرَّمٍ واحد. وقد ثبت أن لحم الخنزير يحتوي العديد من المواد المسرطنة ومنها المواد المسماة (Nieper وEnderlein)، وإن كثيراً من المواد الحافظة للحم الخنزير والملونة له والمعطية النكهات الخاصة به مثل المركبات النيتروجينية (Nitrites and Nitrates) والبنزولية (Benzol) تتحوَّل في أبدان آكلي هذا اللحم النجس إلى مركبات معقدة تعتبر من أشد العوامل المسرطنة المعروفة. وعلى ذلك فقد ثبت أن كلاً من لحم الخنزير ودهنه ودمه يساعد على انتشار أنواع عديدة من الأمراض السرطانية من مثل سرطان كلٍّ من القولون، والمستقيم، والبروستات والبنكرياس والمرارة، والرحم، والثدي، وإلى العديد من أمراض الحساسية المختلفة، وقرح الجهاز الهضمي، وقرح الساق المزمنة، والتهاب كل من الزائدة الدودية والمرارة، وتليف الكبد، والتهاب كل من الدماغ وعضلة القلب، وأغلب ذلك من الأمراض الفيروسية التي يلعب الخنزير دوراً رئيسياً في نقلها للإنسان.

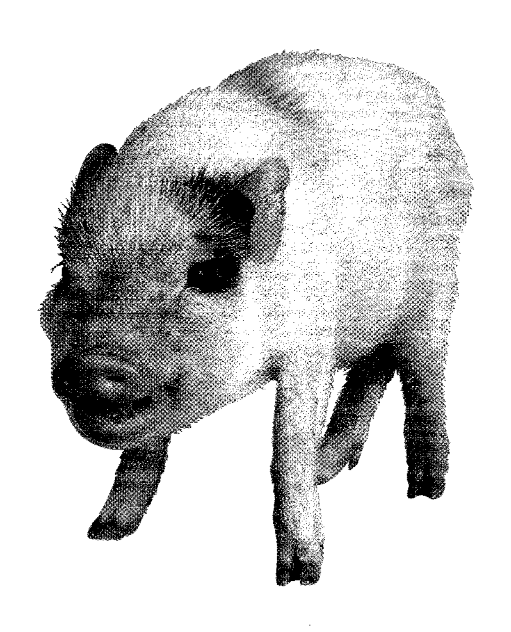
أما أهم الأمراض البكتيرية التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان فتشمل الحمى المالطية، السالمونيللا، الجمرة الخبيثة، الدرن، الدرن الكاذب، والدوسنتاريا (الزحار).

وأغلب هذه الفيروسات، والبكتيريا، والطفيليات التي تتكدس في جسم الخنزير لا يمكن القضاء عليها بمجرد طهو لحمه أو إدخاله في النار.

رابعاً: في تحريم أكل ما أهلَّ لغير الله به:

كان أهل الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى أصنامهم سموا عليها أسماءها، ورفعوا بها أصواتهم، وسمي ذلك إهلالاً، ثم توسع في الإهلال فقيل لكل ذابح: مهل، سواء أهل به أو لم يهل، وسمى أو لم يسم، جهر بالتسمية أو لم يجهر، لأن الأصل في الإهلال هو رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت عند فجائية ظهور أي شيء، ثم أصبح مطلقاً، وعلى ذلك فإن المفهوم من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾ أي ما ذبح لغير الله.

وقد أكد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في الآية الكريمة التي نحن بصددها وفي أماكن أخرى من القرآن الكريم أهمية ذكر اسم الله على كل ذبيحة من ذبائح المسلمين وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:



1 ـ ﴿... وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ «سورة المائدة، الآية: 4».

2 ـ ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ * وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ *﴾ «سورة الأنعام، الآيتان: 118، 119».

3 ـ ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ «سورة الحج، الآية: 36».

وفي بحث مختبري منهجي أثبت عشرون من كبار علماء الطب والطب البيطري والصيدلة والعلوم في الجامعات السورية أن التسمية والتكبير عند ذبح الحيوان تعمل عملية تعقيم كامل لبدنه وتطهره من الدماء والجراثيم، بعكس الذبائح التي لا يذكر اسم الله عليها.

وفي ذلك ذكر الأخ الكريم الدكتور خالد حلاوة المتحدث باسم فريق البحث أن التجارب المختبرية المكررة على مدى ثلاث سنوات أثبتت مجهرياً أن نسيج اللحم المذبوح بدون تسمية وتكبير كان محتقناً بشيء من بقايا الدم، ومصاباً بمستعمرات عدد من

الجراثيم من مثل المكورات العنقودية والعقدية والعصيات القولونية وغيرها، بينما جاء اللحم المسمى عليه (باسم الله، الله أكبر) زكياً طاهراً، خالياً تماماً من الدماء والجراثيم.

وفسر ذلك الأخ الكريم الدكتور فؤاد نعمة الأستاذ بكلية الطب البيطري بجامعة دمشق بأنه لوحظ شدة اختلاج أعضاء وعضلات الحيوان الذي يذكر عليه اسم الله عند ذبحه، وإن شدة الاختلاج هذه هي التي تقوم باعتصار معظم دم الذبيحة، وبذلك تطهر وتزكو، بينما لا يحدث ذلك في حالات عدم التسمية والتكبير، وإن كانت التذكية بمعنى إراقة الدم المسفوح تخلص بدن الحيوان من معظم هذا السائل القابل للتعفن ومن معظم ما به من جراثيم.

وقد فصَّل الأخ الكريم الدكتور نبيل الشريف العميد السابق لكلية الصيدلة بجامعة دمشق الخطوات المنهجية للبحث حتى توصل إلى هذه النتيجة التي تفوق كل وصف.

من هذا الاستعراض الموجز يتضح لنا بجلاء حكمة تحريم أكل كلٍّ من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، ولو لم يرد في القرآن الكريم غير هذه الحقيقة العلمية لكانت كافية للشهادة على أنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ، وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بذلك الحفظ إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وحقائق القرآن الكريم تشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقى القرآن المبين بأنه كان موصولاً بالوحي ومعلّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وسبحان الله القائل:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ *﴾

«سورة يونس، الآيات: 37 ـ 39».



حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ

بِهِ **وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ**

السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ

ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ

وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ

غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا

أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿...وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ...﴾ «سورة المائدة، الآية: 3».

22

هذا النص القرآني المعجز جاء في مطلع سورة «المائدة»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها (120) بعد البسملة، وهي من طوال سور القرآن الكريم، ومن أواخرها نزولاً، وسميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى المائدة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ من السماء كرامة لعبده ورسوله: المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول التشريع بعدد من الأحكام اللازمة لإقامة دولة الإسلام، ولتنظيم المجتمع فيها على مختلف المستويات تنظيماً ينطلق من ركائز العقيدة الإسلامية القائمة على توحيد الخالق سبحانه وتعالى، ومراقبته في السر والعلن، والاستعداد لملاقاته بعد هذه الحياة الدنيا بصفحة مليئة بصالح الأعمال علها تكسب مرضاته، والفوز بالجنة، والنجاة من النار. وكان أول بنود هذا التشريع الإسلامي هو عقد الإيمان بالله رباً واحداً أحداً، وبالإسلام ديناً خالصاً، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وكان هذا العقد هو القاعدة التي تقوم عليها سائر العقود في حياة المسلمين، أفراداً وجماعات، ومن هنا نصت سورة «المائدة» على الوفاء بالعقود.

ويتخلل آيات التشريع في هذه السورة المباركة التأكيد على توحيد الله توحيداً كاملاً خالصاً مطلقاً لذاته العلية ـ بغير شريك، ولاشبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد ـ، واستعراض بعض قصص الأولين، وتفنيد عقائد الكفار والمشركين، والدعوة إلى الإيمان ببعثة النبي والرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، وذلك يتكرر عدة مرات لعله أن يستجيش ضمائرهم، مثل قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ «سورة المائدة، الآية: 19».

وتعرج سورة «المائدة» إلى التذكير بيوم القيامة الذي سوف تبعث فيه الخلائق للحساب والجزاء، ومن بعده تساق إلى الخلود إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً، كما تعرج إلى ذكر عدد من المعجزات التي أيد الله سبحانه وتعالى بها عبده ورسوله: المسيح عيسى ابن مريم، ومنها إنزال المائدة التي طلبها أتباعه من السماء، وسميت باسمها هذه السورة المباركة التي ختمت بتبرئته وأمه عليهما السلام من دعاوى الألوهية التي افتُرِيَ عليهما بها، وما كان لأيٍّ منهما أن يدعيها مع اعترافهما بالعبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى وحده.

من التشريعات الإسلامية في سورة «المائدة»:

1 ـ الأمر بالوفاء بالعقود، أي العهود المؤكدة بين العباد وخالقهم، وبينهم وبعضهم البعض. ومن العقود المبرمة بين العباد وخالقهم ـ والعباد بعد في عالم الذر ـ: الإيمان بربوبيته سبحانه وتعالى.

2 ـ تأكيد ضرورة الحكم بما أنزل الله ـ تعالى ـ، ومن ذلك أحكام القصاص، والردة، والحنث في اليمين، وتأكيد قضية الولاء والبراء، والأمر بالعدل في القضاء، وبتقوى الله سبحانه وتعالى في السر والعلن، وبالتوكل عليه حق التوكل، وبعدم خشية غيره، وبطاعة الله ورسوله، وبالحرص على عمل الصالحات ومن ذلك الإحسان إلى الخلق.

3 ـ الأمر بالمحافظة على حرمات الدين وشعائره من مثل حرمة الكعبة المشرفة، وحرمة كلٍّ من الحج ومناسكه، والأشهر الحرم، وما يهدى إلى البيت الحرام، وما يقلد به الهدي، وحرمة قاصدي البيت الحرام من الحجاج والمعتمرين، وأمنهم وسلامتهم.

4 ـ الأمر بالتعاون على البر والتقوى، ومن ذلك حسن الخلق وفعل الطاعات، والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان، ومنه فعل المنكرات والمنهيات ومجاوزة حدود الله ـ تعالى ـ.

5 ـ الأمر بالجهاد في سبيل الله، طلباً لمرضاته سبحانه وتعالى.

6 ـ تحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وتحديد عقوبة القتل.

7 ـ تحريم قطع الطريق والاعتداء على الخلق، وتحديد عقوبة ذلك.

8 ـ تحريم السرقة، وأكل السحت بمختلف أشكاله وألوانه ومنه الرشوة، والربا، والغش في التجارة، وتطفيف الموازين والمكاييل، وعدم الأمانة في الصنعة والعمل، وتحديد عقوبة كل واحدة من تلك الأعمال السيئة والخاطئة.

9 ـ تحليل أكل لحوم الأنعام وشرب ألبانها، ومن الأنعام كلٌّ من الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، وما يماثلها من الثدييات اللبونة المجترة والمقتصرة على أكل الأعشاب كالظباء، والغزلان، والزراف، وبقر الوحش، وأشباهها.

10 ـ تحريم أكل كلٍّ من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع ـ إلا ما أُدْرِكَ ذكاؤه من الأصناف الخمسة الأخيرة أي إتمام ذبحه قبل أن يموت)، وما ذبح على النصب، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

11 ـ تحريم الصيد على المحرم وكفارة ذلك، وهذا التحريم يشمل مجرد الانتفاع بالصيد سواء كان المحرم في الحل أو في الحرم، ويقع في حكم المحرم من كان مقيماً في الحرم وليس محرماً.

12 ـ تحريم كلٍّ من الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، واعتبارها رجساً من عمل الشيطان يجب على المسلم اجتنابه. والاستقسام بالأزلام يشمل كل محاولة لاستشراف الغيب بواسطة القداح، وهي سهام كانت لدى أهل الجاهلية، وذلك من مثل قراءة الطالع، أو الكف، أو الفنجان، أو فتح أوراق اللعب، وغيرها من وسائل الدجل والنصب المتعددة.

13 ـ لا يجوز للمسلم أن يخشى غير الله أبداً، خاصة أهل الكفر والشرك لأنهم أضعف من الضعف لوقوعهم في معاصي الله، ولذلك فالله لا يرضى عنهم أبداً، ويرضى عن المسلمين الذين أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة، ورضي لهم الإسلام ديناً. ومن كان في جوار الله كان الله في جواره، ولا يقوى على مواجهة الله أحد من خلقه، بل لا يقوى على ذلك كل خلقه مجتمعين.

14 ـ تحليل طعام أهل الكتاب، وتحليل ذبائحهم إذا ذكروا اسم الله ـ تعالى ـ عليها أثناء الذبح.

15 ـ تحليل صيد البحر وطعامه، وصيد البر المباح بعد ذكر اسم الله على وسيلة الصيد من الجوارح قبل إطلاقها.

16 ـ تحليل زواج المحصنات من المؤمنات؛ أي: العفيفات المترفِّعات عن الرذائل، وزواج المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، بعد دفع مهورهن، ومع عدم الاختلاء بهن قبل الزواج.

17 ـ تفصيل أحكام الطهارة في جميع الحالات.

18 ـ تفصيل أحكام الوصية.

19 ـ الحكم بأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾«سورة المائدة، الآية: 32».

20 ـ الحكم بأن حزب الله هم الغالبون و﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «سورة المائدة، الآية: 36».

من ركائز العقيدة في سورة «المائدة»:

1 ـ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبأن إلى الله المصير، وتحريم الشرك بالله تحريماً قاطعاً لقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

«سورة المائدة، الآية: 72».

2 ـ الإيمان ببعثة الرسول الخاتم ﷺ الذي أكمل الله سبحانه وتعالى ببعثه الدين، وأتم النعمة بتعهده ـ جل شأنه ـ بحفظ القرآن الكريم، وبرضاه لعباده الإسلام ديناً.

3 ـ اليقين بأن الرسالة الخاتمة جاءت لتبين لأهل الكتاب كثيراً مما اختلفوا فيه.

4 ـ اليقين بأن الشرك يساوي الكفر بالله وكلاهما من الكبائر.

5 ـ الإيمان بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء الذين بعثهم الله ﷻ جميعاً برسالة واحدة هي الإسلام الذي دعا إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله سبحانه وتعالى منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، كما دعى إلى الالتزام بمكارم الأخلاق، وإلى حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وإلى الاتباع في الدين وعدم الابتداع فيه.

6 ـ اليقين الجازم بأن المسيح عيسى ابن مريم هو عبد الله ورسوله، وأنه قد خلت من قبله الرسل، وأن أمه صديقة، وأنهما كانا يأكلان الطعام، وأنه بشّر بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وإن الإيمان بالمعجزات التي أجراها الله ـ تعالى ـ له وعلى يديه كما رواها القرآن الكريم هو جزء لا يتجزأ من إيمان المسلمين، وأن الفضل فيها يعود لله ﷻ وحده.

7 ـ التسليم بالحقيقة القرآنية التي مؤداها أن اليهود قد زيفوا رسالة الله إليهم، وأنهم سمّاعون للكذب، أكّالون للسحت، مسارعون في الإثم والعدوان، ولذلك وصفهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ «سورة المائدة، الآية: 82»

وأن في طبيعة اليهود من غلظة القلوب، وقسوتها، وأمراض النفوس وعداوتها لكل ما هو ليس بيهودي، ما يبرر لهم الجور على الآخرين وظلمهم ما داموا قادرين عليهم، والخضوع والتزلف والتملق والتزيف لهم حتى يغدروا بهم إذا كانوا أضعف منهم، وتاريخهم الأسود يؤكد ذلك.

وصدق الله العظيم الذي يصفهم بقوله الحق:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

«سورة المائدة، الآية: 60».

وقوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ *﴾ «سورة المائدة، الآيتان: 78، 79».

8 ـ الإيمان بأنه ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ «سورة المائدة، الآية: 32».

9 ـ الإيمان بأن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ «سورة المائدة، الآية: 36».

من الإشارات العلمية في سورة «المائدة»:

1 ـ تحريم أكل كلٍّ من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع إلا ما تمت تذكيته من الأنواع الخمسة الأخيرة قبل وفاته، وتحريم ما ذبح على النصب، والتجارب المختبرية والسريرية تؤكد أخطار تناول كل هذه الأطعمة المُحَرَّمة.

2 ـ التأكيد على البينية الفاصلة بين الأرض والسمٰوات، والعلوم المكتسبة قد بدأت في إدراك تلك الحقيقة مع تبين أن الغلاف الغازي للأرض هو خليط بين مادتي الأرض والسماء وليس خالصاً لأي منهما.

3 ـ تأكيد حقيقة تحريف اليهود لكتابهم، وأنهم سمّاعون للكذب أكّالون للسحت، يسارعون في الإثم، والعدوان، وأنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، والأحداث الراهنة تؤكد حقيقة ذلك وتدعمه.

4 ـ تحريم كلٍّ من الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، والدراسات العلمية والإنسانية تؤكد حتمية ذلك التحريم من أجل سلامة وأمن كل من الإنسان ومجتمعه.

5 ـ تأكيد كرامة الكعبة المشرفة. والبحوث العلمية تؤكد تميز موقعها، وتفرده بالعديد من الشواهد الحسية التي تشهد بتلك الكرامة.

6 ـ اختيار الغراب دون غيره من الطيور لتعليم قابيل بن آدم كيف يواري سوءة أخيه بعد أن قتله، والدراسات في علم سلوك الحيوان تثبت أن الغراب هو أذكى الطيور على الإطلاق.

7 ـ الإشارة إلى الحقيقة التي عبَّر عنها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ وواقع الحال يؤكِّد ذلك في ظل الفساد الذي ظهر في البر والبحر، وفي ظل كل المظالم السياسية والاجتماعية التي تجتاح الأرض وبحار الدماء والخراب والدمار التي تغرق كثيراً من بلاد المسلمين اليوم من أمثال فلسطين وبلاد البلقان، والعراق وأفغانستان، وبلاد الشيشان وكشمير وأراكان، وجنوب كل من الفلبين والسودان، وغيرها مما يؤكد فسق الغالبية العظمى من أهل الأرض، واستحقاقهم لغضب الله وعقابه، وفي ظل دعاوى الفساد من كل صنف وضرب، من مثل الانتكاس بالإنسانية إلى وحل الشذوذ الجنسي والتشريع له وإباحة زواج الشواذ وتوارثهم، والسماح لهم بتبني الأطفال، في ظل هذا الانحلال البشري والتشجيع عليه من قبل القادة السياسيين الدول الغربية ورؤساء الكنائس والمعابد فيها.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على الجزء الأخير من النقطة الأولى في القائمة السابقة وهو ما جاء في الآية الثالثة من سورة المائدة، ولكن قبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لما قاله عدد من المفسرين في شرح هذا النص القرآني الكريم.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ «سورة المائدة، الآية: 3».

- ذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما مختصره: «... وأما المنخنقة: وهي التي تموت خنقاً، والموقوذة: وهي التي تضرب بعصا أو خشبة أو حجر فتموت، والمتردية: وهي التي تتردى من سطح أو جبل أو تتردى في بئر فتموت، والنطيحة: وهي التي تنطحها بهيمة فتموت، وما أكل السبع: وهي الفريسة لأي من الوحوش،... فهي كلها أنواع من الميتة إذا لم تدرك بالذبح وفيها الروح: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ فحكمها هو حكم الميتة...، وأما ما ذبح على النصب وهي أصنام كانت في الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة في الجاهلية،

ومثلها غيرها في أي مكان، فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام حتى لو ذكر اسم الله عليه، لما فيه من معنى الشرك بالله».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه مع اختلاف في تعريف (النصب) بأنها كانت أحجاراً منصوبة حول الكعبة، وكان الجاهليون يذبحون عليها ويعظمونها ويلطخونها بالدماء، وهي غير الأصنام، إنما الأصنام هي الأحجار المصورة المنقوشة.

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

أولاً: في حكمة التحريم:

سبق لنا أن ناقشنا حكمة تحريم كل من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، ونناقش هنا الحكمة من تحريم بقية المحرمات العشر المذكورة في الآية الثالثة من سورة المائدة وهي: المنخنقة؛ أي: البهيمة التي ماتت خنقاً، والموقوذة، أي: البهيمة التي ضربت بمثقل غير محدد حتى تموت، والمتردية؛ أي: البهيمة التي تسقط من علو فتموت من التردي أي الهلاك بالسقوط من عَلٍ، والنطيحة؛ أي: البهيمة التي تنطحها أخرى فتموت، وما أكل السبع؛ أي: ما بقي من البهيمة بعد أكل أحد الوحوش المفترسة منها، وقول الله تعالى ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ وهو استثناء من التحريم أي: إلا ما أدركتم ذكاته من الأنواع الخمسة السابقة وفيه بقية حياة. وأضافت الآية الكريمة إلى قائمة المحرمات: ما ذبح على النصب؛ أي ما ذبح لغير الله. وهذه كلها حكمها حكم الميتة، ولذلك يضيف الفقهاء إليها ما قطع من البهيمة وهي حية فحكمه حكم الميتة، وذلك لقول رسول الله ﷺ: «**ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة**»[1].

وأما ما ذبح على النصب فحكمه هو حكم ما أهلَّ لغير الله به سواء بسواء، فكلاهما ذبح لغير الله ـ تعالى ـ، أو أشرك مع الله سبحانه وتعالى غيره في الإهلال بالذبح فأصبح شركاً صراحاً، والشرك بالله ـ تعالى ـ هو كفر به، وكلاهما من أكبر الكبائر، ومن السبع الموبقات المهلكات.

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: الأطعمة (الحديث: 1480)، وأبو داود في كتاب: الصيد (الحديث: 2858).



وهذه الآية الكريمة كغيرها من آيات التحريم لا تفيد الحصر، فقد حرم رسول الله ﷺ أكل كل ذي مخلب ـ ظفر ـ من الطير وهو ما يعرف باسم الجوارح، وكل ذي ناب من البهائم يسطو به على غيره، وهو ما يعرف باسم اللواحم أو الحيوانات آكلة اللحوم فقط (Carnivorous Animals) من الوحوش المفترسة ـ السباع ـ، ومنها أيضاً آكلات اللحوم والأعشاب معاً (Omnivorous Animals)، وذلك لقول ابن عباس رضي الله عنهما: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»[1].

وحرم رسول الله ﷺ أيضاً أكل (الجلالة) من الطيور والبهائم المباحة، و(الجلالة) هي: الحيوانات التي دأبت على أكل النجاسات والمستقذرات من الأمور، أو التي يفرض عليها من أنواع الطعام غير الذي فطرها الله ـ تعالى ـ عليه من مثل إطعام آكلات الأعشاب بروتينات حيوانية هي غير مهيأة لأكلها كما يفعل أغلب المربين في المجتمعات غير المسلمة وتفعل أحاد من المسلمين الذين انتقلت إليهم عدوى ذلك الانحراف عن الفطرة.

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الصيد والذبائح (الحديث: 4970)، وأبو داود في كتاب: الأطعمة (الحديث: 3803).

وقد أوصى رسول الله ﷺ بحبس الحيوان الجلال، وعلفه بالغذاء الطاهر لفترات تتناسب مع حجمه حتى يزول ما ببدنه من النجاسات، ويعود إلى طهره، وحينئذ يحل أكل لحمه، وشرب لبنه إن كان من الحيوانات اللبونة. ويسن في ذلك حبس الإبل أربعين يوماً مع علفها علفاً طاهراً، وحبس البقر ثلاثين يوماً، وكلٍّ من الضأن والماعز سبعة أيام، والطيور الصغيرة مثل البط والأوز والدجاج ثلاثة أيام كما جاء في الحديث الذي رواه ابن عمر ـ رضي الله تبارك وتعالى عنهما ـ.

وحرم رسول الله ﷺ كذلك لحوم كلٍّ من الحمر الأهلية والبغال، والقردة، كما حرم كل خبيث من الطعام، ولذلك وصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز:

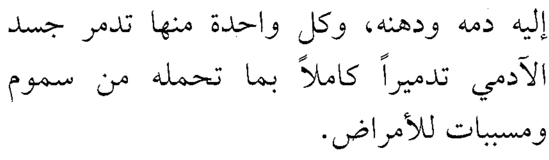
﴿...وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ...﴾ «سورة الأعراف، الآية: 157».

ويدخل في الخبائث كل مستقذر أو ضار أو شاذ من الأمور.

هذا وقد أثبتت الدراسات المختبرية أن لحوم كلٍّ من الجوارح والسباع؛ أي الطيور الجارحة والبهائم المفترسة لها حكم الدم تماماً لكثرة ما تأكل من اللحوم النيئة وهي مليئة بالدماء. ويرى فقهاء المسلمين أن المقصود بالتحريم في الدم هو نجاسته، وفي الميتة هو حبس الدم في اللحم، والبدء في تحللهما أو تعفنهما معاً. أما كل ما عدا اللحم والدم (مثل الجلد، والصوف أو الشعر، والقرون، والأظلاف وغيرها) فهو حلال طاهر يصح الانتفاع به ما لم يطله شيء من لحم الميتة أو دمها.

ومن العجيب أنه تحت دعوى الشفقة بالحيوان فإن جميع المجازر في الدول غير المسلمة، وغير الملتزمة بالقواعد الإسلامية تقوم بصعق الحيوان بالتيار الكهربائي أو بإلقاء إبرة ملتحمة بثقل كبير في مراكز محددة من المخ لإدخاله في دورة من الإغماء قبل ذبحه حتى لا يشعر بألم الذبح، وفي الغالبية الساحقة من هذه الحالات يموت الحيوان قبل أن يذبح، ويتجمد الدم في عروقه بالصعق الكهربائي أو بصدمة إلقاء الإبرة الثقيلة في مخه، وكثيراً ما يغمى على الحيوان فيتردى (المتردية)، أو يصطدم ببعضه البعض (النطيحة) فلا تخرج ذبائح غيرنا عن المحرمات العشر التي نصت عليها الآية الكريمة التي نحن بصددها، وأكَّدتها غير واحدة من آيات القرآن الكريم. وقد بلغت هيمنة الشيطان على غيرنا من أهل الكفر والشرك والضلال على أكل ما يسمى باسم النقانق السوداء أو السجق الأسود (The Black Sausage) وهو عبارة عن أمعاء الخنزير المحشوة بدمه ودهونه، وكأنهم لم يكتفوا بمصيبة واحدة وهي لحم الخنزير فأضافوا

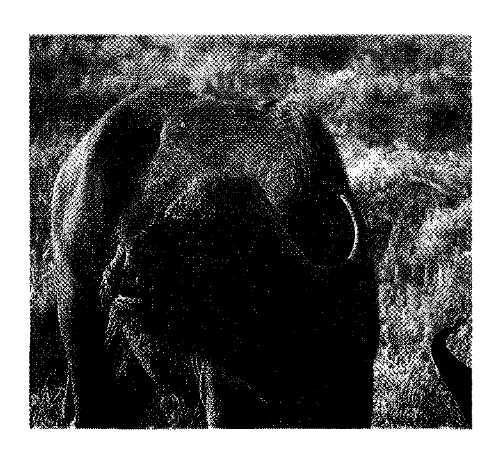




إليه دمه ودهنه، وكل واحدة منها تدمر جسد الآدمي تدميراً كاملاً بما تحمله من سموم ومسببات للأمراض.

ويدّعي مسؤولو المجلس الاستشاري البريطاني لرعاية المزارع الحيوانية (The British Farm Welfare Advisory Council) أن طريقة الذبح الإسلامية بقطع عنق الحيوان بسكين حاد وذلك لتخليص جسده من دمه تؤدِّي إلى شيء من تعذيب الحيوان، وهي في الحقيقة أرحم من عمليات الصعق أو الوقذ؛ أي القذف بوزن ثقيل في رأسه التي يقومون بها، وذلك لأنه بمجرد انقطاع تدفق الدم إلى المخ فإن الحيوان لا يشعر بأية آلام على الإطلاق، وفي ذلك من الرأفة بالذبيحة ما لا يتوفر أبداً في عمليات الصعق الكهربائي أو الوقذ التي يستخدمها غيرنا، وفي هذه الطريقة الأخيرة من الغياب عن الوعي ما يمكن أن يقتل الحيوان فوراً، أو يرديه أرضاً مما يؤدي إلى قتله أو إلى اصطدامه بغيره على هيئة النطيحة، وفيها أيضاً من تعذيب الحيوان ما لا يمكن أن يوصف بكلمات إذا لم تصب القذيفة الموضع المحدد في رأسه، بينما بمجرد قطع الأوردة والشرايين الرئيسية بالعنق في عملية النحر الإسلامي يتوقف وصول الدم إلى المخ فيغيب الحيوان عن الوعي في جزء من الثانية، ويصفى دمه في حوالي دقيقتين.





ثانياً: الذي يستذله الشيطان يزين له أكل الخبائث:

بتاريخ 18/ 7/ 2000م وضعت على شبكة المعلومات الدولية (المعروفة باسم الشبكة العنكبوتية) استغاثة من إحدى المنظمات الأمريكية تحمل اسم «المدافعون الدوليون عن حرية الصحة» تطلب من كل الناس **استنكار إباحة بعض الإدارات الأمريكية بيع لحوم الحيوانات المريضة للمستهلكين في الأسواق المحلية والعالمية. وذكرت هذه الاستغاثة أن هناك مشروع قانون أمام هذه الإدارات يخول مفتشي اللحوم بإباحة بيع الذبائح المصابة بأمراض مثل السرطان والأورام المختلفة، والقروح المتعددة للمستهلكين في داخل الولايات المتحدة وخارجها وذلك بعد إزالة الأجزاء المصابة منها وختمها بأختام تشهد بصلاحيتها لاستهلاك الآدميين وإنزالها إلى أسواق المستهلكين المحلية والعالمية.**

وأضافت الاستغاثة بأنهم هناك مقبلون على برنامج مذبحة عامة للأمريكيين ولغيرهم من أبناء الدول المستوردة للحوم الأمريكية، ويقول كاتبو الاستغاثة: نحن نرى هذه المذبحة بأعيننا ونرجو من كل من يقرأ استغاثتنا بذل الطاقة لإيقاف هذه الجريمة المقززة للأبدان...!!

وعلى الرغم من ذلك فإن الأسواق العربية لا تزال مفتوحة على مصاريعها للحوم الأمريكية المصنعة وغير المصنعة، على الرغم من الأمراض المتفشية في الحيوانات المرباة عندهم من مثل: أمراض الحمى القلاعية (Foot and Mouth Disease)، وحمى ضيق التنفس (SARS)، وجنون البقر الذي يهاجم مخ الحيوان فيدمره تدميراً بتحويله إلى حالة إسفنجية مخربة (Mad Cow Disease = Bovine Spongiform Encephalopathy or B.S.E.) وهو مرض مميت يصيب الجهاز العصبي المركزي ويتسبب في موت الخلايا الدماغية ويعرفه الأطباء البيطريون باسم مرض الرجفة أو الدماغ الإسفنجي (SCARIE)، وقد ثبت أن هذا المرض ينتقل إلى آكلي لحوم وشاربي ألبان تلك الحيوانات المصابة بهذا المرض الخطير من بني الإنسان، فيدمر الجهاز العصبي المركزي عندهم فيما يعرف باسم مرض كرتزفلد - جاكوب (Creutzfeldt-Jakob Disease) باسم الطبيبين اللذان وصفا أعراضه.

وقد انتشر هذا المرض في العديد من الدول الغربية بسبب استخدام البروتينات الحيوانية في تغذية كلٍّ من الماشية والأغنام والدواجن وهي حيوانات فطرها الله ﷻ على أكل الأعشاب والخضراوات والحبوب (Herbivorous)، ومخالفة الفطرة ولدت فيروسات غير

عادية عند هذه الحيوانات العشبية تقاوم جميع المضادات الحيوية المعروفة، كما تقاوم التسخين إلى درجات الحرارة العالية، ولم يتمكن العلماء من رؤية هذا الميكروب حتى باستخدام المجاهر الإليكترونية والتي يصل تكبيرها إلى مليون ضعف الجسم المفحوص. ولم يمكن تتبع هذا الفيروس الخطير أيضاً عن طريق استخدام الجسيمات المضادة وذلك بسبب أنه لا يثير أية جسيمات مضادة في الأبدان التي يصيبها، وهذه الحقيقة تشهد لحديث رسول الله ﷺ في تحريم أكل لحم الجلالة وشرب ألبانها بالإعجاز العلمي. وقد زاد بعض فقهاء المسلمين القول بتحريم ركوب الجلالة حتى تطهر خشية أن يتعرض راكبها للتلوث بنجاسة عرقها ونتنه، وهذا من منازل الطهارة في الإسلام العظيم.

والذي يأكل لحماً أو لبناً مصاباً بجنون البقر فإن المرض ينتقل إليه على هيئة مرض كرتزفلد ـ جاكوب أو أشباهه، وفيه يهاجم فيروس المرض الجهاز العصبي للإنسان خاصة المخ والحبل الشوكي والغدة النخامية وبعض أجزاء أعصاب العين، كما يهاجم الأنسجة الضامة، والطحال، واللوزتين، والزائدة الدودية في النساء الحوامل ولا يكاد المصاب أن يحيا لسنة واحدة بعد ظهور أعراض المرض عليه، لأن الفيروس الموجود على هيئة بروتينات غير سوية تدعى البريونات (Prions) يهاجم المخ وينخره بثقوب ميكروسكوبية عديدة تحيله إلى ما يشبه قطعة الإسفنج.

ومن أخطار مرض كرتزفلد ـ جاكوب وأشباهه أن الفترة بين الإصابة بفيروس المرض وظهور أعراضه قد تطول إلى ما بين العشر والخمس عشرة سنة أو إلى أكثر من ذلك، ويمكن للمرض أن ينتقل إلى الأصحاء عن طريق تلوث الأجهزة الطبية أو عن طريق نقل الأعضاء، أو نقل الدم، أو بتناول اللحم المصاب.

ومن أعراض أشباه مرض جاكوب (Variant CJD) شعور المصاب بعدد من الأعراض النفسية مثل القلق الشديد (Anxiety)، والاكتئاب (Depression)، والميل إلى العزلة والانسحاب من المجتمعات، وغير ذلك من الاضطرابات السلوكية المختلفة، ثم يتطور المرض إلى سلسلة من الآلام المبرحة في الوجه والأطراف، وشعور غريب في مختلف أجزاء الجسم، ثم يتحول المرض إلى خلل في التحكم بأجهزة الحركة، فيأتي المريض بعدد من التقلصات الشديدة والحركات غير الإرادية، ثم يبدأ الفيروس في مهاجمة المخ حتى يفقد المريض ذاكرته، وتأخذ حالته الصحية في التردي حتى الوفاة. والطريقة الوحيدة

لتشخيص هذا المرض وأشباهه بدقة هو بأخذ عينة من نسيج المخ بعملية جراحية أو في أثناء تشريح الجثة بعد الوفاة لمعرفة أسبابها.

ونظراً لتركز المرض في الجهاز العصبي للحيوان المصاب فإن أجهزة صحة الحيوان تمنع بيع كل من رؤوس الحيوانات وأمخاخها، والمجموعات العصبية المتصلة بالمخ، مثل الحبل الشوكي والأعصاب المرتبطة به، والعيون، اللوزتين وذلك لجميع أنواع الماشية التي تبلغ من العمر ثلاثين شهراً فما فوق ذلك.

من هذا الاستعراض السريع تتَّضح الحكمة من تحريم لحوم الذبائح التي تدخل في نطاق المحرمات التي أوردتها الآية الثالثة من سورة «المائدة»، وأكدتها الآيات في مواضع أخرى من كتاب الله. والذبح عند غيرنا يسبقه صعق الحيوان كهربائياً أو بالضرب في الرأس بثقل كبير في نهايته إبرة حادة (الوقذ)، أو بالخنق، وفي أغلب هذه الحالات يموت الحيوان قبل أن يذبح، ويبقى دمه في لحمه، وتصفية الذبيحة من دمها هي عملية تطهير للحمها من كل من السموم ومسببات الأمراض التي يحملها الدم، ومن هنا كانت تسمية الذبح الشرعي الإسلامي باسم التذكية (أو الذكاة). ومن الغريب حقاً أن يحاول البعض فرض طرائق ذبحهم المعيبة علينا بدعوى الرفق بالحيوان، وهم الذين يساهمون في قتل الملايين من البشر بدم بارد، ثم يتباكون على ما يمكن أن يصيب الحيوان من آلام أثناء الذبح الشرعي الإسلامي له، والله ـ تعالى ـ لا يشرع إلا كل ما فيه الرحمة والخير كل الخير للإنسان وللحيوان ولكل خلق آخر من خلق الله.

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ :

يقال في اللغة العربية **(ذكيت)** الشاة أي ذبحتها ذبحاً شرعياً كي تذكو وتطيب، والأصل في **(الذكاة)** التطيب، ومنه رائحة (ذكية) أي طيبة، ولذلك سمي الذبح الشرعي (تذكية) لأن لحم الذبيحة يطهر به مما كان منتشراً فيه من دماء وسوائل أخرى متصلة بتلك الدماء مثل السوائل الليمفاويه، وكلها يحمل أوساخ البدن ومسببات أمراضه، ومن هنا كان من معاني (الذكاة) الشرعية هو التتميم، أي تتميم تصفية بدن الذبيحة مما بها من دماء وملوثات، ويتم ذلك بنحر الحيوان أي بقطع مجرى الطعام والشراب والنفس من الحلق (أي بقطع حلقومه ومريئه) وبذلك يقطع الودجان وهما عرقان غليظان في جانبي

ثغرة النحر فتنهر الدماء والسوائل الليمفاوية بتدفق شديد مع التسمية والتكبير (باسم الله، الله أكبر) مستخدماً في ذلك آلة حادة حتى لا يتألم الحيوان، وذلك لقول رسول الله ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»[1].

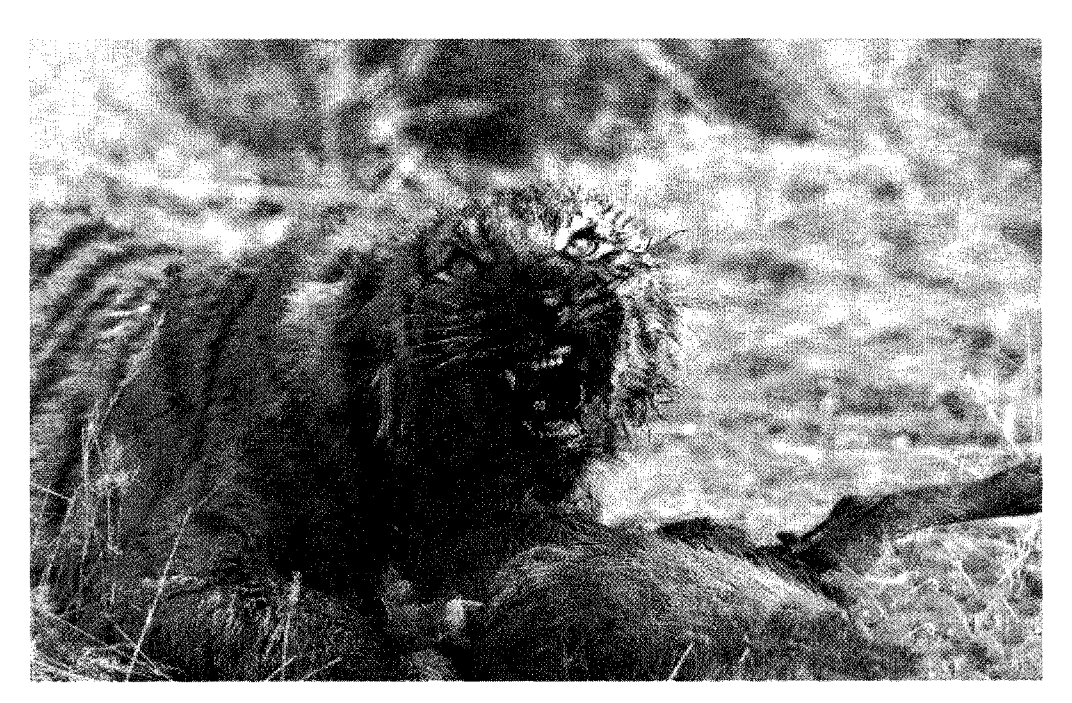
من هنا كانت حكمة الخالق ﷻ في إضافة هذا الاستثناء ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ بعد ذكر الحالات الخمس: المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، لأن كلاً من البهيمة أو الطير (من المباحات) إذا مر بحالة من هذه الحالات وأدركها أو أدركه الإنسان قبل أن تموت أو أن يموت فذكّاها أو ذكّاه سال دمها ودمه، وتطهّر لحمها ولحمه وصار حلالاً، ولكن إذا لم يتدارك الحيوان في أيٍّ من هذه الحالات فمات قبل أن يذبح صار في حكم الميتة التي يحرم لحمها، لأن دمها يبقى محتبساً في جسدها، والدم هو حامل فضلات وسموم الجسم المختلفة، وحامل مسببات أمراضه، فضلاً عن كونه مركباً من مواد قابلة للتجلط وللتعفن والتحلل السريع، فإذا حبست في داخل جسم الحيوان بعد موته فإنها تساعد على سرعة تحلل هذا الجسد وفساد لحمه، وهو أيضاً قابل للتحلل والتعفن والفساد خاصة إذا انقضى على موت الحيوان وقت كافٍ يسمح بذلك.

ولكون الدم يحمل نواتج التمثيل الغذائي بما فيها من مواد وسموم قاتلة، تكون في طريقها إلى أجهزة طرحها إلى خارج الجسم، ولكون العديد من الطفيليات تمضي في الدم مراحل من دورة حياتها تطول أو تقصر، وتلقي فيه سمومها، وكذلك الفيروسات والميكروبات المختلفة، فإن الله ـ تعالى ـ قد حرم على عباده الصالحين أكل كلٍّ من الميتة والدم، خاصة الدم المسفوح، أما أكل كلٍّ من الكبد والطحال من الحيوان المباح المذكى فهو حلال لقول رسول الله ﷺ: «**أحل لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال**»[2] كما سبق وأن أشرنا.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الصيد والذبائح (الحديث: 5028)، وأبو داود في كتاب: الأضاحي (الحديث: 2815)، والنسائي في كتاب: الضحايا (الحديث: 4417)، وابن ماجه في كتاب: الذبائح (الحديث: 317).

(2) تقدّم تخريجه ص 359.



من الاستعراض السابق يتضح أن موت الحيوان دون تذكيته (أي دون إراقة دمه) يؤدي إلى احتباس الدم في العروق المنتشرة في جسمه من الأوردة والشرايين وتفرعاتهما إلى مختلف الأنسجة والخلايا. ودم الأوردة يحمل كل نفايات الجسم، وفضلات العمليات الحيوية المختلفة، كما يحمل الدم ـ بصفة عامة ـ الجراثيم والطفيليات المتعايشة مع الحيوان، والدم سائل قابل للتجلط السريع، فإذا مات الحيوان دون أن يصفَّى دمه تجلط هذا الدم مختلطاً باللحم والشحم والعظم، وبدأ في التعفن والتحلل مما يؤدي إلى فساد اللحم خاصة إذا طالت الفترة بعد موت الحيوان، ومن هنا فإن كلاً من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع إذا لم تدرك قبل موتها وتذكَّى فإن حكمها هو حكم الميتة، ومن هنا يأتي تحريم أكلها.

رابعاً: وما ذبح على النصب:

(النصب) جمع **(نصاب)** وهي أحجار كان مشركو قريش ينصبونها حول الكعبة، وكانوا يذبحون عليها، ويعظمونها، ويلطخونها بالدماء، وهي غير الأصنام المنقوشة المصورة، وبديهي أن الذبح لغير الله هو ضرب من الشرك، ومغايرة للفطرة التي فطر الله ـ تعالى ـ خلقه عليها، وكل مغايرة للفطرة محكوم عليها بالفشل. والحيوان كغيره من مخلوقات الله

متوائم مع الفطرة، ومتنافر مع مغايرتها، ولذلك فإن جسده لا يستطيع أن ينتفض، ولا عضلاته تستطيع أن تتقلص حتى يتخلص من دمائه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا إذا سمع اسم الله وتكبيره. وقد ثبت بالأبحاث المختبرية التي قام بها فريق من كبار العلماء السوريين على مدى ثلاث سنوات كاملة أن نسيج اللحم المذبوح بدون التسمية باسم الله وتكبيره كان محتقناً بشيء من بقايا الدم، ومصاباً بمستعمرات أعداد من الجراثيم، بينما جاء لحم الذبيحة التي سمي عليها (باسم الله والله أكبر) زكياً، طاهراً، خالياً من الدماء والجراثيم وذلك لشدة اختلاج أعضاء وعضلات جسم الحيوان المسمى عليه باسم الله في أثناء ذبحه مما يؤدي إلى اعتصار دمائه، وطرد جراثيمه معها، وبذلك يطهر لحم الذبيحة ويزكو.

ومن هنا كانت حكمة تحريم أكل ما ذبح على النصب أي لغير الله ـ تعالى ـ.

ولو لم يرد في القرآن الكريم سوى هذا التحريم للمحرمات العشر التي جاءت في الآية الثالثة من سورة «المائدة» لكان كافياً للشهادة لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ «سورة الحجر، الآية: 9». فحفظ القرآن الكريم في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بهذا الحفظ إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها. فالحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وإماماً للمتقين، وهداية للخلق أجمعين فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ
عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ**
مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

23

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ «سورة الصافات، الآية: 142».

23

هذه الآية الكريمة جاءت في أوائل العشر الأخير من سورة «الصافات»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (182) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بقسم من الله تعالى ـ وهو الغني عن القسم لعباده ـ وجاء القسم بملائكته الأطهار الذين وصفتهم السورة الكريمة بعدد من صفاتهم التي من أولاها أنهم لا ينفكون عن عبادة ربهم، ويصطفون في طاعته صفوفاً منتظمة بأفضل مما يصطف كثير من عباد الله المكلفين. ويأتي جواب القسم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ * رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ *﴾

«سورة الصافات، الآيتان: 4 ـ 5».

ويدور المحور الرئيسي للسورة الكريمة حول عدد من الركائز الأساسية للعقيدة الإسلامية وفي مقدمتها توحيد الله سبحانه وتعالى توحيداً كاملاً، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل الادعاءات الباطلة بـ نسبة الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة أو الولد لذاته العلية، وهذه كلها من صفات المخلوقين والله سبحانه وتعالى منزه عن جميع صفات خلقه:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «سورة الشورى، الآية: 11».

ومن ركائز العقيدة الإسلامية أيضاً الإيمان بملائكة الله، وكتبه ورسله وباليوم الآخر وأهواله، وبالوحي وحقيقته وضرورته، وبالبعث وحتميته، وبالخلود في الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وللتدليل على حقيقة هذه الركائز الإيمانية استشهدت سورة «الصافات» بالعديد من حقائق الكون وظواهره على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، وعلى أن

الخالق سبحانه وتعالى قادر على إفناء خلقه، وعلى بعثه من بعد إفنائه، وكانت قضية البعث هي حجة الكافرين والمتشككين والضالين الفاسدين عبر التاريخ:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۞ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۞﴾

«سورة الصافات، الآيات: 16 ـ 18».

كذلك وظّفت سورة «الصافات» هذه الإشارات الكونية في تفنيد دعاوى المبطلين من أهل الكفر والشرك والضلال، وفي تطهير عقولهم المتخلفة، ونفوسهم المريضة من هذا الكم الهائل من الخرافات والأساطير التي عششت في أدمغتهم بغوايات من شياطين الإنس والجن، وبأطماعهم في استلاب شيء من حطام هذه الدنيا الفانية.

واستعرضت سورة «الصافات» سِيَر عدد من الأنبياء والمرسلين الذين بعثوا قبل خاتمهم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ منهم نوح، إبراهيم، إسحٰق، موسى، هارون، إلياس، لوط، ويونس ـ على نبينا وعليهم من الله السلام ـ وعرضت لشيء من تفاعل أممهم معهم وكيف كان ثواب المصدقين وعقاب المكذبين من تلك الأمم.

كذلك عرضت السورة الكريمة لشيء من أحداث الآخرة ومواقف كلٍّ من المؤمنين المكرمين في الجنة، والكافرين والمشركين المعذبين في النار.

وتشير سورة «الصافات» إلى محاولات مردة الجن وشياطينهم من أجل استراق السمع على أهل السماء، وأكّدت أن الله ـ تعالى ـ قد سخَّر الشهب الثاقبة لتتبعهم ودحرهم، وأنه سبحانه وتعالى قد توعَّدهم بعذاب شديد.

ثم توجَّه السورة الكريمة الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بالأمر الإلٰهي أن يسأل منكري البعث، المستبعدين لإمكانية وقوعه أن ينظروا في خلقهم من طين لازب، وإلى ضعفهم وحاجتهم إلى رعاية ربهم، وهم محدودون بحدود مكان كل فرد منهم في بقعة محددة من الأرض، وبحدود زمانه (أي عمره)، ومقارنة ذلك بخلق السمٰوات والأرض بأبعادهما المذهلة، وأعمارهما المتطاولة إلى بلايين السنين فيدرك هؤلاء المنكرون للبعث أن الذي خلقهم من طين لازب، وحددهم بحدود المكان والزمان، وخلق الكون بهذا الاتساع الهائل، وتلك الضخامة المذهلة قادر على بعثهم بعد موتهم وعلى بعث آبائهم الأولين وهم أذلاء صاغرون.

ثم تعرض سورة الصافات لوصف موقف من مواقف الآخرة، وقد أطلقت صيحة البعث، والناس يخرجون من قبورهم مشدوهين، مذعورين، فزعين، ومن بينهم الذين كانوا ينكرونه في الدنيا، ويسخرون من إمكانية وقوعه ولسان حالهم يقول:

﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ «سورة الصافات، الآية: 20».

ويأتيهم الجواب الصادع:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ *﴾

«سورة الصافات، الآيات: 21 ـ 24».

وتستطرد الآيات في استكمال عرض هذا المشهد من مشاهد الآخرة: والكفار والمشركون، والعصاة الفاسدون، والظلمة المتجبرون على الخلق عاجزون كل العجز عن مناصرة بعضهم بعضاً، والذين اتَّبعوا والذين اتُّبعوا من المشركين ومن شركائهم يتلاومون، ويتبادلون تهم الضلال والغواية فيما بينهم، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ * بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ *﴾

«سورة الصافات، الآيات: 33 ـ 39».

وفي قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ في هذه الآيات الكريمة عن خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ما نصه: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ «سورة الصافات، الآية: 37» فيه تأكيد من الله ـ تعالى ـ لنبوة سيدنا محمد ﷺ، ولصدق رسالته، وبرهان من خالق السمٰوات والأرض على وحدة رسالة السماء، وعلى أخوة الأنبياء، وهو في الوقت نفسه رد جازم قاطع من الله ﷻ على الذين كذَّبوا ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وعلى الذين تطاولوا في الماضي القريب والبعيد، أو يتطاولون اليوم على شخصه الكريم بألسنتهم البذيئة، وأقلامهم المأجورة في محاولة يائسة للنيل من قدره وهو الذي شرفه الله ـ تعالى ـ فوق جميع خلقه، وختم ببعثته الشريفة دعوة جميع أنبيائه ورسله، وجعله مثلاً أعلى

للإنسانية في كمالها البشري، ونموذجاً يحتذى لمن أراد الجنة من إنسه وجنّه. وعلى الذين يقعون في هذه الخطيئة المنكرة، ويتسترون خلف ميكروفونات الإذاعات المأجورة وشاشات التلفاز المشبوهة أو خلف شاشات شبكة المعلومات الدولية أو ما يعرف باسم الشبكة العنكبوتية كخفافيش الظلام، التي تهاب النور، ينفثون من خلال تلك الشبكة أحقادهم الدفينة، وسمومهم البغيضة، وأحكامهم الجائرة المنطلقة من جهلهم الفاضح بالدين كما يفعل عملاء المخابرات الأمريكية والصهيونية العالمية في بلادنا، وعلى هؤلاء العملاء المأجورين، والخبثاء المنافقين، والجهلة بحقيقة الدين، أن يدركوا أن الله ـ تعالى ـ قادر على أن يشل ألسنتهم، وأن يجمد الدماء في عروقهم، وأن يجعلهم عبرة للمعتبرين كما جعل من أمثالهم السابقين.. وهو سبحانه يمهل ولا يهمل، وهو ربّ ذلك والقادر عليه.

وتقارن الآيات في سورة «الصافات» بين إكرام الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين في الآخرة بتنعيمهم في جنَّات الخلد، وبالفوز العظيم برضاه ﷻ وبين إذلاله للكفار والمشركين في نار جهنم، وهم يصطلون بجحيمها، ويأكلون من زقّومها، ويغرقون في شوبٍ من حميم فيها.

وتستمر الآيات في سورة «الصافات» لتؤكّد أن أكثر الأمم السابقة قد ضلوا ضلالاً بعيداً على الرغم من إرسال الأنبياء والمرسلين إليهم منذرين من مغبة الكفر بالله أو الشرك به ﷻ، ومن مغبة معصيته والخروج عن المنهج الذي وضعه لاستقامة الحياة على الأرض، وفي إثبات ذلك استعرضت هذه السورة المباركة سير عدد من أنبياء الله ورسله مجلية معية الله ـ تعالى ـ لهم وللذين آمنوا معهم من عباده الصالحين، وموضحة رحمة الله ـ تعالى ـ بهم، ومؤكّدة تعهده بنصرتهم على أعدائهم، ودحر الكفار والمشركين والتنكيل بهم في الدنيا قبل الآخرة، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝﴾ «سورة الصافات، الآيات: 71 ـ 73».

وتعاود الآيات توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ ليقوم بالرد على عدد من الخرافات والأساطير التي ابتدعها أهل الزيغ والضلال من الكفار والمشركين، والتي منها الادعاء الباطل بوجود نسب بين الله ﷻ وبين الجن، وأنه بناء على هذه العلاقة المختلقة الكاذبة كانت الملائكة الذين ادعى المبطلون عليهم كذباً بأنهم إناث، وهم ليسوا كذلك....!! وكذلك الادعاء الباطل على الله

ـ تعالى ـ بنسبة الصاحبة أو الولد إليه وهما من صفات المخلوقين، والله ﷻ منزّه عن جميع صفات خلقه ولذلك قال ـ عز من قائل ـ:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾

«سورة الصافات، الآيات: 149 ـ 159».

وتكرر السورة الكريمة في خواتيمها وعد الله لأنبيائه ورسله ولجنده المؤمنين بالنصر والتمكين، ووعد الله حق لا يخلف، ولذلك تطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ باعتزال الكفار والمشركين لأنهم يستعجلون نزول عذاب الله، وهو واقع بهم لا محالة، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ *﴾

«سورة الصافات، الآيات: 171 ـ 179».

وتختتم سورة «الصافات» بخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وإلى كل مؤمن آمن به وبهم، يؤكِّد تنزيه الله ﷻ عن كل وصف لا يليق بجلاله، كما يؤكد إفراده ـ جل شأنه ـ بالربوبية المطلقة فوق جميع خلقه، ويؤكد كذلك على الأخوة بين جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى ضرورة الحمد لله رب العالمين الذي يقول في ختام هذه السورة المباركة مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ *﴾ «سورة الصافات، الآيات: 180 ـ 182».

نبي الله يونس في القرآن الكريم:

سمَّى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ باسم عبده ونبيه يونس عليه السلام إحدى سور القرآن الكريم، وذكره ست مرات في هذا الكتاب المجيد: وجاء ذلك باسمه الصريح في أربع منها [(النساء:163؛ الأنعام:86؛ يونس:98؛ والصافات:139)، ومرة بكنيته: ذا النون (الأنبياء:87)، ومرة أخرى بصفته: صاحب الحوت (القلم:48)].

وهذا النبي الكريم عرّفه لنا المصطفى ﷺ باسم «يونس بن متّى» وذلك بقوله الشريف: **«لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متّى»**[1].

ونبي الله «يونس بن متى» بعث إلى أهل نينوى وهي محافظة في الشمال من أرض العراق (التي ندعو الله تعالى أن يطهرها من دنس الغزو الأنجلو أمريكي الصهيوني/ الصليبي الحاقد في أقرب وقت إن شاء الله تعالى). وتعرف هذه المحافظة اليوم باسم محافظة الموصل. ومدينة نينوى كانت عاصمة للإمبراطورية الآشورية بعد مدينة آشور، ويرجع ذلك إلى الألف السادسة قبل الميلاد، وإن لم تصل أوج ازدهارها إلا في النصف الأول من الألف الأخيرة قبل الميلاد ثم دمرت في سنة 612 قبل الميلاد، وبقيت أطلالها على الضفة الشرقية من نهر دجلة في مقابلة مدينة الموصل تقريباً، ولا يفصلهما إلا النهر، وعلى الرغم من تدمير المدينة إلا أن بعض القبائل العربية قد سكنتها حتى العصور الوسطى.

وكان أهل نينوى قد انتكسوا إلى عدد من الوثنيات القديمة فعبدوا الأصنام بعد أن كانوا على التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، فبعث الله إليهم نبيه «يونس بن متّى» عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام، ويردهم إلى التوحيد من جديد، وبعد أن أقام فيهم ردحاً من الزمن يدعوهم، عصوه وكذبوه، فهددهم بعذاب الله، وتوعدهم به، ثم خرج غاضباً من بين ظهرانيهم قبل أن يأذن الله ـ تعالى ـ له بالخروج فلامه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على ذلك بقوله ـ عز من قائل ـ:

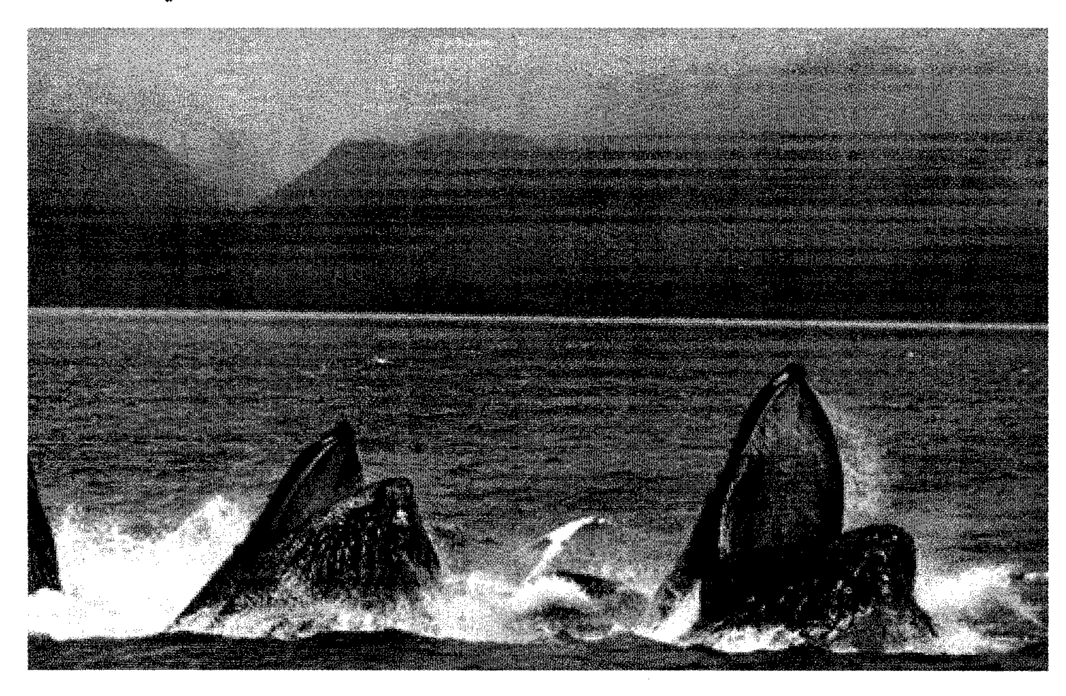
﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ *﴾ «سورة الصافات، الآيات: 139 ـ 148».

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء (الحديث: 3412).

ومعنى هذه الآيات المباركات أن يونس عليه السلام حين خرج من نينوى مغاضباً لقومه ركب البحر في محاولة للابتعاد عنهم، ولكن على عادة القرآن الكريم الذي لا يدخل في التفاصيل الدقيقة للحدث حتى لا يصرف القارىء عن العبرة منه لم يذكر لنا اسم البحر، وهنا تساءل المفسرون: هل وقع هذا الحدث التاريخي في إحدى البحيرات القريبة من نينوى مثل بحيرة أرميا في أقصى الشمال الغربي من إيران؟ أو في البحر الأبيض المتوسط؟ أو في أي من بحر قزوين أو البحر الأسود؟ وهي البحار الكبرى من حول نينوى؟ فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلم حقيقة هذا البحر الذي التقم أحد حيتانه العملاقة نبي الله يونس عليه السلام الذي مع هول المفاجأة ظل يردد: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاستجاب الله ـ تعالى ـ لاستغاثته، وأمر الحوت أن يلفظه على الشاطىء بعد هذه التجربة القاسية لعله يفهم العظة من الدرس الذي تلقّاه والتي تتلخّص في أنه عليه السلام ما كان له أن يتصرف في شأن من شؤون الدعوة التي كلفه الله سبحانه وتعالى بها بغير إذن منه ـ جل وعلا ـ.

وتروي لنا الآيات بعد ذلك أن يونس الذي ألقى الحوت به على الساحل وهو في حالة من الذهول والإعياء والهزال الشديد، أنبت الله ـ تعالى ـ عليه **شجرة من يقطين**، سترته، وأظلته، وربما تناول شيئاً من ثمارها، ولامست جسده أوراقها العريضة فعوفي من سقمه،



وغُفِرَ له ما تقدم من ذنبه، ثم عاد إلى قومه الذين رأوا أن إرهاصات العذاب الذي توعدهم به نبيهم قد بدأت في الظهور فسارعوا بالتوبة إلى الله ـ تعالى ـ، وبالإنابة إليه حتى كشف عنهم العذاب، وعادوا مسلمين موحدين لله ـ تبارك اسمه ـ، مقيمين لشعائره، نابذين لجميع ما سبق لهم أن عبدوه من أصنام وأوثان، فسعد بهم يونس وسعدوا به، وعاش بينهم داعياً إلى الله على بصيرة حتى لقي ربه راضياً مرضياً بإذن الله.

وعاش أهل «نينوى» على الإسلام الصافي لعدة قرون بعد نبيهم يونس بن متى عليه السلام ولكن بدأت الانحرافات عن منهج الله تجتاح أهل هذه المحافظة بالتدريج حتى عادوا إلى وثنياتهم القديمة فضلوا، وأضلوا، وإن بقي بينهم بعض الأحناف الذين تمسكوا ببقايا الحق القديم، وكان منهم «عداس» مولى ولدي ربيعة الذي لقيه رسول الله ﷺ في طريق عودته من الطائف إلى مكة المكرمة وشهد لسيدنا محمد ﷺ بالنبوة وبالرسالة لمجرد تسميته باسم الله قبل تناول الطعام، وذكره لنبي الله يونس بن متى.

ومع تفشي الشرك بالله، والعودة إلى عبادة الأوثان والأصنام غضب الله على أهل نينوى فسلط عليهم من دمر امبراطوريتهم في حدود سنة 612 ق. م. فأصبحت أثراً بعد عين...، وصارت أحاديث يرويها كل من المؤرخين، والآثاريين، ودروساً يعتبر بها أصحاب البصائر والعقول إلى يومنا الراهن وإلى أن يشاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ. وفي الترجمة الإنجليزية لسفر يونان من العهد القديم جاء ذكر أن الذي ابتلع يونس سمكة والذي أظله شجرة عنب، وفي الترجمة العربية جاء ذكر الحوت وشجرة اليقطين، والنشرة العربية صادرة عن دار (الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، والإنجليزية صادرة عن:
(Thompson Chain Reference Bible, New International Version, 1978).

من ركائز العقيدة في سورة الصافات:

1 ـ الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وبملائكته، وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وتوحيده ـ جل شأنه ـ، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله من نحو الادعاءات الباطلة بـ نسبة الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة أو الولد للذات الإلٰهية، وكلها من صفات المخلوقين، والله الخالق منزه عن جميع صفات خلقه، فهو رب السمٰوات والأرض وما بينهما ورب كل شيء.

2 ـ التسليم بحتمية البعث بعد الموت وبأهواله، رغم تكذيب المكذبين، وإرهاصات الكافرين، وتشكيك المتشككين ممن انحط مدلول الألوهية عندهم إلى البشرية الهزيلة، فقاسوا على الله ـ تعالى ـ بمقاييس البشر فاستحال عليهم فهم إمكانية البعث استحالة كاملة.

3 ـ التصديق بأن مصير الكفار والمشركين وأعوانهم سوف ينتهي بهم جميعاً إلى نار جهنم، وهم في العذاب مشتركون. ومن هؤلاء الذين يشكلون حطب جهنم من كان يستكبر في الدنيا على كلمة التوحيد، ومن تطاول على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وكفر ببعثته الشريفة على الرغم من وضوح حجته وضوح الشمس في رابعة النهار، ومنهم من تطاول على كتاب الله وهو الحق الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم في قضية الدين.

4 ـ الإيمان بأن عباد الله المخلصين سوف يكرمهم الله سبحانه وتعالى بإدخالهم في جنات النعيم، والتسليم بكل صور التكريم التي وعدهم بها ربهم الكريم.

5 ـ التصديق بكل صور العذاب الذي لحق بالضالين من أبناء الأمم السابقة الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فاستخفوا بهم وبرسالتهم. والتصديق كذلك بكل صور التكريم التي كرم بها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عباده المخلصين من الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان في الدنيا قبل الآخرة، وما جزاء الدنيا في الآخرة إلا قليل.. والإيمان بجميع القصص الذي جاء بالقرآن الكريم.

6 ـ تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل وصف وصفه به أهل الكفر والشرك والضلال ممن جعلوا بينه وبين الجنة نسباً، أو ادَّعوا له صاحبة وولداً، فالله ـ جل شأنه ـ لا يوصف إلا بما وصف به ذاته العلية، ومن ذلك مغايرته لجميع خلقه:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «سورة الشورى، الآية: 11».

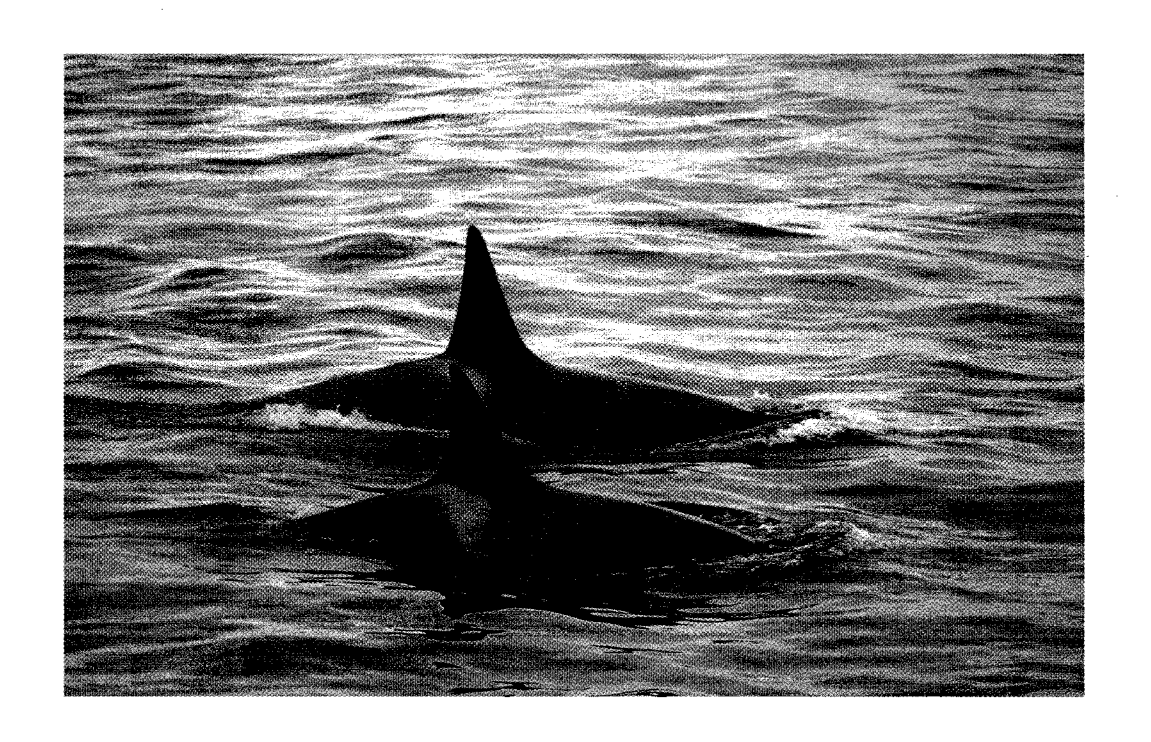
7 ـ اليقين بأن النصر في النهاية لعباد الله المخلصين، وإن علا الباطل وزاد، واستعلى وتجبر، فالأمور كلها بيد الله يصرفها حسب مشيئته، وهو سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده الظلم، ولا للكافرين أن يسودوا عباده المؤمنين.

من الدلالات العلمية لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

وردت لفظة (**حوت**) بالمفرد والجمع في القرآن الكريم خمس مرات بمعنى صيد البحر، وجاءت في أربع منها بمعنى السمكة أو السمك، وفي مرة واحدة جاءت بمعنى أضخم حيوان بحري، أو أضخم حيوان عمر الأرض على الإطلاق وهو حيوان الحوت عديم الأسنان لكي يكون قادراً على ابتلاع رجل كامل دون أن يؤذيه لضخامة فمه وانعدام أسنانه، وضيق حلقه عن ابتلاعه في جوفه، ووفرة الأكسجين في مجاري تنفسه.

والتعبير (**حوت**) في اللغة العربية يطلق على ما عظم وما قل من صيد البحر لأنه مشتق من الفعل (حاوت) بمعنى راوغ، وأغلب الحياة البحرية تجيد المراوغة في محاولة للنجاة بنفسها من الافتراس أو الصيد، ولذلك يطلق لفظ (الحوت) على أغلب أنواع الحياة المتحركة في الأوساط المائية ومنها الأسماك والحيتان والدلافين وأشباهها.

والحيتان (Whales) حيوانات بحرية، ثديية، لبونة، ذات دم حار، لكل فرد منها رئتان يتنفس بهما الهواء مباشرة وليست لها خياشيم كالأسماك. وأنثى الحيتان تلد وترضع صغارها، وتضم هذه الرتبة من رتب الحيوان الحيتان بمختلف أنواعها، والدلافين (Dolphins) تحت مسمى رتبة الجوثيات أو الحوتيات (Order Cetacea). ومن الحيتان ما له أسنان، ومنها عديم الأسنان، وتتميز الحيتان عموماً بأجسامها الانسيابية التي ترق في اتجاه الذيل وبذلك تشبه أجسام الأسماك حتى تتواءم مع طبيعة حياتها البحرية، وإن كانت أحجامها تفوق أكبر الأسماك حجماً بأضعاف كثيرة. ويساعد على حركة أجسام هذه الحيتان العملاقة ذيل على هيئة زعنفة أفقية (بينما زعانف الأسماك رأسية)، ويغطي أجساد الحيتان طبقة سميكة من الدهن (5 سم ـ 30 سم في السمك) تعمل على حماية جسم الحوت من البرد، وتحفظ له درجة حرارة ثابتة. وجسم الحوت نظيف من الطفيليات بصفة عامة، فإن وجدت فتحيا حياة خارجية على الزعانف والذيل. وعلى الرغم من أن الحوت يسبح قريباً من سطح الماء في البحر حتى يتسنَّى له رفع رأسه فوق سطح الماء للتنفس بالهواء الذي يعلوه كل (10) إلى (15) دقيقة، إلا أن الله ـ تعالى ـ قد أعطاه القدرة على الغوص إلى أعماق متوسطة من البحار والمحيطات (100 متر) وعميقة (أكثر من500 متر). والحيتان لها قدرة على الحركة حتى في تلك الأعماق من البحار والمحيطات والبقاء فيها



من10 إلى 15 دقيقة وبحد أقصى 50 دقيقة ثم تصعد إلى السطح. ومن أضخم أنواع الحيتان على الإطلاق، بل أضخم حيوان عاش على أرضنا عبر تاريخها الطويل هو نوع من أنواع الحيتان عديمة الأسنان يعرف باسم «الحوت الأزرق» ويتبع رتيبة (تصغير رتبة) خاصة تعرف باسم **رتيبة الحيتان عديمة الأسنان** (**Suborder Mysticeti**)؛ ويتميز هذا الحوت الأزرق العملاق (**The Blue Whale = Balaenoptera musculus**) بلون جلده الأزرق المائل إلى الدكنة (أو اللون الرمادي) والمنقط بعدد من النقاط الأفتح قليلاً في اللون، وهو صاحب أضخم جثة لكائن حي عمر الأرض في القديم والحديث، وصاحب أعلى نبرة صوت لكائن حي، ويصدر عن الحيتان أصوات عميقة ومدوية ذات شدة عالية (تصل إلى 188 ديسيبل)، وتردد منخفض أي: ذبذبات منخفضة في عددها بالثانية ولذلك تنتشر إلى مسافات بعيدة في الوسط المائي مما يمكِّن الحيتان الزرقاء من الاتصال ببعضها بعضاً عبر مئات الأميال. ويتراوح طول الفرد البالغ من الحيتان الزرقاء بين 20 متراً، و33 متراً، ويتراوح وزنه بين 90 طناً، و180 طناً، ويكون رأسه ربع طول جسده، وجسمه الطويل يستدق في اتجاه الذنب. وهذا العملاق ـ الذي وهبه الله تعالى بسطة في الجسم لم يهبها لمخلوق آخر نعرفه ـ يتميز بالهدوء الشديد، وبالحياء والخجل، وهو يسبح على سطح مياه

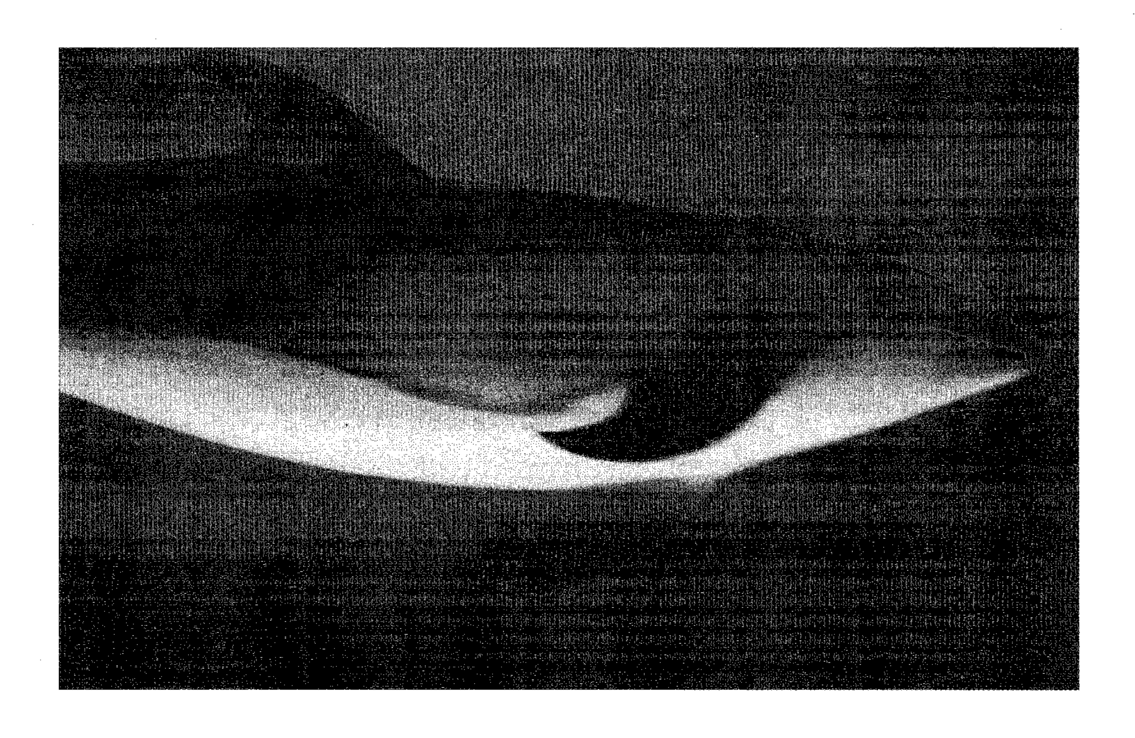
البحار والمحيطات بسرعة تتراوح بين 20 كيلو متر/ ساعة، 50 كم/ ساعة. ويعيش في مجموعات صغيرة أو كبيرة، ويتراوح عمر الفرد من أفراده بين 30 و80 سنة. وأنثى الحوت الأزرق أكبر حجماً من الذكر، مما يعينها على حمل ورعاية صغارها، وتبدأ الإناث في الحمل من سن (5) ـ (10) سنوات، وتضع مولوداً واحداً كل (2) ـ (3) سنوات، بعد فترة حمل تطول من (10) إلى (12) شهراً. وعجل الحوت الأزرق يرضع من أمه أكثر من خمسين جالوناً من اللبن في اليوم الواحد، ويزداد وزنه بمعدل عشرة أرطال في الساعة أي أكثر من 200 رطل في اليوم وذلك في أسابيعه الأولى. وعند مولده يصل طول عجل الحوت الأزرق إلى سبعة أمتار، ووزنه إلى طنّيْن، وبعد سنة من العمر يصل طوله إلى 18 متراً، وتواصل الأم إرضاع صغيرها ما بين (7)، (8) شهور، وبحد أقصى إلى سنة ثم يفطم.

وقد جارت شركات صيد الأسماك على الحوت الأزرق طوال النصف الأول من القرن العشرين حتى كادت تفنيه، ومثل صيده 90٪ من صناعة صيد الحيتان حتى وصل مجموع ما تم صيده في فصل واحد من فصول الصيد في سنة 1931م أكثر من ثلاثين ألفاً من الحيتان الزرقاء فقط، ونتيجة لذلك أخذت أعدادها في التناقص المستمر في مختلف البحار والمحيطات حتى أوشك هذا النوع العملاق على الانقراض، وليس أدل على ذلك من أن الأعداد المتوقعة اليوم من هذا الحيوان العملاق لا تكاد تتعدى الأحد عشر ألفاً من أصل يزيد على المائتي ألف وذلك بفعل كلٍّ من الصيد الجائر والتلوث البيئي.

ويتميز الحوت الأزرق بأنه عديم الأسنان، وعوضاً عنها زوده الله ﷻ بعدد من الألواح القرنية التي تتكون من مادة تعرف باسم الكيراتين (Keratin)، يتراوح بين الثلاثمائة والأربعمائة لوح تعرف باسم البالينات (Baleens) وتتدلى من جانبي الفك العلوي، ويخرج من كل واحدة من تلك الألواح شعيرات دقيقة في نهاياتها الداخلية باتجاه اللسان، وهذه الألواح يبلغ طول الواحد منها أكثر من المتر ويتناقص إلى حوالي نصف المتر في اتجاه مقدمة الفم، ويتَّسع فم الحوت الأزرق ليحتوي خمسين طناً من الماء في الرشفة الواحدة لأن الله ـ تعالى ـ قد زود جسمه بحوالي 50 ـ 70 طية تمتد من بداية الفك السفلي إلى منتصف أسفل الجسم (السرة) لتساعد على الانتفاخ عند أخذ هذا الكم الهائل من مياه البحار والمحيطات، وما بها من مختلف صور الحياة الهائمة (الطافية) والسابحة، وفي

مقدمتها صغار القشريات الشبيهة بالجمبري والتي تعرف باسم كريل (Krill). وعند إغلاق الحوت الأزرق لفمه فإن الماء يطرد من خلال ألواح البالينات التي تمسك بما كان فيها من كائنات حية في جهة اللسان من أجل ابتلاعه، ويخرج الماء الصافي من جانبي الفم لأن بوزه عريض جداً ومسطح على هيئة حرف (U) وبداخله حافة وحيدة عند مقدمة الفم. وبذلك يمكن للفرد البالغ من الحيتان الزرقاء أن يأكل ما بين4، 6 أطنان من أحياء البحر الهائمة والسابحة في اليوم الواحد والتي يبلغ عددها في المتوسط أربعين مليوناً من الكائنات الحية.

والحيتان الزرقاء تمضي فصلي الخريف والشتاء في كلٍّ من المناطق المعتدلة وشبه الاستوائية حيث تتكاثر، وتنتقل في كلٍّ من الربيع والصيف إلى المناطق الباردة والقطبية حيث الوفرة في الغذاء الذي تحتاجه. ولا يعرف أحد كيف تتوجَّه الحيتان في مياه البحار والمحيطات لمثل هذه المسافات الطويلة، وربما تستخدم في ذلك المجال المغناطيسي للأرض، أو الموجات الصوتية التي تحدثها في التعرف على طبوغرافية قاع المحيط وتحديد المواقع عليه بدقة بالغة.



وللحوت الأزرق منخران في قمة الرأس يستخدمهما للتنفس فوق سطح الماء، ويندفع منهما الماء بشدة إلى أعلى لحوالي العشرة أمتار أثناء الزفير على هيئة النافورة، ويمكن أن يسمع صوت ذلك لعدة أميال. ولبعض الحيتان منْخَر واحد فقط. والعضلات القوية للحوت الأزرق التي أعطته اسمه العلمي، خاصة عضلات زعانفه الذيلية تعينه على المناورة بجثته الهائلة إلى أعلى أو إلى أسفل، وكائن بهذا الحجم العملاق لو عاش على الأرض لانسحق هيكله العظمي تحت وزنه الكبير، ومن هنا كانت حكمة الله البالغة في جعل الحيتان كائنات بحرية حتى يحملها ماء البحار والمحيطات، ولو قدر لكائن بهذا الحجم العملاق أن يحيا على اليابسة ما كان ممكناً له أن يجد على اليابسة طعاماً يكفيه.

وكل شيء في الحوت الأزرق عملاق فمتوسط طول الفرد البالغ منه (25) متراً للذكر، (29) متراً للأنثى، ومتوسط وزنه يتراوح بين 150 و175 طناً، مما يصل به إلى حجم الطائرة البوينج العملاقة، وقلبه الذي يزن حوالي (45) كيلوجراماً يصل إلى حجم سيارة من السيارات الصغيرة ويضخ (6400) كيلوجرام من الدم إلى مختلف أجزاء الجسم، ولسانه الذي يمتد لأكثر من سبعين متراً في المتوسط يتسع لخمسين رجلاً بالغاً للوقوف عليه، وبلغ من ضخامة عروقه أن رجلاً بالغاً يمكن له أن يزحف في داخل أحد عروق الدم الرئيسية في جسمه مثل الأبهر (الأورطي) بمنتهى السهولة.

من هذا العرض يتضح أن الحوت الذي سخَّره الله ﷻ لابتلاع سيدنا يونس بن متّى ﵇ ربما كان من نوع الحوت الأزرق الذي كان يملأ بحار ومحيطات الأرض في عهده، وإن كانت هذه معجزة، والمعجزات لا تعلل لأنها خوارق للسنن، إلا أن من رحمة الله بنا أن أبقى لنا الحيتان بصفة عامة والحيتان الزرقاء بصفة خاصة بضخامتها التي نشهدها، وسعة أفواهها التي تتسع لأكثر من خمسين رجلاً، وانعدام أسنانها، ومطاطية حلوقها، وضيق بلاعيمها التي لا تتَّسع لابتلاع أكثر من الكائنات الدقيقة الهائمة أو السابحة في الطبقة العليا من مياه البحار والمحيطات، واضطرارها للارتفاع برؤوسها فوق سطح الماء لكي تتنفس الهواء مرة كل (10) إلى (15) دقيقة، ونظافة أجسادها من الطفيليات بصفة عامة، وغير ذلك من الصفات التي اختصَّ الخالق ﷻ بها الحيتان الزرقاء، لكي ييسِّر على الإنسان فهم إمكانية حدوث تلك المعجزة فلا يستصعب حدوثها، ولو أن الله ـ تعالى ـ لا

يستعصى شيء على قدرته. ومن الغريب أنه في الترجمة الإنجليزية لسفر يونان جاءت الإشارة إلى أن الذي ابتلع يونس ابن متى سمكة كبيرة، وأن الذي أظلته شجرة عنب، وفي الترجمة العربية ابتلعه حوت وأظلته شجرة من يقطين (يقطينة) ولا نجد تفسيراً لهذا الاختلاف إلا النقل عن القرآن الكريم في الطبعة العربية للعهدين القديم والجديد.

والإشارة في الآية الكريمة التي نحن بصددها إلى الحوت دون غيره من الحيوانات البحرية للقيام بهذه المعجزة لمِمَّا يؤكد أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بهذا الحفظ إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى قيام الساعة.

فالحمد لله الذي أنعم علينا برسالته الخاتمة، والحمد لله الذي أكرمنا ببعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ الذي جعل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ منه مثلاً أعلى للأنبياء، وتجسيداً حياً للبشرية في كمالها الإنساني، حتى تبقى سيرته العطرة على مر التاريخ مثلاً يحتذى، ونوراً يجتلى في فهم حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة، وفي معرفة كيفية تحقيق تلك الرسالة على الوجه الذي يرتضيه الله، فيفوز بخيري الدنيا والآخرة، والحمد لله على حفظ كتابه الخاتم وسنة نبيه الخاتم هذا الحفظ المعجز الذي أبقى تعاليم الدين هادية للخلق أجمعين وكأنه ﷺ لا يزال ماثلاً بين ظهراني الثقلين إلى يوم الدين، يأمر بأوامر الله، وينهى بنواهيه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين حمد العابدين الشاكرين، وهي آخر دعوى المحسنين.

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا
فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ
إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ
لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ
رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ
مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ
لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ **فَبَعَثَ
ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي
سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ** قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا
ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١

سورة المائدة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ...﴾ «سورة المائدة، الآية: 31».

24

هذا النص القرآني الكريم جاء في بداية الربع الثاني من سورة «المائدة»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها (120) بعد البسملة، وهي من طوال سور القرآن الكريم، ومن أواخرها نزولاً، فقد نزلت بعد صلح الحديبية أي في السنة السادسة من الهجرة، وسميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى المائدة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ من السماء كرامة لعبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «المائدة» حول التشريع بعدد من الأحكام اللازمة لإقامة الدولة الإسلامية، وتنظيم مجتمعاتها على أساس من الإيمان بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى، وألوهيته، وربوبيته، بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولاصاحبة، ولا ولد، وبتفرده بالوحدانية الكاملة وبالحاكمية المطلقة فوق جميع خلقه، ومن ثم كان حقه وحده في التشريع لعباده.. وكانت أول بنود هذا التشريع الإسلامي هو عقد الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وهذا العقد هو القاعدة التي تقوم عليها سائر العقود في حياة الناس، أفراداً وجماعات، ومن هنا نصَّت السورة الكريمة على الوفاء بالعقود، وعلى بيان الحلال والحرام في العديد من القضايا التي منها: الذبائح، الصيد، الإحرام، نكاح الكتابيات، حد كلٍّ من الردة والسرقة، أحكام كلٍّ من الطهارة والإحرام بأي من الحج أو العمرة، وحكم كلٍّ من الخمر والميسر، وكفارة اليمين، وتحريم قتل الصيد في الإحرام، أحكام الوصية عند الموت، وتحريم ترك العمل بشريعة الله، وأحكام البحيرة والسائبة، وأحكام كل من الولاء والبراء، وحدود كلٍّ من البغي، والإفساد في الأرض، وعلاقات المسلمين بغيرهم من أصحاب الملل والنحل الأخرى، والتحذير من الافتتان

بالكافرين، أو من الحيود عن تطبيق العدل الإلٰهي تحت ضغوط أي من المشاعر الشخصية حتى يصل المسلمون إلى الكمال البشري الذي يصفه الله ـ تعالى ـ بقوله العزيز:

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «سورة المائدة، الآية: 3».

ويتخلَّل آيات التشريع في سورة «المائدة» تأكيد سمو العقيدة الإسلامية، واستعراض قصص عدد من السابقين لاستخلاص العظة والعبرة، ومنها قصة ولدي آدم: قابيل وهابيل، وقتل الأول منهما أخاه رمزاً للصراع بين الحق والباطل في هذه الحياة.

وتأمر الآيات في سورة «المائدة» المؤمنين أن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط، وتبشرهم بالمغفرة والأجر العظيم، وتتهدد الذين كفروا وكذبوا بآيات الله أن مصيرهم إلى الجحيم، وكذلك مصير المشركين.

وتعرض سورة «المائدة» لعقائد الكفار والمشركين وترد عليها، وقد نسبوا إلى الله ـ تعالى ـ من الأوصاف والنعوت ما لا يليق بجلاله، ونقضوا العهود والمواثيق، ولذلك تنادي عليهم السورة الكريمة بنداء يتكرر عدة مرات وذلك من مثل قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

«سورة المائدة، الآية: 19».

ثم تعرض السورة الكريمة لعدد من الأحكام المتعلقة بحماية النفس، والمال والملكيات الفردية، والمجتمعات الإنسانية، وصيانتها من كل انحراف، كما تعرض للسلطة وحقوقها، وإلى ضرورة الحكم بما أنزل الله، وتجرّم الخروج على ذلك، لأن حق التشريع بالحل والحرمة هو لله ـ تعالى ـ وحده.

وتفصِّل سورة «المائدة» قضية الولاء والبراء، مؤكِّدة دورها في ضبط سلوك الأفراد والجماعات في الدولة المسلمة، وتعرج إلى إقرار عدد من الأحكام الشرعية التي تحرم كلًّا من الخمر، والميسر، والأنصاب والأزلام، وداعية إلى تعظيم كلٍّ من الكعبة المشرفة

والأشهر الحرم، وآمرة بطاعة الله ورسوله وناهية عن مخالفتهما، ومذكرة بحتمية الآخرة، وناصحة بعدم الانبهار بكثرة الباطل وأهله، وبإنكار كل ما بقي من تقاليد الجاهلية وما أكثرها في زمننا الراهن.

وتختتم سورة «المائدة» بالتذكير بيوم القيامة الذي سوف تبعث فيه الخلائق للحساب والجزاء، وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلون، وبالإشارة إلى عدد من المعجزات التي أيد الله ـ تعالى ـ بها عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم ومنها إنزال المائدة من السماء، وقد سميت السورة باسمها، ومنها تبرئة السيد المسيح وأمه الصديقة مريم ابنة عمران مما افتري عليهما به من دعاوى الألوهية الكاذبة، وكلاهما من عباد الله الصالحين، والله واحد أحد لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا حاجة به إلى الصاحبة أو الولد، لأنها من صفات المخلوقين، والله ـ تعالى ـ منزه عن جميع صفات خلقه:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «سورة الشورى، الآية: 11».

وقد سبق لنا استعراض أهمّ التشريعات الإسلامية وركائز العقيدة والإشارات العلمية في سورة المائدة، ولا أرى داعياً لتكرار ذلك هنا، ولكن وقبل الوصول إلى مناقشة الدلالة العلمية للآية (31) من هذه السورة لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرحها.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى:

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ...﴾

«سورة المائدة، الآية: 31».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «.. قال السدي: لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين، فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له، ثم حثى عليه، فلما رآه قال: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ وقال ابن عباس: جاء غراب إلى غراب ميت فحثى عليه من التراب حتى واراه».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه، إلا أن مستشاري أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم أضافوا في الهامش ما نصه: «تشير هذه الآية إلى أول دفن في الإنسانية، وكيف أن الدفن في التراب كان وحياً من الله سبحانه وتعالى عن طريق عمل الغراب وحكمة ذلك إرشاد الإنسان إلى أن الدفن يمنع انتشار الأمراض، بجانب ذلك فإنه إكرام للميت».

وقصة ابني آدم جاءت الإشارة إليها باقتضاب شديد في الإصحاح الرابع من سفر التكوين، وإن تبدل اسم قابيل إلى قاين (Cain) وبقي اسم هابيل على حاله، ولكن حرف في الترجمة الإنجليزية إلى أبل (Abel)، وجاءت القصة مقتضبة اقتضاباً شديداً، ومليئة بأسماء عديدة ولكنها لم تشر إلى قصة الغراب أو إلى عملية دفن قابيل جثة أخيه هابيل، وحرصت فقط على رص أسماء الأبناء والزوجات، والأحفاد وأحفاد الأحفاد، ففقدت الهدف من ذكرها، والرمزية إلى الدروس المستفادة منها، ومن أبرزها طبيعة الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر في هذه الحياة.

وإذا علمنا أن أصول التوراة قد فُقدت وأن ما نقل عنه العهد القديم من روايات ظلت تنقل شفاهاً لعدة قرون لم تُكتب إلا بعد موسى عليه السلام بأكثر من عشرة قرون على أفضل الفروض، أدركنا ضعف حجية ما يسمى الكتب الخمسة على أنها هي التوراة، ويؤكد هذا الضعف ما جاء في دائرة المعارف البريطانية الجزء الثاني ص 882 تحت مسمى «التوراة» ما ترجمته: «يجب التفريق بين عملية تقنين التوراة ككتاب وبين العملية التي تم بواسطتها نمو المكونات المختلفة وغير المتجانسة لهذا الكتاب»... ويضيف المقال: «إن التحرير النهائي لكتاب التوراة، واعتباره كتاباً مقدساً قد تم أثناء النفي البابلي بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد».

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

من الدلالات العلمية المستوحاة من النص القرآني الكريم الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ...﴾

«سورة المائدة، الآية: 31».

أن الغراب طائر شديد الذكاء، ومن أوضح الأدلة على ذلك أنه يدفن موتاه، ولا يتركها نهباً للجوارح من الطيور ولغيرها من الحيوانات المفترسة، أو للتعفن والتحلل في الجو،

صوناً لكرامة الميت وترفقاً بالبيئة والأحياء فيها. وقد ثبت أن الغراب يقوم بحفر الأرض بواسطة كلٍّ من مخالبه ومنقاره ليكون حفرة عميقة فيها ثم يقوم بطي جناحي الغراب الميت وضمهما إلى جنبيه، ورفعه برفق لوضعه في قبره ثم يهيل عليه التراب حتى يخفي جسد الميت تماماً كما يفعل المسلمون بموتاهم احتراماً لهذا الجسد حياً وميتاً.

والغراب (Crow) طائر أسود اللون، خشن الصوت، يأكل الخضراوات واللحوم وإن كان ميله لأكل اللحوم أكبر، ويعرف العلماء اليوم من أنواع الغراب أكثر من خمسة وثلاثين نوعاً تنتشر في مختلف بيئات الأرض، وهو يتبع جنس (**Corvus**) وعائلة (**Corvidae**). وللغربان قدرة فريدة على صناعة الأدوات الحجرية لاستخدامها في الحفر والتنقيب على الحشرات في شقوق الأرض لافتراسها والتغذي عليها، ولاستخدامها أيضاً في حفر قبور موتاه.

وقد ثبت علمياً بالدراسة والملاحظة أن الغراب هو أذكى الطيور وأمكرها على الإطلاق، ولا يدانيه في الذكاء والمكر إلا بعض الببغاوات، ويعلل ذلك بأن الغراب يملك أكبر حجم لنصفي المخ بالنسبة إلى حجم الجسم في كل الطيور المعروفة، التي يقدر عدد أنواعها بأكثر من عشرة آلاف نوع، ويقدر عدد أفرادها بعشرات البلايين. **ولذلك تظهر**



علامات الذكاء المتميز على الغراب من مثل شدة الحذر، حدة الذاكرة، القدرة على الاتصال بغيره، وعلى حل المشكلات، بناء مجتمعات دقيقة التنظيم، القيام بالعديد من الأعمال الجماعية من مثل الصيد الجماعي، والدفاع الجماعي، والرعاية الجماعية للصغار، واللعب الجماعي، والبناء الجماعي للأعشاش، والمحاكاة، والفضول، وحب الاستطلاع، وشدة اليقظة والانتباه، وقوة الملاحظة والقدرة على الإدراك، وعلى التحايل في اختطاف الطعام وفي طرائق إخفائه، وعلى التمييز في التعامل بين القريب والغريب، وفي القدرة على مهاجمة كل من الحيوان والإنسان.

فقد شوهدت الغربان وهي تلقي على الطرق العامة ما لم تستطع فتحه من الثمار والأصداف الصلدة مثل جوز الهند، وأصداف بلح البحر، وبعض الحيوانات الكبيرة الحجم مثل السنجاب كي تقوم السيارات المارة بدهسها وإعدادها لقمة سائغة لها، كما شوهدت الغربان وهي تقلد الصيادين في عمليات صيد السمك بمهارة فائقة، وفي ترطيب الطعام الجاف بالماء.

وقد أثبتت دراسات سلوك الحيوان أن للغربان محاكم تلتزم قوانين العدالة الفطرية، تحاكم الجماعة فيها أي فرد يخرج على نظامها من مثل محاولات التعدي على حرمات غراب آخر من أنثى أو فراخ أو عش أو طعام، ولكل جريمة عند جماعة الغربان عقوبتها الخاصة بها، ففي حالة اغتصاب طعام الفراخ الصغار تقوم جماعة الغربان بنتف ريش الغراب المعتدي حتى يصبح عاجزاً عن الطيران كالفراخ الصغار قبل اكتمال نمو ريشها، وفي حالة اغتصاب العش وتهدمه في مراحل الدفاع عنه تكتفي محكمة الغربان بإلزام المعتدي ببناء عش جديد لصاحب العش المعتدى عليه، وقد يتبع ذلك الطرد من الجماعة إذا تكررت الأخطاء من هذا النوع، وفي حالة اغتصاب أنثى غراب آخر فإن جماعة الغربان تقضي بقتل المعتدي ضرباً بمناقيرها حتى الموت. وتنعقد محاكم الغربان عادة في حقل من الحقول الزراعية أو في أرض فضاء واسعة، تتجمع فيه هيئة المحكمة في الوقت المحدد، وينحى الغراب المتهم تحت حراسة مشددة، وتبدأ محاكمته فينكس رأسه، ويخفض جناحيه، ويمسك عن النعيب اعترافاً بذنبه.

فإذا صدر الحكم بالإعدام، وثبت جماعة الغربان على المذنب توسعه تمزيقاً بمناقيرها الحادة حتى الموت، وحينئذ يحمله أحد الغربان بمنقاره ليحفر له قبراً يتواءم مع حجم جسده، يضع فيه جسد الغراب القتيل ثم يهيل عليه التراب احتراماً لحرمة الموت.

وهكذا تقيم الغربان العدل الإلٰهي في الأرض أفضل مما يقيمه كثير من بني الإنسان، فالعدل في الغربان من الأمور الغريزية الفطرية لأنها لا تشرع لنفسها، ولكنها تتحرك بفطرتها المسلمة بأن الحاكمية لله وحده، ومن أهم بنودها التشريع، فالمشرع هو الله سبحانه وتعالى الذي شرع لكل الخلائق وغرس شريعته في جبلة كل مخلوق غير مكلف حتى أصبح العدل الإلٰهي جزءاً لا يتجزأ من تكوينهم وفطرتهم، أما الإنسان، ذلك المخلوق المكلف وصاحب الإرادة الحرة فيحاول التشريع من عنده بعلمه المحدود، وقدراته المحدودة حتى نسي العدل الإلٰهي، وأراد إقامة عدل نسبي من عنده فظلم نفسه وظلم غيره.

والغربان من الطيور آكلة كل من النبات والحيوان، وإن كان ميلها لأكل الحيوان أكبر، فهي تأكل الحبوب والثمار، والفراشات، والجراد، والضفادع، والفئران، والبيض، وفراخ الطيور الأخرى، كما تأكل النفايات والجيف. وبذلك تلعب دوراً مهما في تنظيف وتطهير البيئة، ففي كل عام تزيل الغربان وأشباهها **من الطيور الجارحة** آلاف الأطنان من الجيف المتجمعة على الأرض، وملايين الحشرات والديدان، خاصة الحشرات الوبائية التي تصيب العديد من المحاصيل الزراعية فتحد من انتشارها.

وعلى الرغم من هذه الميزات العديدة للغربان فقد درج بعض الناس على التشاؤم من رؤيتها، وذلك بسبب نعيقها المفزع وخشونة وفظاظة أصواتها، وبسبب التقاطها البذور المبذورة في الأرض من قبل إنباتها، أو قضائها على بعض المحاصيل الزراعية من قبل جمعها، أو وهي في مراحل الدراس والتذرية، وبسبب افتراسها بعض الحيوانات الأليفة مثل الدجاج وفراخه وبيضه، وبسبب أنها قد تكون مصدراً لإصابة الإنسان بالعديد من الامراض القيروسية، والبكتيرية والطفيلية، ولذلك أوصى رسول الله ﷺ بقتله في الحل والحرم.

والغربان من طائفة الطيور (Class Aves) وهي طائفة من الحيوانات الفقارية تتميز بالريش الذي يغطي جسمها، وبوجود عدد من أجهزة العزل الحراري الجيد، ويعمل الريش على تجميع الهواء بداخله، وتدفئته ليساعد بذلك على حفظ درجة حرارة الجسم، التي تتميز بالثبات، والارتفاع إلى ما هو أعلى من درجة حرارة جسم الإنسان بعدة درجات، ولتحقيق ذلك جعل الله تعالى للطيور عدداً من الأكياس الهوائية بالإضافة إلى الرئتين،

وتنتشر هذه الأكياس في مختلف أجزاء جسم الطائر بما في ذلك العظام الكبيرة مما يعين على تخفيف وزنه، ومساعدته على الطيران، كما يزيد من حجم الحيز المتوفر لتخزين الهواء إلى عشرة أضعاف حجم الرئتين. ويساعد على الاحتفاظ بدرجة حرارة ثابتة في داخل جسم الطائر. كذلك فإن مرور كميات كبيرة من الأكسجين المصاحب لهذا الهواء يعين على ارتفاع معدل التمثيل الغذائي، وعلى دوران الدم بشكل سريع وفعال في الجسم، ويحفظ الدم المؤكسد بعيداً عن الدم غير المؤكسد، يعين بعض الطيور على الارتفاع في طبقات الجو الباردة وعلى العيش في المناطق الباردة والمتجمدة. وهناك أكثر من عشرة بلايين طائر بري تعيش على مختلف قارات الأرض، بالإضافة إلى بلايين الطيور البحرية التي تعيش على محيطاتها وعلى الجزر المنتشرة في تلك المحيطات.

وتتميز الطيور عموماً بالعيون التي وهبها الله تعالى القدرة على الرؤية من ارتفاعات شاهقة ولمسافات شاسعة، وبعدد من مراكز التنظيم الحركي على درجة كبيرة من الكفاءة، ويتضح ذلك في الغراب بشكل واضح، فهو طائر جارح شديد الحذر.

ويرجع تاريخ الطيور على الأرض إلى نحو 150 مليون سنة مضت في العهد الجوري المتأخر (The Late Jurassic Epoch)، وإن لم تنتشر انتشاراً واسعاً إلا في العهد الطباشيري المتأخر (The Late Cretaceous Epoch) أي: منذ تسعين مليون سنة مضت تقريباً، ولم تخلق الطيور الحديثة إلا منذ ستين 60 مليون سنة مضت تقريباً أي في العهد القديم لفجر الحياة الحديثة (The Paleocene Epoch)، ولم تنتشر انتشاراً واسعاً إلا في عهد الأيوسين (The Eocene Epoch) أي: منذ خمسة وخمسين مليون سنة مضت.

وعلى ذلك فالغراب سابق في وجوده على الأرض للإنسان بأكثر من 55 مليون سنة على أقل تقدير، وبذكائه وملكاته الفطرية التي وهبه إياها الله حق له أن يقف من ابني آدم موقف المعلم الذي علم قابيل قاتل أخيه هابيل كيفية دفن أول قتيل من بني آدم، وإن الدفن في التراب بالإضافة إلى ما فيه من تكريم للميت، يمنع انتشار الكثير من الأمراض والأوبئة، ويحافظ على نظافة البيئة وطهارتها.

.ومن صور ذكاء الطيور ـ بصفة عامة ـ وذكاء الطيور المهاجرة لمسافات طويلة ـ بصفة خاصة ـ تلك القدرة الفائقة في التعرف على أماكن فقسها وتربيتها، والعودة إليها مهما كانت

أبعاد المسافات بينها. وما زالت البحوث العلمية دائبة على دراسة نظم هجرة الطيور، في محاولة لفهم الطرق التي تتعرف بها على الاتجاهات في مثل هذه الرحلات الطويلة. والمراقبون للطيور والدارسون لسلوكها لا يستطيعون حتى اليوم تفسير عملية تحديد أعداد الطيور من نوع معين في مكان محدد، في زمن محدد من أزمنة السنة، وبقاء هذا العدد ثابتاً ثباتاً نسبياً. ولايستطيعون تفسير كيفية تحديد مناطق النفوذ لكل نوع من أنواع الطيور.

ومعظم الطيور ـ ومنها الغربان ـ لها أرض خاصة لجمع الغذاء أو الصيد، غير الأرض التي تعيش فيها. وعادة ما تكون أرضاً مألوفة لها تمتد على مساحة من عشرات إلى مئات الكيلومترات المربعة لا تغيرها إلا مع تغير الظروف البيئية، وانعكاس ذلك على وفرة الطعام.

والطيور في تحركها من أوكارها إلى مناطق صيدها أو رعيها، أو في هجراتها المختلفة غالباً ما تعتمد على اتجاه الرياح، وعلى غير ذلك من الظروف الجوية، وعلى موقع الشمس كدليل ملاحي، وعلى المجالات المغناطيسية للأرض، وهذا يعني وجود ساعة حياتية تعطي للطائر إحساساً بالوقت وبالتغيرات الفصلية، كالتغير النسبي في طول كلٍّ من النهار والليل مع تغير الفصول المناخية، ويبقى هذا التوازن ثابتاً حتى تحت ظروف التجارب المصطنعة كالظلام المستمر أو النور المستمر.

والطيور ـ ومنها الغربان ـ كما تستخدم حواسها المختلفة في التوجيه كالنظر الحاد، والشم لأقل نسب من الروائح، والإحساس بفروق درجات الحرارة، وغير ذلك من المتغيرات المناخية، فإنها لا بد وأن تتأثر بالمجال المغناطيسي للأرض، وبأية تغيرات فيزيائية أو كيميائية أخرى في غلافها الغازي.

والغراب كغيره من الطيور ـ له قدرة فائقة على تحويل وسائل إدراكه من حاسة إلى أخرى بمنتهى السهولة، وذلك بالإلهام والفطرة (Instinct)، وبالتوجيه (Orientation)، وبالتعود (Habitulation) وبالارتباط بالجماعة (Learning By Association)، والتعلم بالتمييز بين الأشياء (Learning By Discrimination)، والتعلم بالتجربة والخطأ (Learning By Trial And Error)، والتعلم بحل المشكلات التي تعترض سبيل حياته (Learning By Problem - Solving)، وبالانطباع في الذاكرة (Memory Imprinting)، أو بتأثير البيئة المثالية للنوع (Effect Of The Species - Typical Enviroment)، وهذا

كله مما يؤكد أن الطيور ومنها الغربان لها عقل، وذاكرة، وقدرات إدراكية واعية تحكم سلوكها الاجتماعي بالتعاون والمنافسة والتأقلم، ولها مهارات اتصال فائقة (Excellent Communication Skills) منها الاتصال الصوتي اللفظي، والسمعي، والبصري، والإشاري، واللوني أي بتغيير الألوان وبالتأثير المتبادل بين مختلف الأفراد (Reciprocal Stimulation).

وبتطبيق هذه المهارات على مدى يزيد على 55 مليون سنة تكونت عند الغربان حصيلة تجربة هائلة تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل حتى جاء خلق الإنسان ذلك المخلوق المكرّم، ولكنه كان قليل الخبرة في بدء الخلق فأرسل الله تعالى إليه غراباً يعلمه كيف يواري سوءة أخيه.

ويقرر القرآن الكريم في آيات عديدة أن الطيور تسبح الله تعالى، وهي ليست وحدها في ذلك، فجميع الكائنات الحية، بل وكل الجمادات، بل الكون بكل ما فيه يعبد الله تعالى ويسبحه ويمجده إلا عصاة كل من الإنس والجن.

كما يقرر القرآن العظيم أن جميع الدواب والطيور وغير ذلك من المخلوقات هي أمم كأمثال الأمم الإنسية لها منطق؛ أي: لغات تتفاهم بها فيما بينها، وتنسق روابطها الفردية والجماعية بواسطتها، وتتمتع بقدر من الشعور والإدراك الخاص الذي تتفاوت فيه الكائنات من كائن إلى آخر، وتعاون الفطرة السليمة، والإلهام والتسخير تلك المخلوقات غير المكلفة في الثبات على منهج الله.

من هنا تتضح روعة الإشارة القرآنية إلى **الغراب، معلم الإنسان الأول كيفية الدفن الصحيح للموتى**، ويأتي العلم في قمة من عطائه ليؤكد لنا أن الغراب قد وهبه الله تعالى من المواهب الحسية والمعنوية ما جعله أذكى الطيور على الإطلاق، وأقدرها على التحايل، وأنه يملك أكبر حجم لنصفي المخ بالنسبة إلى حجم الجسم في جميع الطيور المعروفة لنا، والتي يزيد عدد أنواعها على العشرة آلاف نوع، وأن له من حدة البصر ما يمكنه من التقاط التفصيلات من الارتفاعات الشاهقة على مساحات تقدر بمئات الكيلومترات المربعة، وبتفاصيل تفوق قدرة الإنسان بثلاث إلى أربع مرات.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: إذا كان القرآن الكريم من كتابة سيدنا محمد ﷺ كما يدعي كثير من الجهلة المفسدين في مختلف بقاع الأرض، فمن الذي أعلمه أن الغراب هو أذكى الطيور ليختاره لمهمة تعليم الإنسان الأول كيفية دفن الميت؟ وإذا كان الادعاء الباطل بأنه استمد هذا العلم من بقايا كتب سابقة على رسالته فموضوع الغراب ليس مذكوراً عندهم على الإطلاق فمن أين جاء به هذا النبي الأمي الذي بعث في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين؟!!

إن هذه الإشارة على بساطتها تقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ ليبقى حجة على الناس جميعاً إلى قيام الساعة.

فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، والحمد لله على حفظ هذا الإسلام العظيم في صياغته الربانية، وإشراقاته النورانية، وفي كماله وتمامه في القرآن الكريم، وفي سُنَّة خاتم النبيين، بينما ضاعت أصول الرسالات السماوية السابقة كلها، وظل ما بقي من ذكريات عن بعضها، نقلت شفاهاً جيلاً بعد جيل يتعرض للتحريف تلو التحريف، وللتبديل والتغيير، وللإضافة والحذف حتى أخرجت عن إطارها الرباني وأصبحت عاجزة عن هداية أتباعها الذين ملأوا الأرض جوراً وظلماً وفساداً وانحرافاً ولا يزالون، وذلك لجهلهم بالدين الصحيح، وعدائهم لأهله، ولجهلهم بحقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة، وانحرافهم عن هداية الله، واتباعهم لغوايات الشيطان الرجيم فنسأل الله ـ تعالى ـ لهم الهداية أو الأخذ بقدرته إنه رب ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ
ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا
هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ **أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا**
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى
هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ
﴿٢٠﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ «سورة المُلك، الآية: 19».

25



هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية الثلث الثاني من سورة «المُلْك»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها ثلاثون (30) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالشهادة لله ـ تعالى ـ بأنه هو ﴿...الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ومن أسماء هذه السورة الكريمة **(المانعة)** و**(المنجية)** لأنها تمنع قارئها من عذاب القبر، وتنجيه منه وذلك لقول رسول الله ﷺ فيها: «**هي المانعة، وهي المنجية، تنجيه من عذاب القبر**»(1).

ويدور المحور الرئيسي لسورة «الملك» حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها الإيمان بالله ـ تعالى ـ رباً واحداً أحداً، بيده ملك كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وبأنه عليم بذات الصدور، وبأن النصر من الله سبحانه وتعالى وحده، وأن الرزق منه وحده، ومن هنا وجبت عبادته وخشيته، والتوكل عليه وحده.

ومن ركائز العقيدة الإسلامية التيقن بأن الله ـ تعالى ـ هو الذي خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً، والإيمان بكل ما وقع بالمكذبين من الأمم السابقة من عقاب، وبأن للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير، وأن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير. والإيمان برسالة الإنسان في هذه الحياة: عبداً مستخلفاً في الأرض يعبد الله ـ تعالى ـ بما أمر، ويقوم بتنفيذ أوامره بالمشي في مناكب الأرض والاجتهاد في عمارتها، وإقامة عدل الله فيها، وهو مؤمن بحتمية العودة إلى الله ـ تعالى ـ يوم البعث

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (الحديث: 2890).

والنشور، وبالآخرة وما فيها من حشر وعرض أكبر أمام الله، وحساب، وجزاء، وخلود إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وتبدأ سورة الملك بقول الحق ﷻ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ «سورة الملك،الآية: 1».

وفي هذا الاستهلال تعظيم لله الخالق ﷻ لأن من معاني **(تبارك)**: تعالى وتعاظم، وكثر خيره، ودام فضله وإحسانه، وثبت إنعامه ثبوتاً لا يزول ولا يحول أبداً، وتنزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

وفي هذا الاستهلال أيضاً تأكيد لتفرد الخالق ﷻ بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين والخالق منزه عن جميع صفات خلقه، ولأن من معاني **(الملك)** أنه السلطان والقدرة ونفاذ الأمر، والذي له ذلك لا يشاركه أحد، ولا ينازعه منازع، وليس في حاجة إلى الصاحبة أو الذرية.

وانطلاقاً من تفرده ﷻ بالملك وبالقدرة على كل شيء، كان إثبات ألوهيته، وربوبيته، ووحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، ومن صفاته ﷻ أنه هو **(العزيز)** أي: الغالب الذي لا يقهر، والذي لا يعجزه شيء، وأنه هو **(الغفور)** أي: العفو عن المقصرين من عباده، الغافر لذنوبهم. ومن تفرده ـ سبحانه ـ بالملك والقدرة، وبخلق الموت والحياة، وبالعزة المطلقة فوق جميع خلقه، وبالعفو والمغفرة لهم، فلا يجوز أن يُعبد سواه، أو أن يُقصد غيره بدعاء أو رجاء أو طلب. ومن مبررات ذلك خلقه ﷻ سبع سمٰوات طباقاً؛ أي: متطابقة حول مركز واحد هو الأرض، يغلف الخارج منها الداخل، ولولا هذا البيان الإلٰهي الذي تكرر عشرات المرات في القرآن الكريم ما كان أمام الإنسان من سبيل لإدراك ذلك، لأن كل ما يراه علماء الفلك في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه لا يتعدى جزءاً من السماء الدنيا وهي دائمة الاتساع، بمعنى أنه كلما طور الإنسان أجهزته فلن يلحق بسرعة اتساعها أبداً، وعلى الرغم من ذلك فإن الإنسان يستطيع أن يدرك ـ بحسه المحدود، وقدراته المحدودة ـ دقة بناء السماء، وإحكام خلق كل صغيرة وكبيرة فيها، فلا خلل ولا نقص، ولا اضطراب، وإلا ما استقام وجود الكون، ولذلك تطالب الآيات كل ذي بصيرة بإعادة النظر في السماء حتى

يتحقق من بديع صنع الله فيها. وتستشهد السورة الكريمة بعدد آخر من الآيات الكونية على صدق ما جاء بها من أمور الغيب ومن ركائز العقيدة الإسلامية. وتختتم بأمر من الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ يقول له فيه:

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ *﴾ «سورة الملك، الآيتان: 29 ـ 30».

من الإشارات الكونية في سورة «المُلك»:

1 ـ الإشارة إلى مرجعية عليا للكون: الله الذي ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وهو ما تنادي به اليوم أحدث الدراسات الفلكية.

2 ـ الإشارة إلى تطابق السمٰوات حول مركز واحد، وإلى بنائها بناءً محكماً بغير فراغات ولا اضطراب، والعلم الكسبي يؤكد أن كوننا كون منحنٍ وذلك لعجز العلماء عن رؤية أبعاد السماء الدنيا كلها، ورؤية جزء منها يثبت ذلك الانحناء ويشير إلى تكور السماء.

3 ـ الإشارة إلى أن النجوم زينة السماء الدنيا، وأن منها رجوم الشياطين أي الشهب والنيازك، والعلم الكسبي يشير إلى وحدة بناء مادة الكون، فالنجوم، والكواكب، والأقمار، والكويكبات، والشهب والنيازك، والمادة بين مختلف أجرام السماء أصلها كلها واحد وهو الدخان الكوني.

4 ـ الإشارة إلى تذليل الأرض للإنسان بحجمها، وكتلتها، وبعدها عن الشمس، وسرعات حركاتها المختلفة، وأنشطتها الداخلية والخارجية المتعددة، ونطق الحماية المهيأة لها، وتشكيل سطحها وضبط تضاريسها، وتكوين صخورها، ومعادنها، وتربتها، وثرواتها، وخلق مختلف صور الحياة عليها، والحكمة البالغة والدقة المتناهية في تحقيق ذلك مما تشهد به العلوم المكتسبة.

5 ـ الإشارة إلى العلاقة بين خسف الأرض ومورانها، وهي علاقة لم تدرك إلا بعد فهم الميكانيكية التي تحدث بها الزلازل.

6 ـ الإشارة إلى الرياح الحاصبة، وهي رياح ذات سرعات عالية تمكنها من حمل الرمال والحصى معها مما يضاعف من قدراتها التدميرية الكبيرة.

7 ـ ذكر طرائق تحليق الطيور في السماء تارة بجناحين مبسوطين ساكنين، وتارة أخرى بجناحين متحركين إلى أعلى وإلى أسفل يضمان ثم يبسطان بسرعات فائقة مما يشهد للخالق ﷻ بطلاقة القدرة في الخلق.

8 ـ تأكيد أن الله ﷻ هو خالق الإنسان، ومبدع جميع حواسه، وفي مقدمتها السمع والأبصار والأفئدة. وتقديم السمع على الأبصار في سورة «الملك»، وفي غيرها من سور القرآن الكريم أثبتت الدراسات العلمية مؤخراً دقته العلمية، وذلك لأن أول الحواس نضجاً في وليد الإنسان هو السمع، وآخرها اكتمالاً هو البصر. كما أن الجنين يسمع وهو في بطن أُمه ولا يرى.

9 ـ الإشارة إلى إمكان غور الماء في الآبار، وهي ملاحظة علمية دقيقة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة السابعة من القائمة السابقة والتي تتعلق بطرائق تحليق الطيور في جو السماء كما تصفها الآية رقم (19) من سورة «المُلْك». وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من العلماء في تفسير هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾

«سورة المُلك، الآية: 19».

- ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ أي تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي في الجو ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته..».

- وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتهن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أجنحتهن بعد البسط أي: وقابضات ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عن الوقوع حال البسط والقبض ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾

بقدرته ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ المعنى: ألم يستدلوا بثبوت الطير في الهواء على قدرتنا أن نفعل بهم ما تقدم وغيره من العذاب؟».

● وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما مختصره: «... وهذه الخارقة التي تقع في كل لحظة، تنسينا بوقوعها المتكرر، ما تشي به من القدرة والعظمة. ولكن تأمل هذا الطير، وهو يصف جناحيه ويفردهما، ثم يقبضهما ويضمهما، وهو في الحالين: حالة الصف الغالبة، وحالة القبض العارضة يظل في الهواء، يسبح فيه سباحة في يسر وسهولة، ويأتي بحركات يخيل إلى الناظر أحياناً أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع!.. والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد المثير: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾؟.. ثم يوحي بما وراءه من التدبير والتقدير: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ والرحمن يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب، الملحوظ في كل صغيرة وكبيرة، المحسوب فيه حساب الخلية والذرة.. النواميس التي تكفل توافر آلاف الموافقات في الأرض والجو وخلقه الطير، لتتم هذه الخارقة وتتكرر، وتظل تتكرر بانتظام. والرحمٰن يمسكهن بقدرته القادرة التي لا تكل، وعنايته الحاضرة التي لا تغيب، وهي التي تحفظ هذه النواميس أبداً في عمل وفي تناسق وفي انتظام، فلا تفتر ولا تختل ولا تضطرب غمضة عين إلى ما شاء الله: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾.. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ يبصره ويراه، ويبصر أمره ويَخْبره، ومن ثم يهيىء وينسق، ويعطي القدرة، ويرعى كل شيء في كل لحظة، رعاية الخبير البصير..».

● وذكر كلٌّ من صاحب صفوة البيان وصاحب صفوة التفاسير ـ جزاهما الله خيراً ـ كلاماً مشابهاً، إلا أن الأخير أضاف لمحة لغوية جميلة عن صاحب التسهيل لعلوم التنزيل قال فيها: «... ولما كان الغالب هو فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبر عنه بالاسم ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ وكان القبض متجدداً عبر عنه بالفعل ﴿وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾». قال في التسهيل: «فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل (قابضات) على طريقة ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾؟ فالجواب: أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مد الأطراف هو الأصل في السباحة، فذكره بصيغة اسم الفاعل ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ لدوامه وكثرته، وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلاً للاستراحة والاستعانة، فلذلك ذكره بلفظ الفعل لقلته..».



- كذلك ذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ كلاماً مشابهاً، ولكن أضاف الخبراء بالهامش كلاماً علمياً رائعاً جاء فيه: «الصف هو أن يبسط الطائر جناحيه دون أن يحركهما، وفي طيران الطيور آيات معجزات لم نفهم بعضها إلا بعد تقدم علوم الطيران ونظريات الحركة (الديناميكا) الهوائية، ولكن أكثر ما يثير العجب هو أن يمضي الطائر في الجو بجناحين ساكنين حتى يغيب عن الأبصار، وقد كشف العلم أن الطيور الصافة تركب متن التيارات الهوائية المساعدة التي تنشأ إما من اصطدام الهواء بعائق ما، أو من ارتفاع أعمدة من الهواء الساخن، فإذا ما كانت الريح هينة ظلت الأعمدة قائمة وصفت الطيور في أشكال حلزونية، أما إذا اشتدت انقلبت الأعمدة أفقياً فتصف الطيور في خطوط مستقيمة بعيدة المدى. وتتحلى الطيور عامة بخصائص منها خفة الوزن، ومتانة البناء، وعلو كفاءة القلب ودورة الدم وجهاز التنفس، ودقة اتزانها، وانسياب أجسامها، وهي خصائص أودعها فيها العليم البصير لتحفظها في الهواء حين تبسط جناحيها أو تقبضهما، إلا أن الطيور الصافة تتميز على سائر الطيور باختصار حجم عضلات صدورها مع قوة الأوتار والأربطة المتصلة بأجنحتها حتى تستطيع بسطها فترات طوال من دون جهد كبير. أما الطيور صغار الأحجام، التي تعتمد


رسم تفصيلي لقوائم ومخالب الطيور المختلفة

في طيرانها على الدفيف فإنها تضرب بجناحيها إلى أسفل وإلى الأمام لتوفير الدفع والرفع اللازمين لطيرانها ثم تقبض أجنحتها ولكنها تظل طائرة بقوة اندفاعها المكتسبة، وهكذا يتضافر البناء التشريحي والتكوين الهندسي للطيور بجميع أنواعها على طيرانها وحفظ توازنها وتوجيه أجسامها في أثناء الطيران».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ...﴾ :

إن في إعطاء الطيور القدرة على ارتقاء الهواء، والسبح فيه بكفاءة عالية، لهو من أعظم الدلالات على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الكون، والتي أعطت لكل كائن حيّ القدرة على التوافق مع البيئة التي أوجده الخالق العظيم فيها، كما أعطت كل بيئة من بيئات الأرض من الظروف الطبيعية والكيميائية ما يتلاءم مع مختلف الكائنات التي أوجدها الله ـ تعالى ـ فيها، ومن هنا كان لفت أنظار المكذبين بالدين إلى هذه الحقيقة الكونية التي يمر عليها كثير من الناس بقلوب غافلة، وعقول شاردة، وأبصار عليها غشاوة لعل ذلك أن يوقظهم من غفلتهم..!!

والطيور من الحيوانات ذات الفقار، والدم الحار، والأجنحة، والريش، والمناقير القرنية التي حلت محل الفكوك بلا أسنان، والتي تمشي على رجلين نظراً لإحلال الجناحين محل الطرفين الأماميين، والتي تبيض إناثها، وتحتضن البيض حتى يفقس، وترعى صغارها حتى تكبر. وتختلف الطيور في أحجامها من بضعة سنتيمترات إلى عدة أمتار، كما تختلف في أشكالها، وأشكال مناقيرها، وأقدامها، وأنواع طعامها، فمنها ما يتغذى على الحبوب، أو الثمار، أو رحائق الأزهار، ومنها ما يأكل اللحوم بدءاً من الحشرات وانتهاء بالثدييات الصغيرة، ومنها ما يأكل الجيف.

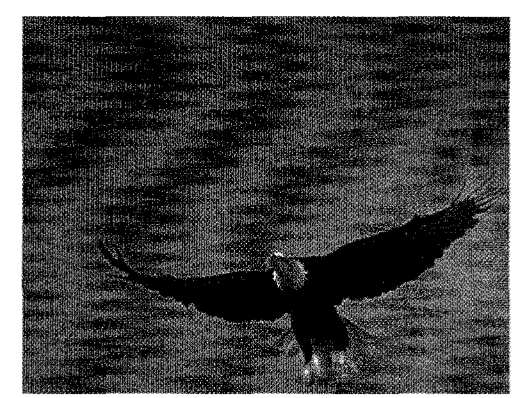
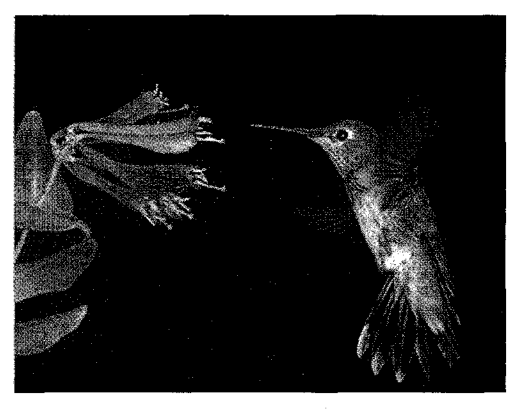
وهذه المجموعة من الفقاريات التي أعطاها الخالق ﷻ القدرة على الطيران (وإن كان القليل منها لا يطير) تضم في طائفة واحدة تعرف باسم طائفة الطيور (Class Aves = Birds) وتحتوي هذه الطائفة على نحو العشرة آلاف نوع (أكثر من 8600 نوع من أنواع الطيور المعروفة اليوم) والتي تصنف في نحو (27) رتبة، ويعتقد أنها تمثل اليوم بأكثر من عشرة بلايين طائر بري يعيش في مختلف بيئات اليابسة، بالإضافة إلى بلايين الأفراد من الطيور البحرية المعروفة وغير المعروفة والتي تزخر بها محيطات الأرض وبحارها التي تغطي مياهها أكثر قليلاً من 71٪ من مساحة الكرة الأرضية.

والطيور عمرت الأرض منذ أكثر من تسعين مليون سنة مضت؛ أي: منذ العهد الطباشيري المتأخر (The Late Cretaceous Epoch)، وإن كانت الطيور الحديثة لم تعرف إلا منذ حوالي ستين مليون سنة فقط؛ أي في عهد الباليوسين أو الفجر القديم للحياة الحديثة (The Paleotene Epoch)). وإن كان الصيد الجائر بواسطة الإنسان يتهدد العديد من الطيور اليوم بالانقراض.

وقد وهب الخالق ﷻ الطيور عدداً من الصفات الشكلية والتشريحية من أجل تمكينها من الطيران منها ما يلي:

1 ـ الشكل الخارجي الانسيابي للجسم بصفة عامة حتى يسهل اختراقه لطبقة الهواء.

2 ـ الجناحان المدعومان بعظام الطرفين الأماميين، والمشدودان إلى الجسم بمفاصل

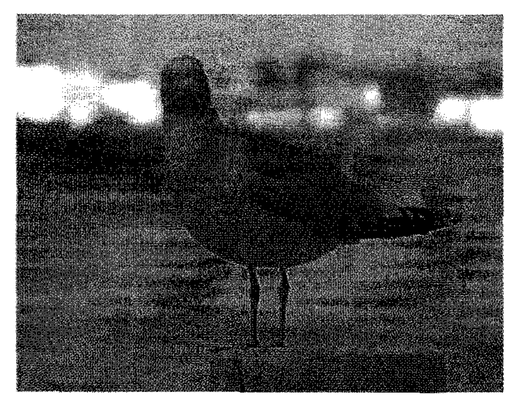



تسهّل حركتهما، وبعدد من الأربطة والأوتار القوية، والمغطيان بالريش بكثافة ملحوظة مما يزيد من مساحة جسم الطائر دون زيادة ملحوظة في وزنه.

3 ـ الريش الذي يغطي الجسم بالكامل ويمتد في الذنب، والذي يعمل على تجميع الهواء بين وحداته المختلفة مما يساعد على تخفيف وزن الطائر، وعلى حفظ درجة حرارة جسمه المرتفعة من مختلف التقلبات الجوية، ويعين الكثير من الطيور على العيش في المناطق المتجمدة والباردة، وعلى تحمل الانخفاض في درجة حرارة الغلاف الجوي للأرض مع الارتفاع فوق مستوى سطح البحر إلى مسافات شاهقة في بعض الأحيان.

4 ـ خفة وزن الهيكل العظمي للطائر، وامتلائه بالهواء خاصة في العظام الطويلة، مع صلابته وشدة تماسكه والتحامه، وامتداد عظمة القص إلى أسفل على هيئة حافة القارب السفلي لكي تعطي مساحة كافية لارتباط عضلات الصدر المحركة للأجنحة (عضلات الطيران) وتعطيها قدراً من المتانة والقوة. ومعظم أجزاء الهيكل العظمي للطيور متراكب وملتحم مع بعضه بعضاً زيادة في قوته ومتانته، فباستثناء الفقرات العنقية فإن بقية الفقرات تلتحم مع الحزام الحوضي مكونة ما يسمى باسم العجز المركب.

5 ـ بالإضافة إلى الرئتين زوَّد الخالق ﷻ أجسام الطيور بشبكة من حويصلات الهواء التي تتشعب في مختلف أجزاء الجسم، مما يضاعف الحيز الموجود لتخزين الهواء إلى عشرة أضعاف حجم الرئتين.





6 ـ إعطاء الطيور القدرة على تناول كميات كبيرة من الأطعمة ذات الطاقة الحرارية العالية تفوق بكثير أوزان أجسامها، وتزويد الجهاز الهضمي للطائر بكل من الحوصلة (Crop) كمخزن للغذاء، والقونصة (Gizzard) التي تعمل على طحن الغذاء قبل وصوله إلى المعدة، مما يساعد على إتمام وإسراع عمليات الاحتراق الداخلي للطعام، وإنتاج الطاقة التي تحتاجها الطيور في أثناء عمليات الطيران بسرعات كبيرة ولمدد طويلة.

7 ـ تزويد الطيور برئات لها ممرات خاصة لكلٍّ من الهواء الداخل إليها والخارج منها، وبقدرات فائقة على استخلاص الأكسجين من الهواء مهما قلت نسبته حتى تقاوم نقص هذا الغاز المهم في الارتفاعات الشاهقة.

8 ـ وهب الخالق ﷻ الطيور قلوباً ذات كفاءة عالية، ويتكون قلب الطائر من أربع حجرات منفصلة مما يحفظ الدم المؤكسد بمعزل عن الدم غير المؤكسد، ويعمل على سرعة دوران الدم بشكل فعال وبكفاءة عالية في كل الجسم.

9 ـ جعل درجة حرارة أجسام الطيور عالية نسبياً (في حدود 41 درجة مئوية) مما يعين على إتمام وسرعة إنجاز عمليات الاحتراق الداخلي للطعام، وفي الوقت نفسه يساعد ذلك على مزيد من إنتاج الطاقة التي تحفظ درجة حرارة الجسم ثابتة مهما انخفضت درجات حرارة الجو المحيط.

10 ـ إعطاء الطيور قدرات إبصار ورصد فائقة، ومراكز لتنظيم الحركة على درجة عالية

من التقدم، من أجل الرؤية، وتجميع المعلومات من الارتفاعات الشاهقة التي تصل إليها لرصد الطعام، والمناورة لتحاشي الأعداء.

11 ـ القدرة الفائقة التي وهبها الخالق ﷻ للطيور في التعرف على المواقع والاتجاهات والطرق التي تسلكها في هجراتها وعودتها إلى مواطنها الأصلية مهما تعاظمت المسافات التي تقطعها.

هذه الميزات التي خص الله ﷻ بها الطيور فمكنها من الطيران بسرعات تقارب المائة كيلومتر في الساعة، وإلى ارتفاعات تصل إلى قرابة التسعة كيلومترات فوق مستوى سطح البحر، والتي لم يتمكن الإنسان من تقليدها إلا في القرن العشرين بعد مجاهدة استغرقت الآلاف من العلماء، كأنها هي المقصودة بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ...﴾ وهو سؤال تقريعي، تبكيتي، تقريري موجه إلى كل كافر ومشرك وجاحد لعله يلتفت إلى شيء من قدرة الله المبدعة في خلقه للطيور، وتلك المواهب الفطرية المعجزة التي مكنتها من الطير قبل أن يتمكن الإنسان من تحقيق شيء من ذلك بملايين السنين، هذا فضلاً عن الإعجاز في ألوانها الزاهية، وأصواتها المغردة، وإدراكها المذهل، وقدراتها على التخاطب والتفاهم فيما بينها، وعلى تحديد مناطق نفوذها، واتجاهات هجراتها، وعلى غير ذلك من الصفات التي تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وبإحكام الخلق.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿...صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ...﴾:

إن الإعجاز في خلق الطيور لا يتوقف عند حدود الصفات الشكلية والتشريحية المحكمة التي وهبها إياها الله ﷻ، ولكنه يتعدى ذلك إلى القدرات الفائقة التي أعطاها الخالق العظيم لهذه المخلوقات الضعيفة فمكنتها من إتقان المناورة في جو السماء بذكاء ودقة بالغين، وذلك لأن هناك فرقاً بين سرعة الجسم المتحرك في الهواء (Air Speed) وسرعته إذا تحرك على سطح الأرض(Ground speed). فالسرعة في الهواء تعني سرعة كتلة الغاز مروراً فوق الجسم المتحرك، أما سرعته على الأرض فتعني سرعة الجسم المتحرك نفسه في اختراقه للغلاف الغازي المحيط بالأرض والذي تصل سرعته إلى الصفر فوق سطح الأرض أياً كانت سرعاته في مستوياته الأعلى، لذلك يتم طيران الطيور بمناورات بالغة الذكاء والدقة.

ويتم طيران الطيور بعمليتين أساسيتين هما الصف أو التحليق (Gliding or Soaring) والقبض، أو الخفق، أو الرفرفة، أو ضم الجناحين وبسطهما، أو ما يعرف أحياناً باسم التصفيق بالجناحين (Flapping). والصف أو التحليق هو بسط الجناحين إلى أقصى امتداداتهما، دون تحريكهما على هيئة سطح انسياب هوائي (Air foil) حاكاه الإنسان في صنع جناحي الطائرة. وباندفاع الطائر وسط كتلة الهواء يندفع الهواء إلى أسفل الجناحين مما يزيد الضغط عليهما فيساعد ذلك الطائر على الارتفاع إلى أعلى، وعلى التقدم بالانزلاق إلى الأمام. ويتحقق دفع الطائر إلى الأمام بتحكمه في زاوية ميل كل جناح من الجناحين، وفي درجة انحناء كل منهما، وبذلك يتحرك الهواء فوق الجناحين وأمامهما بسرعة تزيد على سرعته أسفل منهما وخلفهما مما يقلل الضغط فوق الجناحين وأمام الطائر باستمرار، فيساعده على الاندفاع في الطيران إلى الأمام وإلى أعلى كلما أراد ذلك. ومن الذكاء الفطري الذي وهبه الله ـ تعالى ـ للطيور ما يمكنها من ركوب متن التيارات الهوائية أو الرياح، في عملية تسمى عملية التزلج الديناميكي (Dynamic gliding or soaring).

وتعرف الرياح بأنها الهواء المتحرك حركة مستقلة عن ارتباطه بجاذبية الأرض، ويلعب الدور الرئيسي في ذلك كل من اختلاف معدلات الضغط الجوي باختلاف درجات الحرارة من منطقة إلى أخرى وباختلاف كم الطاقة الشمسية عبر خطوط العرض المختلفة، ودوران الأرض حول محورها، بالإضافة إلى تباين التضاريس الأرضية.

وتقسم الرياح بالنسبة لارتفاعها إلى **رياح سطحية، ومتوسطة، ومرتفعة**. وبالنسبة لشدتها من صفر **للرياح الساكنة** إلى12 درجة لأعلاها وهي (الأعاصير). ونتيجة لذلك تكونت دورة عامة للرياح شديدة الانتظام حول الأرض وذات عدة دوائر كبيرة بين خط الاستواء وكل واحد من قطبي الأرض مع وجود عدد من الجبهات الهوائية بين تلك الدوائر، ويزيد من تعقيد هذه الصورة التباين بين اليابسة والماء، وفي تضاريس اليابسة، والاختلافات الفصلية، وما ينشأ عن ذلك من حركات أفقية ورأسية للرياح تستغلها الطيور في حركتها في الهواء بذكاء بارع، فإذا كانت الرياح أفقية فإن الطيور تصف في خطوط مستقيمة موازية تماماً لاتجاه هبوب الرياح، وإذا كانت الرياح رأسية استغلتها الطيور الصافة في الارتفاع إلى أعلى في أشكال حلزونية موازية تماماً لحركة دوامات الرياح إلى أعلى.

والطيران بواسطة الصف أي الانزلاق المستمر (Constant Gliding) شائع في الطيور الكبيرة خاصة إذا أرادت التحرك لمسافات بعيدة.

أما القبض أو الخفق أو الرفرفة (Flapping) فهي طريقة الطيران المثلى لمسافات قصيرة، وتنتشر بالأخص بين الطيور الصغيرة الحجم. وهذه الطريقة تستدعي حركتين سريعتين هما الضرب بالجناحين إلى أسفل ثم إلى أعلى، والحركة الأولى تدفع بالطائر إلى الأمام، والثانية تدفع به إلى أعلى، خاصة إذا كانت مقدمة الجناح مائلة إلى الأمام ولو قليلاً مما يدفع بالهواء إلى الخلف ويدفع بالطائر إلى الأمام، بينما يبقى معظم الجناح عمودياً على الجسم فيساعد في ارتفاع الطائر إلى أعلى، وبذلك يتحقق للطائر كلٌّ من الدفع إلى الأمام والرفع إلى أعلى، ويتحكم في ذلك الطائر بتحكمه في حركة أجنحته. وعادة ما تضم الطيور أجنحتها في أثناء الضرب إلى أعلى كي لا تدفع بكميات كبيرة من الهواء في هذا الاتجاه، وإذا وصل الطائر إلى السرعة المناسبة له قبض جناحيه إلى جنبيه ويظل محمولاً بقوة الاندفاع المكتسبة من قبل، وبتغيير درجة ميل أي من الجناحين يستطيع الطائر تغيير اتجاهه في الهواء حيث يشاء، ومهما كانت سرعة الرياح من حوله، ويعينه في ذلك ذنبه الذي يلعب دوراً مهما في تلك المناورات. ويستطيع الطائر أن يحقق رفع جسمه إلى أعلى بسرعة الضرب بجناحيه إلى أعلى وأسفل مستخدماً في ذلك عضلات صدره القوية، **وقد تصل حركة الجناحين إلى سبعين خفقة في الثانية، وتصل سرعة الطائر إلى حوالي المائة كيلو متر في الساعة كما هو الحال في الطائر المعروف باسم الطنان الذي يضرب بجناحيه إلى الأمام والخلف في عملية شبيهة تماماً بعملية التجديف في الماء فيرسم بحركة جناحيه في الهواء الرقم (8) في وضع أفقي بالنسبة إلى جسم الطائر مما يمكنه من تحريك جسمه مع كل ضربة إلى أعلى أو إلى أسفل.**

ومن الإبداع الإلٰهي في خلق الطيور ارتباط جناحي الطائر بجسمه بواسطة نظام دقيق من المفاصل يسمح للطائر بتغيير زاوية ميل كل جناح على حدة بالنسبة لجسمه، ففي الضرب بالجناحين إلى أسفل يكونان مفرودين إلى أقصى امتداداتهما باستقامة كاملة عمودياً على الجسم مما يمكنهما باندفاعهما إلى الأمام من دفع أكبر كمية ممكنة من الهواء إلى أسفل فيرتفع ذلك بالطائر إلى أعلى وإلى الأمام، ولكن في رفع الجناحين إلى أعلى يضمهما الطائر بإلهام من الله الخالق ﷻ كي لا يدفعا إلى أعلى إلا قدراً ضئيلاً من الهواء تماماً كما

يفعل الذي يقوم بالتجديف في الماء بين ضربته الخلفية الشديدة التي تدفعه إلى الأمام، وضربته الأمامية الخفيفة التي تهيئ للضربة الخلفية التالية.

ومن الفطرة التي فطر الله ـ تعالى ـ الطيور عليها البدء بالطيران المنخفض البطيء ثم زيادة كل من السرعة والارتفاع بالتدريج حتى تصل إلى أقصى معدلات ذلك، **والطيور عادة ما تتحرك في الهواء بسرعات تتراوح بين (30) و(50) كيلومتراً في الساعة، وقد يتزايد ذلك إلى (75) كيلومتراً في الساعة، ولكنها إذا طوردت فإن بإمكانها زيادة سرعتها إلى أكثر من 100 كيلومتر في الساعة، ولكن بعض الجوارح من الطيور مثل الصقور لها سرعات أعلى بكثير إذ تتراوح سرعات طيرانها بين (160) و (320) كيلومتراً في الساعة. ويمكن للطائر أن يستمر في الطيران لمدد تتراوح بين (5) و(6) ساعات متصلة بسرعات تتراوح بين (25) و(30) كيلومتراً في الساعة.**

ومعظم الطيور لا تكاد تتعدى في طيرانها ارتفاع (150) متراً فوق مستوى سطح البحر، ولكنها في هجراتها الطويلة ترتفع إلى منسوب (3000) متراً في المتوسط فوق مستوى سطح البحر (بمدى يتراوح بين (1500) متراً، و(6000) متراً) وذلك للاستفادة بالتناقص الشديد في كل من الضغط والحرارة عند تلك الارتفاعات، ولتجنب الجفاف بالبعد عن الهواء الحار الملامس لسطح الأرض والقريب منه في أثناء بذل هذا المجهود المضني في رحلات الهجرة الطويلة. **وأعلى ارتفاع شوهدت عليه هجرة الطيور وصل إلى نحو التسعة كيلومترات حين شوهدت من إحدى الطائرات، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد وهب الطيور قدرات خاصة لاستخلاص أقل قدر ممكن من أكسجين الهواء الذي تتناقص نسبته بالارتفاع وهو ما لا يستطيعه الإنسان وما لا تستطيعه جميع الحيوانات الثديية ومنها الخفافيش.**

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾:

من كل ما سبق يتضح بجلاء لكل ذي بصيرة أن الذي فطر الطير على صفات شكلية وتشريحية محددة أعطته القدرة على الطيران هو الله الخالق سبحانه وتعالى، والذي زوده بقدر من الذكاء وحسن الإدراك ليمكنه من حسن القيام بالمناورات المعقدة وهو في مهب الريح بصف جناحيه في الوقت المناسب، وخفقهما أو قبضهما في الوقت المناسب، وإمالة جناحيه، أحدهما أو كليهما، بالزوايا المناسبة، فوهبه بذلك القدرة على التحكم في الاتجاه، والارتفاع، والسرعة المناسبة في كل حالة، وعلى الإقلاع والهبوط حيث أراد، وعلى

الانقضاض على الأرض والارتفاع عنها في لمح البصر، والذي وهب الطير كل ذلك هو الله الخالق (جلت قدرته)، وهذا الإلٰه الخالق، المبدع، المصور، الرحمٰن، الرحيم يمسك بالطير في جو السماء بالنواميس التي وضعها بإحكام وقدرة بالغيْن.. في كل من الغلاف الغازي للأرض وجسم الطير، وفي تصريف الرياح، والتوزيع الدقيق لتضاريس الأرض، وتوزيع درجات الحرارة على سطحها، فجاء كل أمر منها في تناسق فريد، وتناغم معجز يشهد لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة، وعظيم الصنعة، وإبداع الخلق...!! ولم يكن لأحد من الخلق إدراك لتفاصيل حركات الطير في جو السماء إلا في القرنين الماضيين، تلك الحركات المعقدة والدقيقة التي لم يستطع الإنسان محاكاة شيء منها إلا في القرن العشرين، وفي العقود المتأخرة منه على وجه التحديد، وبعد مجاهدات طويلة وعسيرة استغرقت أعمار الآلاف من العلماء، لعشرات، بل لمئات من السنين، حتى أصبحت حركات الطير في جو السماء علماً يدرس في أغلب جامعات العالم تحت مسمى **هندسة الطيران** الذي يشمل **علوم التحرك في الهواء، ديناميكية الهواء، بناء الطائرات والنفاثات والصواريخ، والملاحة في الهواء**)، والمعلم الأول في هذا العلم هو الطير:.. ﴿صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾

من هنا تأتي هذه الإشارة القرآنية المعجزة سبقاً علمياً بثلاثة عشر قرناً للمعارف الإنسانية كلها التي لم تتمكن من بناء طائرة بدائية جداً إلا في مطلع القرن العشرين (1903 م)، وهذا السبق العلمي لا يمكن لعاقل أن يتخيل له مصدراً غير الله الخالق الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ، وحفظه حفظاً كاملاً في ذات لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بذلك إلى أن يرث ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، والحمد لله الذي حفظ لنا رسالته الخاتمة في صفائها الرباني، وإشراقاتها النورانية في كتابه العزيز، وسنة نبيه المطهرة وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ
نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ
وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ
رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ **وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ**
أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

سورة النمل

26



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾

«سورة النمل، الآية: 20».

26

هذه الآية الكريمة جاءت في بداية الخمس الثاني من سورة «النمل»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (93) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى وادي النمل الذي مر به نبي الله سليمان وجنوده. فنطقت نملة بلغتها الخاصة بها آمرة بقية النمل بالدخول إلى مساكنهم ومحذِّرة إياهم من إمكانية أن يطأهم سليمان وجنوده بأقدامهم أو بحوافر خيلهم فيحطموهم وهم لا يشعرون، وفي ذلك من الدلالات القاطعة على تملك النمل ـ كغيره من بقية المخلوقات ـ لقدر من الإدراك والفهم والنطق؛ والدراسات العلمية في مجال سلوك الحيوان قد بدأت بالفعل في تأكيد ذلك.

وسورة «النمل» ـ مثلها مثل السورة المتقدمة عليها في المصحف الشريف (سورة الشعراء) والسورة اللاحقة بها (سورة القصص) ـ تستعرض قصص عدد من الأمم السابقة لاستخلاص العبرة، وتعلم الدرس من تعامل تلك الأمم مع رسالة السماء، ونتائج ذلك التعامل، ومقارنة مواقف الكفار والمشركين في الجزيرة العربية من خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، مع مواقف أمثالهم من رسلهم السابقين ومواقف أمثال أمثالهم مع الدعاة إلى الله من بعد ذلك العصر وحتى يوم الدين.

ويدور المحور الرئيسي للسورة الكريمة حول قضية العقيدة الإسلاميّة بركائزها المختلفة. وكنا قد استعرضنا في فصل سابق كلاً من ركائز العقيدة والتشريعات الإسلاميّة والإشارات الكونية التي جاءت في سورة «النمل». وقبل البدء في شرح الدلالة العلمية للآيات (20) إلى رقم (26) من سورة «النمل»، لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآيات القرآنية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ *﴾ «سورة النمل، الآيات: 20ـ26».

- ذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما مختصره: «... ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب، صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبأ، ويقظة إلى طبيعة موقفه، وتلميح وإيماء أريب... فهو يدرك أن هذه ملكة، وأن هؤلاء رعية، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السمٰوات والأرض، وأنه هو رب العرش العظيم... وما هكذا تدرك الهداهد. إنما هو هدهد خاص أوتي هذا الإدراك الخاص، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف». ومع تقديرنا لهذا الكلام الجميل، ولجهاد صاحبه الذي لا ينكر، والذي نسأل الله ـ تعالى ـ أن يكون ثقيلاً في ميزان حسناته ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *﴾ إلا أننا نقرر هنا أن هكذا كل الطيور، وجميع المخلوقات غير المكلفة: تعرف ربها بالفطرة، ولها قدر من المعرفة والذكاء والوعي والإدراك، وعلى ذلك فإن هدهد نبي الله سليمان لم يكن هدهداً خاصاً، ولم يكن مميزاً عن غيره من الهداهد.
- وقال بقية المفسرين كلاماً مشابهاً لا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للآيات الكريمة:

(الطائر) في اللغة هو كل حيوان من ذوات الفقار له جناحان يمكنانه من السبح في الهواء وإن لم يفعل ذلك، وجمعه **(طير)** وإن أطلق هذا اللفظ على المفرد أيضاً. وجمع الطير **(طيور)** و**(أطيار)**.

يقال (طار) (يطير) (طيرورة) و(طيراناً)، و(أطاره) غيره أو (طيّره) أو (طايره) بمعنى واحد،

و(الطيّار) هو الذي يطير أو يقود طائرة، وأرض (مَطارة) أي كثيرة الطير، و (المطار) مكان انطلاق عمليات الطيران ويقال: (تطاير) الشيء بمعنى تفرق أو طار، و(استطار) بمعنى انتشر، و(استطير) بمعنى طُيِّر. و(طائر) الإنسان عمله الذي قلده أو طار عنه من خير أو شر.

ويقال: كأن على رؤوسهم (الطير) إذا سكتوا من هيبة أو خوف. كما يقال: (تطيّر) فلان و(اطّير) بمعنى تشاءم وإن كان أصله التفاؤل بالطير ثم استعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم، وإن غلب استعماله في التشاؤم، و(الطير) و(الطيرة) اسم من التطير أي التشاؤم. وفي الحديث «**أن رسول الله ﷺ كان يحب الفأل الحسن ويكره الطيرة**»[1].

ولفظة **(الطير)** جاءت في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً، وجاء الفعل (يطير) مرة واحدة، وجاءت لفظة (طائر) بمعناها الحيواني مرة واحدة كذلك، ولفظة (طيراً) جاءت ثلاث مرات، وجاء الفعل (تطير) و(اطّير) و(يطّير) بمعنى تشاءم مرة واحدة لكل، وجاء الاسم (طائركم) بمعنى شؤمكم مرتين.

وجاء لفظ **(طائر)** بمعنى العمل مرتين، وجاءت الصفة (مستطيراً) بمعنى فاشياً منتشراً مرة واحدة.

وجاء اسم **طائر (الهدهد)** مرة واحدة في القرآن الكريم، وهو طائر أنيق، يتسم بالذكاء، واليقظة، والحذر وسرعة الملاحظة، وقوة الذاكرة، وسعة الحيلة، والإيمان الفطري، والتسبيح غير الإرادي، والقدرة على التعبير، وتوحيد الله ـ تعالى ـ وتسبيحه بصورة تكاد تكون متصلة، والدعوة إلى الخير بلا توقف، وإلى عبادة الله ﷻ وحده، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن قتله بما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال فيه: «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد»[2].

والهدهد اسمه العلمي (Upupa epops) واسمه الدارج باللغة الانجليزية (Hoopoe) وينسب إلى فصيلة الهداهد (Family Upupidae) وهي من فصائل الطيور ذات المنقار العظمي (Hornbill) ولا يعرف منها أكثر من سبعة أنواع من الهداهد التي تعتبر من الطيور النادرة في

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب (الحديث: 3536) وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب (الحديث: 5258). وابن ماجه في كتاب: الصيد (الحديث: 3224)، والإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنه.



أوروبا والأمريكيتين، وإن انتشرت في كل من المناطق الاستوائية والمعتدلة من القارتين الإفريقية والآسيوية.

والهدهد طائر صغير يبلغ طوله حوالي 30 سنتيمتراً، ويتميز بأرجله القصيرة وأقدامه العريضة، ومخالبه القوية، وتاجه الريشي الجميل وذيله المربع، وريشه المزخرف، ومنقاره الطويل، الرقيق، المعقوف قليلاً إلى الأسفل، وجناحاه العريضان المدوران، وصوته الموسيقي الناعم الذي يتردد مرة كل ثانيتين تقريباً.

والهدهد يمشي على الأرض بخطى سريعة، ويجري بسرعة ملحوظة، ويعيش عادة في المناطق المفتوحة، النائية عن السكان، والمكسوّة بالخضرة إلى مسافات كبيرة، ويُرى أفراداً، وفي بعض الأحيان يُرى أزواجاً، وفي البعض النادر يُرى في جماعات. والهدهد يطير بقوة وبمباشرة فيها شيء من الفجائية، ويحط على الأرض باندفاع وفجائية كذلك. ويتغذَّى أساساً على الحشرات ويرقاتها، وعلى بعض اللافقاريات الصغيرة من مثل العناكب، وذوات المائة قدم، وديدان الأرض، وغيرها.

وبما وهبه الله ـ تعالى ـ من قوى الذكاء الفطري يستطيع الهدهد تخليص ما لا يفيده من طعام من فريسته وذلك من مثل الأصداف، والأجنحة، والأرجل، والزوائد الأخرى، وذلك

بضرب فريسته في الأرض عدة مرات حتى يتخلص من تلك الأجزاء التي لا تفيده، ثم يمزق الفريسة المنظفة بواسطة منقاره، ويبتلعها جزءاً جزءاً.

والهدهد يستخدم الفتحات والفراغات الموجودة في العديد من الأشجار أو في فتحات الصخور أو في أسقف وجدران المباني لاستعمالها عشاً له ولفراخه بعد فرشها بالقش، أو الأعشاب، أو أوراق الشجر، حيث تضع الأنثى بيضها وتحتضنه لمدة (16) إلى (19) يوماً ولا تغادره حتى يفقس، وعلى الذكر أن يوافيها بالطعام طوال هذه المدة. وبعد أن يفقس البيض، وتخرج منه الفراخ الصغار تحتضن الأم صغارها لمدة ثمانية أيام أخرى في المتوسط لأنها قد تزيد على ذلك وقد تقصر، **والهداهد من أكثر الطيور وفاء لأمهاتها، وحناناً على صغارها.**

والعلوم المكتسبة في مجال سلوك الحيوان وإن أدركت مؤخراً **قوة الملاحظة، والتمييز، والقدرة على التعبير** في العديد من الحيوانات (ومنها الطيور) إلا أنها لا تستطيع أن تعرف بدقة قدرات كل كائن حي على إدراك الأحداث التي تمر أمام ناظريه، وعلى الانفعال بها، والتفاعل معها ولا كيفيات عمل المخ في كل واحد من هذه الكائنات الحية، وإن تحققت من قدراتها على السمع والإبصار، والمعرفة، وتخزين المعلومات وتحليلها، وتمييزها، وتبويبها، والانفعال بها، والتعبير عن ذلك بوسائلها المختلفة. وقد صدرت مؤخراً مؤلفات عديدة بعناوين من مثل: ذكاء الحيوان وقدرته على كل من التفكير والسلوك: (Animal Intelligence, Thinking and Behaviour)، وعندما تبكي الفيلة: (When Elephants Weep)، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقائق من قبل أن يصل إليها علم الإنسان بأكثر من ألف وأربعمائة سنة مما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ وحفظه حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بهذا الحفظ إلى قيام الساعة كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وبكل ما جاء فيه من حق حتى يبقى القرآن الكريم حجة على جميع الخلق إلى يوم الدين، وما ذلك على الله بعزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ
وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ٤٠ وَلَقَدۡ
صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١ قُل لَّوۡ
كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا
٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ **تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ**
ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ
وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤ وَإِذَا
قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ...﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44».

27

هذا النص القرآني الكريم جاء في نهاية الثلث الأول من سورة «الإسراء»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (111) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة في مطلعها إلى رحلة الإسراء من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، والتي تلاها المعراج من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى، مروراً بالسمٰوات العلى، وقد كان في هذه الرحلة من التكريم لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ما لم ينله مخلوق من قبل ولا من بعد.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «الإسراء» حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها الأساسية التوحيد الخالص لله تعالى ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وتنزيهه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، والمداومة على ذكره ـ تعالى ـ بالتمجيد والتقديس اللائقين بجلاله، ولذلك بدأت السورة الكريمة بقوله الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ «سورة الإسراء، الآية: 1».

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن التوراة، ذلك الكتاب السماوي الذي آتاه الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبده ونبيه موسى بن عمران لكي يكون هدى لبني إسرائيل فانصرفوا عنه، وحرفوه، وزوّروه واشتروا به ثمناً قليلاً، وتذكرهم الآيات بأنهم من ذرية الذين حملهم الله ـ تعالى ـ مع نبيه نوح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾، ولكنهم آثروا الانحراف عن منهج الله، والصد عن سبيله فكتب عليهم الله ـ تعالى ـ النكبة والهلاك والتشريد مرتين عقاباً على إجرامهم وإفسادهم في الأرض مع إنذارهم بتكرار هذه النكبات والهلاك والتشريد كلما

عادوا إلى إفسادهم في الأرض، وذلك بقوله ـ تعالى ـ:
﴿...وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 8».

ثم تمتدح سورة «الإسراء» القرآن الكريم، ذلك الكتاب الخاتم الذي أنزله الله ـ تعالى ـ بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ إلى قيام الساعة فتقول:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 9».

وتقرر الآيات أن الله ـ تعالى ـ قد أعد للذين لا يؤمنون بالآخرة عذاباً أليماً، وأن الإنسان في طبعه شيء من الاندفاع والعجلة، ومن المبادرة بالدعاء بالشر قبل الدعاء بالخير، علماً بأن الله ـ تعالى ـ قد فصل له كل شيء، كما تقرر الآيات المسؤولية الفردية في الهدى والضلال وأنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحداً دون إنذار ﴿...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 15».

ومن هنا كانت حكمة الله ـ تعالى ـ باتخاذه العهد على ذاته العلية بحفظ رسالته الخاتمة، لأنه سبحانه وتعالى كان قد ترك حفظ رسالاته السابقة لأهل كلٍّ منها فضيعوها، وبدلوا ما بقي منها من ذكريات وحرفوه، وزوروه على الله حتى أخرجوه عن إطاره الرباني، وجعلوه عاجزاً عن هداية أتباعه.

كذلك تقرر الآيات في «سورة الإسراء» قاعدة التبعية الجماعية في التصرفات والسلوك، وتحذر من الترف المخل الذي يؤدي إلى الفسوق، ومن ثم إلى التدمير والهلاك، كما تحذر من الإقبال على الدنيا ونسيان الآخرة، ومن العواقب الوخيمة لذلك، وتدعو إلى السعي للآخرة مع الإيمان الكامل، وتؤكد أن الله ـ تعالى ـ يمد بعطائه الدنيوي كلاً من المؤمنين والكافرين، لأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وأن التفاضل في درجات الآخرة أكبر وأعظم من التفاضل في أمور الدنيا.

ثم تحذِّر الآيات من أخطار الشرك بالله ـ تعالى ـ، وتؤكد أن الواقع في هذه الكبيرة مذموم مخذول، كما تؤكد أن الله سبحانه وتعالى قد قضى بألا يعبد سواه، وتثني بالحض على بر الوالدين، وإيتاء ذوي القربي، والمساكين، وأبناء السبيل، في غير إسراف ولا تبذير، وتأمر

بتحريم قتل الذرية، وتحريم الاقتراب من جريمة الزنا، وتحريم القتل بغير الحق تحريماً قاطعاً، كما تأمر برعاية مال اليتيم، وبالوفاء بالعهود، وبتوفية كل من الكيل والميزان، وبالمسؤولية عن الحواس، وتنهى عن الخيلاء والكبر، وتكرر التحذير من الشرك، مؤكدة أن جزاء الواقع فيه هو الخلود في جهنم مذموماً مدحوراً. وتستنكر الآيات في سورة «الإسراء» فرية الولد والشريك لله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ، وتبين ما فيها من اضطراب وتهافت، وتقرر توحيد الكون كله لله ـ تعالى ـ وخضوع كل من فيه لذات الله العلية بالعبادة والتسبيح والتقديس والتنزيه عن كل وصف لا يليق بجلاله.

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله ـ تعالى ـ، وإلى موقف كفار قريش- وموقف الكفار والمشركين من بعدهم في كل زمان ومكان ـ من الاستماع إلى القرآن الكريم، وهم يجاهدون أنفسهم في صم آذانهم عنه، وإغلاق عقولهم عن الإنصات إلى حجيته، وصد قلوبهم عن التحرك بما نزل فيه من الحق، وصرف فطرتهم عن أن تستجيب لندائه الصادق، وهو تماماً موقف الكثيرين من الكفار والمشركين في زماننا الراهن وفي كل عصر سابق.

وبعد ذلك تستعرض الآيات موقف الكفار والمشركين من خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، واستبعادهم لوقوع البعث، وتؤكِّد على نزغ الشيطان بين الناس وأنه عدو مبين لهم، كما تؤكد على أن الله ـ تعالى ـ هو المتصرف في شؤون الخلائق بلا معقب لحكمه، وأنه ـ تعالى ـ أعلم بمن في السمٰوات والأرض، وقد فضل بعض النبيين على بعض، وأن دور الرسول منحصر في التبليغ عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الإنذار والتبشير.

ثم تبين الآيات السبب في أن معجزات الرسول الخاتم ﷺ لم تكن كلها من قبيل الخوارق المادية التي كذب بها الأولون، فمعجزته الخالدة هي القرآن الكريم، والخوارق المادية شهادة على من رآها من الناس، والقرآن باقٍ إلى قيام الساعة، كما تتناول تكذيب المشركين لما رآه رسول الله ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج، ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إبليس وإعلانه أنه سيكون حرباً على ذرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعقب الآيات بتخويف البشر من عذاب الله، وتذكيرهم بنعمه عليهم، وبتكريمه للإنسان، وبمصائرهم في يوم القيامة.

ويأتي في الجزء الأخير من هذه السورة المباركة استعراض كيد المشركين لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ومحاولة فتنته عن بعض ما أنزل إليه، ومحاولة إخراجه من مكة المكرمة،

ولو أخرجوه قسراً قبل أن يأذن له الله ـ تعالى ـ بذلك لحلّ بهم العذاب والهلاك الذي حلّ بالأمم من قبلهم حين أخرجوا رسلهم أو قاتلوهم أو قتلوهم. وتأمر الآيات هذا النبي الخاتم ﷺ بالاستمرار في طريقه متعبداً لله ـ تعالى ـ بما أمر، داعياً إياه ـ سبحانه ـ أن يحسن مدخله ومخرجه، وأن يعلن مجيء الحق وظهوره، وزهوق الباطل واندحاره، مؤكداً أن هذا القرآن فيه شفاء وهدى للمؤمنين، بينما الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلاً.

وتختم السورة الكريمة كما بدأت بحمد الله، وبتقرير وحدانيته ـ بلا شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد ـ، وتنزهه ﷻ عن الحاجة إلى الولي والنصير، وهو العلي الكبير المتعال فتقول:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۞﴾ «سورة الإسراء، الآيتان: 110، 111».

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «الإسراء»:

1 ـ الإيمان بضرورة تنزيه الله ـ تعالى ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله.

2 ـ اليقين بقدسية كلٍّ من المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وضرورة تطهيرهما من دنس الكفار والمشركين، والمحافظة على وجودهما بأيدي المسلمين، والدفاع عنهما بالنفس والنفيس.

3 ـ التصديق برحلة الإسراء والمعراج، وما اطَّلع عليه المصطفى ﷺ أثناءها من أحداث ومراء عديدة.

4 ـ التسليم بأن الله ـ تعالى ـ هو رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، وهو قيوم السمٰوات والأرض ومن فيهن، وهو المهيمن على الوجود كله، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، والذي يرحم من يشاء ويعذب من يشاء، وأنه ـ تعالى ـ هو السميع البصير، والعليم الخبير، وهو الحليم الودود الغفور الرحيم، وأنه ـ تعالى ـ ما كان معذباً أحداً حتى يبعث رسولاً، وأن الكون بجميع من فيه وما فيه، يخضع لجلاله بالعبادة والطاعة والتسبيح إلا عصاة الإنس والجن من الخلق المكلفين ذوي الإرادة الحرة.

5 ـ الإيمان بأن التوراة أنزلت بالتوحيد الكامل لله ـ تعالى ـ الذي أيد عبده ورسوله موسى عليه السلام بتسع آيات بينات، كفر بها فرعون وملأه فأغرقهم الله أجمعين، ونجَّى عبده موسى والذين آمنوا معه. ولذلك فإن توحيد الله ـ تعالى ـ واجب على كل العباد، نزلت به كل الشرائع، ومن هنا كان الشرك بالله كفراً به، وكان من موجبات الذم والخذلان في الدنيا والآخرة، والإلقاء في جهنم باللوم والدحور، حيث لا يملك الذين أشركوا بهم كشف الضر عنهم أو تحويله.

6 ـ اليقين بأن إفساد بني إسرائيل في الأرض وعلوّهم فيها سوف يحدث في مرتين رئيسيتين، مضت أولاهما بطردهم من جزيرة العرب مذمومين مدحورين، والثانية التي نحن فيها اليوم والتي سوف تنتهي بهزيمتهم المنكرة والقضاء عليهم بإذن الله ـ تعالى ـ، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 7».

7 ـ التصديق بأن جهنم هي مثوى الكافرين الضالين المنكرين للبعث، أو الجاحدين لبعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ.

8 ـ التسليم بأن القرآن الكريم قد أنزل بالحق، وهو ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 9»، وهو ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ «سورة الإسراء: 82». وبأن هذا الكتاب معجز لا تقوى قوة على وجه الأرض أن تأتي بشيء من مثله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 88».

9 ـ الرضا بأن كل إنسان مسؤول مسؤولية كاملة عن أعماله، وأنه سوف يسلم كتاباً تفصيلياً بتلك الأعمال في يوم القيامة حتى يكون هو حسيباً على نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾.

10 ـ التسليم بأن الترف المسرف كان من موجبات التدمير الذي حدث للعديد من الأمم السابقة، وأن السعي المشكور هو السعي للآخرة، مع عدم إهمال مسؤولية

الفرد في الحياة الدنيا، وأن التفاضل في السعي للآخرة أكبر من التفاضل في ماديات الدنيا؛ وأن البعث بعد الموت حتمي وضروري.

11 ـ التصديق بأن الإنسان مخلوق مكرم، خلقه الله ـ تعالى ـ من طين، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه من عِلْمه، وفضَّله على كثير من خلقه، وأن الشيطان له عدو مبين.

12 ـ اليقين بأن مهمة الأنبياء والمرسلين هي التبليغ عن الله ـ تعالى ـ، والإنذار والتبشير، وأن الله ـ جل شأنه ـ قد فضل بعض النبيين على بعض، وآتى داود كتاباً سماوياً اسمه «الزبور».

13 ـ الإيمان بأن كل أناس سوف يدعون في الآخرة بإمامهم ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ «سورة الإسراء، الآية: 71».

14 ـ التسليم بأن الروح غيب لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ، وعلى ذلك فلا يجوز الخوض فيه.

15 ـ التصديق بأن الله ـ تعالى ـ هو المستحق للحمد والتسبيح والتكبير، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿...لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ...﴾ «سورة الإسراء، الآية: 111» بأنه ـ جل شأنه ـ منزه عن هذه النقائص وأمثالها تنزيهاً كبيراً.

من التشريعات الإسلامية في سورة «الإسراء»:

1 ـ إن بر الوالدين فريضة إسلامية، ومن أعظم الطاعات لله، ومن موجبات رحمته ومغفرته، وكذلك إيتاء ذي القربى حقه، والمسكين، وابن السبيل، والالتزام بعدم التبذير والإسراف لأن المبذرين هم إخوان الشياطين ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾، وفي نفس الوقت الالتزام بعدم البخل والتقتير وجعل اليد مغلولة إلى العنق.

2 ـ تحريم قتل الأولاد خشية الإملاق (الفقر).

3 ـ النهي القاطع عن الاقتراب من الزنا ومن جميع مقدماته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

4 ـ النهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وعن الإسراف في الثأر لذلك.

5 ـ النهي عن أكل مال اليتيم أو الاقتراب منه إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

6 ـ الأمر بالوفاء بالعهد وبتأكيد المسؤولية عنه، وبالوفاء بكلٍّ من الكيل والميزان.

7 ـ الأمر بالمحافظة على الحواس مثل السمع والبصر والفؤاد، والتأكيد على مسؤولية الإنسان عن حواسه.

8 ـ النهي عن الاختيال والزهو بالنفس وعن الاستعلاء والاستكبار في الأرض.

9 ـ الأمر بإقامة الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وبتلاوة القرآن والتهجد به نافلة بالليل وتلاوته خاصة في الفجر لأن ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

«سورة الإسراء، الآية: 78».

من الإشارات الكونية في سورة «الإسراء»:

1 ـ الإشارة إلى آيتي الليل والنهار، أي: نورهما، حيث كان الليل ينار بظاهرة بقي منها اليوم ما يعرف باسم «ظاهرة الفجر القطبي»، وكان النهار ينار- كما ينار اليوم- بالحزمة المرئية من ضوء الشمس، فمحا الله ـ تعالى ـ نور الليل بنطق الحماية المتعددة التي خلقها للأرض، وأبقى ظاهرة الفجر القطبي دلالة على ذلك.

2 ـ الإشارة إلى ما وهب الله ﷻ الماء من قدرات تمكِّنه من حمل الفلك في البحر بقانون الطفو.

3 ـ الإشارة إلى تسبيح كل شيء في هذا الوجود لله ﷻ ما عدا عصاة كلٍّ من الجن والإنس وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44».

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الثالثة من القائمة السابقة، وقبل ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذا النص القرآني الكريم.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44».

● ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: «يقول تعالى: تقدِّسه السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلٰهيته.... كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا*﴾ «سورة مريم، الآيتان: 90، 91»... وقال أبو القاسم الطبراني:..... إن رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى، كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يسراه، فطارا به حتى بلغ السمٰوات السبع، فلما رجع قال: «**سمعت تسبيحاً في السمٰوات العلى مع تسبيح كثير: سبحت السمٰوات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا، سبحان العلي الأعلى، سبحانه وتعالى**»[1]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[2]، وفي حديث أبي ذر: أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كطنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم،[3] وهو حديث مشهور في المسانيد، وقال الإمام أحمد... عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «**اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله تعالى منه**»[4] وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «**نقيقها تسبيح**»[5]، وقال بعض السلف: إن صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه... وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح، يعنون من حيوان أو نبات.....».

(1) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (الحديث: 1/ 78).
(2) أخرجه الدارمي في «سننه» (1/ 15).
(3) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 2/ 361).
(4) أخرجه الإمام أحمد في مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه،والطبراني في المعجم الكبير.
(5) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير.

- وجاء في «الظلال» ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه: «..... وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حية تسبح الله، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال، وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، وكل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء أو الهواء.. ومعها سكان السماء... كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه، وكلما همت يده أن تلمس شيئاً، وكلما همت رجله أن تطأ شيئاً.... سمعه يسبح الله، وينبض بالحياة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ يسبح بطريقته ولغته، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين، ولأنكم لم تتسمَّعوا بقلوبكم، ولم توجِّهوها إلى أسرار الوجود الخفية، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتتوجه بها إلى خالق النواميس، ومدبر هذا الكون الكبير، وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح، ويتوجه بالتسبيح، فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود، النابضة في كل متحرك وساكن، وفي كل شيء في هذا الوجود».

- وجاء في تفسير الشعراوي رحمه الله ما نصه: «... وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾.... أي: ما من شيء، كل ما يقال له شيء، والشيء هو جنس الأجناس، فالمعنى أن كل ما في الوجود يسبح بحمده تعالى، وقد وقف العلماء أمام هذه الآية وقالوا: أي تسبيح دلالة على عظمة التكوين، وهندسة البناء، وحكمة الخلق، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى منزه ومتعال وقادر، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه، وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ إذن: يوجد تسبيح دلالة فعلاً، لكن ليس هو المقصود، فالمقصود هنا هو التسبيح الحقيقي كل بلغته فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة

الذي آمن بمقتضاه المؤمنون، إنه تسبيح حقيقي ذاتي ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح، فقد قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ «سورة النور، الآية: 41». إذن: كل شيء في الوجود عُلِّم كيف يصلي لله، وكيف يسبح لله، وفي القرآن آيات تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عالم في الوجود له لغة يتفاهم بها في ذاته، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لغته، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها ؟...»

وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

يقرر النص القرآني الكريم الذي نحن بصدده أن الخلق بمختلف مستوياته وهيئاته وصوره يسبح الله ـ تعالى ـ تسبيحاً لا يفهمه من الناس إلا من أعطاه الله ﷻ القدرة على ذلك فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44».

وهو تسبيح حقيقي ذاتي ينشأ بلغة كل مخلوق من الأحياء والجمادات ومن مختلف صور المادة والطاقة والظواهر المصاحبة لوجودها.

أولاً: معنى التسبيح في اللغة العربية:

التسبيح لغة: هو الذكر بالتمجيد والتقديس مع التنزيه عن كل نقص، وعلى ذلك فإن تسبيح الله ـ تعالى ـ يقصد به ذكره الدائم، وتمجيده، وتقديسه، وإخلاص العبادة له وحده ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ، وتنزيهه ـ تعالى ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله.

ولفظة (**التسبيح**) مشتقة من (السبح) و (السباحة) أي: العوم، وهو في اللغة المر السريع للجسم المادي في وسط أقل كثافة منه كالماء أو الهواء، يقال: (سبح) (يسبح) (سبحاً) أي: مر مروراً سريعاً، وقد استعير (السبح) لمرور النجوم في صفحة السماء لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ «سورة يسٓ، الآية: 40».

والفعل (**سبَّح**) بمشتقاته المختلفة جاء سبعاً وثمانين (87) مرة في القرآن الكريم بمعنى الذكر السريع المتكرر لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، في كل وقت، وعلى كل حال، وإن كان التسبيح قد جعل عاماً في مختلف العبادات: قولاً كانت أو فعلاً أو نية، إلا أنه قد خصص بالذكر اللفظي لأسماء الله وصفاته التي أنزلها في محكم كتابه، أو على لسان خاتم أنبيائه ورسله ﷺ حتى يتَّضح للذاكر معنى تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل وصف لا يليق بجلاله، فعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير (سبحان الله) فقال: «**تنزيه الله تبارك وتعالى من السوء**»[1]. واللفظة (سبحان) في هذا التعبير التعبدي منصوبة على المصدر على نحو (غفران): كأن قائلها يقول: أنزه الله تعالى تنزيهاً يليق بجلاله عن كل وصف لا يليق بهذا الجلال.

ويقال: (**سُبحات**) وجه الله تعالى أي جلالته، و(**السُبُّوح**) من صفات الله الحسنى ومعناه «الجامع لصفات الكمال المطلق، المنزه عن كل نقص»، والتعبير التعبدي (سبحان الله) معناه التنزيه لله، وهو منصوب على صيغة المصدر كأن قائله يقول: أبرئ الله ـ تعالى ـ من السوء براءة قاطعة، وأنفي كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تأويل، ولا تحريف، ولا تعطيل، وأثبت لجلاله ما وصف به ذاته العلية، وأثبته له خاتم أنبيائه ورسله من صفات الكمال المطلق.

و (**السبح**) أيضاً الفراغ، أو التصرف في المعاش.

والتعبير القرآني: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ «سورة المزمل، الآية: 7» أي فراغاً أو متقلباً طويلاً.. و (السُّبحة) هي خرزات في خيط يسبح بها، وهي أيضاً التطوع من العبادة والذكر، يقال: قضيت (سبحتي) أي أديت نافلتي من صلاة، أو زكاة أو صيام، أو حج، أو دعاء، أو توحيد لله ـ تعالى ـ توحيد الألوهية، والربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وكل ذلك من تسبيح الله جل جلاله، أي تنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله من نحو الادعاء الباطل بنسبة الجن أو الصاحبة أو الولد إليه، أو الاعتقاد الخاطئ بوجود شريك له في ملكه، أو منازع له في سلطانه، أو مثيل له في ألوهيته وربوبيته، ووحدانيته، أو في جمعه لصفات الكمال المطلق، أو في طلاقة القدرة التي لا تحدها حدود، والاستعلاء فوق كلٍّ من المادة والطاقة، وكلٍّ من

(1) رواه البزار في مسنده.

حدود المكان والزمان، وقوانين الموت والفناء، فكل ما عدا الله ﷻ هو مخلوق فانٍ، تشكله المادة أو الطاقة أو كلاهما، ويحده المكان والزمان، كما تحكمه قوانين الموت والفناء، وعلى ذلك فلا يمكن لأحد من خلق الله ـ تعالى ـ أن يشبهه، أو أن يقترب من صفاته ولذلك أنزل في محكم كتابه قوله الحق:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «سورة الشورى، الآية: 11».

ثانياً: الفرق بين تسبيح التكليف أو الاختيار وتسبيح الفطرة أو التسخير:

تدل الآية الكريمة التي نحن بصددها على أن السمٰوات والأرض ومن فيهن من ملائكة، وجن، وأناسي، وغير ذلك من مختلف الكائنات الحية غير المكلفة من الحيوانات والنباتات، والكائنات غير الحية (أي الجمادات المادية ومختلف صور الطاقة)، وما يرافق ذلك كله من الظواهر والسنن الكونية، كل ذلك خاضع لإرادة الله، ومسخر حسب مشيئته، ومسبح بحمده ومقدس له؛ ونحن نفهم تسبيح العقلاء المكلفين من مؤمني الإنس والجن وهو ما يعرف باسم «تسبيح التكليف» أو «تسبيح الاختيار»، ونسلم بتسبيح الملائكة في عالمهم الغيبي بالنسبة لنا وهو من صور «تسبيح الفطرة أو التسبيح



التسخيري»، أما تسبيح المخلوقات غير المكلفة من الأحياء والجمادات والظواهر والسنن الكونية وهو من نفس نوع تسبيح الملائكة الفطري التسخيري فهو يصدر بصورة لا تستطيع الغالبية العظمى من الناس إدراكها، وبهيئة لا يقوى غالبية البشر على استيعابها، وهو تسبيح تؤكده الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها، وعشرات غيرها من آيات القرآن الكريم، ومن أحاديث الرسول الخاتم ﷺ على أنه تسبيح حقيقي لا مجازي، وليس على مجرد الدلالة فقط.

ثالثاً: من صور التسبيح الفطري التسخيري:

يقدر العلماء أن عدد أنواع الحياة الأرضية المعروفة لنا اليوم يصل إلى حوالي مليون ونصف المليون نوع وأنه بمعدل الاكتشافات السنوية فإن ذلك يتوقع له أن يصل إلى خمسة ملايين نوع، يمثل كل نوع منها بالعديد من الأفراد الذين قد يصل عددهم في بعض هذه الأنواع إلى عدة بلايين، وهذه المخلوقات تتخاطب فيما بينها بلغات وإشارات وتعابير تتفاوت من نوع إلى آخر.

ومنذ فترة والمتخصصون في علم سلوك الحيوان يحاولون إدراك شيء من وسائل التفاهم بين هذه المخلوقات، وأثبتوا ذلك بالملاحظة والتجربة للعديد منها من مثل القردة الكبيرة (Great Apes)، وأسود البحر (Sea-Lions)، والدلافين (Dolphins)، والحيتان (Whales)، والببغاوات (Parrots)، والهداهد (Hoopoes)، والغربان (Crows) وغيرها من الطيور، ومن مثل خلايا النحل (Bees)، ومستعمرات النمل (Ants) وغيرهما من مجموعات الحشرات، والتي ثبت أن لها قدرات متفاوتة على التعبير والإدراك وعلى اكتساب المعارف.

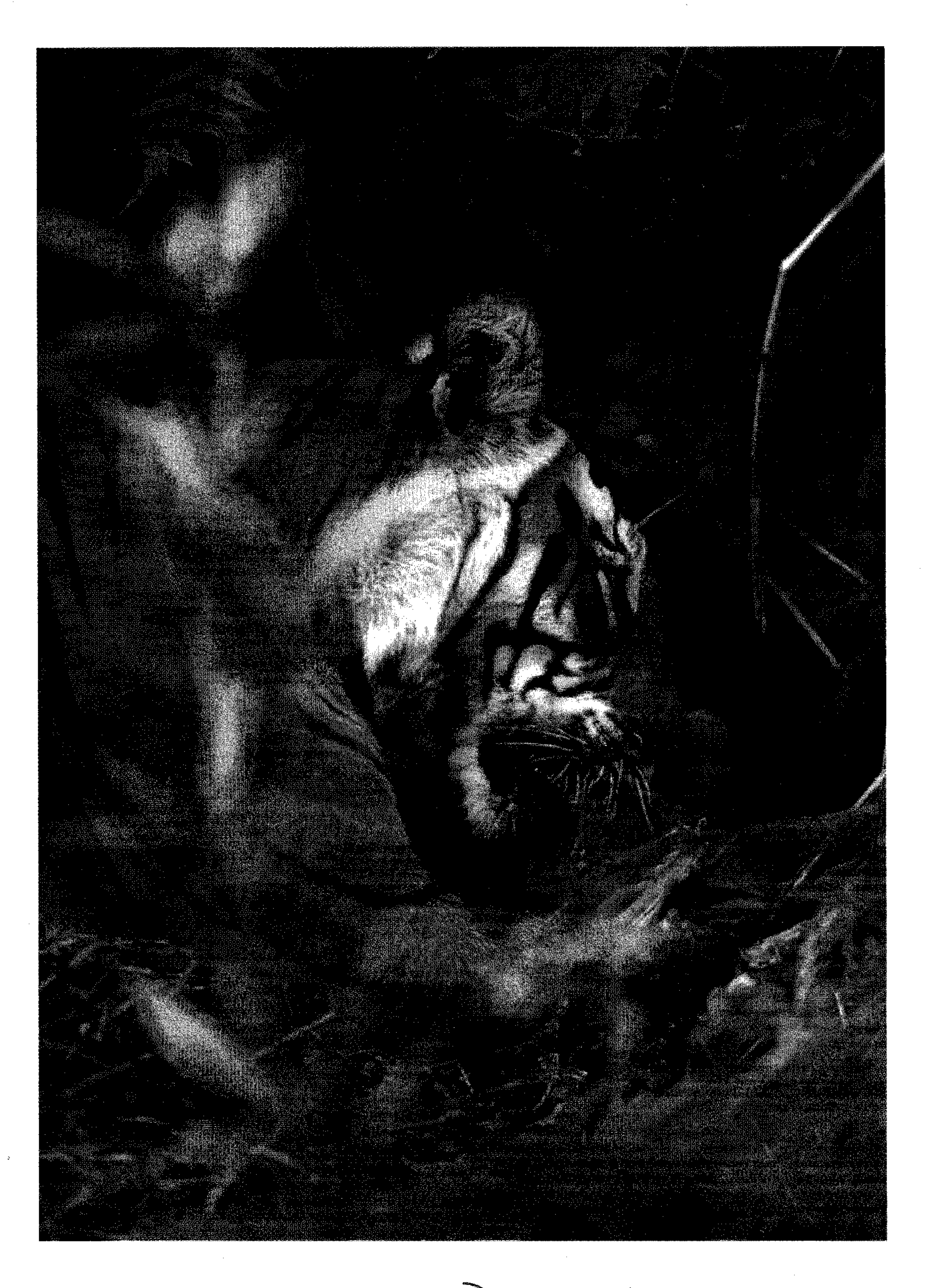
فالبغبغانات - على سبيل المثال - لها قدرات فائقة على ترديد ما تسمعه من أصوات، وكلمات، وجمل، وقد تم تدريب بعضها على معرفة العديد من الأسماء والأشكال والألوان المختلفة والنطق بها، وعلى الرد المناسب لما يطرح عليها من أسئلة أو ثناء أو عتاب أو تعنيف، وعلى التعبير بالعديد من الإشارات والإيحاءات التي تقترب من لغة الإشارة عند الصم والبكم.

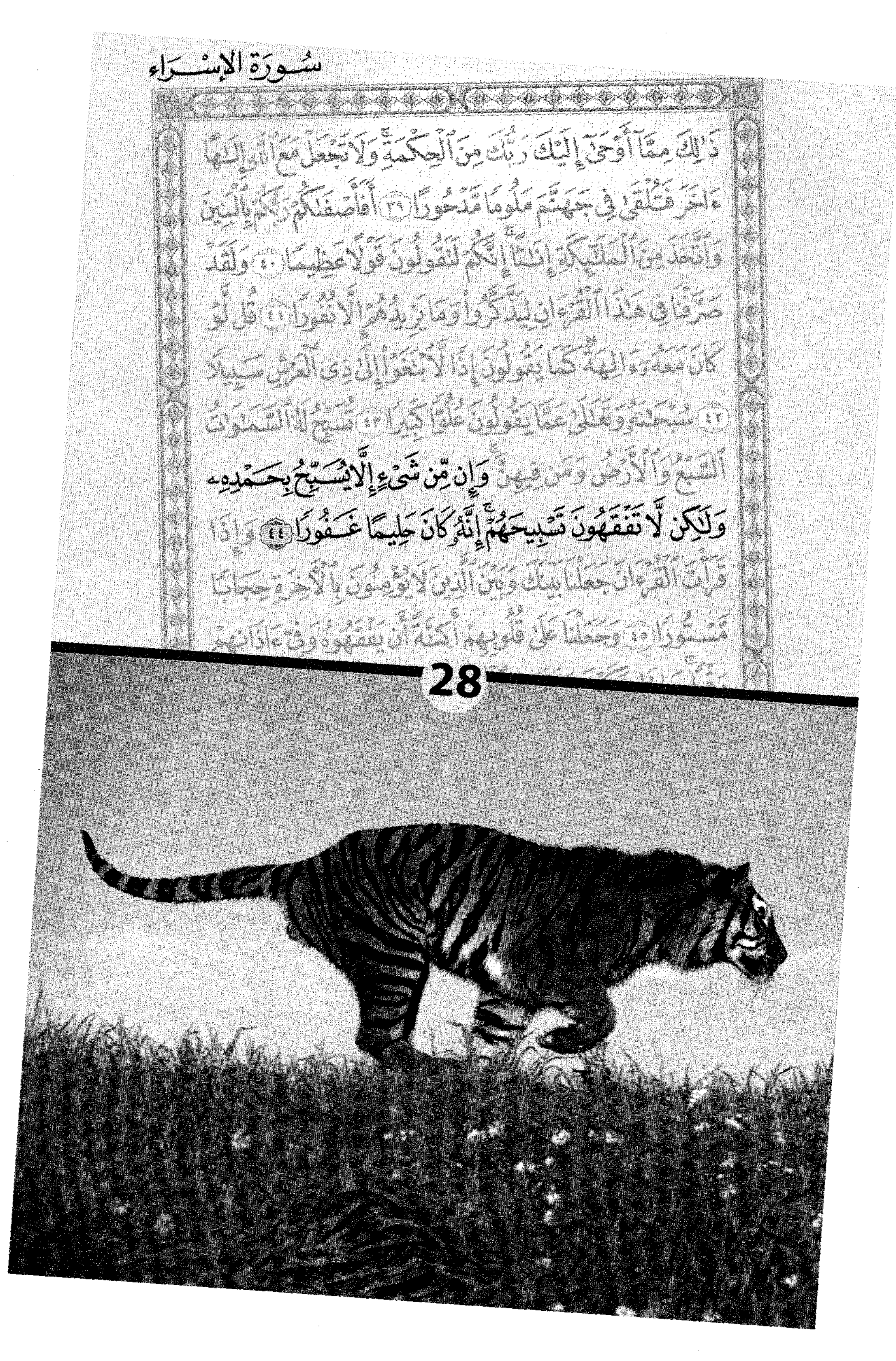
وكذلك ثبت أن الحيتان تغني، وتتواصل متبادلة الأخبار والأفكار والمشاعر عبر مسافات طويلة، وثبت أن كلاً من النمل والنحل ينظم خلاياه بدقة هندسية واجتماعية فائقة،

فالنحل يخبر شغالاته بمواقع أفضل الزهور، وبكيفيات الوصول إليها، ويحدد لها كلاً من المسافات والاتجاهات والصعوبات التي قد تواجهها، وكذلك النمل في ممالكه ينظم حياة أفراده تنظيماً دقيقاً للغاية، وأصبحت لغة التخاطب عند كل من الحيوان والنبات علوماً تدرس اليوم وتجرى فيها البحوث العلمية الميدانية والمختبرية.

والآية التي نحن بصددها تؤكد على أن كل موجود من الأحياء والجمادات يعرف خالقه بالفطرة والإلهام، ويعبده، ويسبح بحمده، ويقدسه تقديساً تسخيرياً، ويتمتع بقدر من الشعور والإدراك تتفاوت فيه هذه المخلوقات تفاوتاً كبيراً، ولكن لا يعلمه أي منهم. والعلوم المكتسبة قد بدأت في تلمس شيء من ذلك، والسبق القرآني بتقريره من قبل ألف وأربعمائة سنة يجزم بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ فحفظه حفْظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد سبحانه وتعالى بهذا الحفظ الإلهي إلى أن يرث الأرض ومن عليها حتى يبقى القرآن الكريم حجة على الناس كافة إلى يوم الدين. كما يشهد ذلك للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقى القرآن العظيم بالنبوة والرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.







سُورَةُ الإِسْرَاء

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ
وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ
كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا
﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ **وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ**
وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا
مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ

28

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿...وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44»

28

هذا النص القرآني الكريم جاء في نهاية الثلث الأول من سورة «الإسراء» وهي سورة مكية وعدد آياتها (111) بعد البسملة وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة في مطلعها إلى رحلة الإسراء من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس الذي ندعو الله ـ تعالى ـ أن يعجِّل بتحريره من دنس اليهود الغاصبين لأنه قدس من أقداس المسلمين لا يجوز التفريط فيه أبداً. وقد تلى رحلة الإسراء المعراج إلى السمٰوات العلى ثم العودة إلى بيت المقدس ومنه إلى مكة المكرمة في جزء من الليل لا يكاد يدرك، وقد كان في هذه الرحلة المباركة من التكريم لرسول الله ﷺ ما لم ينله مخلوق من قبل ولن يناله أحد من بعد إلى قيام الساعة.

وفي الفصل السابق قمنا باستعراض سريع لسورة «الإسراء»، ولركائز العقيدة والتشريعات الإسلامية، والإشارات الكونية الواردة فيها ولأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة الآية الكريمة رقم (44) منها، ولمعنى التسبيح في اللغة، وللفرق بين تسبيح التكليف (الاختياري) وتسبيح الفطرة (التسخيري)، **ولبعض صور التسبيح الفطري عند الأحياء غير المكلفين.** وفي هذا الفصل نعرض لكل من **التسبيح الفطري للملائكة، والتسبيح التكليفي (الإرادي الاختياري) للأحياء المكلفين من الإنس والجن، والتسبيح التسخيري (الفطري) لكل من الأحياء غير المكلفين والجمادات** وهو ما لا تقوى كثير من العقول والقلوب المعزولة عن بارئها على استيعابه أو فهمه على الرغم من وضوح دلالة النص القرآني الذي نحن بصدده، ووضوح غيره من نصوص القرآن الكريم وأقوال الرسول الخاتم ﷺ.

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

يؤكد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في محكم كتابه وقوله الحق:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

«سورة الإسراء، الآية: 44».

ومعنى ذلك أن جميع ما في الوجود من خلق الله ﷻ بدءاً بالملائكة المطهرين وانتهاء بكل من الجمادات والظواهر الكونية، مروراً بكل من مؤمني الإنس والجن، وبغيرهم من الأحياء ومنها جميع الحيوانات والنباتات وكل موجود من غير ذلك، كل واحد من هؤلاء له قدر من الوعي والإدراك الذي يعينه في التعرف على ذاته، وعلى خالقه، وعلى غيره من المخلوقات في محيطه، وعلى سلوكياتهم وتصرفاتهم، فيتوافق مع كل منضبط بسنن الفطرة ويتنافر مع كل مناقض لها أو متصادم معها، وهذا الوعي والإدراك يجعلان كل ما في الوجود يعبد الله ـ تعالى ـ ويسبح بحمده ويقدس له إلا عصاة الإنس والجن، لأن كلاً من الآدميين والجن من الخلق المكلف صاحب الإرادة الحرة وحامل أمانة التكليف، ولذلك ينقسم تسبيح المخلوقات لخالقها إلى **تسبيح فطري (تسخيري)** للخلق غير المكلف **وتسبيح اختياري (إرادي)** للمكلفين من خلق الله، ويمكن إيجاز ذلك فيما يلي:

أولاً: التسبيح الفطري (التسخيري) للملائكة:

الملائكة خلق غيبي من عباد الله المكرمين ومن جنده المقربين، خلقهم الله ـ تعالى ـ من نور، وفَطَرَهم على الطهر والعصمة، وعلى البراءة من بواعث الشهوة ومن مبررات الغضب ودواعي الحقد والحسد، ولذلك فهم مواظبون على عبادة الله وتسبيحه وحمده وتقديسه وطاعته لا يفترون عن ذلك. وهم كائنات عاقلة ولكنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله ـ تعالى ـ ولذلك فهم لا يسبقون بالقول أبداً ويشهدون لله ﷻ دوماً بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد ـ، ويسألونه ـ جل شأنه ـ أن يغفر للذين يشهدون بشهادتهم ويقرون بإقرارهم من توحيد لله ـ تعالى ـ وتنزيه لجلاله عن كل وصف لا يليق بهذا الجلال.

والملائكة مكلفون بإبلاغ رسالة الله إلى المصطفين من عباده من الأنبياء والمرسلين، ومؤتمنون على ذلك بما فطرهم الله ـ تعالى ـ عليه من براءة وطهر، وما ميزهم به من العقل والنطق، ومن الخضوع التام لله ـ تعالى ـ بالعبادة والطاعة.

وتسبيح الملائكة هو من أمور الغيب التي يعجز الإنسان عن إدراكها، ولا سبيل له إلى معرفتها إلا عن طريق وحي السماء، والقرآن الكريم هو الوحي السماوي الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم بنفس اللغة التي أوحي بها ـ اللغة العربية ـ محفوظاً بحفظ الله ـ تعالى ـ حرفاً حرفاً وكلمة كلمة، وقد حفظه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بعهده الذي قطعه على ذاته العلية فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ «سورة الحجر، الآية: 9».

فإذا تحدث القرآن الكريم عن تسبيح الملائكة ـ وقد أورد ذلك في تسع من الآيات البينات ـ فلا بد للمسلم من الإيمان بذلك وإن لم يستطع إدراكه بحسه المحدود وبقدراته المحدودة.

ثانياً: التسبيح الإرادي الاختياري للمكلفين من عقلاء الأحياء من الإنس والجن:

يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في محكم كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ «سورة الذاريات، الآية: 56».

والتسبيح من العبادة، وتسبيح العقلاء المكلفين من الجن والإنس هو تسبيح إرادي اختياري يقوم به الصالحون منهم، ويُحْرَمُه الكفار والمشركون من العصاة المغضوب عليهم ومن الضالين. وهذا التسبيح يشمل ذكر الله ـ تعالى ـ على كل حال بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وبكل نعت يليق بجلاله، ويثبت له من صفات الكمال المطلق ما أثبته ـ تعالى ـ لذاته العلية، وينزهه عن كل وصف لا يليق بمقام الألوهية من مثل ادعاء الشريك أو الشبيه أو المنازع أو الصاحبة أو الولد.

ولا يقتصر العقلاء المكلفون من الإنس والجن في ذكرهم وتسبيحهم لله ـ تعالى ـ على مجرد تحريك اللسان، بل لا بد من موافقة النطق لاتصال القلب بالله جل جلاله، وامتلاء هذا القلب بمحبة الله وتقواه ومراقبته؛ ولا بد من التزام الجوارح كلها بأوامر الله واجتناب محارمه، وبالاجتهاد في عبادته، فإقامة أركان الإسلام ذكر لله وتسبيح بحمده، بل في الأثر ما يكاد يخصص الذكر بالصلاة، مع تسليمنا بأن مفهوم ذكر الله ـ تعالى ـ هو أشمل وأعم من أداء الصلاة لأنه يشمل كل عمل أو نطق أو فكر يتذكر فيه العبد ربه، ويستشعر مراقبة

هذا الإلٰه العظيم له، وحتمية الرجوع إليه. ولذلك يربط القرآن الكريم في كثير من آياته بين ذكر الله ـ تعالى ـ وتسبيحه فيقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞﴾

«سورة الأحزاب، الآيتان: 41 ـ 42».

والأمر بالذكر والتسبيح هنا موجه إلى عقلاء كلٍّ من الجن والإنس، وهم من الخلق المكلفين، وإن كانت الجن من العوالم الخافية علينا، إلا أن مجرد ذكر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لهم يؤكد لنا وجودهم. ويصفهم لنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بأنهم من المخلوقات العاقلة المكلفة ذات الإرادة الحرة، وأن الله ـ تعالى ـ قد خلقهم من نار، بينما خلق الملائكة من نور، وخلق الإنسان من طين. والجن يأكلون ويشربون ويتناسلون ويرون البشر من حيث لا يراهم البشر، وهم مطالبون بعبادة الله ـ تعالى ـ بما أمر بغير إجبار ولا إكراه، وعلى ذلك فمنهم المؤمن الصالح، والكافر الطالح. والكفار منهم هم شياطين الجن الذين يقابلون شياطين الإنس في إفسادهم في الأرض وخروجهم على أوامر الله ـ تعالى ـ ثم يموتون ويبعثون ويحاسبون وإلى جهنم يحشرون. والصالحون منهم يقابلون صالحي الإنس الذين يعبدون الله ـ تعالى ـ بما أمر ويحسنون القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وإقامة عدل الله فيها، ويذكرون الله تعالى ويسبحونه ويمجدونه بإرادتهم الحرة حتى يلقونه فيكون جزاؤهم جنات النعيم بإذن الله ورحمته.

ثالثاً: التسبيح الفطري التسخيري للأحياء غير المكلفين:

منذ فترة قصيرة أدرك المتخصصون في علم سلوك الحيوان أن للعديد من المخلوقات من مثل **القردة** العليا وغيرها من الحيوانات الأرضية، **وأسود البحر والدلافين والحيتان** وغيرها من الحيوانات البحرية، **والطيور من مثل الحمام والببغاوات والهداهد والغربان، والحشرات من مثل ممالك النحل والنمل**، كلٌّ هذه المخلوقات لها قدرات متفاوتة على التعبير بلغات خاصة بكلٍّ منها، وعلى إدراك الذات والغير، وعلى اكتساب قدر من المعارف والقرآن الكريم قد سبق كل المعارف المكتسبة بأربعة عشر قرناً وذلك بالتأكيد على أن كل خلق من خلق الله له قدر من الإدراك الخاص به والذي يعينه على النطق بالكلام والشعور والإحساس، وعلى التفاهم مع أقرانه، وعلى معرفة خالقه ﷻ والخضوع

له سبحانه وتعالى بالطاعة والعبادة والذكر والتسبيح تسبيحاً فطرياً تسخيرياً لا إرادة له فيه، ولكنه يدركه ويعيه. وإن هذا الإدراك الفطري يعين كل مخلوق أيضاً على التمييز بين العابدين الصالحين والعاصين المقصرين من الخلق المكلفين، فيتعاطف مع صالحي المكلفين، ويتنافر مع عصاتهم المقصرين، وإلا فمن علَّم هدهد سليمان أن عبادة قوم سبأ للشمس كفر بالله ـ تعالى ـ، وانحطاط عن مقام التكريم الذي منَّ الله ـ تعالى ـ به على بني آدم؟ وأن السجود لا يجوز إلا لله رب العالمين فيقول:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ * وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ * أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ *﴾ «سورة النمل، الآيات: 23 ـ 26».

كذلك من عرّف نملة صغيرة بشخصية نبي الله سليمان عليه السلام؟ ومن علَّم سليمان لغة النمل غير الله الخالق سبحانه وتعالى وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ *﴾ «سورة النمل، الآيتان: 18 ـ 19».

ولغات كلِّ نوع من أنواع الحيوانات يعلِّمها الله ـ تعالى ـ لمن يشاء من عباده كما فهّمها لعبده ونبيه سليمان عليه السلام معجزة خاصة به وخارقة تخالف مألوف البشر.

وفي التأكيد على هذا الإدراك الفطري عند جميع المخلوقات يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «**إن الله وملائكته وأهل السمٰوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلّون على معلم الناس الخير**»[1]. وفي حديث رواه الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس**»[2].

---

(1) رواه الترمذي في كتاب: العلم (الحديث: 2685).

(2) أخرجه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وعن أبي ذر الغفاري (رضي الله تعالى عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم فاجعلني من أحب أهله وماله إليه**»[1].

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تسبوا الديك فإنه يدعو إلى الصلاة**» وفي رواية أبي دواد: «**فإنه يوقظ للصلاة**»[2].

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وحتى يكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده**»[3]. وفي هذا المعنى نفسه يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ «سورة النمل، الآية: 82».

وهذه معجزة تتحدَّى الناس كافة قرب قيام الساعة بعد أن فتح الله ـ تعالى ـ عليهم أبواب كل شيء، واغتروا بما لديهم من أسباب التقدم العلمي والتقني فيأتي الله ـ تعالى ـ لهم بمعجزة تتحداهم ولا يقدرون على مواجهتها لأنهم بكل ما أوتوا من مفاتيح العلوم والتقنية لا يستطيعون إجبار دابة على الكلام بلغة يفهمونها، فيقرون بعجزهم أمام قدرة الله ـ تعالى ـ.

وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم: «**اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فربّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله تعالى**»[4].

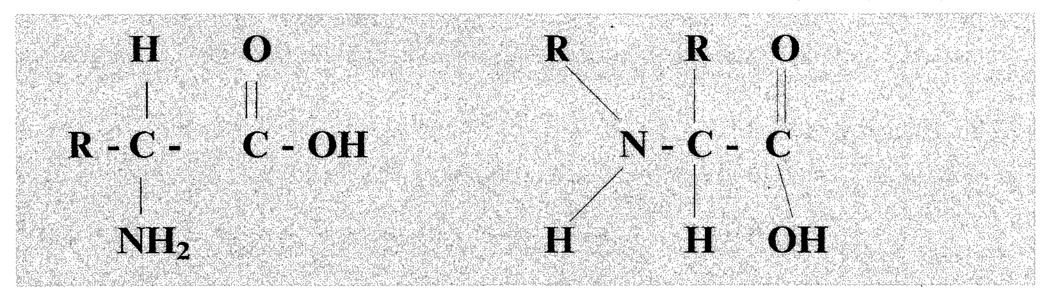
وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال: «**نقيقها تسبيح**»[5].

---

(1) أخرجه الإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، والهندي في «كنز العمال».
(2) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم (الحديث: 5101)، والإمام أحمد في مسنده.
(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن (الحديث: 2181)، والإمام أحمد في مسنده
(4) تقدم تخريجه.
(5) تقدم تخريجه.

رابعاً: تسبيح أجساد الكائنات الحية هو صورة من صور التسبيح الفطري التسخيري للجمادات:

من أعجب الاكتشافات العلمية الحديثة أن الأحماض الأمينية (وهي اللبنات الأساسية لتكوين الجزء البروتيني الذي تنبني منه أجساد الكائنات الحية) لها قدرة على ترتيب ذراتها ترتيباً يمينياً أو يسارياً، وأنها في جميع أجساد الكائنات الحية تترتب ترتيباً يسارياً ولكن الكائن الحي إذا مات فإن الأحماض الأمينية في بقايا جسده تعيد ترتيب ذراتها ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة تمكن الدارسين من تقدير لحظة وفاة الكائن الحي بتقدير نسبة الترتيب اليميني إلى اليساري في جزيئات الأحماض الأمينية المكونة لأية فضلة عضوية متبقية عنه من مثل قطعة من الجلد أو الشعر أو العظم أو الصوف أو الخشب أو غير ذلك، وتسمى هذه الظاهرة باسم ظاهرة إعادة ترتيب ذرات الأحماض الأمينية ترتيباً يمينياً (Racimization of the Amino Acids). والأحماض الأمينية هي مركبات كيميائية معقدة من عناصر الكربون والإيدروجين والأكسجين والنيتروجين وقليل من الكبريت والفوسفور وبعض العناصر الأخرى، وتترتَّب هذه العناصر أساساً في مجموعة أمينية من النيتروجين والإيدروجين (NH_2) ومجموعة من الحمض الكربوكسيلي (COOH) ولها الرمز الكيميائي العام التالي:



ويعجب العلماء للسر الخفي الذي يمكن تلك الذرات المتبقية عن الجسد الميت من إعادة ترتيب أوضاعها في داخل كل جزء من جزيئات الحمض الأميني بمعدلات ثابتة لا تتوقف ولا تتخلف مما يشهد بأن المادة التي يصفها الإنسان بأنها صماء جامدة لا إحساس لها ولا شعور ولا إدراك هي في الحقيقة مليئة بالأسرار التي لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ.

كذلك من المكتشفات العلمية المذهلة أن تنبني أجساد كل الكائنات الحية من عشرين حمضاً أمينياً فقط، وأن جميع ذرات هذه الأحماض الأمينية تترتب ترتيباً يسارياً في جزيئاتها

التي ينبني منها أكثر من مائتي ألف جزيء بروتيني مختلف، تترتب أيضاً ترتيباً يسارياً في داخل هذه الجزيئات البروتينية العملاقة أو المبلمرات، وكل ذلك يعيد ترتيب ذرات مكوناته من الأحماض الأمينية ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة بعد وفاة الكائن الحي الذي كان يحملها في جسده.

وقد ثبت أن ترتيب الذرات في جزيئات كل من الأحماض الأمينية والبروتينية له أدوار أساسية في تنظيم وانضباط أنشطة الخلية الحية، ومن هذه الأدوار تحرك الأمر من الحمض النووي (DNA) إلى الحمض النووي الريبي (RNA) بتكوين أكثر من مائتي ألف نوع مختلف من أنواع البروتينات اللازمة لبناء أجساد الكائنات الحية في داخل خلاياها المتناهية في الصغر، وإصدار الأوامر بإرسال كل نوع من هذه البروتينات إلى الجهة التي تحتاجه في جسد الكائن الحي.

ولا تستطيع العلوم المكتسبة مجتمعة ـ في زمن التقدم العلمي الذي نعيشه ـ أن تفسِّر كيفية تحرك جزيئات البروتينات المختلفة إلى الأماكن المحددة لها من الجسم، ولا كيفيات تعرف خلايا كل واحد من الأنسجة المتخصصة على بعضها البعض حتى تبني نسيجاً معيناً في عضو محدد من أعضاء جسم الكائن الحي، ولا كيفيات تعاون تلك الأعضاء في الأجهزة المتخصصة، ولا تعاون تلك الأجهزة من أجل حياة وسلامة جسم الكائن الحي الذي يحتويها، ولا كيفيات انقباض العضلات وانبساطها، أو كيفيات تحكم الهرمونات في تنشيط عمليات نمو الخلايا أو إيقافها، ولا كيفيات تحكم المورثات ـ وهي مركبات كيميائية معقدة ـ في أنشطة كل خلية حية، ولا وسائل إدراك هذا الجسد لأي جسم غريب يدخل إليه، ولا كيفيات تفاعله مع هذا الجسم الغريب بالرفض أو القبول. ونحن لا نعلم حتى اليوم شيئاً عن كيفيات عمل دماغ الإنسان في حالات اليقظة والمنام علماً بأن جميع هذه العمليات تتم بسرعات فائقة لم يستطع علم الإنسان وتقنياته المتقدمة أن تصل إلى شيء منها بعد، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن جسد الإنسان يفقد في كل ثانية من عمره حوالي (125) مليون خلية في المتوسط، ويتجدد غيرها في الحال مع بقاء الإنسان هو هو بذاكرته وعواطفه ومشاعره وشخصيته وقدراته وآماله وطموحاته. علماً بأن جسد الفرد الواحد من بني البشر يحتوي على ألف مليون مليون خلية في المتوسط، وتتكون كل خلية من هذه الخلايا (وقطرها في حدود 0.03 من المليمتر) من مليون جزيء من جزيئات

البروتينات، والأحماض النووية، والدهون، والشحوم، والكربوهيدرات، والفيتامينات، والكهارل (الإليكتروليتات) وغير ذلك من المركبات العضوية وغير العضوية التي تترتب بنسب محددة في كيانات متميزة في داخل الخلية الحية التي تفوق في تعقيدها ودقة بنائها كل ما أنشأ الإنسان من مصانع، بل كل ما فكر في إنشائه ولم يتمكن بعد من تنفيذه.

ومن أعقد أجزاء الخلية الحية نواتها التي تعرف باسم «عقل الخلية» وتحتوي هذه النواة على عدد محدد من الصبغيات (Chromosomes) يعتبر عددها عاملاً محدداً لكل نوع من أنواع الحياة. وهذه الصبغيات هي جسيمات متناهية التعقيد في البناء حيث تتكون من تجمعات للحمض النووي غير المؤكسد على هيئة لفائف حلزونية مزدوجة الجانب (Double Helix) لا يتجاوز سمك الجدار في الواحدة منها واحداً من خمسين مليوناً من المليمتر، ويبلغ طوله إذا فرد حوالي المترين، ويبلغ حجمه وهو مكدس داخل الصبغي واحداً من المليون من المليمتر المكعب، وعلى ذلك فإنه إذا تم فرد الصبغيات الموجودة في جسم فرد واحد من البشر ورصها بجوار بعضها البعض فإن طولها يزيد عدة مرات عن متوسط طول المسافة بين الأرض والشمس وهي مقدرة بحوالي المائة وخمسين مليون كيلومتراً!

وكل واحد من الصبغيات (حاملات الوراثة) مقسم بعدد من العلامات المميزة إلى وحدات طولية تعرف باسم «المورثات» (Genes) وهي تتحكم في صفات الكائن الحي الذي تحمل خلايا جسده تلك المورثات.

وينقسم كل «مورث» (Gene) إلى عدد من العقد المتناهية في الضآلة تعرف باسم النويدات Nucleotides يتكون كل منها من زوج من القواعد النيتروجينية المستندة في كل جانب إلى زوج من جزيئات السكر والفوسفور تكوّن جداري اللفائف الحلزونية وتنتشر بينها القواعد النيتروجينية على هيئة درجات السلم الخشبي المتوازي الساقين، وكأنها حروف تكتب بها الشيفرة الوراثية التي تتكون من (6.2) بليون من القواعد النيتروجينية التي تستند على (12.4) بليون جزيء من السكر والفوسفات بمجموع (18.6) بليون جزيئاً في الخلية البشرية الواحدة. ولكل جزيء من هذه الجزيئات ولكل ذرة من ذراتة ذبذبات مستمرة تصدر أصواتاً خافتة أمكن تضخيمها وتسجيلها وكأنها تسبيح للخالق سبحانه وتعالى وتمجيد وذكر.

خامساً: تسبيح الذرات والجزيئات والعناصر والمركبات في صخور الأرض وجبالها:

من الجمادات: الجبال وصخورها، والمعادن المكونة لتلك الصخور والجزيئات والذرات المكونة لتلك المعادن، واللبنات الأولية المكونة لتلك الذرات، وكلها يسبح الله - تعالى - بلغته وأسلوبه وطريقته الخاصة به. وقد أمكن الاستماع إلى أصوات ذبذبات اللبنات الأولية للمادة في داخل الذرة.

وقد ورد ذكر تسبيح الجبال في القرآن الكريم ضمنياً مع تسبيح كل شيء ومع تسبيح ما في السمٰوات والأرض، كما ورد محدداً في آيتين كريمتين [الأنبياء: 79، صٓ: 18] وجاءت الإشارة إلى خشوع الجبل إذا أنزل عليه القرآن الكريم [الحشر: 21] وإلى سجود الجبال لله - تعالى - مع بقية أجزاء الكون، ومع كثير من الناس [الحج: 18]. وأشار القرآن الكريم إلى ترديد الجبال لتسبيح نبي الله داود - على نبينا وعليه من الله السلام - كما جاء في ثلاث من الآيات هي على التوالي: [الأنبياء: 79، صٓ: 18، سبإ: 10].

والجبال ليست كتلاً هامدة ولكنها تتحرك جانبياً بالتضاغط والتثني والطي، كما تتحرك رأسياً بالتصدع والرفع من أسفل إلى أعلى بواسطة مختلف قوى الأرض الداخلية، وبتأثير عوامل التعرية التي كلما أخذت من قممها ارتفعت إلى أعلى حسب قوانين الطفو، ويستمر هذا الارتفاع إلى أعلى حتى يتم خروج الامتدادات الداخلية للجبل بالكامل من نطاق الضعف الأرضي الموجود تحت الغلاف الصخري للأرض، وحينئذ تتوقف حركة الجبل وتأخذ عوامل التعرية في بريه تدريجيًّا حتى تظهر جذوره التي كانت مدفونة على سطح الأرض. والجبال تمر مع الأرض مر السحاب، وتترنح معها في دورانها حول محورها، وتجري معها في مدارها حول الشمس، ولعل هذه الحركات هي صورة من صور الخضوع بالعبادة، والطاعة، والتسبيح، والذكر، والسجود لله الخالق سبحانه وتعالى.

ويتحدث القرآن الكريم عن تكون الجبال من جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، وهي الألوان الأساسية للمعادن الرئيسية المكونة للجبال ولبقية صخور القشرة الأرضية. وتتكون الصخور من المعادن التي تتكون بدورها من العناصر ومركباتها، وتتكون العناصر من الجزيئات التي تتكون من الذرات، وتتكون الذرات من اللبنات الأولية للمادة المعروفة باسم الكواركات والهيدرونات، وتشكل بدورها كلاً من البروتونات الموجبة الشحنة والنيوترونات المتعادلة الشحنة في نواة الذرة التي يدور حولها عدد مكافئ من

الإليكترونات السالبة الشحنة. ويتحرك الإليكترون حركة مغزلية حول محوره وحركة مدارية حول النواة كما يقفز من مدار إلى آخر بسرعات مذهلة ترجح فناءه في مدار وإعادة خلقه في مدار آخر.

ونواة الذرة تبلغ في الحجم واحداً من مائة ألف مليون من المليمتر، بينما يبلغ حجم الذرة واحداً من عشرة ملايين من المليمتر، وتتركز كتلة الذرة في نواتها 99.95٪ من مجموع كتلة الذرة). وتقدر كتلة الإليكترون بواحد من ألفين من كتلة البروتون، وكل من البروتون والإليكترون يدور حول نفسه ـ أي: حول مركز كتلته ـ في حركة دائرية لا تتوقف ولا تتخلف حتى تفنى الذرة بالكامل. والجزيئات تنشأ عن اتحاد الذرات لتكوّن ما يسمى باسم المادة المكثفة وجسيمات هذه المادة المكثفة ليست فقط نقطاً هندسية ثابتة في صفحة السماء أو في جسم الأرض ولكن لها ذاتية الامتداد في الكون على هيئة موجات من الطاقة لكل منها طول موجي محدد وسرعة تردد محددة.

وللإليكترون في داخل الذرة خاصية الدوران المغزلي حول ذاته، ويشبه ذلك الحركة المغزلية للأرض في دورانها حول محورها، بالإضافة إلى الجري المداري حول النواة الذي يشبه جري الأرض في مدارها حول الشمس، وعلى ذلك فإن الإليكترون يتصرف ككتلة من الطاقة لها حركة مغزلية زاوية وحركة مدارية على هيئة كمية من المغناطيسية ولكلٍّ من هاتين الحركتين ما يصاحبها من طاقة حركة.

وكذلك فإن للجزيئات مستويات من الطاقة مرتبطة بكل من حركة الجزيء الدائرية ككل والحركة الاهتزازية للذرات بداخله، وينتج عن ذلك أطياف تحت حمراء مميزة لكل جزيء.

والأجسام الصلبة المتبلورة تترتب فيها الذرات في أشكال هندسية محددة تميز كل عنصر من العناصر وكل مركب من المركبات الكيميائية. والجزيئات ليست جامدة تماماً، لأن الرابطة بين الذرات المكونة لها هي رابطة متحركة تشبه الزنبرك، وكذلك الإليكترونات الموصلة بين مختلف الذرات فإنها تتحرك بحرية كاملة.

وانطلاقاً من ذلك فإن الجسيمات الأولية للمادة تهتز في داخل الذرة، والذرات تهتز في داخل الجزيئات، والجزيئات تهتز في داخل العناصر والمركبات المكونة للمادة، والمادة بمختلف أشكالها تتحرك في داخل أجساد كل الكائنات الحية وتهتز بترددات منتظمة في

داخل الجمادات، وينتج عن هذه الحركات المتعددة موجات صوتية ذات ترددات تختلف باختلاف تركيبها وتتجمع على هيئة كميات من الطاقة الاهتزازية التي تتذبذب بمقدار مليار ذبذبة في الثانية ـ في المتوسط ـ دون توقف أو تخلف أو انقطاع.

ولكل عنصر من العناصر ولكل مركب من المركبات موجاته الاهتزازية الخاصة به والتي تعتبر بصمة مميزة له ولغة خاصة به يعبر بها عن ذاته ويعبد بها ربه في تسبيح وتمجيد وذكر لا ينقطع. ولا يستطيع أحد في زمن التقدم العلمي والتقني الراهن تفسير مصدر الطاقة المحركة لجسيمات المادة على مختلف مستوياتها والمسببة لاهتزازاتها المنتجة للموجات الصوتية التي تميز كل صورة من صورها، والتي قد تكون لغة لها ووسيلة من وسائل عبادة خالقها وتسبيحه وتمجيده وتقديسه.

وقد ذكر القرآن الكريم تسبيح الرعد بحمد الله، والرعد ظاهرة جوية تنشأ عن تفريغ الشحنات الكهربائية، وهذا التفريغ صورة من صور التقاء اللبنات الأولية للمادة بما تحمله من طاقة وما تصدره من ذبذبات وأصوات، وكأنها تسبيح لله وتمجيد وعبادة وحمد وخضوع له ـ تعالى ـ بالطاعة.

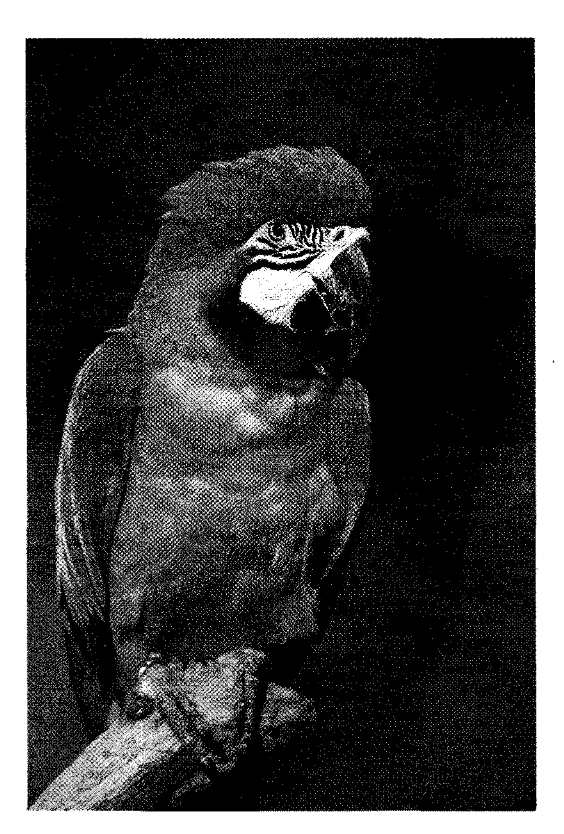
ومن رحمة الله بعباده أن أصوات الجمادات تبلغ من الضعف والخفوت ما يجعلها محجوبة عن آذان الخلق إلا بكرامة من الله ـ تعالى ـ وفضل منه، أو باستخدام تقنيات متقدمة للغاية، وشتان ما بين الوسيلتين، ولذلك جاء في الآية الكريمة التي نحن بصددها ما نصه:

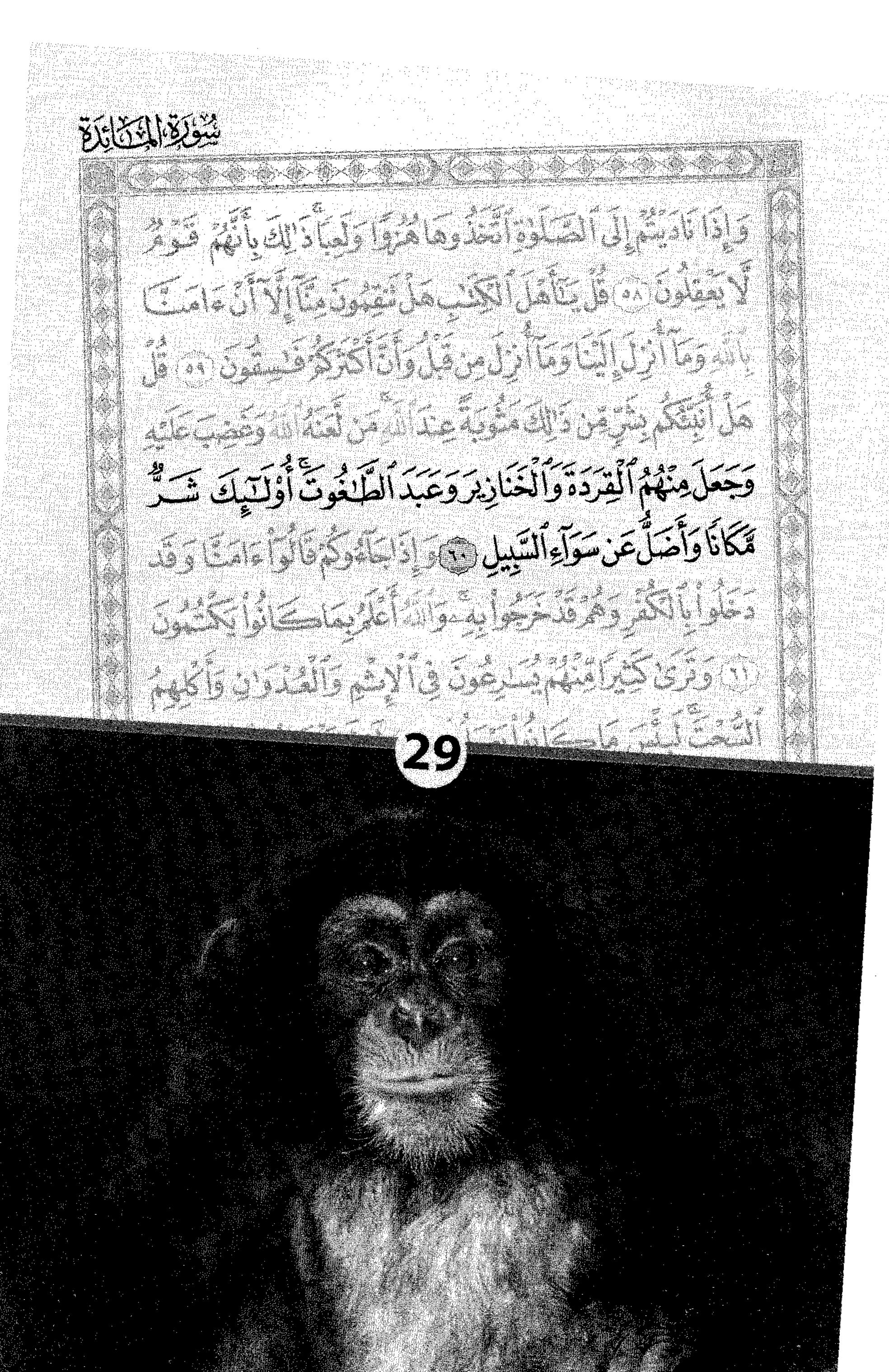
﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ «سورة الإسراء، الآية: 44».

حقاً إنها رحمة من الله ـ تعالى ـ أن حجب عنا تلك الأصوات وإلا لأصبحت الحياة جحيماً لا يطاق إذا تكاثرت الأصوات من حولنا وتداخلت دون توقف أو انقطاع، ولتعطلت قدرات الإنسان عن العمل أو التفكر أو التدبر أو العبادة أو النوم أو الراحة والاستجمام، بل لفقد الإنسان عقله إذا استمع إلى جميع ما في الوجود من حوله وهو يتكلم في وقت واحد: الجبل والحجر، والنبت والشجر، والمدر والوبر، ومختلف الحيوانات والنباتات، ومختلف أنواع والطعام والشراب، واللباس والمداس، والتراب

والغبار، والهواء والماء، والقمر والكواكب، والشمس والنجوم، وغير ذلك من صور الخلق إلى حركة الكون في مجموعه. وقد روى الإمام البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كطنين النحل وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم وعنا أجمعين ـ.

وهذه الحقائق قد بدأت المعارف المكتسبة في الوصول إلى شيء منها، وسبْقُ القرآن الكريم بالإشارة إليها لمِمَّا يشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد لرسول الله ﷺ الذي تلقاه بالنبوة والرسالة وبأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.





سورة المائدة
وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْقِلُونَ ٥٨ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ٥٩ قُلْ
هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ
وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد
دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ
٦١ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
29

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ «سورة المائدة، الآية: 60».

29



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في منتصف سورة «المائدة»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها مائة وعشرون بعد البسملة، وهي من طوال سورة القرآن الكريم، ومن أواخرها نزولاً، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى المائدة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ من السماء كرامة لعبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ويدور المحور الرئيسي لسورة «المائدة» حول التشريع الإسلامي، الذي أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من فوق سبع سمٰوات من أجل إقامة الدولة الإسلامية، وتنظيم مجتمعاتها على أساس من الأخوة الإنسانية المؤمنة بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى، وبوحدة رسالة السماء التي أكملها ربنا ـ تبارك اسمه ـ في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وتعهد بحفظها إلى يوم الدين، فحفظت حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وسوف تبقى محفوظة بحفظ الله كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في نفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ إلى يوم الدين، بينما تعرضت كل صور الوحي السابقة إلى الضياع التام، وعاش أتباع بعضها على ذكريات نقلت شفاهاً عبر عدة قرون حتى تمت صياغتها بأيدي نفر من الناس ليسوا برسل ولا بأنبياء، فصاغوها صياغة بشرية بكل ما للبشر من النقص والبعد عن الكمال، ولذلك ما زالت تتعرض للحذف والإضافة، والمراجعة تلو المراجعة، وإلى التحرير بعد التحرير، والتغيير بعد التغيير إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها. ومن هنا كانت ضرورة مرجعية كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة لكل مؤمن بالله، وبالبعث والحساب، وبالجنة والنار، وبالخلود في الحياة الآخرة.

وهذا التشريع الإلٰهي المنزل من السماء يؤكِّد حق الله ﷻ وحده في التشريع لعباده، لتفرده بالحاكمية المطلقة فوق جميع خلقه ـ بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، ومن هنا كانت أول بنود هذا التشريع هو عقد الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً. وهذا العقد هو القاعدة التي تقوم عليها سائر العقود في حياة المسلمين أفراداً وجماعات، بين العبد وربه، وبين العباد بعضاً لبعض. ومن هنا نصت السورة الكريمة على الوفاء بالعقود بكل صورها، وأشكالها، وأحجامها لأن الوفاء بها يعتبر وفاء لله ـ تعالى ـ الذي أنزل أوامره بها.

ويتخلَّل آيات التشريع في سورة «المائدة» تأكيد سمو العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد الخالص لله تعالى، وتنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، بغير تمييز ولا تفريق، واليقين بالأخوة الإنسانية التي لخصها المصطفى ﷺ بقوله الشريف: «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»[1]، والإيمان بالآخرة وما فيها من البعث والحساب والجنة والنار، وبالخلود في أي منهما، كل حسب عمله وحسب رحمة الله ـ تعالى ـ وفضله.

وتستعرض سورة «المائدة» قصص عدد من السابقين من أجل استخلاص الدروس والعبر، وتأمر المؤمنين بأن يكونوا ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وتبشرهم بالمغفرة والأجر العظيم، وتتهدَّد الكفار والمشركين الذين كذبوا بآيات الله وتنكروا لرسالته الخاتمة بأن مصيرهم إلى الجحيم. وتعرض لعقائد الكفار والمشركين، وترد عليها، وقد نسبوا إلى الله ـ تعالى ـ من الأوصاف والنعوت ما لا يليق بجلاله، ونقضوا العهود والمواثيق، وتنادي عليهم بنداءات تتكرر أكثر من مرة وذلك من مثل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ «سورة المائدة، الآية: 19».

ثم تعرض السورة الكريمة لعدد من الأحكام المتعلقة بحماية النفس، والمال، والملكيات الفردية، والمجتمعات الإنسانية، وبصيانتها من كل انحراف، وتؤكد قضية الولاء والبراء، وتدعو إلى تعظيم كلٍّ من الكعبة المشرفة، والأشهر الحرم، وإلى إنكار كل ما بقي من تقاليد الجاهلية ـ وما أكثرها في زماننا ـ.

---

(1) تقدم تخريجه.

وتختتم سورة «المائدة» بالتذكير بيوم القيامة، وبالإشارة إلى عدد من المعجزات التي أجراها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على أيدي عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم، ومنها إنزال المائدة التي سميت السورة باسمها، وانتهت إلى تبرئة كل من السيد المسيح وأمه الصديقة مريم ابنة عمران من فرية ادعاء ألوهيتهما، وكلاهما من عباد الله الصالحين، والله واحد أحد، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، وهو ﷻ منزه عن الصاحبة والولد.

وقد أسلفنا ذكر ما تحويه سورة «المائدة» من تشريعات إسلامية، وركائز في العقيدة، وإشارات علمية في فصل سابق، وسوف أقصر حديثي هنا على الذي جاء من دلالات علمية في الآية رقم (60) من هذه السورة المباركة، وقبل الوصول إلى ذلك أرى لزاماً عليَّ استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالتها اللغوية والمعنوية.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ :

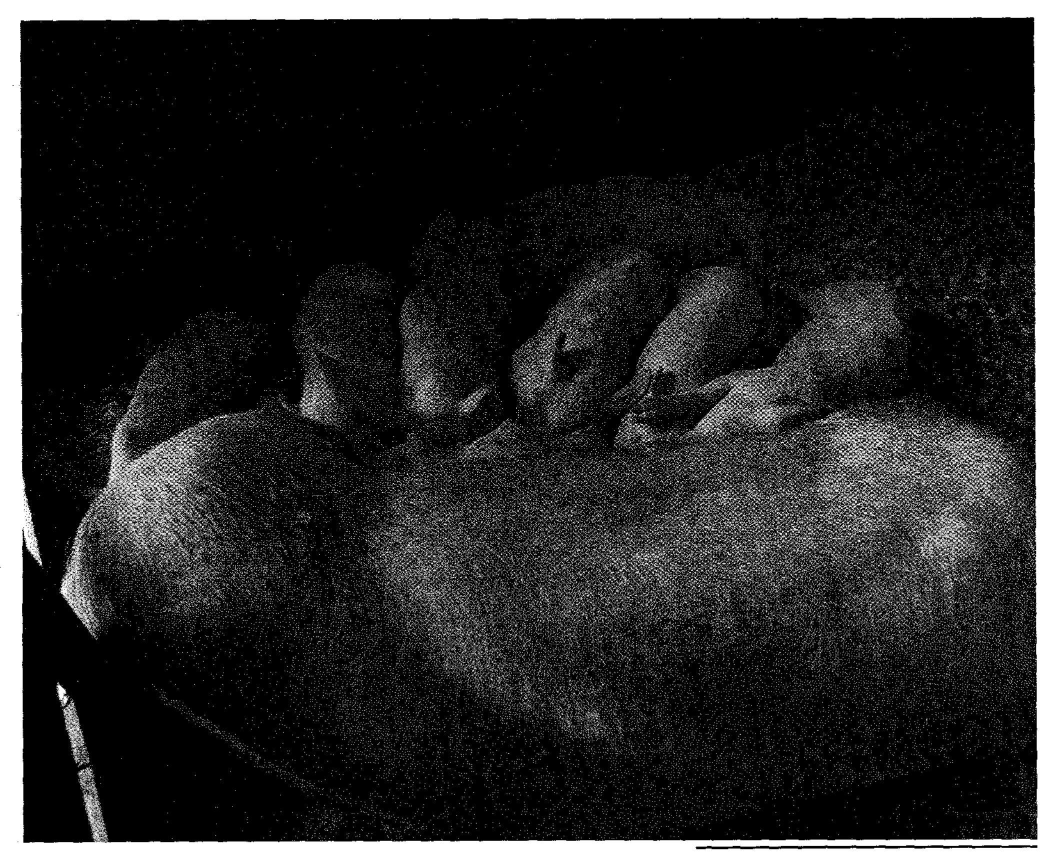
﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ «سورة المائدة، الآية: 60».

- ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ «سورة المائدة، الآية: 59»... ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعده من رحمته، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي غضباً لا يرضى بعده أبداً، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾... وقد قال سفيان الثوري عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله؟ فقال: «**إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك**»[1] وقال أبو داود الطيالسي عن ابن مسعود قال:

(1) أخرجه مسلم في كتاب: القدر (الحديث: 6712)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه.

سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي من نسل اليهود؟ فقال: «**إن الله ﷻ لم يلعن قوماً قط فمسخهم فيكون لهم نسلاً حتى يهلكهم، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله ﷻ على اليهود مسخهم فجعلهم مثلهم**»[1]. وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ وقرىء ﴿وعَبَدَ الطاغوتِ﴾ بالإضافة، على أن المعنى: وجعل منهم خدم الطاغوت أي خدامه وعبيده، والمعنى: يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي مما يظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة».

- وجاء في بقية التفاسير المتاحة لي كلام مشابه، لا أرى حاجة إلى إعادته.



(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه، والطبراني في «المعجم الكبير».

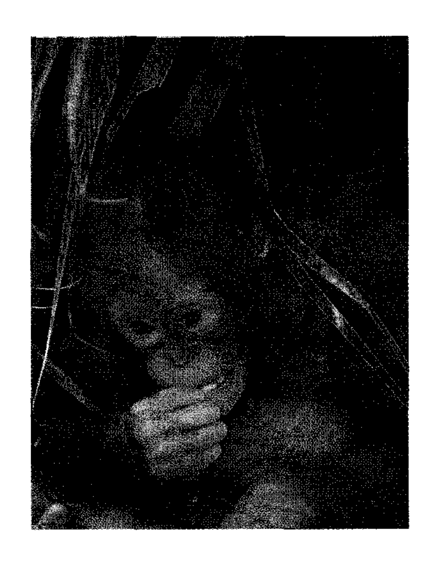


من الدلالات العلمية للنص الكريم

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ﴾:

جاءت الإشارة إلى مسخ العصاة من بني إسرائيل إلى القردة والخنازير في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم [البقرة: 65؛ المائدة: 60؛ الأعراف: 166] والقردة من الثدييات المشيمية التي تنسب إلى رتبة الرئيسيات (Order Primates) وتعيش متسلقة على الأشجار، وإن كان بعضها يحيا على اليابسة، وتتميز بكبر حجم الجمجمة، وتسطح الوجه، وبأقدامها ذات الأصابع الطويلة، وبالقدرة على التسلق بالتشبث بالأطراف، كما تمتاز بزوج من الأعين القوية الإبصار والموجودة في مقدمة الرأس. وأبسط الرئيسيات تركيباً وجدت بقاياها في صخور عهد الباليوسين (The Paleocene Epoch) أي منذ نحو ستين مليون سنة مضت، وتعرف باسم البروسيمات (Prosimii)، وهي حيوانات صغيرة الحجم تشبه القردة إلا في استطالة وجهها، وتبعتها فصيلة الكوبلديات (Tarsiers) في عهد الإيوسين (The Eocene Epoch) أي منذ نحو خمسين مليون سنة مضت، ثم فصيلة الليموريات (Lemurs, Family Lemuridae)، ثم فصيلة زبابات الشجر

(Tree Shrews, Family Tupaiidae)، ثم فصيلة القردة مسترخية الذنب (New world Monkeys, Family Cebidae) وفصيلة السعادين (Old World Monkeys, Family Cercopithecidaẽ) وفصيلة القردة الكبيرة الحجم (Apes, Family Pongidae)، ومنها الجبون (Gibbon)، والشيمبانزي (Chimpanzee)، والغوريللا (Gorilla)، والأورانج أوتان (Orangutan).



والقردة تسير عادة على أربعة أرجل، ولكن البعض منها يستطيع أحياناً السير بشكل شبه معتدل على رجلين فقط مما يعطي الطرفين الأماميين شيئاً من الحرية في الحركة من مثل التسلق على الأشجار، والتقاط الطعام وتناوله.

والقرود من الرئيسيات آكلة الأعشاب واللحوم (Omnivorous)، وتحيا غالباً فوق الأشجار في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية، وهي حيوانات تتمتع بقدر من الذكاء، وبقدرة على التعلم، ولكن القرد حيوان حاد المزاج، يتسم بالأنانية الشديدة، وبالخيانة والغدر، والميل إلى الاستغلال، وحب التملق، وعدم الوفاء وحب الرشوة.

ولذلك كان المسخ من مرحلة الإنسانية إلى مرحلة القردة يعتبر امتهاناً وإذلالاً وعقاباً من الله ـ تعالى ـ للعصاة من بني إسرائيل، كما روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي ذكر أنه لم يعش مسخ من الخلق فوق ثلاثة أيام أبداً، ولم يأكل، ولم يشرب، ولم ينسل. وقال مجاهد رحمه الله إن مسخهم كان مسخاً معنوياً لا صورياً، ولكن استناداً إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق ذكره فإن المسخ كان معنوياً وصورياً في آنٍ واحد، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وهو ـ سبحانه ـ أعلى وأعلم.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾:

وصف القرآن الكريم الخنزير بأنه رجس، وحرم أكله في أكثر من مقام [البقرة: 173؛

المائدة: 3؛ الأنعام: 145؛ النحل: 115] كما جاءت الإشارة إلى مسخ عصاة اليهود إلى القردة في ثلاث آيات [البقرة: 65؛ المائدة: 60؛ والأعراف: 166] وإلى القردة والخنازير في آية واحدة [المائدة: 60]، وهي الآية الكريمة التي نحن بصددها.

ولفظة **(رجس)** هي لفظة جامعة لكل معاني القذارة والقبح، والنجاسة والإثم، وذلك لأن الخنزير حيوان ضخم الجثة، كتلي الشكل، كريه المنظر، مكتنز اللحم والشحم، قصير الأرجل، طويل البوز، قوي الأنياب، له جلد سميك مغطى بشعر خشن قذر، وهو حيوان جشع، كسول، رمام، يأكل النبات والحيوان والقمامة والجيف، كما يأكل فضلاته وفضلات غيره من الحيوانات، وهذا من أسباب قيامه بدور كبير في نقل العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان. والخنزير من الحيوانات الثديية السرية (Placental Mammals) التي تلد وترضع صغارها، ولها حافر مشقوق يحمل عدداً زوجياً من الأصابع (أربعة أصابع). ولذلك يضم في مجموعة من الثدييات المشيمية تعرف باسم الحافريات زوجية الأصابع (Artiodactyla Or Even-Toed Ungulates)، وقد عمرت الأرض خلال الخمسين مليون سنة الماضية (من بدايات عهد الإيوسين أو فجر الحياة الحديثة إلى اليوم)، والخنازير تنفصل عن هذه المجموعة من الحيوانات لكونها رمامة وغير مجترة وقذرة.

وتضم الخنازير عدداً من الأنواع البرية والمستأنسة، والتي تجمع كلها في فصيلة واحدة تعرف باسم فصيلة الخنازير (Family Suidae)، ويسمى الذكر منها باسم «العفر» (Boar) وتسمى الأنثى باسم الخنزيرة (Sow) ، وهي من النوع الولود، والخنزير المخصي يعرف باسم «الحلوف» (Hog)، ويستعار اللفظ لوصف كل قذر، شره، أناني من البشر؛ وتستخدم لفظة (Swine) في الإنجليزية للتعبير عن الخنزير بصفة عامة ـ سواء كان ذكراً أو أنثى، مخصياً أو غير مخصيّ، مستأنساً أو غير مستأنس ـ، وتستعار هذه الكلمة كذلك لوصف كل فرد من بني البشر حقير النفس، بخيل اليد، قذر المظهر والملبس، متصف بالخيانة والجبن والغدر وبغير ذلك من أحقر الصفات، فإذا أطلقت على الأنثى كان لها من هذه الحقارة حظ وافر بالإضافة إلى وصفها بالمرأة الساقطة المجردة من كل فضيلة. لذلك كان مسخ العصاة من بني إسرائيل من مستوى الآدمية المكرمة إلى مستوى الخنازير القذرة المهانة عقاباً من الله ـ تعالى ـ لهم استحقوه على فجرهم وانغماسهم في المعاصي، وحربهم للإنسانية بالمؤامرات، والخيانات والغدر عبر التاريخ.

وقد جاء ذكر مسخهم في آيتين قرآنيتين أخريين غير الآية التي نحن بصددها يقول فيهما رب العالمين ما نصه:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝﴾ «سورة البقرة، الآية: 65».

- ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝﴾ «سورة الأعراف، الآية: 166».

وذكر سفيان الثوري رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي ممّا مسخ الله؟ فقال: «**إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك**»[1] وذكر أبو داود الطيالسي رحمه الله عن ابن مسعود كذلك أنه قال: سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي من نسل اليهود؟ فقال: «**لا، إن الله لم يلعن قوماً قط فيمسخهم فكان لهم نسلٌ، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم**».



(1) تقدم تخريجه.

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ «سورة المائدة، الآية: ٦٠»:

والمقصود بالتعبير القرآني ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ أي عبيده وخدامه، والطاغوت لغة هو كل مجاوز للحد في العصيان لله ـ تعالى ـ بعبادة الشيطان، أو الكاهن، أو عبادة كل رأس في الضلال مفرداً كان أو جمعاً، وإن كانت الكلمة تجمع على «طواغيت»، وكلّ معبود من دون الله طاغوت، وكل سلطان لا يستمد من سلطان الله هو طاغوت، وكلّ حكم لا ينبني على أساس من شريعة الله هو طاغوت، وكل عدوان يتجاوز الحق طاغوت، سواء كان ذلك في حق الله ـ تعالى ـ. بإنكار ألوهيته أو حاكميته أو وحدانيته، أو في حق العباد بالتآمر عليهم أو الغدر بهم، أو خيانة أماناتهم أو الاعتداء على دمائهم، أو أعراضهم، أو أموالهم، أو ممتلكاتهم، أو مقدساتهم أو أراضيهم...!!

ويهود اليوم والمتهودون فيه يمثلون ركازة الكفر عبر التاريخ، وعبادة الطاغوت في أقبح صورها.. لأن اليهود ما كانوا يتبعون أحد أنبيائهم لفترة من الفترات، حتى يكفروا به ويعودوا إلى الشرك بالله، وإلى عبادة الطاغوت، ولذلك حاربوا كل نبي بعث إليهم، وحرّفوا الرسالة التي أنزلت عليهم، ولذلك لعنهم القرآن الكريم، وكما لعنهم من قبل كل من داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام.

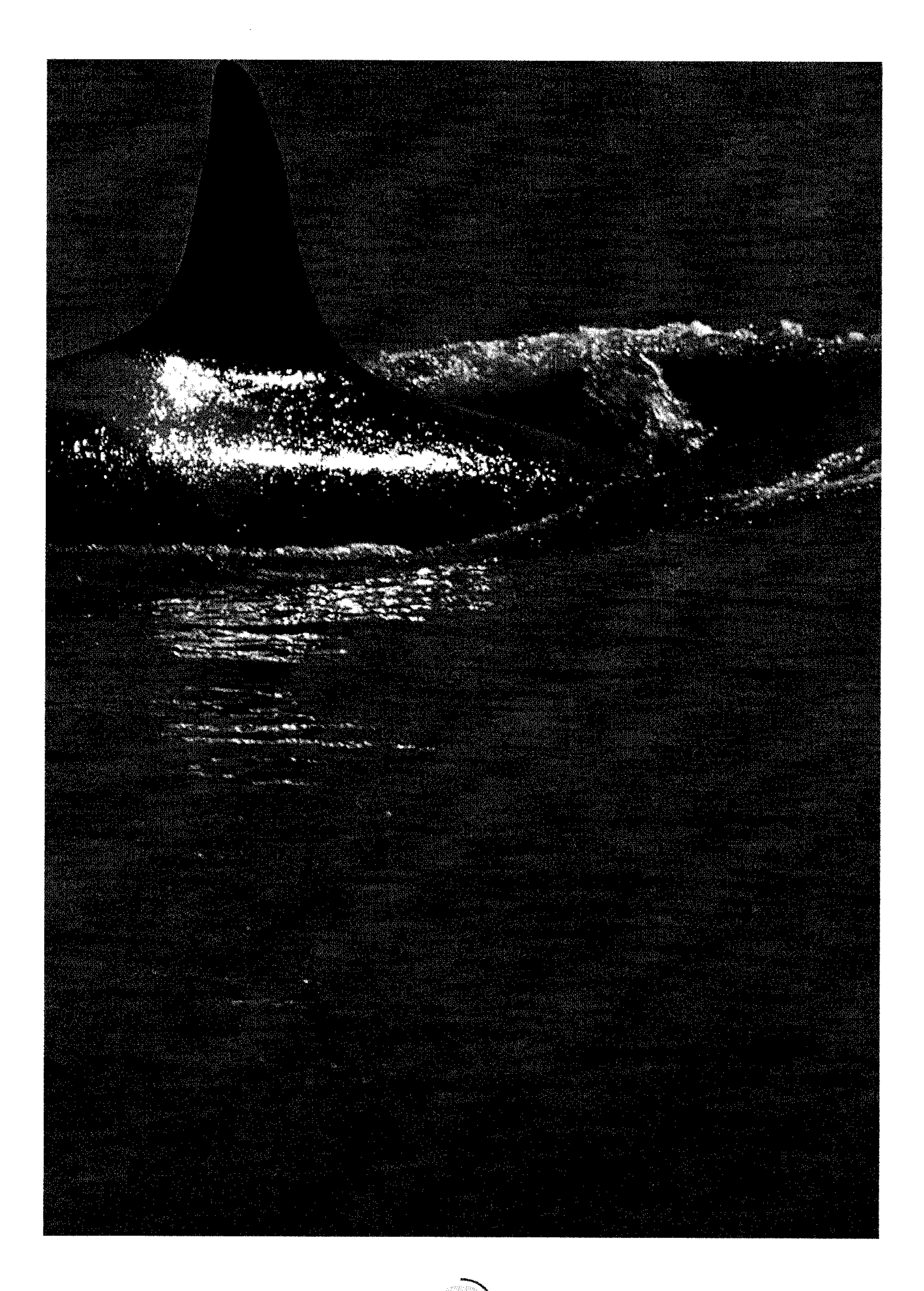
وحتى التوراة المحرفة التي يتداولونها بينهم اليوم، والتي اخترقوا بها كنائس الغرب والشرق تلعنهم، وأسفار العهد القديم تلعنهم وتصفهم بالغطرسة الفارغة، والاستعلاء الكاذب، ومحاربة كل صورة من صور الحق، ونبيهم موسى يلعنهم، وأسفار العهد الجديد تلعنهم، كما جاء القرآن الكريم بلعنهم وتحقيرهم، وذلك لأن اليهود كفروا بالله ـ تعالى ـ زمن نبيهم موسى عليه السلام فعبدوا العجل، وكفروا بالله من بعد موسى فحرفوا التوراة وباعوها قراطيس للناس واشتروا بها ثمناً قليلاً، وكفروا بالله على زمن أنبيائهم العديدين فقاتلوهم وقتلوهم عدواً بغير علم، وكفروا بالله على عهد نبي الله المسيح عيسى ابن مريم، فأنكروا نبوته، وشوهوا سمعته، وخاضوا في عرض أمه (شرفها الله) بكل اختلاق مشين، وأعلنوا عليه حروب الشياطين، ناوءوه وتآمروا عليه، وأغروا الرومان بصلبه لولا أن الله ـ تعالى ـ نجَّاه من بين أيديهم، ثم اندسوا بين حوارييه وأتباعه من أجل تحريف رسالته، وكفروا بالله على عهد خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم فنقضوا كل العهود والمواثيق التي أبرموها معه،

وألَّبوا القبائل ضده، وتآمروا مع الكفار والمشركين عليه، وحاولوا قتله وسمّه، ولكن الله ـ تعالى ـ نجَّاه من كل مؤامراتهم الخسيسة، وأغرقوا في الدسّ عليه بالإسرائيليات الكاذبة، ولكن الله تعالى تعهد بحفظ دينه الخاتم فحفظ.

وركازة الكفر هذه من غلاة اليهود والنصارى المتهودين اتخذت من محاربة قضية الإيمان بالله ـ تعالى ـ غاية لها في الحياة، ومن تحريف الدين وسيلة من وسائل الاستعلاء في الأرض، ومن التخطيط الشيطاني تحت الأرض، ومن كلٍّ من الجريمة والرذيلة وسوء الاستغلال حِرَفاً احترفوها عبر التاريخ فكرهتهم كل المجتمعات الإنسانية وأبغضتهم، ونبذتهم، واضطهدتهم، واعتبرتهم جنود الشيطان في الأرض وعبدة الطاغوت.

ولو لم ينزل في القرآن من حقائق الكون غير هذه الآية الكريمة لكانت كافية للشهادة له بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه بكل ما فيه من حق وصدق على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.





خاتمة

جاء ذكر عدد من حيوانات الأرض في حوالي مائة وأربعين آية من آيات القرآن الكريم، تناولنا منها في هذا الكتاب تسعة وعشرين آية بهدف الإشارة إلى ما جاء فيها من سبق علمي، أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في محكم كتابه من قبل أربعة عشر قرناً على نبي أُمي ﷺ، بعث في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي فترة من الزمن لم يكن ممكناً لأحد من البشر الوصول إلى معرفة شيء من هذه الحقائق لتقادم الزمن، وبساطة الحياة، وقِلّة أدوات المعرفة العلمية. بل ندرتها في وقت تنزل الوحي بالقرآن الكريم ولقرون متطاولة من بعده.

والآيات التي تناولناها هنا هي ما يلي:

1 ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم... ﴾ «الأنعام: 38»

2 ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ «النحل: 18»

3 ـ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ «النحل: 68»

4 ـ ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا... ﴾ «النحل: 69»

5 ـ ﴿... يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ... ﴾ «النحل: 69»

6 ـ ﴿... فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ «النحل: 69»

7 ـ ﴿... وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ «العنكبوت: 41»

8 ـ ﴿... وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ «الحج: 73»

9 ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ... ﴾ «البقرة: 26»

10 ـ ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ «القمر: 7»

11 ـ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ «القارعة: 4»

12 ـ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ... ﴾ «سبإ: 14»

13 ـ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ... ﴾ «البقرة: 57»

14 ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ... ﴾ «الأعراف: 133»

15 ـ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ «الغاشية: 17»

16 ـ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ «ص: 31 ـ 33»

17 ـ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ «لقمان: 19»

18 ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ «النحل: 66»

19 ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ «النور: 45»

20 ـ ﴿... فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث... ۝﴾

«الأعراف: 176»

21 ـ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ «النحل: 115»

22 ـ ﴿... وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ... ۝﴾ «المائدة: 3»

23 ـ ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝﴾ «الصافات: 142»

24 ـ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ... ۝﴾

«المائدة: 31»

25 ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ۝﴾

«الملك: 19»

26 ـ ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝﴾ «النمل: 20»

27 ـ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ... ۝﴾ «الإسراء: 44»

28 ـ ﴿... وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾

«الإسراء: 44»

29 ـ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝﴾ «المائدة: 60»

ومن الحقائق العلمية التي سبقت بها هذه الآيات القرآنية الكريمة جميع المعارف المكتسبة بقرون كثيرة ما يلي:

1 ـ التأكيد على حقيقة أن كل نوع من أنواع الحياة يمثّل أمّة من الأمم التي تجمعها صفات خارجية واحدة، وبنية تشريحية داخلية واحدة، ووظائف أعضاء واحدة، وبنية كيميائية حيوية واحدة، وصفات وراثية أساسية واحدة، وظروف بيئية متقاربة ـ وإن باعدت بينها المسافات الأرضية ـ وقدرة على التزاوج فيما بينها وإنتاج سلالة خصبة، وهذا ما توصلت إليه العلوم المكتسبة في القرنين التاسع عشر والعشرين.

2 ـ أن النمل كأمة من الأمم تحيا في جماعات منظمة، لها لغاتها الخاصة بها مع قدر من الذكاء والوعي والإدراك والشعور، وحسن الإدارة والتنظيم، وتوزيع المسؤوليات، ومعرفة الله ـ تعالى ـ والمداومة على تسبيحه، ومعرفة أنبيائه وتوقيرهم.

3 ـ كذلك النحل كأمة من الأمم تعيش في جماعات تقوم الإناث فيها بحمل مسئولية الجماعة فهي التي تبني خلاياها في الجبال أو الشجر أو فيما يعرش لها الناس، وهي التي تأكل من كل الثمرات: من رحائق الأزهار وحبوب اللقاح فيها ومن زيوتها وشموعها، لتفرز ـ بما وهبها الله تعالى من قدرات ـ ذلك الشراب المختلف الألوان الذي جعل الله ﷻ فيه شفاءً للناس. ومن هنا كان الخطاب في الآية الكريمة بالتأنيث والجمع. ويشمل هذا الشراب عسل النحل، غذاء ملكات النحل، شمع النحل، العكبر (صموغ النحل وغذاؤه)، سم النحل، خبز النحل، وغير ذلك من المكوّنات التي لم تكتشف بعد.

وقد أثبتت الدراسات العلمية أن عسل النحل مضاد حيوي قوي ومطهر ناجح في مقاومة البكتيريا، والفطريات والفيروسات، وفي تطهير مختلف أنواع الجروح

والتقرحات، وفي علاج العديد من الأمراض وفي الوقاية منها. وهذه الحقائق لم تكتشف مختبرياً إلا في خلال القرن العشرين.

4 ـ الإشارة إلى العنكبوت بالإفراد لأنه لا يحيا حياة جماعية، وبالتأنيث لأن أنثى العنكبوت هي التي تبني بيتها، وهي الحاكمة الآمرة فيه، ووصف هذا البيت بأنه ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ ينطبق على بنائه المادي من مجموعة خيوط حريرية متناهية الدقة تفصلها مسافات بينية كبيرة، كما ينطبق على البناء الاجتماعي لهذا البيت الذي تقضي فيه الأنثى على زوجها بمجرد إخصابه لها وذلك بقتله وافتراس جسده، كما أنها تلتهم صغارها في بعض الأحوال، والصغار قد يفترس بعضهم بعضاً في أحوال أخرى.

وهذه الحقائق لم تعرف إلَّا في خلال القرن العشرين. وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها من قبل أربعة عشر قرناً يعتبر صورة من صور الإعجاز العلمي في كتاب الله.

5 ـ تقرير أن الذباب يختلس ما يأخذه من أشربة وأطعمة اختلاساً، وينتزعه انتزاعاً رغم أنوف أصحابها، ولذلك عبر القرآن الكريم بالتعبير المعجز: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾. ثم قال: ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾ والذبابة المنزلية تمتص الشراب بواسطة خرطومها ليصل إلى جهازها الهضمي مباشرة الذي يقوم على الفور بهضمه وتمثيله تمثيلاً كاملاً ثم تُرسله إلى جهازها الدوري مباشرة، فلا يمكن استنقاذه بأي حال من الأحوال.

أما إذا كان الطعام صلباً فإن الذبابة المنزلية تفرز عليه عدداً من العصائر الهاضمة والإنزيمات مع لعابها الذي يذيبه في الحال وتمتصّه الذبابة في ثوان معدودة ومن ثم فلا يمكن استنقاذه ابداً. ثم أضافت الآية الكريمة قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿... ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ والطالب هنا هو المسلوب الذي سلبه الذباب

شيئاً من شرابه أو طعامه، والمطلوب هو الذباب السالب للشيء، وسواء كان المسلوب هو الفرد من بني الإنسان، أو هو الصنم أو الوثن المعبود من دون الله فكلاهما ضعيف ضعف الذبابة أو أضعف، وعاجز عن خلق خلية حيّة واحدة، فضلاً عن خلق ذبابة كاملة. وهذه الحقائق لم تصل إليها العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بها هو أمر معجز حقاً.

6 ـ إن ضرب المثل القرآني بالبعوضة وما فوقها يشمل كلاً مما فوقها حجماً، وما هو أقل منها، كما يشمل كلاً مما هو أشد منها خطراً وما هو أهون منها، ويؤكد خطر البعوضة في العديد من الأمراض، كما يؤكد أن أنثى البعوض هي وحدها دون ذكرها الناقلة للأمراض، وهي حقائق مستحدثة على العلوم المكتسبة التي لم تصل إلى معرفة شيء منها إلَّا في القرنين التاسع عشر والعشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها مما يشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه كلام الله الخالق.

7 ـ إن تشبيه القرآن الكريم خروج الناس من قبورهم يوم البعث بهيئة الجراد المنتشر هو تشبيه معجز، وذلك لخروج المبعوثين من القبور عرايا كما تخرج حوريات الجراد عارية بعد انسلاخها من جلدها عدة مرات لتصل إلى حجم الحشرة البالغة، التي تتحرك بعد ذلك في أسراب يصل عدد الجراد في الواحد منها إلى عشرات البلايين. ولو تخيلنا بعث بلايين البشر الذين عمروا الأرض من عهد أبينا آدم عليه السلام إلى اليوم، وبعث البلايين التي تعمر الأرض اليوم بعد أن يموتوا وكذلك بعث سلالاتهم إلى قيام الساعة لكان التشبيه بالجراد المنتشر تشبيهاً معجزاً لأنه لم يكن لأحد من الخلق إمكانية تصور ذلك في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده.

8 ـ كذلك فإن تشبيه خروج الموتى من القبور لحظة البعث بالفراش المبثوث الذي يخرج من شرانقه حيث يتحول جلد الشرنقة (الخادرة) إلى حالة نصف شفافة، ثم ينشق لتخرج عذارى الفراش بالبلايين إن لم يكن بمئات البلايين في

الوقت الواحد هو أمر معجز لأنه يشبه تماماً تشقق القبور عن أصحابها وبعث الموتى بمئات البلايين ليخرجوا من قبورهم في ذهول واستغراب واضطراب وحيرة.

9 - الإشارة إلى عدد من الحشرات التي تأكل الخشب تحت مسمى «دابة الأرض» ومنها ما يعرف باسم «ناقرات أو ناقرات الخشب» أو «القادح» ومنها «الأرضة» أو «القرضة»، ومنها «زنابير الخشب»، و«يرقات الخنافس»، و«سوس الأشجار»، و«نحل الخشب» أو «النمل الأبيض» وغيرها من الحشرات التي لم تكن معروفة في زمن الوحي ولا لقرون من بعده. وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها مما يشهد له بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية.

10 - الإشارة إلى إنزال (المن والسلوى) على نبي الله موسى ومن كانوا معه في تيه شبه جزيرة سيناء، و(المن) مادة صمغية حلوة لزجة كالعسل تتجمع على الأشجار من طلوع الفجر إلى شروق الشمس، ثم تجف فتتحول إلى مادة كالدقيق تكشط من فوق جذوع الشجر وفروعه وأوراقه، وتؤكل مباشرة، أو تذاب في الماء وتشرب على هيئة شراب حلو المذاق، ذي قيمة غذائية عالية.

وقد يتكون (المن) نتيجة لنزِّ العصارة الغذائية للنبات نزاً ذاتياً إلى أسطحه الخارجية ثم جفافها، أو نتيجة لجروح تحدثها الحشرات التي تعيش على امتصاص العصارة الغذائية للنبات من مثل حشرة المنِّ، وقد يكون من إخراج تلك الحشرات ذاتها. أما (السلوى) فهي الطائر المعروف باسم (السمان) أو (الحجل) وهو من الطيور المهاجرة التي تتحرك في مواسم محدّدة من السنة، والتي تصطاد لأكل لحمها الذي يعتبر من أطيب لحوم الطير على الإطلاق.

والجمع بين (المن) و(السلوى) هو كذلك أمر معجز لأنه جمع بين الكربوهيدرات النباتية بما فيها من سكريات ونشويات ممثلة في (المنِّ) وبين البروتينات الحيوانية ممثلة في (السلوى) وهي من أخف البروتينات وأيسرها هضماً مما يشكل وجبة غذائية كاملة للإنسان.

وهذه القضايا من المستجدات على العلوم المكتسبة، وهذه القضايا عرضها في القرآن الكريم بهذه الدقة العلمية من الأمور المستحقة للاهتمام والانتباه لأنه لم يكن لأحد من الخلق إلمام بها أو إدراك لها في زمن الوحي، ولا لقرون عديدة من بعده.

11 ـ التأكيد على أن كلاً من الطوفان والجراد والقمل، والضفاع والدم وغيرها من النوازل هي من جند الله التي يسخرها على من يشاء من عباده ـ كما سخرها على قوم فرعون ـ عقاباً للعاصين، وابتلاءً للصالحين، وعبرة للناجين. والطوفان قد يكون هادماً مدمراً ومغرقاً إغراقاً كاملاً، والجراد يتحرك في أسراب تغطي مساحة تزيد على ألف كيلومتر مربع، بكتلة تقدر بآلاف الأطنان، ويأكل مثل هذا السرب في اليوم الواحدة قدر وزنه من المزروعات فيجرد الأرض تجريداً من غطائها الخضري، ويؤدي إلى خسائر في الثمار والمحاصيل الغضة والأشجار بعشرات الملايين من الدنانير. أما (القمل) فهي حشرة ماصة لدماء كل من الإنسان والحيوان، وناقلة لأعداد من مسببات الأمراض من مثل ڤيروسات مرض التيفوس الوبائي، ومنها ما يعيش على قشور الجلد وأجزاء الشعر وريش الطيور ويحمل أيضاً العديد من مسببات الأمراض الأخرى. ومنها ما يدمِّر مخزون الحبوب والمحاصيل وينقل إليها العديد من الأمراض. أما (الضفادع) فنقيقها مزعج غاية الإزعاج لأنه يسمع عبر مسافات تقدر بعدة أميال مما يجعل الحياة معها مستحيلة، كما أنها حاملة لأعداد من الڤيروسات المسبّبة للعديد من الأمراض من مثل أمراض الكبد والكلى، وغيرها.

وكذلك (الدم) المسفوح الذي هو حامل فضلات وجراثيم الجسم، والذي يتعفّن وينتن بسرعة فائقة، ولذا يحرم طعامه، وإذا سلط على قوم أهلكم. والعقاب بهذه النوازل من الأحداث التاريخية القديمة وورودها في القرآن الكريم هو صورة من صور الإعجاز التاريخي لهذا الكتاب العزيز.

12 ـ إن للإبل من ضخامة أجسادها، وارتفاع قوائمها، وطول أعناقها، وارتفاع أسنمتها،

ووبرها السميك وجلدها الغليظ، وذيلها المغطى بالشعر الكثيف، وأخفافها، وكلكلها ما يوفر لها من مجال الرؤية الواسعة، وضخامة المخزون الغذائي والمائي، وغير ذلك من الصفات الشكلية والتشريحية ما يجعلها بحق «سفن الصحراء» التي تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وجميل الصنعة، وإتقان الخلق، ومن هنا كان التوجيه القرآني للنظر في كيفية خلقها من السبق العلمي في كتاب الله.

13 ـ ورد في القرآن الكريم وصف ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ لخيل نبي الله سليمان عليه السلام، وهو مدح للخيل واقفة (الصافنات)، وجارية (الجياد)، فإذا وقفت كان ذلك على ثلاثة قوائم وعلى طرف القائم الرابع، وذلك من علامات السكون والاطمئنان، والثقة بالنفس والخيلاء بما أفاء الله ـ تعالى ـ عليها من قوة، وجمال، وذكاء، وقدرات على الحس والإدراك، وإذا جرت كانت في عدوها سباقة راكضة، وهذه من المعارف التي بدأ البحث في علم سلوك الحيوان في التوصل إليها، كذلك أثبت علم سلوك الحيوان أن المسح بسوق الخيل وأعناقها يلعب دوراً مهماً في ترويضها وتطمينها، وإشعارها بالود والمحبة. من هنا فإن وصف القرآن الكريم لجياد سيدنا سليمان عليه السلام بـ (الصافنات الجياد)، ووصف تعامله معها بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ كان إلهاماً من الله ـ تعالى ـ لنبيّه سليمان ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ وسبقاً علمياً وتاريخياً لم يكن ذلك معروفاً لأحد من الخلق في زمن الوحي بالقرآن الكريم خاصة إذا قورن بما جاء عن هذه الواقعة في العهد القديم.

ثم إن الإشارة في الآيات القرآنية الكريمة التي تصف هذه الواقعة (سورة صَ، الآيات: 31 ـ 33) بالتأنيث ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ يؤكد دور أنثى الخيل في تدبير أمر جماعتها وهو من حقائق علم سلوك الحيوان التي لم تعرف إلا في أواخر القرن العشرين.

14 ـ التأكيد على ﴿... إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ وهي حقيقة علمية لم يصل إليها علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين في سلسلة من

دراسات شدة أصوات الحيوانات المختلفة جاءت بما يؤكد صحة ذلك حيث تصل شدة صوت الحمار إلى ما يتجاوز مائة ديسيبل، ويصل تردده إلى 350 هيرتز وهو أعلى تردد لصوت حيوان من الحيوانات التي تحيا على اليابسة، ومن أعلاها شدة. وذلك لأن شدة صوت الحوت الأزرق تصل إلى ضعف شدة صوت الحمار تقريباً (188 ديسيبل)، ولكن تردده أقل بكثير، ونظراً لعيشه في الماء فإن أغلب هذه الشدة يمتصها الماء المحيط به فلا يكاد الإنسان أن يسمع صوته إلا إذا رفع الحوت الأزرق رأسه فوق الماء، وإن كانت الحيتان يسمع بعضها بعضاً على بعد مئات الأميال في داخل كتلة الماء.

15 ـ التأكيد في القرآن الكريم على أن الله ـ تعالى ـ يخرج لنا اللبن في ضروع الحيوانات اللبونة (من بين فرث ودم)، والدراسات العلمية الحديثة أثبتت صدق ذلك حيث اتضح أن حركة الدم بين معدة الاجترار (المحتوية على الفرث) وبين باقي أجزاء جسم الحيوان من النعم حتى يصل اللبن إلى الضرع هي عملية أساسية في إنتاج اللبن، يتم خلالها ضخ حوالي خمسمائة لتر من الدم إلى الغُدد اللبنية في ضرع الحيوان من الأنعام الكبيرة كالإبل والبقر لتوفير المواد اللازمة من البروتينات، والكربوهيدرات، والدهون، والعناصر الفلزية وغير الفلزية، والڤيتامينات، والهرمونات اللازمة لرضعة واحدة أو لحلبة واحدة كاملة. والتي يستخلصها الدم من الفرث.

16 ـ وصف طرائق مشي الحيوانات على البطن، أو على رجلين أو على أربع وهي من وسائل تصنيفها المعتمدة من مختلف نظم التصنيف الحديثة للأحياء.

17 ـ التشبيه بـ (اللهث المستمر للكلب) في عدد من الأنفاس السريعة الضحلة التي يأخذها الكلب عن طريق فمه المفتوح، ولسانه المتدلي إلى الخارج وذلك من أجل تزويد جسمه بقدر كافٍ من الأوكسجين، وضبط كل من كمية الماء ودرجة الحرارة فيه، وتهويته في حالات الحر الشديد، والعطش الشديد، أو التعب والإعياء والإجهاد، أو المرض الشديد. والسبب في ذلك هو أن جسم الكلب لا يحمل غدداً

عرقيّة إلا في باطن أقدامه وهذه لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه، ولذلك يستعين الكلب بعملية (اللهاث) لتعويضه غيبة الغدد العرقية، وهو من الأمور المكتشفة حديثاً.

18 ـ تحريم أكل كل من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، والدراسات العلمية الحديثة تؤكد أضرار ذلك على صحة الإنسان. وكذلك تحريم أكل كل من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما أدركت ذكاته، وتحريم ما ذبح على النصب، والدراسات التحليلية الدقيقة لتلك اللحوم أثبتت خطر أكلها على الإنسان.

19 ـ وصف عملية التقاط الحوت لنبي الله يونس ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ بالتعبير القرآني المعجز ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ وذلك يشير إلى الحوت الأزرق ـ وهو أضخم حيوان عرف على سطح الأرض ـ، وهو عديم الأسنان، ولكن له عدد من الألواح القرنية تعرف باسم البالينات (Baleens) تتدلّى من جانبي فكه العلوي يصطاد بها مختلف صور الحياة الهائمة والسابحة من مثل صغار القشريات من عديدات الخلايا بالإضافة إلى الكائنات وحيدة الخلية والتي تدخل مع تيار الماء الواصل إلى فمه، والذي يخرجه من جانبي فكيه بعد أن يصفى ما فيه من مختلف صور الحياة الدقيقة. والحوت الأزرق يتنفس الهواء برئتيه فيضطر إلى الارتفاع برأسه فوق سطح الماء مرة كل (10) الى (15) دقيقة.

ولسعة فم الحوت الأزرق ومطاطية حلقه فإن ما يأخذه من الماء يصل إلى 50 م3 في المرّة الواحدة، ولضخامة جسده فإن لسانه يتَّسع لأكثر من خمسين رجلاً وقوفاً وفمه مغلق، ولضيق بلاعيمه فإنه لا يأكل إلا الكائنات الدقيقة والصغيرة ومن هنا كان الإعجاز القرآني في استخدام التعبير المحكم (فالتقمه الحوت) أي أنه أخذه لقمة في فمه لم يقضمه، ولم يبلعه، ولم يهضمه، حتى أمر الله ـ تعالى ـ له بالخروج فنبذه الحوت إلى الشاطئ.

والأصل في المعجزات أنها لا تعلل، ولكن يبقى هذا الوصف القرآني معجزاً

خاصة إذا ما قورن بما جاء في العهد القديم باللغتين الإنجليزية والعربية ومضاهاته بما جاء في القرآن الكريم.

20 ـ تقرير أن الله تعالى قال: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليرى قابيل ابن آدم ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ بعد أن قتله، والعلوم المكتسبة في مجال سلوك الحيوان تؤكد أن الغراب طائر شديد الذكاء، شديد الحذر، حاد الذاكرة، قوي الملاحظة، له قدرات على الاتصال بغيره، وعلى حل مشكلاته، وبناء مجتمعاته، وعلى التحايل لاختطاف الطعام، ولإخفائه، وتجهيزه، وعلى مهاجمة كل من الحيوان والإنسان والنبات.

وانطلاقاً من هذه الصفات اختار الله ﷻ الغراب ليكون معلم الإنسان لكيفية دفن موتاه بعد أول جريمة قتل لإنسان تقع على سطح الأرض.

21 ـ وصف طرائق طيران الطيور بكل من (الصف) و(القبض) وهي من أسس هندسة الطيران اليوم، ولم تكن معروفة قبل قرن واحد من الزمان، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها هو من صور الإعجاز العلمي فيه.

22 ـ الإشارة إلى اختيار نبي الله سليمان ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ لطائر (الهدهد) بالذات ليرسله إلى مملكة سبأ، وعلوم الحيوان وسلوكه تؤكد اليوم على مميزات هذا الطائر الكثيرة، والتي منها الذكاء، والأناقة، واليقظة والحذر، وسرعة الملاحظة، وقوة الذاكرة، وسعة الحيلة، والإيمان الفطري بالله ـ تعالى ـ والتسبيح غير الإرادي لجلاله، والقدرة على التعبير والفهم والحوار، وعلى الدعوة إلى توحيد الله الخالق باستمرار، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن قتله.

23 ـ التأكيد على أن الله ـ تعالى ـ قد مسخ الذين اعتدوا في السبت فجعل منهم القردة والخنازير، والعلوم المكتسبة تثبت أن هذين الحيوانين من أقذر وأحقر حيوانات الأرض، وإن كان الممسوخ لا ينسل رحمة من الله ـ تعالى ـ بعباده.

24 ـ القطع بتسبيح جميع المخلوقات لله ـ تعالى ـ والعلوم المكتسبة تثبت وجود أصوات متباينة لكل من الجمادات والنباتات والحيوانات توحي بشيء من ذلك.

هذه الآيات قاربت الثلاثين من بين أكثر من مائة وأربعين آية أشارت إلى عدد من حيوانات الأرض تم اختيارها هنا لتنوّع ما فيها من قضايا الحيوان، وسوف نحاول استكمال مناقشة بقية آيات الحيوان في مجلد آخر إن شاء الله ـ تعالى ـ وكان في العمر بقية.

ومثل هذه الإشارات العلمية في كتاب الله، وما فيها من حق، وصدق، وسبق، جاء منها في هذا الكتاب العزيز ـ القرآن الكريم ـ أكثر من ألف وأربعمائة آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى تقترب دلالاتها من الصراحة لتصف أعداداً من حقائق الكون، ومكوناته، وظواهره، وسنن الله الحاكمة له، وهذه الآيات لم تنزل إلينا من قبيل الإخبار العلمي المباشر وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد ترك مجال الكسب العلمي والتقني لاجتهادات الناس جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة انطلاقاً من محدودية إمكانات الإنسان، وللطبيعة التراكمية للمعارف العلمية والتقنية، ولعجز العقل البشري عن تقبل كليات القضايا العلمية دفعة واحدة لاحتياجه في ذلك الى النظر والاستقراء، وإلى التجربة والملاحظة والاستنتاج حتى يتفهم طبيعة الأشياء تفهماً مؤصلاً تأصيلاً سليماً.

والنظر في الآيات الكونية الواردة في كتاب الله يوضح لكل ذي بصيرة أنها جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، والقادرة على البعث، والشاهدة للخالق ﷻ بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه الذين خلقهم جميعاً في زوجية كاملة ـ من اللبنات الأولية لكل من المادة والطاقة إلى الإنسان ـ، كما يشهد له ـ تبارك وتعالى ـ بالمغايرة التامة لجميع خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «سورة الشّورىٰ، الآية 11».

وتبقى هذه الآيات الكونية في كتاب الله الخالق خطاباً لأهل عصرنا ـ عصر العلم

والتقنية الذي نعيشه ـ والذي فتن أغلب الناس فيه بالعلوم البحتة وتطبيقاتها فتنة كبيرة، خاصة في مجتمعات انحرفت عن منهج الله ـ تعالى ـ بعد أن فقدت صلتها بوحي السماء فتشوهت ركائز الدين في تصورات أفرادها وجماعاتها وقادتها تشوهاً صرفها عن فهم رسالة الإنسان في هذه الحياة: عبداً لله يعبده ـ تعالى ـ بما أمر، ويحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها، وحولهم الى وحوش كاسرة مستعلية بتقنيات الدمار الشامل لابتزاز بعضهم بعضاً وتطبيق شرائع الغاب على أهل الأرض. وهؤلاء الناس الذين وصفهم القرآن الكريم بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝﴾ «سورة الأنعام، الآية: 44».

وعلى الرغم من ذلك فإن إنقاذ هؤلاء الضالين واجب علينا قبل إفناء الحياة على الأرض، وقبل أن ينزل بهم عذاب الله، وهم ـ في ضلالهم ـ ما عادوا يؤمنون بغير ماديات هذه الحياة، فلم يعد يجدي معهم حوار الأديان، والحديث عن حقائق الموت، وحياة القبر، وحساب القبر، وهول البعث، وهول الحساب والميزان والصراط، وعدالة الجزاء في الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

لذلك فإن ربنا ـ المحيط علمه بكل شيء ـ أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة لغة الخطاب مع هؤلاء الضالين ألا وهي لغة العلم، وهي اللغة الوحيدة التي يفهمها أهل عصرنا. ومن هنا كانت ضرورة الاهتمام بالآيات الكونية في كتاب الله وإعادة تفسيرها باستخدام المعارف العلمية الحديثة وذلك من أجل فهمها فهماً صحيحاً في حدود الضوابط التي وضعت لذلك، وذلك لأن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه. وهذه الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً في إطار اللغة وحدها، على أهمية ذلك وضرورته.

وانطلاقاً من هذا الفهم الصحيح للآيات الكونية الواردة في كتاب الله يمكن لنا إثبات سبقها بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون التي لم يكن ممكناً لأحد من الناس الوصول

إليها في زمن الوحي بالقرآن الكريم ولا لقرون عديدة من بعده، ولا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً لهذه الحقائق في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي غير الله الخالق ﷻ وإذا وصلنا بعقلاء زماننا إلى هذا الفهم أمكن لنا توصيل الدعوة الإسلامية إليهم - في صفائها الرباني، وإشراقاتها النورانية -، والتي لم تعرض على عاقل باللغة التي يفهمها ورفضها أبداً، فإن لم يُسَلِّم بالإيمان بها أحنى رأسه إجلالاً لها، وتوقيراً للحق الذي تدعو إليه وتحمله.

والتبليغ عن الله ﷻ وعن خاتم أنبيائه ورسله - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - فريضة علينا نحن معشر المسلمين، قصرنا فيها تقصيراً كبيراً، وتركنا الساحة مفتوحة لغلاة كل من الحركة الصهيونية العالمية والصليبية الدولية ليملأوا صدور الخلق هلعاً من الإسلام والمسلمين، ومن إمكانية قيام أية صحوة أو وحدة إسلامية، وأصبح هَمُّ الإعلام في العالم كله هو الإساءة إلى الإسلام، وتشويه صورة المسلمين، وأصبح هَمُّ القيادات السياسية الكبرى في العالم التخطيط لغزو وإعادة احتلال بلاد المسلمين والتركيز على مختلف صور الاختلافات الدينية، والمذهبية، والعرقية من أجل مزيد من تفتيت المسلمين، والحيلولة دون وحدتهم ودون أية صحوة إسلامية حقيقية. وهذا بالضبط ما تفعله الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها اليوم في المنطقتين العربية والإسلامية، وتفعله كذلك دول الوحدة الأوروبية بمختلف أعضائها. ففي الوقت الذي اتحدوا فيه - على اختلاف أعراقهم، ومعتقداتهم، ومذاهبهم، ولغاتهم وعلى أنقاض تاريخهم المليء بالدماء والأشلاء والحروب انطلاقاً من حقيقة اجتماعية غدت واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار لكل ذي بصيرة مؤداها أنه لم يعد هناك مجال لتجمع بشري أقل من ثلاثمائة إلى أربعمائة مليون نسمة أن تكون له بصمة على مجريات الأحداث العالمية، بل عليه أن يحيا تابعاً ذليلاً للقوى الكبرى وما تمليه على مثله من تلك التجمعات البشرية الصغيرة من أوامر، وهذا بالضبط ما تفعله كل من الولايات المتحدة الأمريكية ومنظمة الوحدة الأوروبية في عالم اليوم.

وفوق تحويلنا إلى كنتونات متناثرة ضعيفة هزيلة يهيمن عليها الكيان الصهيوني الغريب الذي زرع بالقوة في قلب المنطقة العربية لإفسادها وتيسير الهيمنة الصهيونية/ الصليبية عليها

وعلى مقدراتها، خططت القوى الكبرى من أجل تخلفنا العلمي والتقني، والاقتصادي والسياسي والعسكري، والاستراتيجي، والإعلامي والتعليمي، وفي كل منحى من مناحي الحياة. وعلى الرغم من ذلك كله بقي بيدنا مفتاح القلوب وهو الدعوة إلى دين الله باللغة التي يفهمها أهل عصرنا وهي لغة العلم لإثبات أن القرآن الكريم بما يحويه من سبق علمي في أكثر من ألف آية قرآنيّة صريحة لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً ـ وحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظاً كاملاً: سورة سورة، وآية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بذلك الحفظ الدقيق إلى ما شاء الله ـ تعالى ـ حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى يوم الدين.

من هذا كله كان الاهتمام بكل من التفسير العلمي للآيات الكونية في كتاب الله، وبقضية الإعجاز العلمي لهذا الكتاب العزيز فهما طوق النجاة لأمة الإسلام في الزمن الصعب الذي نعيشه. وعلى الحكومات والمسئولين عن التربية والتعليم في عالمنا العربي والإسلامي، وعلى كل من الإعلاميين ورجال الأعمال إدراك أهمية هذا الأمر والإقبال على دعمه مادياً ومعنوياً، وفرضه على مناهج التعليم في مختلف مستوياتها، وتشجيع البحث العلمي للدرجات الجامعية العليا في هذين المجالين الهامين، وتأسيس المراكز البحثية الخاصة بهما قبل اجتياح بلادنا بجيوش الغزاة والمستعمرين الجدد الذين سرقوا أرض فلسطين ثم أراضي تركستان والشيشان وداغستان، ثم سبتة ومليلية وجزيرة ليلى في المغرب العربي بمؤامرات دولية حقيرة قادتها كل من بريطانيا وفرنسا وإسبانيا، وثبتتها من بعد كل من الاتحاد السوڤيتي السابق والولايات المتحدة الأمريكية. ثم احتلّوا كلاً من أفغانستان، ودول الخليج العربي والعراق ويخططون للمزيد من احتلال أراضي المسلمين انطلاقاً من إنكارهم لحقيقة أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمد ابن عبد الله هو خاتم أنبيائه ورسله، وطمعاً في نهب ثروات المسلمين من جديد. ومن الغريب حقاً أن يجند نفر من المنتسبين الى الأمتين العربية والإسلامية قلمه ولسانه لمهاجمة التفسير العلمي للآيات الكونية في كتاب الله وللطعن في قضية الإعجاز العلمي لكل من القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة إما جهلاً، أو

خيانة، أو عمالة، حتى أصبح هؤلاء مخلباً لأعداء الله يضاعفون به الطعنات في جسد الأمتين العربية والإسلامية وهم لا يشعرون بذلك. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ «سورة يوسف، الآية: 21» وصلى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

1 ـ **إبراهيم، محمد إسماعيل**: «القرآن وإعجازه العلمي» دار الفكر العربي ـ القاهرة.

2 ـ **إبراهيم، مدحت حافظ**: «الإشارات العلمية في القرآن الكريم» مكتبة غريب ـ القاهرة (1993).

3 ـ **أحمد، حنفي**: «التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن» ـ دار المعارف بمصر (454 صفحة) (1960م).

4 ـ **الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود شكري (ت 1270 هـ)**: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة (بدون تاريخ)؛ دار الفكر ـ بيروت (1398 هـ/ 1978م)؛ دار إحياء التراث العربي/ الحلبي/ مصر (ط 4) 1405هـ/ 1985م.

5 ـ **الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403هـ)**: «إعجاز القرآن» ـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1398 هـ/ 1978م (89 صفحة).

6 ـ **ابن أبي الإصبع، العدواني المصري**: «بديع القرآن» ـ القاهرة (1377هـ/ 1957م).

7 ـ **ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد بن حزم الظاهري**: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني، المطابع الأميرية ـ القاهرة (1397هـ/ 1977م).

8 ـ **ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد**: «المقدمة» ـ القاهرة (1322هـ/ 1904م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1419هـ/ 1998م)؛ دار الشعب ـ القاهرة بتحقيق د. علي عبد الواحد وافي (بدون تاريخ).

9 ـ **ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد**، «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» ـ بيروت (1379هـ/ 1959م) ـ (1381هـ/ 1961م).

10 ـ **ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت 224هـ)**: «فضائل القرآن»؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1411هـ/ 1991م).

11 ـ **ابن عاشور، محمد الطاهر**: «التحرير والتنوير في التفسير»، الدار التونسية للنشر ـ تونس (1391هـ/ 1971م)، (1404هـ/ 1984م).

12 ـ **ابن عبد السلام، العز**: «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز»، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

13 ـ **ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت 543)**: «أحكام القرآن»، مطبعة دار السعادة ـ القاهرة ـ (1331هـ/ 1912م).

14 ـ **ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت 546 هـ)**: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (نشر رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ـ الدوحة) (1398هـ/ 1978م)؛ دار الكتب العلمية (1413هـ/ 1993م) توزيع دار الباز بمكة المكرمة.

15 ـ **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774هـ)**: «تفسير القرآن العظيم» (4 أجزاء)؛ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة (ط 2)، (1373هـ/ 1954م).

16 ـ **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت 774هـ)**: «فضائل القرآن» ـ مطبعة المنار ـ (القاهرة 1327هـ/ 1909م).

17 ـ **أبو حيان الأندلسي، أبو عبد الله محمد بن يوسف**: «تفسير البحر المحيط» ـ مطبعة

دار السعادة ـ القاهرة ـ (1328هـ/ 1910م)، دار الفكر ـ بيروت (ط2) (1403هـ/ 1983م).

18 ـ **أبو خليل، شوقي**: «الإنسان بين العلم والدين»، مطبعة الإنشاء بدمشق (1970م) 271 صفحة.

19 ـ **أبو زهرة، محمد**: «المعجزة الكبرى»، دار الفكر العربي ـ القاهرة (1977م).

20 ـ **أبو السعود، محمد بن محمد العماري**: تفسير أبي السعود المعنون «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (جزءان)، المطبعة الأميرية ـ بولاق ـ القاهرة ـ (1275هـ/ 1858م).

21 ـ **الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403هـ)**: «إعجاز القرآن» ـ تحقيق السيد أحمد صقر، المطبعة السلفية، (القاهرة 1349 هـ/ 1930م)؛ دار المعارف ـ القاهرة (1391هـ/ 1971م). ومصطفى الحلبي (1398هـ/ 1978م)، وعالم الكتب ـ بيروت (1408هـ/ 1988م).

22 ـ **البغوي، أبو محمد الحسين**: تفسير البغوي المسمى «معالم التنزيل» ـ تحقيق خالد عبد الرحمٰن العك، ومروان سوار، دار المعرفة ـ بيروت (1406هـ/ 1986م).

23 ـ **البقاعي، برهان الدين بن عمر**: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة (ط 2)، (1413هـ/ 1992م)؛ دار الكتب العلمية ـ بيروت (1415هـ/ 1994م).

24 ـ **بن نبي، مالك**: الظاهرة القرآنية، دار الفكر ـ بيروت 1968م (364صفحة).

25 ـ **بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمٰن)**: «الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية، لغوية وبيانية»، دار المعارف (1393هـ/ 1973م)، الطبعة الثانية (1404هـ/ 1984م)، الطبعة الثالثة (1407هـ/ 1987م).

26 ـ **بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمٰن):** «التفسير البياني للقرآن الكريم» (في جزأين) ـ دار المعارف ـ القاهرة (1382هـ/ 1962م).

27 ـ **بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمٰن):** «القرآن والتفسير العصري» دار المعارف ـ القاهرة 1390هـ/ 1970م، (175 صفحة).

28 ـ **البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي:** «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (جزءان)، المطبعة العثمانية ـ القاهرة (1305هـ/ 1910م).

29 ـ **البيومي، محمد رجب:** «البيان القرآني» ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة (1421 هـ/ 2001م).

30 ـ **التجيبي، أبو يحيى محمد بن صمادح:** «مختصر تفسير الإمام الطبري» ـ دار الفجر الإسلامي ـ دمشق (1422هـ/ 2001م).

31 ـ **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ):** «الحيوان»: تحقيق عبد السلام محمد هارون؛ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ دار الرفاعي بالرياض (1403هـ/ 1983م).

32 ـ **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ):** «الحيوان»: تحقيق عبدالسلام محمد هارون؛ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ومكتب الهلال ـ بيروت.

33 ـ **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن (ت 471هـ):** «دلائل الإعجاز»، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجي ـ القاهرة (ط 2)، مطبعة المنار ـ القاهرة (1331هـ/ 1912م)، أعيدت طباعته بواسطة دار المعرفة ـ بيروت 1398هـ/ 1978م، وبالاتفاق بين مكتبتي الخانجي والأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب (1420هـ/ 2000م).

34 ـ **الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن (ت 471هـ):** «الرسالة الشافية في إعجاز القرآن» نشرت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله

أحمد، ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة (1411هـ/ 1991م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

35 ـ **الجسر، نديم**: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن»، توزيع دار العربية ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة (1389هـ/ 1969م). منشورات المكتب الإسلامي ـ بيروت (الطبعة الأولى: 1380هـ/ 1961م).

36 ـ **جوهري، طنطاوي (ت 1359هـ/ 1940م)**: «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» (المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات) ـ (في 26 جزءاً، 13 مجلداً) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ (1340هـ/ 1920م) (الطبعة الثانية: شوال 1350هـ/ 1931م).

37 ـ **الحفني، عبد المنعم محمد (1421هـ)**: «من أوجه الإعجاز العلمي في عالم النحل»؛ هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة، رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة، 75 صفحة.

38 ـ **الحمصي، نعيم**: «فكرة إعجاز القرآن»، مؤسسة الرسالة، بيروت (1980م).

39 ـ **حوى، سعيد**: «الأساس في التفسير» ـ دار السلام: القاهرة، حلب، بيروت (1405هـ/ 1985م).

40 ـ **الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي**: تفسير الخازن المعنون «لباب التأويل في معاني التنزيل» وبهامشه تفسير البغوي (في 7 أجزاء)، المطبعة الأميرية ـ القاهرة (1231/ 1232هـ) الموافق (1815/ 1816م). أعاد طباعته كل من دار المعرفة، ودار الفكر ـ بيروت.

41 ـ **الخطابي، أبو سلمان حمد محمد بن إبراهيم (ت 388هـ)**: «بيان إعجاز القرآن» مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، الخطابي، والجرجاني بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة (1411هـ/ 1991م)، ونشرت هذه الرسائل في سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

42 ـ **خليفة، محمد محمد**: «مع آيات الله في كتاب الله» مكتبة النهضة المصرية (1983م).

43 ـ **دراز، محمد عبد الله**: «النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن»، القاهرة (1376هـ/ 1957م)، دار القلم (الكويت) 1405هـ/ 1984م.

44 ـ **الذهبي، محمد حسين**: «التفسير والمفسرون»، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة (الطبعة الثانية: 1396هـ/ 1976م).

45 ـ **الراجحي، عبد الغني**: «الأرض والشمس في منظور الفكر الإسلامي»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر (1981م).

46 ـ **الرازي، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت 606هـ)** تفسير الرازي أو التفسير الكبير المسمى «مفاتيح الغيب» (في 8 مجلدات)، المطبعة البهية ـ القاهرة (1307/ 1321هـ) الموافق (1889/ 1903م)، أعادت طباعته كلٌّ من دار الكتب العلمية ـ طهران (1411هـ/ 1990م)، ودار الفكر ـ بيروت (1415هـ/ 1995م).

47 ـ **الرازي، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت 606هـ)**: «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» تحقيق أحمد السقا (1992م) دار الجيل ـ بيروت.

48 ـ **الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ)**: بترتيب السيد محمود خاطر ـ الطبعة العاشرة) الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (1384هـ/ 1964م).

49 ـ **الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت 503هـ)**: «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم» ـ تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي (1392هـ/ 1972م).

50 ـ **الرافعي، مصطفى صادق**: «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»؛ المكتبة التجارية ـ مصر (1961،1965م).

51 ـ **رضا، محمد رشيد**: «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» ـ دار المنار/ القاهرة (1373هـ/ 1953م)؛ دار المعرفة ـ بيروت (1414هـ/ 1994م).

52 ـ **الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386هـ)**: «النكت في إعجاز القرآن» طبع ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة (1411هـ/ 1991م) صدرت تحت عنوان «من ذخائر العرب».

53 ـ **الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت 386هـ)**: «معاني الحروف» تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر ـ القاهرة (1973م).

54 ـ **الزرقاني، محمد بن عبد العظيم (ت 1367هـ)**: «مناهل العرفان في علوم القرآن» (في جزأين) (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه/ دار إحياء الكتب العربية (1362هـ/ 1943م).

55 ـ **الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر (ت 794هـ)**: «البرهان في علوم القرآن» ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (في أربعة أجزاء)، دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبي ـ القاهرة، (1376هـ/ 1957م)؛ أعادت طباعته دار المعرفة ـ بيروت (1391هـ/ 1972م).

56 ـ **الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538)**: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» ـ (في أربعة أجزاء) ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر (1354هـ/ 1935م)، (1367هـ/ 1948م)، (1393هـ/ 1972م).

57 ـ **الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد عبد الكريم (ت 651هـ)**: «البرهان الكاشف في إعجاز القرآن»، تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور أحمد مطلوب ـ مطبعة العاني ـ بغداد 1394هـ/ 1984م.

58 ـ **السعدي، عبد الرحمٰن بن ناصر**: «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (1398هـ/ 1978م).

59 ـ **سعيد، عبد الستار فتح الله**: «المدخل إلى التفسير الموضوعي»، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (الطبعة الثانية: 1411هـ/ 1991م).

60 ـ **السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت 626هـ)**: «مفتاح العلوم»، 1937م ـ مطبعة الحلبي ـ مصر.

61 ـ **سليمان، أحمد محمود**: «القرآن والعلم» دار المعرفة (1968م)، دار الكتاب العربي ـ طرابلس (1974م) (173 صفحة).

62 ـ **سيد الأهل، عبد العزيز**: «من إشارات العلوم في القرآن الكريم» دار النهضة الحديثة ـ بيروت ـ لبنان 1392هـ/ 1972م (173صفحة).

63 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911هـ)**: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (في ستة أجزاء) مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر (1314هـ/ 1896م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1403هـ/ 1983م).

64 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911هـ)**: «الإتقان في علوم القرآن» وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة التجارية (الطبعة الأولى: 1360هـ/ 1941م)، مصطفى الحلبي (الطبعة الرابعة: 1398هـ/ 1978م)، مكتبة دار التراث ـ القاهرة (الطبعة الخامسة: 1405هـ/ 1985م).

65 ـ **السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن كمال الدين ـ أبو بكر الأسيوطي أو السيوطي (ت 911هـ)**: معترك الأقران في إعجاز القرآن» تعليق أحمد شمس الدين (1988م) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

66 ـ **شاكر، محمود**: «فصل في إعجاز القرآن» مقدمة الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي (1987م) دار الفكر ـ دمشق.

67 ـ **شحاته، عبد الله**: «آيات الله في الكون تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (1422هـ/ 2002م).

68 ـ **الشحات، علي أحمد علي، أحمد الوصيف، صادق نعمان (1421هـ)**: «من أوجه الإعجاز العلمي في اللبن ومكوناته»؛ هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة ـ رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة، 56 صفحة.

69 ـ **شرباتي، محمد سليم**: «تعريف التعريف بالتفسير العلمي»، دار المنهل ـ دمشق (2003م). (41 صفحة).

70 ـ **الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني**: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، مطبعة المدني بالرياض (1386هـ/ 1966م).

71 ـ **الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت 1250هـ)**: «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر (1340هـ/ 1920م)، (1349هـ/ 1930م)، دار الفكر ـ بيروت (1393هـ/ 1973م)، (1403هـ/ 1983م).

72 ـ **صالح، عبد المحسن**: «ومن كل شيء خلقنا زوجين»، عكاظ (1404هـ/ 1984م) (207 صفحة).

73 ـ **الصابوني، محمد علي**: «مختصر تفسير ابن كثير» (في ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم ـ بيروت (1402هـ/ 1981م).

74 ـ **الصابوني، محمد علي**: «صفوة التفاسير» (في ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم ـ بيروت (1402هـ/ 1981م).

75 ـ **طبارة، عفيف عبد الفتاح**: «روح الدين الإسلامي»، دار العلم للملايين 1397هـ/ 1977م (480 صفحة).

76 ـ **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ)**: تفسير الطبري المعنون «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، تحقيق محمود شاكر وأحمد محمد شاكر، المطابع الأميرية ـ بولاق ـ القاهرة (في 15 مجلداً)، ودار المعارف ـ القاهرة (1321هـ/ 1903م)، ثم طبعات تالية من نفس الدار (1358هـ/ 1939م)، (1373هـ/ 1953م)، (1415هـ/ 1995م)، (1420هـ/ 1999م)، ثم طبعة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (1388هـ/ 1968م)، وطبعة دار الفكر ببيروت (1398هـ/ 1978م)، وطبعة دار الحديث بالقاهرة (1407هـ/ 1987م).

77 ـ **الطوبي، محمد رشاد (1989م)**: «... فمنهم من يمشي على بطنه...» سلسلة اقرأ [546] دار المعارف ـ مصر ـ 133 صفحة.

78 ـ **عارف، أبو الفداء محمد عزت محمد (1998م)**: «شجرة المعجزات: التمر وفوائده الطبية»، دار الاعتصام.

79 ـ **عبد الباقي، محمد فؤاد**: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، دار ومطابع الشعب ـ القاهرة (1364هـ/ 1945م).

80 ـ **عبد الجبار، القاضي**: «المغنى» وزارة المعارف المصرية.

81 ـ **عشري، عبد المنعم السيد**: «تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم»، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1985م).

82 ـ **العك، خالد عبد الرحمٰن**: «أصول التفسير لكتاب الله المنير»، مكتبة الفارابي ـ دمشق (1388هـ/ 1968م).

83 ـ **العمري، أحمد جمال**: «مفهوم الإعجاز القرآني (حتى القرن السادس الهجري)» دار المعارف بمصر (1984م).

84 ـ **عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي**: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، دار الكتب العلمية بيروت.

85 ـ **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ)**: «إحياء علوم الدين»، المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة (1331هـ/ 1912م)؛ دار المعرفة ـ بيروت؛ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (1377هـ/ 1957م).

86 ـ **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ)**:«جواهر القرآن»، مكتبة الجندي ـ القاهرة (1384هـ/ 1964م)؛ الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (1401هـ/ 1981م).

87 ـ **غنيم، كارم السيد (1989)**: «عجائب العنكبوت: دراسة في القرآن والتراث والعلم الحديث»، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 112 صفحة.

88 ـ **الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت 207هـ)**: «معاني القرآن»، تحقيق النجاتي، مطبعة دار الكتب المصرية (1374هـ/ 1955م).

89 ـ **القاسمي، محمد جمال الدين**: «محاسن التأويل»، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة (1376هـ/ 1957م)، تعليق وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي.

90 ـ **القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت 671م)**: تفسير القرطبي المسمى بـ «الجامع لأحكام القرآن» (في 20 مجلداً) دار الكتب المصرية (1352هـ/ 1933م)، (1358هـ/ 1939م)، (1370هـ/ 1950م)؛ (1387هـ/ 1967م)؛ دار الفكر ـ بيروت (1415هـ/ 1995م).

91 ـ **القطان، مناع خليل**: «مباحث في علوم القرآن»، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة (1402هـ/ 1982م).

92 ـ **قطب، سيد**: «في ظلال القرآن»، (في ستة مجلدات)، دار الشروق، بيروت (1393هـ/ 1973م).

93 ـ **قطب، سيد**: «التصوير الفني في القرآن»، مكتبة وهبة ـ القاهرة (1369هـ/ 1949م).

94 ـ **الكرماني، محمد بن حمزة**: «البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان» تحقيق ناصر بن سليمان العمر ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض.

95 ـ **كنعان، محمد أحمد**: «قرة العينين على تفسير الجلالين» المكتب الإسلامي: بيروت، دمشق (1404هـ/ 1984م).

96 ـ **لجنة القرآن والسُّنَّة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ ج.م.ع**: «المنتخب في تفسير القرآن الكريم»، (الطبعة الثالثة 1393هـ/ 1973م). المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ ج.م.ع. القاهرة.

97 ـ **محمود، مصطفى**: «من أسرار القرآن» مؤسسة أخبار اليوم ـ القاهرة (1976م).

98 ـ **محمود، مصطفى**: «القرآن محاولة لفهم عصري»، دار الشروق (303 صفحات).

99 ـ **مخلوف، حسنين محمد**: «صفوة البيان لمعاني القرآن» من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت الطبعة الثالثة (1407هـ/ 1987م).

100 ـ **المراغي، أحمد مصطفى**: «تفسير المراغي» ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (1405هـ/ 1985م).

101 ـ **مسلم، مصطفى**: «مباحث في التفسير الموضوعي» دار القلم ـ دمشق، بيروت ـ الطبعة الأولى (1410هـ/ 1990م).

102 ـ **مسلم، مصطفى**: «مباحث في إعجاز القرآن» ـ دار المنارة ـ جدة (1408هـ/ 1988م).

103 ـ **المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد:** «خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية» مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ 1413هـ/ 1992م).

104 ـ **النجار، زغلول راغب محمد:** «سلسلة من آيات الإعجاز العلمي» الأجزاء 1 ـ 6 (942 صفحة) ـ دار الشروق الدولية (1422/ 1426هـ / 2001/ 2005م).

105 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد:** «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز»؛ كليات رسائل النور (5) دار سوزلر للنشر ـ إستانبول 1414هـ/ 1994م تحقيق إحسان قاسم الصالحي، (335 صفحة).

106 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد:** «من الآيات الكونية في القرآن الكريم»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (1380هـ/ 1961م) (104 صفحة).

107 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد:** «الدين والعلم»، دار ومطابع الشعب (1964م) (189 صفحة).

108 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد:** «الله والعلم الحديث»، دار الشعب ـ القاهرة ـ (228 صفحة) (1982م).

109 ـ **النورسي، بديع الزمان سعيد:** «الآيات العلمية» مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

110 ـ **نوفل عبد الرزاق (1989م):** «علم وبيان في تفسير القرآن»، أخبار اليوم (191 صفحة).

ثانياً: الكتب الأجنبية المترجمة:

111 ـ **بوكاي، موريس:** «القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» ـ دار المعارف ـ القاهرة (1398هـ/ 1978م).
(Maurice Bucaille (1976) «La Bible, le Coran et la Science», Editions Seghers, 6, Place Saint-Sulpice, 75006 Paris.

112 ـ **مونسما، چون كلوڤر (مشرف على التحرير)**: «الله يتجلى في عصر العلم» ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندي، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ القاهرة.

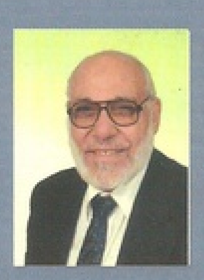
(The Evidence of God in an Expanding Universe: edited by: John Clover Monasma; 1958; Published by G.P. Putnam's & Sons, New York).

113 ـ **جولدزبي، ريتشارد أ. (1980م)**: «علم الحياة» ترجمة الدكتور عدنان علاوي وآخرين، مجمع اللغة العربية ـ عمان ـ الأردن.

Goldzbi, Richard A. (1980): Biology.

ثالثاً: الكتب الأجنبية:

- Curtis, H. and Barnes, N.D. (1989): «Biology»; Worth Publishers, New York, 1280p.



الدكتور زغلول راغب محمد النجار

أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والغربية
زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها
ورئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية
بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة



للطباعة والنشر

هاتف: 834301 - 834332 - 858830(01) فاكس: 835614(01)

ص.ب: 11/7876 بيروت ـ لبنان ـ البريد الإلكتروني e.mail: info@marefah.com

http://www.marefah.com

ISBN 9953-85-016-X

9 789953 850160 >